بلزاك

الملهاة الانسانية



أوهام ضائعة

(ثلاثية)

الرواية الثانية

رجل كبير من المقاطعات في باريس

دراسات طبائع

مشاهد من حياة المقاطعات

ترجمة

ميشيل خوري

روايات بلزاك ٣٥

بلــــزاك

الملهـاة الإنســانية

أوهام ضائعـة

(ثـلاثيــة)

الـروايـة الثانيـة

رجل كبير من المقاطعات في باريس

دراسة طبائع

مشاهد من حياة المقاطعات

ترجمة: ميشيل خوري

منشـــورات وزارة الثقــافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠١

العنوان الأصلي للكتاب:

BALZAC

La Comédie humaine

ILLUSIONS PERDUES

(Trilogie)

Deuxième Roman: UN GRAND HOMME DE PROVINCE À PARIS

Etudes de Mœurs

Scènes de la Vie de Province

الملهاة الإنسانية = La Comedie Humaine/ بلزاك؛ ترجمة ميشيل خوري ٠- دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠١ ٠- ٢ ج؛ ٢٤ سم ٠- (روايات بلزاك؛ ٣٥).

المحتوى: أوهام ضائعة. الرواية الثانية: رجل كبير من المقاطعات في باريس

١- ٨٤٣ ف ب ل ز م ٢- العنوان (١) ٣- العنوان الموازي

٤- العنوان (٢) ٥- بلزاك ٦- خوري ٧- السلسلة

مكتبة الأسد

الإيداع القانوني: ع - ٢٠٠١/٣/٣١٢

روايات بلزاك

«٣٥»

مقدمة الطبعة الأولى

لرواية: رجل كبير من المقاطعات في باريس

معدّة من بلزاك «العام١٨٣٩»

رجل كبير من المقاطعات في باريس. هذا هو عنوان الرواية الثانية من **أوهام ضائعة** إنّها مقدّمة هذا المشهد، وهو الأطول على الأرجح، من جميع المشاهد التي ستشكل **دراسات الطبائع**؛ ويشعر المؤلّف مرة أخرى بالضيق لاضطراره أن يعلن عدم اكتمال هذه اللوحة، وستندرج رواية ثالثة في **أوهام ضائعة**، فانطلاقة البطل، وإقامته في باريس هما إن صح التعبير، القسمان الأوّلان من ثلاثية ستتمها العودة إلى المقاطعات، وسيكون عنوان القسم الأخير **آلام المبتكر**؛ وسيظهر بطريقة لاتدع مجالاً للاهتمام المتولد عن ظهور شخصيات هذه المأساة أن يَفْتُرَ؛ فالممثلون الرئيسون باقون حتى النهاية بدقّة الانتظام الكلاسيكي السائد في المسرح القديم، وقد خسروا جميعاً مايكفي من الأوهام ليكون العنوان المشترك للروايات الثلاث مبرّراً.

هل وفى المؤلّف بوعوده التي أشار إليها في مقدمة الرواية الأولى من أوهام ضائعة؟ لكم الحكم على ذلك إنّما الصحفيون كأمثالهم من أصحاب المهن الأخرى لايمكنهم النجاة من أحكام قضاء الملهاة. قد يكونون أشد حاجة إلى أرستوفان* جديد منهم إلى ريشة كاتب تسطّر بعض نقد لاذع. إنّهم يوحون إلى الأدب برعب كبير، حتى أن أيّاً من المسرح، أو قصائد الهجاء، أوالرواية، أو الشعر الساخر، لم

* أرستوفان: (٤٤٥-٣٨٦ق.م) شاعر إغريقي أَلّف إحدى عشرة مسرحية يهاجم فيها أعداءه الأدبيين والسياسيين.

يجرؤ على تقديمهم إلى المحكمة التي ترفع شعار **تصحيح الطبائع ضاحكة*** . لمرة واحدة جرب سكريب[1] القيام بهذه المهمة في مسرحيته الصغيرة **الشعوذة** فكانت صورة أكثر منها لوحة، لكن المتعة التي ولّدتها هذه الصيغة الأوليّة الفكهة دفعت المؤلّف إلى تصوّر استحقاق الموضوع لمشهد أكثر سعة وتفصيلا.

تطرق لاتوش «وهو أديب آخر» إلى موضوع الطبائع الأدبية، إنّما لم يكن الهجوم هذه المرة، على الصحافة بل على أحد هذه التحالفات المتشكلة لمصلحة نظام ترتبط ديمومته بإبهام المواهب المؤلفة له: فما أن تشتهر حتى يصعب على المتحالفين التفاهم، فهم متضامنون في المعركة، لكنهم متنازعون على مكاسب المجد. هذا الرجل النبيه لم يكتب إلا مقالاً واحداً ساخراً غير أنه كانٍ كافياً ليكسب اللغة كلمة **الرفقة** التي ستبقى بالمعنى الذي حدّده لها وتغدو عنواناً لمسرحية من خمسة فصول[2]. هكذا كان للمؤلف وحده فضل القيام بمبادرة جريئة أحدثت الذعر لدى الكثيرين؛ لاسيمّا وأنّها تمت في حقبة سعى فيها كل واحد إلى البحث عن مواضيع جديدة، دون أن يجرؤ أي قَلَم على التعرُّض لطبائع الصحافة المثيرة للضحك بشكل مريع، رغم أنّها الطبائع الوحيدة المبتكرة في عصرنا. غير أن المؤلف لن يكون منصفاً إن فاتته الإشارة للمقدمة الرائعة للرواية المعنونة **الآنسة دي موبن**[3] حيث اقتحم مؤلفها الشاعر تيوفيل غوتيه والسوط في يده، والمهماز في جزمته، عرين الصحافة كما لويس الرابع عشر على عرش عدالته الشهير.

* شعار ورد باللاتينية في النصّ.

(١) سكريب، أوجين E.scribe (١٧٩١-١٨٦١) مؤلّف مسرحي فرنسي له مسرحيات عديدة منها مسرحية الشعوذة التي ألّفها مع مازير وهي من نوع الڤودڤيل وقد مثّلت على مسرح الجيمناز - دراماتيك لأوّل مرة في ١٠ آيار ١٨٢٥.

(٢) **لاتوش، هنري** (١٧٨٥-١٨٥١): هو الكاتب الناشر لشعر آندريه شينيه، والمدافع عن جورج صاند اشتهر بالمقالة الهجائية التي هاجم فيها الندوات الرومنسية بعنوان «الرفقة الأدبية» التي نشرتها مجلة باريس العام ١٨٢٩. أمّا المسرحية ذات الخمسة فصول والتي تحمل عنوان «الرفقة الأدبية أو السلّم القصير» فهي لسكريب وقد ظهرت في ١٨٣٧.

(٣) **رواية الآنسة دي موبن**: رواية من جزئين ومقدّمة ظهرت في ١٨٣٥-١٨٣٦ للشاعر الشاب تيوفيل غوتيه (١٨١١-١٨٣٢). اشتهرت مقدمتها خاصة التي كانت بمثابة بيان ومرافعة اتهام عنيف للنقد الأدبي في الصحافة.

هذه المقدمة الصادرة عن قريحة ساخرة، بل لنقل هذا العمل الجريء أثبت خطر المؤسّسة لكن هل لقي الكتاب بالذات، وهو أحد المؤلّفات الأكثر فناً، واخضراراً، وأناقةً، وجزالةَ أسلوب في عصرنا. ما يستحق من نجاح؟ هل جرى الحديث عنه بشكل كاف؟ إحدى المقالات النادرة الناقدة لم تتعرّض للتعريف بالكاتب الشاب الجريء بل هاجمت تقتير المكتبة الناشرة التي رفضت تقديم العديد من النسخ للصحيفة. إن الجمهور يجهل مدى الأضرار التي تلحق بالأدب في تحوّله إلى سلعة تجارية؛ ومنذ بدء الفترة التي تطرق فيها المؤلّف إلى هذا المشهد واتخذه موضوعاً لروايته، تفاقمت المصائب التي أراد أن ينبّه إليها في اللوحة التي يزمع رسمها. كانت الصحافة، في السابق، تفرض على المكتبة الناشرة عمولة عينية: تطلب عدداً من النسخ، ومع العدد المتزايد الآن من الدوريات الصحفية يمكن أن تصل هذه النسخ المجانية إلى **مئة** على الأقّل. عدا عن ذلك فمقالات التقريظ التي يسعى الناشر جاهداً لظهورها في الوقت المناسب ومقالات التجريح التي يريد تجنبها غدت مأجورة وتصل الأجور إلى مبلغ معتبر مع تزايد الصحف. وهذه الضريبة المضاعفة ازدادت مع أسعار الإعلانات الباهظة التي تماثل كلفة إعداد الكتاب ويستفيد منها التزوير البلجيكي خاصة بما أن لاشيء قد تغيّر في الإجراءات المالية لبعض النقاد، ويمكن وجود اثنين أو ثلاثة لا أكثر، من المتحيّزين أو الحاقدين، إنما غير المغرضين مما يعني أن الصحف ليست أقل ضرراً على وجود الكتّاب الحديثين من سرقة بلجيكة لحقوقهم. هل استحسنت النفوس النبيلة والعديد من الأشخاص الساخطين مقدمة تيوفيل غوتيه؟ هل قدّر الناس واحتفلوا بالقصيدة الساخرة التي كشف فيها هذا الشاعر الفساد العميق وعدم أخلاق هذه النمائم التي تشكو من فساد السلطة وعدم أخلاقيتها؟ أي شيء أرهب من فتور الناس الشرفاء الذين يهتمون بجراحهم لكنهم يعتبرون الأطباء أعداء لهم! إنّ العالم ينظر إلى هذه الزخرفات الشيّقة ويعدّها خطرة عندما تعرض للأنظار إحدى ليدات جيرار* أو باخوسيات جيروده** وهي في الرسم كما الكتاب في الشعر.

---

* جيرار، فرنسوا (١٧٧٠-١٨٣٧) من مشاهير الرسامين الفرنسيين اشتهر برسوم الأشخاص، وليدا Léda إحدى ربات الميتولوجية الإغريقية التي مثّلها في لوحاته.

** جيروده لويس(١٧٦٧-١٨٢٤) رسّام فرنسي آخر شهير، اشتهر بلوحات جدارية منها الباخوسيات Bacchante الممثلة لحفلات رقص وسكر ومجون.

تشكّل طبائع الصحيفة أحد هذه المواضيع الواسعة التي تقتضي أكثر من كتاب، وأكثر من مقدّمة وقد شخّص المؤلّف بدايات المرض الذي وصل الآن إلى ذروة انتشاره. كانت الصحيفة في ثوب براءتها في العام١٨٢١ مقارنة بما هي عليه في العام ١٨٣٩(١)؛ وإذا كان المؤلّف لم يحدّد الجرح بكامل اتساعه، فإنه على الأقّل تعرّض له دون هلَع، مستفيداً من محاسن وضعه، فهو ينتمي إلى هذا العدد القليل جداً من أولئك الذين لا يتوجّب عليهم أبداً تقديم شكر للصحافة: لم يطلب منها شيء أبداً، وقد شقّ طريقه دون أن يعتمد على عصاها الناشرة للطاعون، ولم يلتمس من أيّ قلمٍ أي مقال؛ ولم يلجأ إلى إعلانات لا جدوى منها يدبّجها كُتّابٌ خالدون لإقامة نَصَب لكتابٍ لا يستطيع العيش في الوقت الحاضر أكثر من ستة أسابيع. إنّ له الحق أخيراً، وهو حقّ اكتسبه بسعر غال، في أن يواجه هذا السرطان الذي يُحتَمل أن يفترس البلاد. ربّما سيقول كثيرون بهذه المناسبة، إن المؤلف يتظاهر بالجروح ليستجرّ بعض المنافع، وأنه يستطيب كل شيء. في موضوعه هذا تعرَّض المؤلف إلى الافتراء والتشهير إلى حدّ أنّ الشرطة التأديبية أُنْذِرَت بواسطة أحد ناشريه بخصوص مقال تُهاجَمُ فيه عملية مفيدة للأدب المعاصر، وهو جهد من المكتبة الفرنسية لمجابهة التزوير البلجيكي، مما اضطر المكتبة الناشرة أن تلجأ إلى صرامة القوانين ضد الصحيفة اليومية الصغيرة، واطّلع القضاة على عجز الصحافة، فقد برهنت المكتبة على وجود أربع طبعات بأحرف مختلفة وفي مطابع مختلفة لرواية **طبيب الريف** التي لم تعتمد على أي استحسان أو تقريظ من أيّة صحيفة. بينما كان المؤلف ينتظر الطبعة الثانية من **أوجيني غرانده**، أحد مؤلّفاته التي

(١) في رواية **رجل كبير من المقاطعات في باريس** يتعرض المؤلّف للصحافة الآدبية خاصة، لكننا نرى فيها أيضاً الصحفي الذي يضطر ليتلاءم مع المصالح المالية والسياسية للصحيفة التي يكتب فيها ويناور أحياناً بين هذا التلاؤم أو التمرد عليه مما يُعتبر خيانة للصحيفة. وبلزاك يستنكر هذا التهديد المتزايد لاستقلال الكاتب الصحفي وكرامته الذي تزايد بين عامي ١٨٢١ و١٨٢٩ بظهور الرواية المسلسلة في العام ١٨٣٦ وما تؤمنه من إمكانات ربح للروائيين بذلك ارتبط مصير بعض الكتاب بمصير الصحافة ورؤوس الأموال المتحكمة بها فالكتاب يبيعون الكتب والصحف تشتري الكتّاب.

حاول النقاد بالمغالاة في الإشادة بها الحدّ من شهرة روايته الأخرى[١]. لم تترك الصحيفة شيئاً إلا وقالته عن المؤلف، كما أنه تحملَ في قضية معروفة كل ماحاول بعض المؤلّفين أن يجرّحوه به وهو زميلهم[٢]؛ فأي جرح جديد يمكن أن ينال منه بعد أن هوجم دون جدوى في شخصه، وطبعه، وحظّه سعيداً كان أو سيّئاً، وطبائعه، وسخافاته المزعومة؟ غير أن لا مبرّر للاعتقاد بأن الهوى، أو الرغبة في الانتقام، أو أيّة عاطفة سيئة قد أوحت إليه بتنفيذ المؤلّف الحالي؛ فمن حقه أن يرسم المشاهد، وقد حرص على أن يبقى في العموميات فالصحافة تلعب دوراً كبيراً في تاريخ الطبائع المعاصرة، حتى ليتهم المؤلّف بالجبن لو أغفل هذا المشهد عن المأساة الكبرى التي تجري في فرنسة. يمكن أن تبدو هذه اللوحة بالنسبة لكثير من القرّاء قاتمة، لكن ليكن معلوماً أن كل ما فيها ينطق بحقيقة مقنطة، بيد أن كل شيء قد لُطّف في هذا الكتاب، الذي حدّدت طبيعة الموضوع مرماه فاقتصر فقط على تأثير الصحيفة المفسد على النفوس الشابة والشاعرية وعلى الصعوبات التي تنتظر المبتدئين، والتي تكمن في تثبيطهم معنوياً أكثر من إقامة العوائق في وجههم مادياً. الصحيفة لاتقتل

(١) يلمّح بلزاك إلى حدث فات مؤرخي نتاجه وهو يتعلق بالأدب وبتاريخ النشر فقد أرادت دار شاربنتيه أن تحدّ من تزوير الكتب الفرنسية في بلجيكة، وتأثير قاعات المطالعة، والمسلسلات الروائية في الصحف على بيع الكتب ونشرها فعمدت إلى إصدار طبعة شعبية لبعضها بسعر رخيص، ومنها رواية بلزاك طبيب الريف لكن صحيفة الكورسير «Le Corsaire» في عدد ١١ آذار ١٨٣٩ هاجمت تلك الطبعة وادعت أن دار شاربنتيه غلفت ما كَسَد من طبيب الريف وتراكم في المستودعات بغلاف جديد لتروجّه بنصف السعر. وأقام شاربنتيه دعوة على الصحيفة المذكورة وكسبها وفقاً لما أشارت مجلة المحاكم في عدد ٢٥ نيسان ١٨٢٩ وألزمت الصحيفة المذكورة بدفع غرامة وتعويض لدار النشر لكنها انتقمت من بلزاك بتوجيه نقد عنيف لهذه الرواية التي ظهرت في العام نفسه.

(٢) القضية التي يشير إليها بلزاك هي الدعوى التي أقامها على دار نشر Boloz التي سرّبت مسوّدات رواية «الزنبقة في الوادي» إلى إحدى المجلات الروسية في سان بطرسبورج قبل نشرها في فرنسة ودون إذن من المؤلّف وقد أدانت المحكمة بولوز بتاريخ ٣ حزيران ١٨٣٦ بالرغم من أن الدار المذكورة قدمت وثيقة موقعة من الأدباء «توماس، وغوزلان وسوليه، وسو، وميري، وبوفوار، وجانين، ولوف ڤيمار» تفيد بأن الدار المذكورة تصرفت وفقاً لماهو مألوف لدى الأدباء في التعاون مابين دور النشر والصحف (انظر تفاصيل هذه القضية في ملحق رواية «الزنبقة في الوادي» من إصدارات وزارة الثقافة السورية لعام ٢٠٠٠).

فقط كثيراً من المواهب الشابة. بل تعرف كيف تدفن موتاها بصمت وكتمان عميق، لاتضع زهرة على قبورهم، ولاتذرف دمعة إلا على من تغمده الله برحمته من مشتركيها. لنكرر القول! إن للموضوع سعة العصر بالذات وتوركاره لزاج، وفيلينت وطرطوف موليير، وفيغارو بومارشيه، وسكابن المسرح القديم*، جميع هذه النماذج الممثّلة للمكر وُجَدت مضَخمة بقدر كبر عصرنا، حيث السلطان موجود في كل مكان باستثناء العرش، وحيث كل واحد يتطاول باسمه ويريد، وهو نقطة على محيط الدائرة، أن يشكّل مركزاً لها، أو ملكاً في زاوية مظلمة. أيّة لوحة يمكن أن تُعبّر عن هؤلاء الأشخاص التافهين الذين اغتنوا بالخيانات وتغذوا بالأدمغة المستغَلّة، وتنكّروا لمن قضوا حياتهم حتى العجز في خدمات مخلصة، وقابلوا تضحياتهم وآلامهم بسخريات بشعة، واحتموا ضد كل هجوم خلف أسوارهم الموحلة وهم مستعدون دائماً ليلقوا بعظمة لكلاب حراسة تحميهم، وتفتح أشداقها المجهزة بأنياب عضّاضة، بينما يعلو نباحها وفق مقتضى الحال وتوجيهات أسيادها! وجب على المؤلّف أن يهمل كثيراً من التفاصيل، ويصرف النظر عن الكثير من الأشخاص: ولو لم يفعل لتجاوز مؤلَّفه الحدود، مع أن موقعه يتطلّب منه تجنّب الشخصيات. لكن هل يستطيع هذا الكتاب أن يقف حائلاً أمام شاعر شاب، ذي روح طاهرة، يعيش في عمق المقاطعات وسط عائلة محبوبة، دون المجيء ليزيد عدد المحكوم عليهم بالهلاك في الجحيم الباريسي، الذين يتصارعون برشقات المحابر، ويتضاربون بالمؤلَّفات المجهضة، ويتسلحون بالمذاري ليقتلعوا، في منافسة أحدهم للآخر، الأزهار الأكثر رهافة؟ إن توصّل هذا الكتاب إلى ذلك فقد قام بعمل جيّد، فالكتب تولد وتحيا وتموت مثل تلك الحشرات على ضفاف نهر

* **توركاره** الخادم الغبي-المكّار الذي تمكن من جمع ثروة في مسرحية المؤلّف لزاج Lesage التي تحمل الاسم نفسه ومثلت في العام ١٧٠٩. وفيلينت شخصية في مسرحية كاره البشر Misan thrope (العام ١٦٦٦) لموليير، **وطرطوف** المنافق المكار في مسرحية لموليير تحمل الاسم نفسه (العام١٦٣٩) **وفيغارو** مكار آخر في مسرحية حلاق اشبيلية (العام١٧٧٥) وزواج فيغارو (العام١٧٨٤)، **وسكابن** المخادع في المسرحيات الإيطالية القديمة، وفي مسرحية موليير حيل سكابن (العام١٦٧٠) (م. المترجم).

الهيبانيس[١] التي أوحت طبائعها بأوّل مقالات الصحف لأحد كتّاب الإغريق. هل سيحفظ هذا الكتاب بعض أوهام الأشخاص السعداء؟ يشك المؤلّف في ذلك: فالشباب ضد الشباب، والموهبة في المقاطعات تعاكسها الحياة في المقاطعات التي تدفع كل إنسان ذي خيال إلى مخاطر الحياة الباريسية. فباريس بالنسبة لهم مثل المعركة بالنسبة للجنود الذين يتباهون كلّ صباح لأنهم مازالوا على قيد الحياة منذ مساء يوم البارحة، ولا يتذكّرون الأموات إلا في اليوم التالي. وأمثال لوسيان مثل أولئك المدخنين في منجم ذي غاز متفجر يشعلون غلايينهم رغم التحذيرات والمنع. إنَّ للُجَج المخاطر والهلاك مغناطيسيتها. على الأقل ستتعلم هنا أن المثابرة والاستقامة هما أيضاً أكثر ضرورة على الأرجح من الموهبة لاكتساب شهرة نبيلةنقيّة[٢].

بلزاك

باريس، نيسان ١٨٣٩

ملاحظة من المترجم: هذه هي الرواية الثانية من ثلاثية **أوهام ضائعة** التي تضم ثلاث روايات:

الأولى بعنوان: «**الشاعران**» وقد صدرت في العام ١٨٣٧.

الثانية بعنوان: **رجل كبير من المقاطعات في باريس**، وقد صدرت في العام١٨٣٩.

الثالثة بعنوان: **آلام المبتكر** وقد صدرت في العام ١٨٤٣.

---

(١) الهيبانيس Hypanis: وفقاً لتاريخ هيرودوت نهر في بلاد سيتي scythie الواقعة شمال البحر الأسود
(٢) أخلاقية مثالية نفتش عنها عبثاً في الكتاب؛ فدارتز بعيد عن الشهرة، والرواية لا تقنعنا بدارتز كاتباً أو بروبمبره شاعراً أو كاتباً. أما ناتان وكاناليس فهما أقرب إلى النفاق والتدجيل. أما بلزاك فإن كانت شهرته «نبيلة ونقية» في نظره (ونظرنا الآن) فإنها كانت بعيدة عن هاتين الصفتين بالنسبة لقارئ عام١٨٣٩.

تدور أحداث الرواية الأولى في آنغوليم مركز مقاطعة شارنت، التي تقع على بعد ٤٤٠كم جنوب غرب باريس؛ وأبطالها الرئيسيون لوسيان شاردون وأخته إيف ولدا الصيدلي شاردون وأمهما النبيلة من آل روبمبره التي ترملت شابة واضطرت أن تعمل ممرضة لإعالة أسرتها؛ ثم الشاب داڤيد سيشار ابن صاحب المطبعة ورفيق دراسة لوسيان المتمتع بذات الروح الشاعرية ثم السيدة دي بارجتون عميدة نبلاء آنغوليم هاوية الشعر والموسيقى التي أغرمت بوسامة لوسيان وشعره وأقامت معه علاقة حبّ عذرية، إنّما كانت موضوع نمائم وشائعات، في بلدة صغيرة كآنغوليم دفعت إلى مبارزة بين النبيل دي بارجتون وأحد النمامين، اضطرت بعدها السيدة دي بارجتون إلى الرحيل إلى باريس وأغرت لوسيان بالسفر معها ثم تخلّت عنه بعد وصولهما بمدّة قصيرة إلى باريس. .

صَدَرت الروايات الثلاثة كما أشرنا أعلاه منفصلة غير أن بلزاك عدّل فيها بعد ظهورها لضمان استمرارية الأحداث المتعلقة بالبطلين الرئيسيين لوسيان شاردون ودافيد سيشار بحيث لايبدو أي انقطاع بين الرواية الأولى وهذه الرواية الثانية التي تبدأ مع صعود لوسيان إلى عربة السيدة دي بارجتون المتوجهة إلى باريس.

(المترجم: ميشيل خوري)

الرواية الثانية

رجل كبير من المقاطعات في باريس

لم يتحدث لوسيان، أو السيّدة دي بارجتون، أو جنتي، و البرتين خادماها، أبداً عن أحداث هذه الرحلة؛ ولكن يمكن الاعتقاد بأن الوجود المستمر للخدم جعلها كالحة جداً بالنسبة لعاشق كان يتوقع كل مُتَع الهروب مع عشيقته، وذُهل لوسيان وهو يسافر لأوّل مرة في حياته في رحلة طويلة، من رؤية محطات الطريق بين انغوليم وباريس تستهلك القسم الأكبر من المبلغ المخصّص لحياته لمدة سنة؛ وكجميع الشباب الذين يجمعون عذوبة الطفولة إلى قوة الموهبة وقع في خطأ التعبير عن الدهشات الساذجة لمرأى أشياء جديدة بالنسبة له. إن على الرجل أن يدرس جيّداً المرأة قبل أن يسترسل أمامها في انفعالاته وأفكاره تلقائياً وبكلّ عفوية، فالخليلة المحبة السامية تبتسم للسذاجة البريئة وتفهمها. أمّا من يخالجها بعض الغرور فإنَّها لاتغفر لخليلها أن يقوم بتصرفات صبيانية أو يبدو تافهاً أو صغيراً. وكثيرات هن النساء اللواتي يكتسبن من الشعائر الدينية إفراطاً في المغالاة، حتى أنهن يُردن أن يجدن في حبيبهن ربّاً من الأرباب، أما اللواتي يحببن الرجل لذاته قبل أن يحببنه لأنفسهن فإنهن يعبدن تصرفاته كلّها، صغيرها وكبيرها. ولم يكن لوسيان قد أدرك أن غرام السيدة دى بارجتون مطعَّم على عجرفتها، فأخطأ في فهم بعض الابتسامات التي كانت تصدر عن لويز خلال تلك الرحلة، وبدلاً من أن يتخذها عبرة، انطلق في مرحه كسنجاب فتي خرج من جحره.

نزل المسافرون عند وصولهم إلى باريس، في فندق غايار - بوا في شارع إيشيل مع الفجر، وكان العاشقان منهكي القوى، وأرادت لويز أن تنام، وهرعت إلى السرير بعد أن طلبت من لوسيان أن يحجز غرفة فوق الشقّة المخصصة لها. ونام لوسيان بدوره حتى الساعة الرابعة مساء حين أرسلت السيدة دي بارجتون من يوقظه للعشاء، فارتدى ثيابه بسرعة عندما علم أن الوقت متأخر، ووجد لويز في إحدى هذه الغرف القبيحة التي يعتبر وجودها مخجلاً في باريس؛ فبالرغم من ادعاءات الأناقة العديدة لايوجد فندق واحد يمكن للمسافر الغني أن يشعر فيه وكأنه في منزله. وبالرغم من أن لوسيان كان لايزال تحت تأثير هذا الضباب الذي يغشى العينين عقب إيقاظ مفاجئ فقد ساءه أن يرى لويز في تلك الغرفة الباردة، التي لاتدخلها الشمس، بستائرها الحائلة اللون، وبلاطها البائس المحتوت، وأثاثها البالي، القديم أو المشترى بالرخصة، والسيىء الذوق.

والواقع أن بعض الأشخاص لايبدون بذات المظهر، أو ذات القيمة، ما أن يبتعدوا عن الصور، والأشياء، والأمكنة التي تشكل الإطار المحيط بهم؛ فللملامح الحيّة نوع من الجو الخاص بها خصوصية الظلال في اللوحات الفلمندية وضرورتها لحياة الوجوه التي أبدعتها عبقرية الرسامين[1]. وأبناء المقاطعات كلهم تقريباً هكذا. ثم أن السيّدة دي بارجتون تبدو أكثر مهابة واستغراقاً في التفكير مما يجب أن تكون في هذه البرهة التي بدأت بها سعادة لايعترضها عائق؛ ولامجال لتذمر لوسيان: فجنتي وألبرتين يقومان بخدمتهما على مائدة عشاء خلت من ميزات الوفرة والطيبة الرئيسة التي تعرفها حياة المقاطعات، فالأطباق المبتورة بالتقتير أتت من مطعم مجاور، وقُدمت بمحتويات قليلة؛ وباريس ليست جميلة بهذه الأشياء الصغيرة التي يضطر الأشخاص المحدودو الثروة إلى الالتزام بها. وانتظر لوسيان الانتهاء من العشاء ليسأل لويز عن سبب هذا التغيّر الذي لم يجد تفسيراً له، ولم يكن مخطئاً

(١) - في مؤلَف «الرسم في الابداع البلزاكي - طبعة دروز - جنيف ١٩٦٩ -يحلل أوليفيه بونار بخصوص «أوجيني غرانده» أسلوب بلزاك الشبيه «بالرسم الهولندي» أو رسم الأشخاص.

فقد طرأ أمر هام أثناء رقاده سبب استغراق أناييس في التفكير ؛ والأفكارُ مواقفُ الحياة المعنوية .

نحو الساعة الثانية بعد الظهر حضر سيكست دو شاتليه إلى الفندق، وأيقظ ألبرتين وطلب منها إبلاغ سيدتها عن رغبته في التحدّث إليها، ولم يترك للسيدة دي بارجتون التي تكتمّت في رحلتها واستثار فضولها هذا الظهور المفاجئ للسيد دو شاتليه إلا وقتاً قليلاً لارتداء ملابسها، وإجراء زينتها، ثم استقباله في نحو الساعة الثالثة .

بادر بالقول بعد التحية : «تبعتك معرضاً نفسي لتأنيب الإدارة إذ أنني توقّعت ما سيحصل لك وفضلت المجازفة بإضاعة وظيفتي للحيلولة دون ضياعك أنت !

- هتفت السيّدة دي بارجتون : ماذا تعني بهذا القول؟

تابع بمظهر المقتنع الحاني : أرى جيّداً أنك تحبين لوسيان، إذ يجب الانصراف إلى حب رجل لإبعاد كل تفكير، ونسيان كل التقاليد التي تعرفينها جيّداً! هل تعتقدين إذن ياعزيزتي ناييس المعبودة أنّك ستُستَقبلين في صالون السيدة دسبار، أو أيّ صالون باريسي آخر في الوقت الذي سيعرف فيه أنّك هربت من آنغوليم مع شاب وخاصة بعد مبارزة السيّد دي بارجتون والسيّد شاندور[1] ؟ إن إقامة زوجك في إسكارباس له مظهر الانفصال، في مثل هذه الحالة فإن أهل الشهامة يبدؤون القتال دفاعاً عن شرف نسائهم ويتركونهن أحراراً فيما بعد. أحبّي السيد دي روبمبره، واحميه وافعلي له ماتشائين، ولكن لاتسكني معه! وإذا علم أحدهم أنكما قمتما بالسفر معاً في عربة واحدة، سيشار إليك بالبنان في المجتمع الذي تريدين الاختلاط به. مع أن عليك يا نايس، ألا تقومي بهذه التضحيات لشاب لم تقارنيه بأي شخص آخر ولم يخضع لأي اختبار، ويمكن أن ينساك هنا ويتبع أيّة باريسية يعتقد أنها أكثر ضرورة لتحقيق طموحاته، لا أريد أن أسبب ضرراً لمن تحبين، ولكن اسمحي لي أن أفضّل مصالحك على مصالحي وأقول لك : «ادرسيه،

(١) - أهو سهو نسيان «دي» المشيرة إلى النبل أم أن دوشاتليه أراد إظهار الازدراء بنبالة آنغولم .

وقدّري جيداً الأهميّة الفائقة لمسعاك». وإن وجدت الأبواب مغلقة في وجهك، والنساء يرفضن استقبالك، فلن تندمي على هذه التضحيات العديدة إن كان من استرخصتها لأجله جديراً بها، ويقدّرها. إن السيّدة دسبار كانت أكثر احتشاماً وقسوة حتى أنّها انفصلت عن زوجها دون أن يتمكن المجتمع من أن يعرف سبب انفصالهما(١). ولكن آل نافارين، وبلامون - شوڤري، ولينكور، وجميع أهلها أحاطوا بها. والنساء الأكثر تصنُّعاً للحشمة يَزورونها، ويستقبلونها باحترام، حتى ساد الاعتقاد أن المركيز هو المخطئ. وستحكمين منذ أوّل زيارة لها على صحة آرائي: فبدخولك لدى المركيزة سينتابك القنوط لشعورك بأنها تعرف أنك في فندق غايار - بوا مع ابن صيدلي، مهما اجتهد لوسيان أن يكون السيد دي روبمبره. وسيكون لك منافسات هنا أكثر خداعاً ومكراً من آميلي، ولن يتأخرن عن معرفة من أنت، ومن أين أتيت، وماذا تفعلين. لقد اعتمدت على التنكر كما أرى، ولكنك من الشخصيات التي لايخفيها التنكر، ألا تصادفين أنغوليم في كل مكان؟ فهاهم نواب مقاطعة شارنت آتون لحضور افتتاح المجلس، وهاهو قائد الموقع يقضي إجازته في باريس؛ ولكن يكفي أن يتعرف عليك ساكن واحد من أنغوليم ليحدّد حياتك بطريقة غريبة: ولن تكوني إلا خليلة لوسيان. إن احتجت إليّ في أي شأن، فأنا لدى محصّل الضرائب العام في شارع فوبورسان اونوره على مسافة قريبة من منزل السيدة دسبار، وأنا أعرف زوجة المارشال دي كاريغليانو، والسيدة دي سريزي، ورئيس المجلس لأقدمك لهم ولكنك سترين كثيراً من الناس لدى السيدة دسبار، ولن تحتاجي لي، كما أنك لن تحتاجي لإبداء رغبتك في الذهاب إلى هذا الصالون أو ذاك، فجميع الصالونات سترغب في رؤيتك وسطها.»

استطاع دوشاتليه الاسترسال في الكلام دون أن تقاطعه السيدة دي بارجتون، فقد اقتنعت بصحّة هذه الملاحظات. والواقع انها اعتمدت دون فائدة على التنكر.

قالت: إنّك على حق ياصديقي العزيز، ولكن ما العمل؟.

---

(١) - في رواية «الحرمان Interdiection» يكشف بلزاك أسباب انفصال المركيز دسبار عن زوجته. (الجزء الثالث).

- أجاب شاتليه : دعيني أبحث لك عن شقة مفروشة مناسبة ؛ وهكذا ستعيشين حياة أقل كلفة من حياة الفنادق، وإن اعتمدت علي فستنامين فيها هذا المساء .

- قالت : ولكن كيف عرفت عنواني؟

- من السهل التعرّف على عربتك، عدا عن أنني تبعتك . وفي سيڤر أعطى حوذيك عنوانك لحوذيي . ولكن أتسمحين لي بأن أسعى إلى تأمين سكنك؟ وسأكتب لك سريعاً لأنبئك عن عنوان المنزل الذي استأجرته لك .

قالت : حسن، سأفعل .

كانت هذه الكلمة لاتعني شيئاً، وتعني كل شيء . فالبارون دو شاتليه[1] تحدّث بلغة المجتمع لامرأة من نخبته، وقد بدا بكل مظاهر الأناقة الباريسية، ووصل إلى الفندق بعربة فخمة، شاءت المصادفة أن ترى السيدة دي بارجتون هذا النفاج العريق يستقلها عند مغادرته، ووقوفها أمام النافذة لتفكّر في وضعها . وبعد ذلك بفترة، وعندما أُوقظَ لوسيان فجأة، وارتدى ثيابه على عجل وظهر أمام ناظري لويز ببنطال من قماش نانكين يعود للعام الماضي، ومعطف قصير رديء، بدا لها وسيماً إنّما بهندام يثير السخرية . هل يمكن أن يتجلّى إبداع إزميل المثال الإغريقي أو الروماني إن أُلبس أبولون بلڤيدير، أو انطينوس، ثياب السقائين؟ فالعينان تقارنان قبل أن يصَحح ُالقلب هذا الحكم الآلي السريع . كان التباين بين لوسيان وشاتليه مباغتاً حتى لايمكن أن يخفى على عيني لويز، وبعد أن انتهى العشاء أشارت نحو الساعة السادسة للوسيان ليأتي للجلوس إلى جانبها على كنبة رديئة ذات غطاء من الكليكو الأحمر ذي الأزهار الصفراء وقالت :

«ياعزيزي لوسيان، ألا تشاركني الرأي في حال قيامنا بعمل أحمق أنّ علينا معاً القيام بضرورة إصلاحه؟ يجب ياولدي العزيز، ألا نسكن معاً في باريس،

---

(١) يلاحظ أن بلزاك يسميه تارة دو شاتليه وتارة شاتليه، ولكن عندما سيمنح هذا البارون لقب كونت يذكر بلزاك أن إشارة النبالة «دو» قد تضمنّها مرسوم التسمية .

ولايشتبه بمجيئنا مترافقين، فمستقبلك يتعلق بمكانتي، ويجب ألا أحطّ منها بأية طريقة. وهكذا فمنذ هذا المساء سأذهب للسكن على مسافة قريبة من هنا، وستبقى أنت في هذا الفندق، ويمكن أن نتقابل كلَّ يوم دون أن يستطيع أحد أن ينالنا بمأخذ».

شرحت لويز للوسيان أعراف المجتمع، واستمع إليها منذهلاً دون أن يدري أنّ النساء اللواتي يتراجعن عن تصرفاتهن الحمقاء، يتراجعن عن حبهن، وأدرك أنه لم يعد لوسيان آنغوليم، فلويز لم تحدثه إلا عن نفسها، وعن مصالحها، وسمعتها، ورأي المجتمع، وللاعتذار عن أنانيتها، جربّت أن تقنعه أن الأمر يتعلق به، وأن ليس له حقوقاً على لويز، التي تحولت بسرعة إلى مظهر السيدة دي بارجتون. وماهو أمرٌ من ذلك، أنه غدا دون أيّة قدرة، وهكذا لم يستطع أن يحبس دموعاً ثخينة تدحرجت من عينيه وهو يقول:

«إن كنت مفخرة لك، فأنت ماتزالين أكثر من ذلك لي، أنت أملي الوحيد، وكلّ مستقبلي، فهمت أنك إن اقترنت بنجاحاتي، فيجب أن تقترني بحظي السيء، ولكن ها نحن الآن نفترق.

قالت: هل تدين تصرفي، أنت إذن لاتحبّني».

نظر إليها لوسيان والألم الممضّ يتجلّى في كل قسماته حتى أنها لم تستطع إلا أن تقول: «ياصغيري العزيز، سأبقى إن أردت، وسنسير إلى الضياع دون أي سند، ولكن عندما يحل بنا البؤس معاً، وتخيب آمالنا، ويلقينا الفشل في اسكارباس، وهذا ما يُحتَمل حدوثه، تذكّر، ياحبي، أنني توقّعت هذه النهاية، واقترحت عليك منذ بدء التحكم بقوانين المجتمع بالامتثال لها.

أجاب وهو يقبّلها: لويز، ذعرت من رؤيتك بهذا التعقل: فكّري أنني فتى استكان كلياً لإرادتك العزيزة. أردت أن انتصر على الناس والأشياء بقوّتي الذاتية، ولكن إن استطعت أن أصل بمساعدتك في وقت أسرع من اعتمادي على نفسي

فقط، فسأكون سعيداً جداً لأدين لك بكل نجاحي. اغفري لي. تعلّقت بك كثيراً حتى بتُّ أخشى من كلّ شيء والانفصال بالنسبة لي نذير الهجر، والهجر هو الموت.

اعترضته بقولها: ولكن ياولدي العزيز، إن المجتمع لايطالبك إلا بالنذر اليسير، والأمر لايتعدّى إلا أن تنام هنا، وستبقى طيلة اليوم في صحبتي دون أي اعتراض. أتمت بعض ملاحظات تهدئة لوسيان، وبعد نحو ساعة نقل جنتي رسالة يعلم شاتليه فيها السيدة دي بارجتون أنه وجد لها شقة في شارع نوف - دو - لوكسمبورغ؛ وشرحت للوسيان موقع ذلك الشارع غير البعيد عن شارع الإيشيل، وقالت للوسيان «نحن جيران». وبعد ذلك بنحو ساعتين صعدت لويز إلى عربة أرسلها لها دو شاتليه لنقلها إلى شقتها، وهي إحدى الشقق التي يقوم تجار الأثاث بفرشها وتأجيرها لنواب أغنياء، أو لشخصيات كبيرة في زيارة قصيرة لباريس، وتتميّز بالفخامة لكنها غير مريحة. عاد لوسيان نحو الساعة الحادية عشر ليلاً إلى غايار - بوا فندقه الصغير دون أن يرى من باريس إلاّ الجزء من شارع سان - اونوره الواقع بين شارع نوف - دو - لوكسمبورغ وشارع الإيشيل. وأوى إلى غرفته الصغيرة البائسة دون أن يستطيع منع نفسه من مقارنتها مع شقة لويز الرائعة.

في اللحظة التي كان لوسيان يخرج فيها من شقة السيدة دي بارجتون، كان البارون شاتليه يصل إليها عائداً من زيارة وزير الشؤون الخارجية، وهو في بهاء هندام المتوجه إلى حفلة رقص. وقد جاء يطلع السيدة على جميع المساعي التي قام بها لأجلها. كانت لويز قلقة، فهذا الترف يرعبها، فقد انتهت طبائع المقاطعات للتأثير عليها، وغدت دقيقة في حساباتها وعليها معالجة أمور عديدة حتى أنها ستعتبر مقتّرة في باريس، فقد حملت معها مايقرب من عشرين ألف فرنك بشكل أمر دفع على المحصل العام، وهذا المبلغ مخصّص لتغطية نفقاتها الإضافية خلال أربعة أعوام، وهي تخشى الآن ألا يكفيها وأن تضطر للاستدانة وقد أنبأها شاتليه أن شقتها ستكلّفها ستمئة فرنك شهرياً.

قال وهو يلاحظ انتفاضة من ناييس «مبلغ تافه، وسيكون تحت تصرفك عربة لقاء مبلغ خمسمئة فرنك شهرياً فيكون المبلغ الإجمالي خمسين لويسية، وماعليك أن تفكّري إلا بزينتك وهندامك، ولايمكن للسيدة التي ستختلط بالطبقة الراقية أن تتصرف بغير هذه الطريقة، فإن أردت أن تجعلي من السيّد دي بارجتون محّصلاً عاماً أو أن تؤمّني له مكاناً في البلاط الملكي، فعليك ألا تُظهري البؤس، فلامكان هنا إلا للأغنياء، ومن حسن الحظ أنك أتيت بجنتي كخادم مرافق، وبألبرتين وصيفة، لأن أجور الخدم مرتفعة جداً في باريس. لن تأكلي إلا نادراً في منزلك، وعليك الانطلاق كما يجب أن تكوني.

انتقلت السيدة دي بارجتون والبارون إلى التحدث عن باريس، وقصّ عليها دو شاتليه أحداث اليوم، ترّهات عديدة يجب معرفتها وإلا فهي ليست في باريس. وقدّم لنايس نصائح عن المتاجر التي يمكن أن ترتادها. فاشار إلى هربّو بالنسبة إلى القلنسوات، ولجوليت بالنسبة للقبعات، وأعطاها عنوان الخياطة التي يمكن أن تحّل محل فيكتورين[١].

أخيراً أشعرها بضرورة التحرّر من انغوليم، ثم انطلق في آخر طرفة كلامية أسعده اكتشافها فقال بلامبالاة: غداً سأحصل دون شك، على مقصورة في أحد المسارح، وسأحضر لاصطحابك مع السيد دي روبمبره إن سمحت لي بحيازة فضل تعريفكما على باريس.

قالت السيدة دي بارجتون في نفسها وهي تراه يدعو لوسيان بلقب النبالة: إنّه أكثر شهامة مماكنت أعتقده».

في شهر حزيران[٢] لايعرف الوزراء ماذا يفعلون في مقصوراتهم في المسارح، والنواب الوزاريون وموكلوهم يقومون بأعمال قطافهم أو يشرفون على

---

(١) وردت هذه الأسماء في تقاويم التجارة لذلك العصر .

(٢) تناقض مع ماذكره المؤلف سابقاً عن مغادرة لوسيان لانغوليم في شهر أيلول.

حصادهم، فمعارفهم كثيرو المطالب في الريف أو في السفر، وهكذا تستقبل أجمل المقصورات المسارح في باريس ضيوفاً مختلطين لم يعتد الرواد على رؤيتها وتبدو أمام الجمهور في مظهر سُجُف مستهلكة. وفكر دو شاتليه أن بإمكانه نظراً لتلك الظروف، دون أن ينفق كثيراً من المال، تأمين التسلية الأكثر جذباً للوافدين من المقاطعات. وفي اليوم التالي، ولأوّل مرة جاء لوسيان ولم يجد لويز، وأنبئ أنها قد خرجت من أجل تأمين بعض المشتريات الضرورية، والواقع أنها ذهبت تستشير أهم أصحاب الشهرة في عالم التزيين النسائي الذين ذكرهم لها دو شاتليه، إذ أنها كتبت للمركيزة دسبار تنبئها بوصولها. وبالرغم من أنها تتمتع بثقة كبيرة في النفس مردّها سيطرة طويلة، فقد خشيت على الأخص من أن تظهر ريفية؛ وهي تمتلك من اللباقة مايكفي لتدرك مدى أهمية الانطباعات الأولى في العلاقات بين النساء، وبالرغم من أنها تعرف ماتملك من قوة تجعلها بسرعة في مستوى النساء الساميات أمثال السيدة دسبار، فإنها شعرت بالحاجة للحفاوة بها في مستهل بدايتها الباريسية، وأرادت ألا يفوتها أي عنصر من عناصر النجاح، وهكذا اعترفت ضمناً لشاتليه بفضل كبير لأنه أرشدها إلى الوسائل اللازمة لتوافقها مع الطبقة الارستقراطية الباريسية، وشاءت مصادفة فريدة أن تكون المركيزة دسبار في وضع ترغب فيه أن تؤدي خدمة لأحد أفراد عائلة زوجها، فالمركيز دسبار دون سبب ظاهر اعتزل عن العالم، ولم يعد يهتم بمصالحه، ولا بالشؤون السياسية، ولابعائلته، ولابزوجته، وهكذا غدت المركيزة سيّدة نفسها، وشعرت بالحاجة للبروز في المجتمع ونيل استحسانه، وأسعدها أن تحلّ محل المركيز في ذلك الظرف وتظهر حامية لعائلته، ممايحقق لها التباهي برعايتها، ويُلفت الأنظار إلى إساءات زوجها. لذلك فقد كتبت في اليوم نفسه إلى السيدة دي بارجتون سليلة عائلة نغربليس إحدى هذه البطاقات الظريفة التي يتجلى فيها جمال الشكل بحيث يلزم بعض الوقت لاكتشاف خلوّها من العمق:

«إنها سعيدة لظرف يُقرّب من العائلة سيّدةً سمعت كثيراً عنها، وتمنّت أن تتعرّف إليها؛ لأن صداقات باريس ليست بالمتانة التي ترغب في إضافة أي شخص

إلى قائمة المحبين. وإذا لم يكن ثمّة داع لذلك، فالأمر مجرّد وهم يُوارى مع الأوهام الأخرى. وهي تضع نفسها كليّة تحت تصرّف نسيبتها حتى أنها مستعدة للذهاب لرؤيتها لولا توّعك يلزمها على البقاء في المنزل؛ لكنها تعد نفسها مدينةٌ لها بفضل التفكير بها.»

في أوّل نزهة تسكّع عبر الجادّات وشارع لابي La paix، اهتم لوسيان كجميع الوافدين الجدُد، بالأشياء أكثر من اهتمامه بالأشخاص. ففي باريس تستحوذ الضخامة أولاً على الانتباه: الترف في المتاجر، والارتفاع في الأبنية، وازدحام العربات، لكن مايذهل قبل كل شيء التناقضات الثابتة التي تظهر بين ترف لامتناه وبؤس مدقع، فقد شعر هذا الرجل ذو المخيلة الواسعة وهو مندهش لرغبته في هذا الزحام، وكأنه فَقَدَ جزءاً كبيراً من ذاته؛ فالأشخاص الذين يتمتعون في المقاطعات بمكانة ما، ويصادفون في كلّ خطوة برهاناً على أهميتهم، لايألفون أبداً هذه الخسارة الكلّية والمفاجئة لقَدْرهم؛ فأن يكون المرء ذا مقام في منطقته ويغدو لاشيء في باريس حالتان تتطلبان مراحل انتقالية، ومن ينتقل بشكل مفاجئ من إحداهما إلى الأخرى يعاني من نوع من التلاشي. فبالنسبة لشاعر كان يجد صدى لجميع عواطفه، ويلقى نجيّاً يستمع لجميع أفكاره، ويحسّ بروح تشاركه في أدقّ أحاسيسه ستبدو باريس صحراء موحشة. ولم يَعُد لوسيان إلى فندقه ليرتدي بزّته الجميلة الزرقاء، بل توجه مباشرة إلى شقّة السيدة دي بارجتون في الوقت الذي قدّر فيه عودتها إليها، وظهر عليه الضيق من حقارة ثيابه إن لم نقل من مظهرها الرثّ عندما لقي لديها البارون دو شاتليه الذي دعاهما للعشاء في مطعم «صخرة كانكال[1]»، وذُهل لوسيان من سرعة دوران الأحداث الباريسية ولم يستطع أن يقول شيئاً للويز، وثلاثتهم في العربة، لكنه ضغط على يدها، وتجاوبت ودياً مع جميع الأفكار التي تضمنّتها حركته.

---

(١) مطعم صخرة كانكال Rocher de Cancale: مطعم شهير في ذلك العصر كان يقع في رقم ٦١ شارع مونورغوي Montorgueil ذكره بلزاك مراراً في الملهاة الإنسانية وفي مراسلاته.

بعد العشاء صحب شاتليه ضيفيه إلى مسرح فودفيل[1]، وأحسّ لوسيان بانزعاج خفّي من مظهر دو شاتليه، ولعن المصادفة التي قادته إلى باريس؛ وعلّل مدير الضرائب غير المباشرة سبب وجوده بسعيه لأن يسمى أميناً عاماً للإدارة وتعيينه نائباً في مجلس الدولة، وقد جاء يتابع المساعي لتحقيق الوعود التي قطعت له بهذا الشأن، لأن رجلاً مثله لايمكن أن يستمر مديراً للضرائب، وهو يفضل ترك الوظيفة، والترشّح للنيابة، والانخراط في عالم الدبلوماسية؛ وتعاظم واستشف لوسيان في هذا المختال المتظارف استعلاء رجل المجتمع المطّلع على الحياة الباريسية، ورأى من الخزي خاصّة أن يدين له بُمتع أمسيته، وبدا الشاعر قلقاً، ومتضايقاً، بينما كان سكرتير الخدمات السابق كسمكة في الماء؛ فشاتليه يبتسم لمظاهر الحيرة والتعجب، والتساؤل، والهفوات الناتجة عن قلة خبرة منافسه، وهو ينظر إليه كنظرة البحار القديم للنوتي المبتدئ عند فقد توازنه. لكن سرور لوسيان لرؤيته لأول مرة، العرض المسرحي في باريس عوّض عن الكَرَب الذي سبّبته تشوّشاته؛ وتميّزت تلك الأمسية بنبذ خفيّ لقسم كبير من أفكاره عن الحياة في المقاطعات. فالحلقة تتسع، والمجتمع يأخذ أبعاداً مختلفة، ومجاورة عدة فاتنات باريسيات، أنيقات الملبس نضرات التزين جعلته يلاحظ الطراز القديم لهندام السيدة دي بارجتون، بالرغم من طموحها وتوقْها للتجدّد بشكل مقبول: فلا الأقمشة، ولا التفصيل، ولا الألوان كانت متوافقة مع الموضة، وتسريحة الشعر التي كانت تسحر لوسيان في آنغوليم بدت له ممجوجة بالمقارنة مع الابتكارات المُرهفة التي تظهر بها كل امرأة، وتساءل: «هل ستبقى هكذا؟» دون أن يعلم أنها قضت نهارها تحضّر لهذه الأمسية. لكن لا اختيار في المقاطعات ولامجال للمقارنة: والاعتياد على رؤية الملامح تمنح جمالاً تقليدياً. لكن المرأة التي تُعدُّ جميلة في الأقاليم وإن بقيت على زينتها في باريس لاتثير أي انتباه، إذ أنها ليست جميلة في منطقتها إلا لانطباق المثل: «في مملكة العميان يُعدُّ الأعور ملكاً». كانت عينا لوسيان تقوم بالمقارنة التي أجرت

---

(١) كان مسرح فودفيل Vaudeville «المسرح الخاص بالتمثيليات الخفيفة المرحة» يقع في شارع شارتر قرب اللوفر، وقد افتتح في العام ١٧٩٢.

السيدة بارجتون مثيلاً لها في العشية بينه وبين شاتليه، وأجازت فيها لنفسها القيام بأفكار غريبة تتعلّق بعشيقها؛ فالشاعر المسكين رغم وسامته الفريدة لم يبد بالمظهر الحسن. فكُمّا معطفه القصيران جداً، وقفّازاه الريفيان الرديئان، وصداره الضيق تعرّضه للسخرية من قبل شباب شرفة المسرح: ورثت السيدة دو بارجتون لوضعه بينما كان شاتليه يهتم بها دون غرور ويرعاها بعناية تكشف عن هوى عميق، وبدا أنيقاً مرتاحاً كممثل يعود إلى خشبة مسرحه القديم، إذ استعاد خلال يومين كلّ ماخسره في ستة أشهر، وبالرغم من أن عامة الناس لاتؤمن بتغير مفاجئ في العواطف، فمن المؤكد، في الغالب، أن ينفصل عاشقان في وقت أسرع مما اقتضته فترة ارتباطهما، فقد كانت تتهيأ لدى لوسيان والسيدة دي بارجتون خيبة أمل كل منهما بالآخر بسبب باريس، فالحياة قد توسّعت أمام عيني الشاعر، كما أن المجتمع ظهر بوجه جديد في نظر لويز ولم يبق لكل منهما إلا نشوء سبب عارض ليقطع الصلة التي تربطه بالآخر، ولم تتأخر هذه الطعنة على لوسيان، فقد قامت السيّدة دي بارجتون بإيصال الشاعر إلى فندقه وعادت بصحبة شاتليه إلى شقتها. وهذا ماأغاظ بشكل رهيب العاشق المسكين الذي صعد إلى غرفته الكئيبة وهو يتساءل «ماذا سيقولان عني؟» قال دو شاتليه مبتسماً وباب العربة ينغلق خلفهما: «هذا الفتى المسكين مملٌّ للغاية».

ردّت سليلة عائلة نغربليس المزهوة التي ماتزال تمتلك الجرأة للدفاع عن لوسيان لاصوناً لكرامته بل اعتزازاً بحمايتها له: «هذا هو حال جميع من يمتلكون عالماً من الأفكار في قلبهم وعقلهم فالأشخاص الذين يحسون بقدرتهم على التعبير عن أشياء كثيرة في مؤلفات حلموا بها طويلاً يبدر منهم الازدراء لمحادثة ينحط فيها الفكر بمحاولة تقييمه مادياً.

- ردّ البارون: أوافقك بكل طيبة خاطر على هذا الرأي، لكننا نعيش مع الناس وليس مع الكتب، وأنا أرى ياعزيزتي نايس أنك لم تتهوّري في علاقتك مع **هذا الشاب، وهذا** مايسرّني، فإن أردت أن تضفي على حياتك متعة كانت تنقصك

حتى الآن فأنا ألتمس منك ألا تكون بواسطة هذا العبقري المزعوم، فإن شعرت بالخطأ، وإن قارنته خلال بضعة أيام بالمواهب الحقيقية، وبالرجال المتميّزين فعلاً الذين ستتعرفين عليهم، ستكتشفين ياحوريتي الجميلة العزيزة أنك بسطت جناح حمايتك الباهر، وقدت إلى المرفأ الأمين، بدلاً من رجل صاحب موهبة شعرية، سعداناً صغيراً، لايحسن التصرّف، ولاقيمة له، أحمق، معتداً بنفسه، يمكن أن يعتبر أديباً في هومو، لكنه يغدو في باريس فتى عادياً تماماً؟ وبعد كل حساب، فإن ما يُنشَر هنا خلال أسبوع من دواوين شعر يفوق أدناه مرتبة أفضل أشعار السيد شاردون. فالرجاء أن تنتظري وتقارني! ثم استأنف وقد رأى العربة تصل إلى شارع نوف دي لوكسمبورغ: غداً، الجمعة، وهو يوم أوبرا، وللسيدة دسبار مقصورة ضمن المقصورات الخاصة بنبلاء المجلس، وستصحبك دون شك إليها حيث ستعرض أوپرا دانايد[1]. وسأكون في مقصورة السيدة دي سريزي لأتمكن من رؤيتك وأنت في كامل بهائك».

قالت: وداعاً.

في اليوم التالي جربّت السيّدة دي بارجتون أن تهيء هنداماً ملائماً لوقت الصباح ولزيارة نسيبتها السيّدة دسبار، وكانت نسمة خفيفة من البرد قد حلّت، ولم تجد بين متاعها القديم، الذي جاءت به من آنغوليم، إلاّ ثوباً من مخمل أخضر مطرّز بطريقة غريبة. ومن جهته شعر لوسيان بضرورة الذهاب لإحضار بزّته الزرقاء، فقد اشمأزّ من معطفه الردئ، وهو يريد أن يظهر بهندام أنيق وهو يفكّر بإمكان أن يقابل المركيزة دسبار، أو أن يذهب إلى منزلها فجأة، وصعد إلى عربة ليحضر بسرعة حقيبته التي أرسلها دافيد إلى مراسله في باريس - وخلال ساعتين لاحظ لوسيان أنه أنفق ثلاثة أو أربعة فرنكات، مماجعله يفكر كثيراً في النسَب المالية وارتفاع كلفة العيش في باريس: وبعد أن وصل إلى أعلى حدّ ممكن من التزّين والأناقة،

(١) دانايد Danaîdes «فراشات الليل». أوبرا لساليري Salieri عن كُتَيب للقاضي روله، والبارون تشودي وقد عرضت في ١٧٨٤ وكانت موضوع معارضة هزلية ساخرة بين دزوجيه وجنتي، ثم ابتكرت الدانايد الصغيرات أو الضحايا التسعة والتسعون وعرضت في باب سان مارتن بدءاً من ١٤ أيلول ١٨١٩.

توّجه إلى شارع نوف - دو - لوكسمبورغ حيث التقى على مدخل شقة السيدة دي بارجتون بجنتي يرافقه ساع في حلّة رائعة.

بادره جنتي الذي يجهل صيغ الاحترام الباريسية، بالطيبة التي اعتاد عليها في طبائع الأقاليم: «كنت متوجّهاً إليك ياسيدي. لأسلمك هذه الرسالة من سيدتي» حَسِبَ الساعي الشاعرَ خادماً: وفضَ لوسيان الرسالة، وعلم منها أن السيّدة دي بارجتون ستقضي نهارها لدى المركيزة دسبار، وستذهبان مساءً إلى الأوبرا؛ لكنها طلبت من لوسيان أن يحضر إلى الأوبرا لأن نسيبتها سمحت باستضافة الشاعر الشاب في مقصورتها وهي سعيدة لتوفير المركيزة هذه المتعة له.

قال لوسيان في نفسه: «هي تحبني إذن، وقد كانت مخاوفي حمقاء، وستقدمني إلى نسيبتها هذا المساء».

قفز فرحاً، وأراد أن يقضي بسرور الوقت المتبقي لحلول تلك الأمسية السعيدة، واندفع نحو حدائق التويلري وهو يحلم بالتنزه فيها حتى موعد العشاء الذي سيتناوله في مطعم ڤيري[1]؛ وهاهو لوسيان تغمره الفرحة وهو يختال طرباً على مصطبة «الفويان»[2] وهو يتأمل المتنزهين، والنساء الفاتنات، والعشاق، والمتأنقين وهم يمرون أزواجاً، ويتبادلون التحية بغمزة عين، أيّ فرق بين هذه المصطبة وبوليو! وجمال هذه العصافير في وكناتها يختلف كليّاً عنه في آنغوليم، فهنا كل ترف الألوان التي تزهو بها طيور الهند وأمريكا وتشحب أمامها ألوان اوروبة الرمادية. وقضى لوسيان ساعتين قاسيتين في التويلري. عاد بعنف يحاسب ذاته ويحكم عليها؛ لم يشاهد أيّا من هؤلاء الشباب المتأنقين في بزّة تقليدية، وإن رآها على أحدهم، فهو إما عجوز بَعُدَ به العهد عن حداثة الأثواب. أو مسكين بائس، أو صاحب دخل محدود وافد من حي الماريه[3]، أو أحد خَدَم المكاتب.

---

(١) مطعم ڤيري Véry: مطعم في حي پاليه رويال - رواق الحجر رقم ٨٢ اشتهر بخموره ورفاهيته.

(٢) فويان Feuillants: دير قرب حدائق التويلري، اتخذه الملكيون الدستوريون في عهد الثورة مركزاً لهم.

(٣) ماريه Marais: حي فقير في باريس يقع في الدائرتين الثالثة والرابعة.

وبعد أن لاحظ هندام الصباح واختلافه عن هندام المساء، واكتشف الشاعر ذو الانفعالات الحيّة، والنظرة النافذة قباحة ثيابه الرثّة، والعيوب في سترته التي تثير السخرية، فقد بطلت موضة تفصيلتها، وحال لونها الأزرق، وتجلّت الدمامة بشكل فاضح في قبتها، ومال كل طرف من طرفيها الأماميين على الآخر من كثرة الاستعمال، وصَدئت أزرارها، ورسمت ثنياتها خطوطاً بيضاء مُفجعة؛ ثم أن صدارها قصير جداً، وهو ذو تفصيلة ريفية معيبة دفعته إلى أن يزرّر فجأة سترته لإخفائه. أخيراً لاحظ أن بنطال النانكين هو لباس الأفراد العاديين، أما بنطال المتأنقين فهو من قماش ناعم ببياض ناصع! وهو مجهز على الدوام بربطة تحت القدم، بينما يتدلى طرفا بنطاله عند كعبي حذائه وقد تجعدا بشكل متنافر، وكانت أخته قد قامت بتطريز ربطة عنقه البيضاء بعد أن رأت مثيلاً لها لدى السيد دو هوتوا والسيّد دي شاندور، ولكنه لم يلحظ هنا أي شخص يتزيّن بربطة عنق بيضاء صباحاً باستثناء بعض أشخاص يبدون بمنتهى الرزانة من رجال المال الكهول أو من الإداريين الصارمين. عدا عن ذلك فقد رأى لوسيان المسكين، عبر شبَك الحديقة وعلى رصيف شارع الريفولي صبي بقّال يحمل سلّة على رأسه وقد لاحت حول عنقه ربطة طرَّزت طرفيها فتاته المعبودة اللعوب؛ وأحس لوسيان عندها بوخزة في صدره، في ذلك العضو غير المنظور الذي تختزن فيه كل أحاسيسنا، والذي يضع الناس، منذ أن وُجدت العواطف، يدهم عليه، في الأفراح، كما في الأتراح المفرطة. لاتتهموا هذا النصّ بالتفاهة! من المؤكد أن الأغنياء الذين لم يعرفوا أبداً هذا النوع من الآلام سيجدون هنا بعض المسكنة والغرابة؛ ولكن ألا تستحق هموم التعساء بعض الاهتمام الذي تلقاه حياة أقوياء الأرض ومحظوظيها؟ ثم ألا يصادف ذات القدر من الألم لدى هؤلاء وأولئك؟ إن العذاب يُجَسّم كلَّ شيء. أخيراً غيروا الباعث، وبدلاً من بزّة أكثر أو أقل جمالاً، فكّروا بترقية، أو بتقدير أو بلقب؟ ألم تعذب هذه الأشياء الصغيرة الشكليّة شخصيات لامعة؟ عدا عن أنّ موضوع البزّة يُعدُّ كبيراً لدى أولئك الذين يريدون الظهور بامتلاك شيء ليس لهم، إذ أن هذه

أفضل وسيلة على الأغلب، للاستحواذ عليه فيما بعد[1]. وأحس لوسيان بالعرق البارد يتصبّب منه وهو يفكر بأنه سيقابل بهذه البزّة مساء، المركيزة دسبار، نسيبة النبيل الأوّل في البلاط الملكي، المرأة التي يذهب لمقابلتها المشاهير من جميع المراتب، المشاهير المختارون. «إنني بمظهر ابن الصيدلي، صبي دكان حقيقي» قال لنفسه مغتاظاً وهو يشهد مرور أبناء عائلات ضاحية سان جرمان، المرفهين، المدلّلين، الأنيقين، الذين يبدون متماثلين في طريقة تصرفهم ولطف قسماتهم، ونبل مظهرهم، وملاحة وجههم، وكل منهم مختلف عن الآخر في الإطار الذي اختاره لإظهار شخصيته، والجميع يظهرون مزاياهم بنوع من الإخراج اقتنع به شباب باريس رجالاً ونساءً. وقد ورث لوسيان عن أمه الجمال الجسماني، لكن هذا الذهب مايزال في مكمنه، ولم يتخلص من شوائبه، فَشَعْرُ الفتى سيئ الحلاقة والتسريح وأسفل وجهه محتجب تحت قبة قميص رديئة بدلاً من أن يبرز من خلال طوق مرن، وربطة عنقه مدلاة دون مقاومة حتى يبدو رأسه محنياً بكآبة؛ وهل يمكن لأمرأة أن تخمن جمال قدميه الغائصتين في جزمة قبيحة انتعلها في آنغوليم؟ وهل يمكن لشاب أن يحسده على قوامه الرشيق المخفي في كيس أزرق حسبه حتى الآن بزّة؟ كان يرى أزراراً رائعة على قمصان تسطع بياضاً، بينما حالت ألوان قميصه وأزراره! وجميع هؤلاء النبلاء المتأنقين تغيب أيديهم في قفازات ساحرة، بينما لايليق قفّازاه إلا بكفّي دركي! هذا يلوحُ بعصا رائعة في زخرفتها؛ وذاك يرتدي قميصاً يبرز من كمّيه زران ذهبيان، وثالث يتحدّث مع سيّدة وهو يلوي بين يديه سوطاً جميلاً، وثنيات بنطاله المرقط تظهر في تموّجات بعض البقع، ومهمازاه يرنان، ومعطفه المشدود يشير إلى أنه مزمع على امتطاء أحد حصانين يمسك

(١) طريقة للرهان على المستقبل مارسها بلزاك كما تشير «الحسابات التي نشرها بوفيه دماينيال، ومنها يظهر بلزاك، على الدوام مديناً للخياط بويسون بمبالغ كبيرة (في العام ١٨٣١ : ٨٧٤ف، وفي ١٨٣٢ : ٢٢٢٩,٢٥، وفي ١٨٣٣ : ٢٦٥٣,٢٥ف، وفي ١٨٣٤ : ٦٧٥,٢٥ف، وقرض نقدي بمبلغ ٢٥٠٠ف) وقد صرح في رسالة للغريبة بتاريخ ١٩ تموز ١٨٣٧، مبرراً هذه النفقات: «رأيتها قضية جديدة أن أعلن كل مظاهر مالي وماعليّ كي لا أناقش وأتمكّن من فرض أسعاري».

بزمامهما سائس قزم[1] كقبضة اليد، وآخر يخرج من جيب صداره ساعة مسطحة كقطعة نقدية ذات مئة فلس، وينظر إليها كمن حضر مبكراً إلى موعد أو أنّه تخلّف عنه. برؤية لوسيان لهذه التفاهات الجميلة التي لم تخطر له على بال، ظهر له عالم الكماليات الضرورية، وارتعش وهو يقدّر الأموال الهائلة اللازمة لتحقيق مظهر الفتى الوسيم المرفّه! وكلّما زاد إعجابه بهؤلاء الشباب ذوي المظهر السعيد المنطلق، زاد قلقه من مظهره الغريب مظهر الرجل الذي يجهل إلى أين يؤدّي الطريق الذي يتّبعه ولايعرف أين يوجد الپاليه رويال بينما هو في محاذاته، ويسأل أحد المارة أين أجد اللوفر فيجيبه: «إنّك فيه» رأى لوسيان أن لجّة تفصله عن هذا العالم، وتساءل عن الوسائل التي تمكنّه من تخطّيه. لأنه يريد أن يكون مماثلاً لهذه الشبيبة الباريسية الرشيقة المرهفة. فجميع هؤلاء الارستقراطيين يتوجهون بالتحية إلى نساء بمنتهى الأناقة، وبمنتهى الجمال، نساء يشعر لوسيان بأنّه مستعد لتعريض نفسه ليقطع أرباً، أرباً لقاء قبلة من إحداهن، على غرار وصيف الكونتيسة دي كونيغسمارك[2]. وارتسمت لويز في غياهب ذاكرته امرأة هرمة، فقد صادف العديد من هؤلاء النسوة اللواتي سيتحدّث عنهن تاريخ القرن التاسع عشر؛ وهنّ بذكائهن، وجمالهن،

(١) درجت عادة استخدام سائسي الخيل الأقزام لدى ارستقراطي ذلك العصر، واستجاب بلزاك بدوره لهذه العادة، فاستخدم سائساً من منطقة السافوا نحيل البنية، صغير القامة، أطلق عليه اسم آنشيز، وكان يكنّ له عطفاً كبيراً، وتوفي أنشيز في حزيران ١٨٣٥ (معلومات مستقاة من رسائل بلزاك للسيدة هانسكا).

(٢) كانت الكونتيسة ماري دي كونيغسمارك (١٦٦٢ - ١٧٢٨) التي ورد تلميح لها أيضاً في رواية «دوقة لانجه» خليلة فريدرك أرغوست دي ساكس، ووالدة المارشال الفرنسي الشهير - الابن غير الشرعي لهذه العلاقة - موريس دي ساكس (١٦٩٦ - ١٧٥٠) وهي أيضاً أخت فيليب كريستوف دي كونيغسمارك الضابط في خدمة السويد، والمرتبط منذ عهد الشباب بصوفيا دوروتي دي زيل التي أجبرت على الزواج في العام ١٦٨٢ من جورج ارنست أوغست الذي غدا ملكاً على انكلترا باسم جورج الأول، واعدّ بمعونة خليلته اليزابيت دي بلاتن كمينا للكونت دي كونيغسمارك وهو خارج من جناح صوفي دوروتي، وقتل الكونت بوحشية، وأخفيت جثته واختلفت الروايات بشأنها: هل ألقيت في حوض من الكلس، أو أحرقت، أو دفنت تحت بلاط القصر؟ .

وغرامياتهن لسن أقل شهرة من ملكات الزمن الماضي، ولاحظ مرور فتاة سماوية ردّد المتنزهون والنساء اسمها همساً، هي الآنسة ديتوش، المعروفة باسم كميل مُوبن، الكاتبة الشهيرة، المتميزة إلى جانب ذكائها الفائق بجمالها الأخاذ.

قال في نفسه: «إيه! هوذا الشعر»

من تكون السيدة دي بارجتون إلى جانب هذا الملاك الساطع شباباً، وأملاً، ومستقبلاً؛ بعينيه السوداويين بسعة السماء، المتألقتين كقرص الشمس، كانت تقهقه ضاحكة وهي تتحدث مع السيدة فيرمياني. إحدى نساء باريس الأكثر جاذبية[١]. وهتف به صوت داخلي: «الذكاء هو الرافعة التي تحرّك العالم»؛ لكنه سمع صوتاً آخر يهتف به أيضاً: «إن نقطة استناد الذكاء هي المال». ولم يرد أن يبقى وسط خرائبه وعلى مسرح هزيمته. فاتخذ طريق الباليه رويال بعد أن سأل عنه، إذ أنه لم يكن قد عرف طبوغرافية حيّه، ودخل إلى مطعم فيري، وطلب من أجل أن يلمّ بملّذات باريس عشاءً يخفف عنه قنوطه: محار أوستند[٢]، سمكة، وحجلاً، وصحن معكرونة، مع زجاجة من نبيذ بوردو، وختم هذه الوجبة الفاخرة التي أشبعت رغباته بسلّة الفواكه المتنوّعة، وتنعّم بهذه المغالاة في الشراهة وهو يأمل أن يبرهن عن سرعة بديهته، هذا المساء، في حضرة المركيزة دسبار، وأن يعوّض عن حقارة ثيابه المبتذلة ببسط كنوز مواهبه الفكريّة، واستيقظ من أحلامه بفاتورة الحساب التي انتزعت منه خمسين فرنكاً كان يعتقد أنها ستمتعه بجميع مباهج باريس، فهذا العشاء كلفه نفقات شهر في آنغوليم، وهكذا أغلق بكل احترام باب هذا القصر وهو يغادره مصمماً ألا تطأه قدماه مستقبلاً.

---

(١) بدأ بلزاك هنا يشير بطريقة شفافة إلى دلفين دي جيراردين، وأختها غير الشقيقة الكونتيسة أودونيل. وبدءاً من طبعة فورن أخذ نظام الإسناد في «الملهاة الإنسانية» ينغلق على نفسه فكميل موبن وهو اسم الشهرة لفليسيته دي توش يرد بشكل رئيس في «بياتريس» كما يرد اسم السيدة فيرمياني في أحد أقسام الرواية ذاتها.

(٢) أوستند ostende: مدينة بلجيكية على بحر الشمال، تشتهر بتربية المحار. (المترجم).

قال في نفسه وهو يجتاز الرواق الحجري ليذهب إلى غرفته في الفندق ويتزوّد ببعض المال:

«كانت إيف على حق فالأسعار في باريس تختلف كثيراً عنها في هومو».

تأمل بإعجاب في طريقه دكاكين الخياطين وهو يفكر بالأناقة التي رآها هذا الصباح وصاح: «كلا، لن أظهر بهذه الهيئة الزّرية أمام السيدة دسبار وهرع بخفة الغزال حتى فندق غايار - بوا وصعد إلى غرفته وتناول مئة إكو، ونزل مسرعاً إلى الباليه رويال حيث سعى إلى تأمين أناقته في عشرة متاجر متفرقة، وقدّم له الخيّاط في أوّل متجر مجموعة من الثياب أقنعته بأنها آخر صرخة في الموضة. وخرج لوسيان من المتجر بسترة خضراء وبنطال أبيض، وصدار مبهرج كلّفته مئتي فرنك، ووجد في متجر آخر حذاء في منتهى الأناقة وعلى مقاس قدميه وبعد أن اشترى جميع لوازمه توجّه إلى الحلاق فأتم زينته، وفي الساعة السابعة مساءً صعد في عربة أقلته إلى الأوبرا، وهو في منتهى الأناقة مع شعور ببعض الضيق في هذه الجدّة التي تسربله لأوّل مرة في حياته. وسأل، وفقاً لتوصية السيّدة دي بارجتون عن مقصورة طليعة نبلاء المجلس، وأمام مظهر أناقته المصطنعة كأنه إشبين عرس طلب منه المراقب أن يبرز بطاقة دعوته.

- ليست معي.

- أجاب المراقب بلهجة جافة: لايمكنك الدخول إذن.

- لكنني مدعو من قبل السيدة دسبار.

- لم نبلغ بذلك.

وتبادل المراقب ابتسامة خفيّة مع زملائه الآخرين.

في تلك اللحظة توقّفت عربة تحت واجهة الأوبرا المعمّدة، وقام حوذي لم يعرفه لوسيان ببسط مرقاة العربة التي هبطت منها سيدتان في أتمّ زينة، وكان لوسيان

قد أبى الانصياع إلى أمر المراقب بالابتعاد عن الممر ، ووقف في مواجهة المرأتين ، والمراقب يقول له بسخرية : «ولكن هاهي المركيزة دسبار التي تزعم أيها السيد أنك تعرفها» .

ذُهل لوسيان لأن السيدة دي بارجتون لم تعرفه في مظهره الجديد ، لكنها ابتسمت له عندما تقدم في اتجاهها وقالت له : «ها أنت في الوقت المناسب ، تعال ! »

أفسح المراقبون له الممّر برصانة ، فتبع السيّدة بارجتون التي قدّمت صديقها النبيل دي روبمبره إلى نسيبتها المركيزة وهم يصعدون سلّم الأوبرا العريض .

كانت مقصورة النبلاء الأوائل موجودة في إحدى الزاويتين المقطوعتين في نهاية القاعة : ومنها يرى الجالس جميع الجهات كما يُرى من قبل الجميع . وجلس لوسيان خلف نسيبته على كرسي ، وهو سعيد لوجوده في الظلّ .

قالت المركيزة بلهجة ملؤها الإغراء : «ياسيد روبمبره ، إنّها المرة الأولى التي تأتي فيها إلى الأوبرا ، ويحق لك أن تكون في موقع ترى فيه كل شيء ، فخذ هذا الكرسي ، واجلس إلى الأمام ، فنحن نسمح لك بذلك .

أطاع لوسيان ، وعند نهاية الفصل الأول من الأوبرا همست لويز في أذنه معبّرة عن دهشتها لتغير مظهره : «عرفت جيداً كيف تستغل وقت فراغك» .

كانت لويز قد بقيت على حالها ، ومجاورة المركيزة دسبار ، المرأة على الموضة ، المماثلة في باريس للسيدة دي بارجتون في أنغوليم ، أضرّت بها كثيراً ؛ فالباريسية اللامعة أظهرت نقائص المرأة الريفية ؛ ولوسيان المتنوّر بشكل مضاعف ، بجمال الطبقة الراقية في هذه الصالة الفخمة ، وبهذه المرأة الشهيرة رأى أخيراً في أناييس دي نغربليس المسكينة ، المرأة الحقيقية ، المرأة التي يراها أبناء باريس : امرأة كبيرة الهامة ، جافّة مصابة بالعدة الورديّة ، ذاوية ، صهباء الوجه والشعر ، بارزة التقاطيع ، ومتصنّعة ، متحذلقة ، مغرورة ، ريفية في حديثها ، قليلة الترتيب خاصة ! والواقع أن ثنيات ثوب باريسي قديم تبقى شاهدة على الذوق ، و يمكن تعليلها ،

وبيان قيمة الثوب، لكن ثوب الأقاليم القديم لايمكن تفسير أصله، و هو يثير الضحك. فالثوب والمرأةكانا دون ظرافة، ودون نضارة، وقد التمع الخمل كما التمعت سحنة الوجه، وخجل لوسيان لأنّه أحبّ هذه المرأة الشبيهة بعظم الحبّار، ووعد نفسه بأن يستغل أوّل سورة فضيلة للويز للتخلّي عنها؛ وقد سمح له نظره الحاد بأن يلحظ المناظير الصغير مصوبة نحو المقصورة الارستقراطية بنوع خاص، فالنساء الأكثر أناقة يتفحصون السيدة دي بارجتون بكل تأكيد، لأنهن كن يبتسمن وهن يتحدثن؛ وإذا كانت السيدة دسبار قد أدركت من الحركات والابتسامات الأنثوية سبب الاستهزاء، فإنها لم تبال به أبداً، فمن المفترض أن يكون كل امرئ قد تعرف في رفيقتها على نسيبة مسكينة وافدة من إحدى المقاطعات التي قد تبتلي كل عائلة باريسية. ثم أن نسيبتها قد حدثّتها عن هندامها مظهرة بعض التخوّف، وطمأنتها بعد أن لاحظت أن أناييس ستأتلف بسرعة مع الأساليب الباريسية بعد أن تتزّين كباريسية، وإذا كانت السيّدة دي بارجتون مخالفة للمألوف فإنها تتميزّ بهذه الأنفة الخاصة بامرأة نبيلة، ومالا أدري مما يسمّى الأصالة، وفي يوم الاثنين القادم ستأخذ إذن بثأرها، والمركيزة تعرف أن الجمهور سيتوقف عن سخرياته عندما يدري أن هذه المرأة نسيبتها، وهي تنتظر اختباراً جديداً قبل أن تحكم عليها. ولوسيان لم يقدّر ماسيحدثه في شخصية لويز وشاحٌ يحيط بعنقها وثوب جميل، وتسريحة شعر أنيقة، ونصائح السيدة دسبار؛ وكانت المركيزة قد قالت لنسيبتها وهما تصعدان دَرَج الأوبرا ألا تحتفظ بمنديلها مبسوطاً في يدها، ومثل هذه الدقائق الصغيرة تدلّ على حسن الذوق أو سوئه، وتلتقطها المرأة الذكية بسرعة، بينما لاتنتبه إليها بعض النساء. لم تكن الإرادة الطيبة تعوز السيدة دي بارجتون، ولاينقصها الذكاء لتدرك موضع خطئها، كما أن السيدة دسبار، الواثقة من أن تلميذتها ستكون عند حسن ظنها، لم ترفض تدريبها، وقام بين المرأتين ميثاق وطّدته مصلحتهما المشتركة؛ أظهرت السيدة دي بارجتون تعلقاً بالمركيزة أشبه بالتدله لمعبود طارئ، فقد فتنتها طرائقها وذكاؤها ومحيطها، وبهرتها، وسحرتها، وعرفت فيها القدرة الخفية

لسيدة كبيرة الطموح، وأحست أن بإمكانها أن تجاريها إن دارت في فلكها: وأظهرت إعجابها بها صراحة، وكان لهذا التقدير العفوي وقع طيب في نفس المركيزة، فاهتمت بنسيبتها وقد رأتها ضعيفة ومسكينة، ثم أنها كانت قد أجرت ترتيباتها لتعدّها تلميذة وتعدّ نفسها معلمة مدرسة، ولم تر أفضل من حيازة السيّدة دي بارجتون وصيفة شرف، وأمةً تتغنى بمدحها، وكنزاً مايزال بين نساء باريس أكثر ندرة من ناقدمخلص في الوسط الأدبي؛ غير أن حركة الفضول غدت كثيرة الوضوح بحيل لاتخفى على الوافدة الجديدة، وأرادت السيدة دسبار بشكل مهذب أن تحرف انتباهها عن سبب هذا الانفعال فقالت لها:

«إن بدرت لنا زيارات طارئة فسنعرف على الأرجح، سبب اهتمام هؤلاء السيّدات. .·. ردّت السيّدة دي بارجتون ضاحكة: لعلّ في مظهر ثوبي المخملي القديم، ووجهي المعبّر عن ملامح أهل آنغوليم سبباً مسليّاً للباريسيات.

قالت المركيزة وهي تتأمّل الشاعر. وكأنها تراه لأول مرة وتجد في هندامه مظهراً غريباً: كلا إنّ الأمر لايتعلّق بك، إنما بشيء واحد لا أجد تعليلاً له.

في تلك اللحظة رفع لوسيان إصبعه مشيراً إلى مقصورة السيّدة سريزي وقال: هوذا السيّد دو شاتليه وبدا المتظرف في حلة جديدة وهو يدخل تلك المقصورة عند تلك المبادرة عضّت السيدة دي بارجتون شفتيها امتعاضاً، لأن المركيزة لم تستطع أن تمتنع عن نظرة وابتسامة دهشة وكأنها تقول باستخفاف «من أين خرج هذا الشاب؟» وأحسّت لويز أنّها مزدراة في غرامها، وهو الإحساس الأكثر إهانة بالنسبة لفرنسيّة وهي لاتغفر لحبيبها أن يكون سببه؛ ففي هذا العالم الذي تغدو الأشياء الصغيرة كبيرة، تُضيّع حركة أو كلمة مبتدئاً، والاستحقاق الرئيس للتصرفات اللائقة وأدب العشرة السامية يتجلى في تهيئة واحدة منسجمة متينة اللحمة لامكان فيها للإحراج وأولئك الذين لايتقيدون بقوانين هذا العلم، جهلاً منهم أو شروداً نزقاً، سيدركون جميعاً أن أي نشاز في هذا المجال، كماهو في الموسيقى إنكار تام للفن ذاته الملزم بتنفيذ جميع شروطه في أدقّ تفاصيلها تحت طائلة الخسارة الكلية.

سألت المركيزة وهي تشير إلى شاتليه: من يكون هذا السيد؟ وهل سبق أن تعرّفتم على السيّدة دي سريزي.

- آه! هذه إذن السيدة دي سريزي الشهيرة، التي لم تحل مغامراتها العديدة على أن تستقبل في كل مكان؟!!

أجابت المركيزة: إنّه شيء خارق ياعزيزتي، شيء قابل للتفسير، لكنه لم يُفسَّر! فالرجال الأكثر رهبة أصدقاؤها، لماذا؟ مامن أحد تجرأ أن يكشف هذا السرّ لكن أيكون هذا الرجل أسد آنغوليم؟

- قالت أنابيس: إنّه السيد البارون دو شاتليه، وهو الرجل الذي تحدّث عنه الناس كثيراً، وهو رفيق السيد دي مونريفو...

هكذا دفع الزهو السيّدة دي بارجتون إلى منح المتدلّه بها في باريس اللقب الذي كانت تنكره عليه في آنغوليم.

قاطعتها المركيزة مظهرة الأسف: «لاأسمع أبداً هذا الاسم دون أن أفكر بتلك المسكينة الدوقة دي لانجه التي اختفت كأنها شهاب عابر[1]». ثم أشارت المركيزة إلى مقصورة أخرى وقالت: «لاحظي هناك، السيد دي راستينياك مع السيدة دي نوسنجن زوجة مورد مؤن، ومصرفي، ورجل أعمال، وتاجر جملة كبير، رجل يفرض نفسه على مجتمع باريس بثروته، ويقال إنه لايتورع عن استخدام جميع الوسائل لزيادتها، وهو يبذل أقصى الجهود لإقناع الناس بولائه للبوربونيين، وسبق له أن حاول التقرّب لي وظنّت زوجته باستيلائها على مقصورة الدوقة

(١) الدوقة دي لانجه: إحدى روايات الثلاثية البلزاكية «تاريخ الثلاثة عشر»، وقد أحبّت الجنرال دي مونريغو ثم خدعته بقسوة وندمت في النهاية على تصرّفها، لكن الجنرال لم يشأ الصفح عنها، ودفعها القنوط إلى الاختفاء، وأدراك مونريفو خطأه فراح يبحث عنها لكنه لم يجدها إلا في العام ١٨٢٣ لاجئة إلى دير في جزر الباليار، وقضت نحبها بعد فترة وجيزة؛ وهكذا ففي مدّة أحداث رواية «أوهام ضائعة» كانت الدوقة ماتزال مختفية ومن هنا تأسُف المركيزة وجهلها لمصير الدوقة وفقاً لتصريحها أعلاه.

دي لانجه أنها ستحظى بظرفها وذكائها ونجاحها! إنها تكرار لقصة عصفور القيق الذي استعار ريش الطاووس[1].

– قال لوسيان للسيّدة دي بارجتون مبدياً دهشته من أناقة راستينياك الشاب والترف الذي يبدو عليه: «كيف يتمكن السيد والسيدة دي راستينياك من سد نفقات ولدهما في باريس، ونحن نعلم أن دخلهما لايتجاوز ألف إكو؟

– ردت المركيزة بسخرية دون أن تتخلى عن منظارها: «من يسمع قولك يدرك أنك آت من آنغوليم».

لم يدرك لوسيان مغزى هذا التعليق، فقد كان منصرفاً بكليته أن يتأمّل مظهر المقصورات، وقد خمّن الأحكام التي تُطلَق فيها على السيدة دي بارجتون والفضول الموجه إليه. ومن جهتها كانت لويز تشعر بالخيبة على الأخص لعدم اهتمام المركيزة بوسامة لوسيان، وقالت في نفسها: «إنّه ليس إذن على هذا القدَر من الحسن الذي توهمته!» بعد هذا، لم تبق إلا خطوة لتجده أقل ذكاءً.

وأسدل الستار، ومرّ شاتليه يزور الدوقة دي كاريغليانو في مقصورتها المجاورة لمقصورة السيدة دسبار، ومنها حيّا السيّدة دي بارجتون التي ردّت على تحيته بانحناءة من رأسها؛ ولاحظت المركيزة، وهي سيدة المجتمع التي ترى كل شيء، هندام دو شاتليه الفائق الأناقة. وفي تلك اللحظة دخل أربعة أشخاص، الواحد بعد الآخر، إلى مقصورة المركيزة، وهم من المشاهير الباريسيين.

كان السيد دي مارسي أوّل الداخلين، وهو رجل اشتهر بالأهواء التي يوحي بها، ويتميّز بجمال الفتيات، جمال رخي، أنثوي، ترفع من قيمته نظرة حازمة، هادئة، شرسة وقاسية كنظرة النمر: يُحَبُّ ويروِّع: كان لوسيان جميلاً، لكن نظرته تفيض نعومة، وعينيه الزرقاوين تشعان صفاء حتى أنه يبدو مجرّداً من تلك القوة، وتلك القدرة اللتين تستهويان النساء، عدا عن أنه مايزال مغموراً ولم يعرف عنه إلاأنه شاعر، بينما تميّز دي مارسي بسرعة بديهة، وثقة بالنفس، وأناقة تناسب

---

(١) إحدى قصص لافونتين.

شخصيته وتسحق كل المنافسين حوله؛ ولكم أن تحكموا في جوار هذا الوافد، على ما يمكن أن يكون لوسيان المترصن، العاجز، المتزمت، الجديد جدَّة أثوابه. واكتسب دي مارسي حق التلفظ ببذاءات يمنحها طرافة الفكاهة، ويرافقها بظرف الأساليب، وقد بينت حفاوة استقبال المركيزة به للسيدة دي بارجتون مدى نفوذه. أما الوافد الثاني فكان أحد الأخوين فاندنيس، هذا الذي سبب فضيحة الليدي دودلي[1]، وهو شاب دمث ونبيه ومتواضع، وقد نجح بمزايا مخالفة تماماً لتلك التي يعتزُّ بها دي مارسي، وأوصت به السيدة دي مورسوف نسيبة المركيزة؛ أما الشخصية الثالثة فهو الجنرال مونريفو المسبّب لاختفاء دوقة لانجة؛ وكان الوافد الرابع السيد دي كاناليس أحد أشهر شعراء ذلك العصر، شاب مايزال في فجر مجده، وهو أكثر اعتزازاً بلقبه النبيل منه بموهبته، وهو يبدو مهتماً بالسيّدة دسبار ليخفي غرامه بالدوقة دي شوليو، ويلاحظ رغم ظرفه المشوب بالتكلف، طموحه الواسع الذي دفع به في غمار عواصف الحياة السياسية، ولم تتمكن وسامته شبه المصطنعة، ولا أساليبه المنمّقة أن تخفي أنانيته العميقة ومخططاته المستمرة لتوطيد مكانة مشكوك بها، لكن اختياره للدوقة دي شوليو، وهي السيدة التي تجاوزت الأربعين من العمر أكسبته رضى البلاط، واستحسان ضاحية سان جرمان، وشتائم الليبراليين الذين يسمونه شاعر البيعة[2] عندما رأت السيّدة دي بارجتون هذه الوجوه الأربعة المرموقة أدركت سبب عدم اهتمام المركيزة بلوسيان، وعندما بدأت المحادثة أبان كل من هؤلاء الموهوبين البارعين المرهفين بلمحات خاطفة تحمل من المعاني والأفكار العميقة مالايمكن لأناييس أن تسمعه خلال شهر في المقاطعة، وخاصة عندما نَطق الشاعر الكبير بعبارة تهزّ المشاعر عن وضع ذلك العصر ولكنها مصبوغة بقالب شعري. وأدركت لويز مغزى قول دو شاتليه لها في العشية عن عدم اعتبار لوسيان، فكل من الحاضرين ينظر إلى هذا المجهول المسكين بلا مبالاة قاسية، فهو

(١) هو فليكس دي فاندنيس: بطل رواية **الزنبقة في الوادي**.

(٢) كاناليس: شخصية وهمية من الشخصيات المتكررة في روايات بلزاك وهو نموذج تركيبي من لامارتين وفيكتور هوغو، ڤينيي، وورد ذكره مع الدوقة دي شوليو في «مذكرات زوجتين شابتين» لكن أنانيته تظهر خاصة في رواية «مودست مينيون» التي يعد أحد أبطالها الرئيسين.

هنا أشبه بغريب لايفهم لغة الحديث الجاري، حتى أن المركيزة تملكتها الشفقة عليه، فقالت لكاناليس:

«اسمح لي، ياسيدي، أن أقدّم لك السيد دي روبمبره، فأنت تشغل مكاناً سامياً جداً في الأوساط الأدبية يتيح لك أن تستقبل فيها مبتدئاً، فالسيد دي روبمبره وصل لتوّه من آنغوليم، وهو دون شك بحاجة لحمايتك ووساطتك لدى أولئك الذين يسلّطون الضوء على العبقرية، ليس له أعداء يهيئون له فرصة النجاح بمهاجمتهم له، أليست هذه مناسبة شبه غريبة يجب انتهازها لمحاولة الحصول بالصداقة على ماتمكنت من نيله بحقد الآخرين؟»

نظر الأشخاص الأربعة عندئذ، والمركيزة تتكلّم، إلى لوسيان، وثبت دي مارسي منظاره بالرغم من أنّه على بعد خطوتين منه، وراح يوجهه بحركة ساخرة تارة إلى لوسيان وأخرى إلى السيدة دي بارجتون مما أربكهما؛ كان يفحصهما كحيوانين يثيران الفضول ويبتسم ابتسامة هي ضربة خنجر بالنسبة إلى رجل المقاطعات الكبير، وبدا الإشفاق على فليكس دي فاندنيس، وألقى مونريفو على لوسيان نظرة يسبر فيها حتى عمق أعماقه.

قال السيد دي كاناليس: «سيدتي، سأطيعك مخالفاً المصلحة الشخصية التي تدفعنا إلى عدم تزكية منافسينا، ولكنك عوّدتنا على اجتراح العجائب».

- حسن، يسعدني أن تحضر مع السيد روبمبره مساء الإثنين القادم لتناول العشاء في منزلي حيث يمكننا التحدّث بحرية أكبر حول القضايا الأدبية؛ وسأحاول أن أجذب بعض عتاة الأدب والمشاهير الذين يدعمونه، عدا عن مؤلفة أوريكا[1] وبعض الشعراء الشباب الحسني التفكير.

(١) أوريكا Ourika: رواية للدوقة دي دورا (١٧٧٨ - ١٨٢٨) ابنة الاميرال دي كرسنت الذي أعدم خلال الثورة العام ١٧٩٣، وكانت تجمع في لندن المهاجرين الفرنسيين، وهي صديقة شاتوبريان، ورواية أوريكا التي ظهرت في العام ١٨٢٣ تتحدث عن الحب المعاكس باختلاف عرقي.

قال دي مارسي: سيدتي المركيزة، إن كنت تشملين برعايتك السيد لذكائه، فأنا سأحميه لوسامته، وسأقدم له نصائح تجعله أسعد غندور في باريس، ويمكنه بعد ذلك أن يغدو شاعراً إن أراد.

شكرت السيّدة دي بارجتون نسيبتها بنظرة ملؤها العرفان بالجميل.

قال مونريفو لدي مارسي: «لا أعرفك حسوداً لأهل الذكاء، فالسعادة تقتل الشعراء».

استأنف دي مارسي حديثه متوجّهاً إلى كاناليس ليرى مدى تأثير ملاحظته على السيّدة دسبار: ألهذا السبب يسعى السيد إلى الزواج[1]؟»

هزّ كاناليس كتفيه، واستغرقت السيّدة دسبار وهي صديقة السيدة دى شوليو بالضحك، كان لوسيان يحسّ وهو في ملابسه الجديدة كأنه مومياء مصرية ملفوفة بأربطة تحنيطها، وانتابه الخجل لصمته وأخيراً قال بصوت عذب للمركيزة «إن طيبتك ياسيدتي، تلزمني ألا أسعى إلا إلى النجاح».

دخل دو شاتليه في تلك اللحظة وهو يغتنم فرصة دعم مونريفو أحد ملوك باريس له لدى المركيزة؛ وحيّا السيّدة دي بارجتون ورجا السيدة دسبار أن تغفر له جرأته على غزو مقصورتها: فقد بَعُدَ به الزمن عن رفيق رحلته! وهو يجتمع بمونريفو مجدّداً لأول مرة بعد افتراقهما وسط الصحراء.

قال لوسيان: «تفترقان في الصحراء، وتلتقيان في الأوبرا!»

قال كاناليس: «إنّه اعتراف حقيقي بفضل المسرح».

قدّم مونريفو البارون دو شاتليه للمركيزة، التي أظهرت ترحيباً متملقاً بالسكرتير السابق لخدمات صاحبة السمو الامبراطوري، بعد أن رأت مالقيه من

---

(١) تلميح لزواج دي لامارتين الذي تمّ في آيار ١٨٢٠، وفي المدّة التي تعود إليها أحداث رواية «رجل كبير في المقاطعات» أي حزيران ١٨٢١، كان بلزاك يسخر من زواج لامارتين بالنبيلة الانكليزية، وقد كتب لأخته «سأحاول أن أنظم قصائد رومانسية توصلني إلى زواج مماثل لزواج السيد دي لامارتين».

استقبال طيّب في ثلاث مقصورات، وخاصة لدى السيّدة سريزي التي لاتستقبل إلا الأشخاص المرموقين، عدا عن أنّه كان رفيق مونريفو وهذا مايكسبه مكانة أمكن للسيدة دي بارجتون أن تلاحظها في لهجة الوافدين الأربعة ونظراتهم وتصرفاتهم، وقد عدّوا دو شاتليه واحداً منهم دون مناقشة؛ وتجلى فجأة لناييس التصرّف السلطاني الذي مارسه دو شاتليه في المقاطعة. أخيراً ألقى دو شاتليه نظرة عارضة على لوسيان وبادره بإحدى هذه التحيات الغائرة الجافة التي يحطُّ فيها الرجل من شأن آخر بالتلميح للحاضرين بدرجته الوضيعة في المجتمع؛ وأرفق تحيته بابتسامة تهكمية كأنه يقول: أيّة مصادفة أوجدته هنا؟ وفهم الحاضرون تلميح دو شاتليه لأن دي مارسي مال على أذن مونريفو هامساً: «اسأله إذن من يكون هذا الشاب الغريب الذي يبدو كتمثال عرض على باب خياط».

وشوش دو شاتليه مدّة من الوقت رفيقه السابق كأنه يجدّد تعارفهما ويقلّل من شأن منافسه، ولوسيان مندهش لحضور البديهة والدقة التي يصوغ فيها هؤلاء الرجال أجوبتهم؛ وذهل لما يُسمى الميزة، والكلمة، وخاصة الطلاقة في العبارة ويُسر الأسلوب. ووجد أن الترف الذي روّعه صباحاً في الأشياء متوفر هنا في الأفكار، وتساءل عن القوّة الخفية التي تمكّن هؤلاء الأشخاص من التوصل بشكل فوري و مفاجئ إلى الأفكار اللاذعة والردود السريعة التي لايتمكّن من تصوّرها إلابعد تأمّلات طويلة؛ ثم أن رجال المجتمع الخمسة هؤلاء لم يقتصروا في الانطلاق على سجيتهم في الكلام، إنما كانوا كذلك في ملابسهم الخالية من كل جديد ومن كل قديم، فليس عليهم شيء يبرق، وكل ماعليهم يلفت الأنظار، فأبهتهم تتجلّى اليوم كما كانت في البارحة، وستبقى على ماهي عليه غداً، بينما ظهر لوسيان كرجل يتأنق لأوّل مرّة في حياته.

قال دي مارسي لفليكس دى فاندنيس: «أرى ياعزيزي أن هذا الفتى راستينياك ينطلق كحنطب! فقد لقي النجاح لدى المركيزة دي ليستومير؛ وهاهو يسلّط منظاره إلى هذه الجهة!.

أجابت السيدة بارجتون: «من الصعب ألاّ يصل إليه اسم الرجل الكبير الذي نعتز به، خاصة وأن أخته استمعت مؤخراً إلى السيد دي روبمبره وهو يلقي علينا بعض الأشعار الجميلة».

حيّا فليكس دي فاندنيس ودي مارسي المركيزة وعادا إلى مقصورة السيدة دي ليستومير أخت دي فاندنيس. وبدأ الفصل الثاني من الأوبرا، وغادر الجميع مقصورة السيدة دسبار التي بقيت مع نسيبتها ولوسيان وحدهما، وانصرف بعضهم يشرحون وضع السيّدة دي بارجتون للنساء اللواتي أثار فضولهن وجودها، بينما تحدّث بعضهم الآخر عن وصول الشاعر وسخروا من تزيّنه، والتحق كاناليس بمقصورة الدوقة دي شوليو ولم يعد؛ وبدا لوسيان سعيداً بلهو تلك الأمسية بينما ازدادت مخاوف السيدة دي بارجتون المتعلّقة بلوسيان لما أظهرته نسيبتها من اهتمام بالبارون دو شاتليه وهو اهتمام مختلف تماماً عن الحماية المهذبة التي أبدتها للوسيان. وخلال الفصل الثاني بقيت مقصورة السيّدة ليستومير ممتلئة بالناس الذين بدوا منصرفين إلى نقاش يدور على الأرجح حول السيدة دي بارجتون ولوسيان، وكان راستينياك الشاب على مايبدو محرك هذه المحادثة ومسلّي الحاضرين، فهو محفّز هذا الضحك الباريسي الذي يدور كل يوم حول مادة جديدة، يجعل باستنفاد موضوعها الحاضر ويجعل منه في لحظة شيئاً قديماً مستهلكاً؛ وكانت السيدة دسبار، القلقة، تعلم أن أيّة نميمة لن تتأخر في الوصول إلى أولئك الذين يرغبون في تجريحها، وانتظرت نهاية الفصل، فالأحاسيس عندما ترتد إلى ذاتها كما حصل للوسيان والسيدة دي بارجتون، تحدث أشياء غريبة في مدّة قصيرة من الزمن؛ فالانتفاضات المعنوية تجري وفق قوانين ذات مفعول سريع، ومثُلت في خاطر لويز الكلمات الحكيمة واللبقة التي نطق بها دو شاتليه عند عودتهما من فودفيل والمتعلقة بلوسيان. كانت كل عبارة من عباراته نبوءة يعمل لوسيان على تحقيقها كاملة. فعندما فقد الفتى المسكين أوهامه عن السيدة دي بارجتون، كما فقدت هي بدورها أوهامها عنه غدا قدره أشبه إلى حدّ مابقدر جان جاك روسو الذي يسير على نهجه

حتى أنّه سُحر بالسيدة دسبار، وأُغرِم بها سريعاً؛ والفتيان أوالرجال الذين يتذكرون انفعالات شبابهم يدركون أن هذا الهوى محتمل وطبيعي. فالتصرفات الصغيرة الجميلة، وهذا النطق اللطيف ونبرة الصوت الناعمة؛ هذه المرأة الهيفاء الفائقة النبل، الرفيعة المقام، المشتهاة، هذه الملكة بدت للشاعر كما بدت من قبلها له السيّدة دي بارجتون في آنغوليم، وسرعان مادفعه تقلّب طباعه إلى الرغبة بهذه الحماية الرفيعة، والوسيلة الأضمن لذلك هي امتلاك المرأة، فيها يمتلك كل شيء! لقد نجح في آنغوليم، فلماذا لاينجح في باريس؟ ولا إرادياً، ورغم روائع الأوبرا الجديدة بالنسبة له، كان نظره المنجذب بهذه «السليمين»[1] الساحرة، يتوجّه في كل لحظة نحوها، وكلمّا أمعن النظر فيها ازداد رغبة في رؤيتها! وفاجأت السيدة دي بارجتون إحدى هذه النظرات المتوّقدة، ولاحظت أن لوسيان أكثر اهتماماً بالمركيزة منه بالمسرحية؛ ولو أنه انصرف عنها إلى تأمل بنات داناووس الخمسين[2] لارتضت ذلك عن طيب خاطر، لكن نظرة أكثر طموحاً، وتوّقداً، وتعبيراً كشفت لها عمّا يجيش به قلب لوسيان فانتابتها الغيرة، لاخشية على المستقبل بل تحسّراً على الماضي، وفكرت «بأنه لم ينظر إليها أبداً مثل هذه النظرة، يا إلهي. إن شاتليه على حقّ!» واعترفت بخطأ حبّها. عندما تشعر امرأة بالندم على موقف ضعفها، فكأنها تمسك اسفنجة تمررها على حياتها لتمسح كل شيء؛ وبالرغم من أن كل نظرة من نظرات لوسيان تثير غيظها فإنها بقيت هادئة. وفي فترة الاستراحة الثانية، عاد دي مارسي برفقة السيد دي ليستومير[3] إلى المقصورة؛ وقام الشاب المزهّو مدعوماً

---

(١) سليمين silimÉne: شخصية من مسرحية كاره البشر لموليير، وهي مثال المرأة اللعوب، النمامة، المرحة. (المترجم)

(٢) داناووس هو ملك مصر في الميثولوجية الإغريقية، والدانابيد هن بناته الخمسون اللواتي قتلن أزواجهن ليلة العرس باستثناء واحدة، وحكم عليهن في الجحيم بملء برميل لاقعر له، وهذا المشهد يظهر في الفصل الثاني من أوبرا مسرحية دانابيد لساليري.

(٣) المركيز دي ليستومير النائب وأحد المقربين في البلاط الملكي وقد ذُكر في قصة «كاهن تور»، وكان يقدّم النصائح لابن أخيه البارون دي ليستومير قبطان أحد المراكب، أمّا المركيزة دي ليستومير فهي الأخت البكر للأخوين دي فاندنيس، وقد جعل منها بلزاك بطلة قصته: **دراسة عن المرأة** ويجب التمييز بينها وبين ذويها: البارونه دي ليستومير صديقة الكاهن بيروتو، والكونتيسة دي ليستومير - لاندون التي تظهر في رواية «**امرأة في الثلاثين**».

بالرجل الرصين بإعلام المركيزة المتعالية أن الفتى المتسربل بأثواب العرس الذي شاء الحظ أن تستقبله في مقصورتها بعيد عن اسم دي روبمبره النبيل بعد اليهودي عن اسم المعمودية، وهو ابن صيدلي اسمه شاردون؛ وأن السيد دي راستينياك المطلع على أحوال آنغوليم قد أضحك حتى الآن مقصورتين على حساب هذه المومياء التي تسميها المركيزة نسيبتها، والحيطَة التي تتخذها تلك السيدة في إيجاد صيدلي إلى جانبها لتتمكن على الأرجح، من تأمين العقاقير اللازمة لحياتها المتصنعة؛ أخيراً سرد دي مارسي بعض هذه الفكاهات التي يتداولها الباريسيون لبرهة، وينسونها بسرعة بعد قولها، وتراءى أن منشئ هذه النميمة الغادرة شاتليه.

همست السيدة دسبار للسيدة دي بارجتون من خلف مروحتها: « من فضلك ياعزيزتي، أنبئيني إن كان محّميك يسمى حقاً دي روبمبره.

أجابت أنابيس مرتبكة: لقد اتخذ اسم أمه.

- ولكن ماهو اسم أبيه؟

- شاردون.

- وماذا كان يفعل هذا الشاردون؟

- إنّه صيدلي.

- إنني على ثقة، ياصديقتي العزيزة، أن باريس بأجمعها لن تتمكّن من السخرية بامرأة أرعاها، ولا أهتم برؤية بعض المازحين الذي يسعدهم المجيء إلى هنا لرؤيتي في صحبة ابن صيدلي، لكن صدقيني أن من الأفضل أن نغادر هذا المكان معاً. وفي الحال.»

اتخذت السيدة دسبار مظهراً متغطرساً، دون أن يستطيع لوسيان تخمين سبب تغيرها، وفكّر أن صداره لاينمّ عن ذوق حسن، وهذا صحيح؛ وأن تفصيلة سترته من طراز مفرط في التزويق، وهذا صحيح أيضاً؛ وأدرك بعبارة خفية عدم توفيقه باختيار ملابسه الجديدة، ووعد نفسه بأن يذهب في اليوم التالي إلى أشهر خياط ليتمكن في الاثنين القادم من منافسة الرجال الذي سيلقاهم لدى المركيزة،

وبالرغم من أنّه كان تائهاً في أفكاره، فإن عينيه المتيقظتين للفصل الثالث لم تتحولا عن المشهد، بل كان ينظر إلى فخامة هذا العرض الفريد(١) وهو يحلم بالسيدة دسبار وقد تملّكه القنوط لبرودها المفاجئ المعاكس بشكل غريب للحميّة الفكرية التي يستهلُّ بها هذا الحبّ الجديد دون أن يبالي بالصعوبات الجمّة التي لحظها ووعد نفسه بالتغلب عليها. واستفاق من تأملاته العميقة ليرتد بنظره إلى معبودته الجديدة، وماأن أدار رأسه حتى وجد نفسه وحيداً؛ كان قد سمع ضجّة خفيفة، والباب ينغلق. كانت السيدة دسبار قد انسحبت تتبعها نسيبتها، وانتاب لوسيان ذهول شديد لهذا الهجر المفاجئ، لكنه لم يفكر به مدة طويلة، لأنه لم يجد له تعليلاً بالضبط.

عندما درجت العربة بالمرأتين عبر شارع ريشليو وهي تتجه إلى ضاحية سان أونوره، قالت المركيزة بلهجة يشوبها غضب مقنع: «بماذا تفكرين يا ابنتي العزيزة؟ لكن انتظري إلى أن يغدو ابن الصيدلي شهيراً فعلاً قبل أن توليه اهتمامك، فالدوقة دي شوليو لم تبح حتى الآن بتعلقها بكاناليس رغم أنه نبيل، ورغم شهرته.» ثم استأنفت المرأة المتعالية وهي تلقي على نسيبتها نظرة متفحصة جليّة: «إن هذا الفتى ليس ابنك ولا عشيقك، أليس كذلك؟»

صمتت السيدة ديس بارجتون وهي تقول في نفسها: «أي تعقّل صائب دفعني أن أُوقف هذا الفتى التافه عند حدّه، وألاّ أمنحه شيئاً!».

تابعت المركيزة وقد لاحظت علائم النفي في عيني نسيبتها: حَسَنٌ، دعيه حيث هو، أناشدك ذلك. أيدّعي اسماً نبيلاً؟... هذه جرأة يعاقب عليها المجتمع، حتى ولو كان اسم أمه. ولكن فكّري ياعزيزتي، أن للملك وحده حقّ منح اسم روبمبره بموجب أمر ملكي لابن آنسة من هذا البيت، وإذا كان زوجها غير متكافئ ومن غير مثيلها، فإن منح هذا الإنعام الملكي يغدو صعباً جداً، ويحتاج إلى ثروة واسعة، وإلى تقديم خدمات كبيرة، والتمتع بحمايات سامية، ومظهر هذا

(١) كانت أوبرا «داناييد» تمثل مع استخدام وسائل مسرحية مدهشة: مشاعل متوهجة، هزيم رعود، ورؤى جهنميّة.

الدكاني المتهندم في ثياب العيد يبرهن على أنه ليس غنياً، ولانبيلاً؛ إنّه ذو وجه صبوح، لكنه يبدو لي في غاية الحمق، فهو لايعرف كيف يتمالك نفسه وكيف يتكلّم: أخيراً فهو غير مهذب، فأية مصادفة تدفعك لحمايته؟

دبّ الرعب في نفس السيدة دي بارجتون التي تتنكّر الآن للوسيان، كما يتنكّر لوسيان لها ضمناً، وخشيت ألا تستوعب نسيبتها الغرض الحقيقي من رحلتها فقالت:

«لكنني أخشى، يانسيبتي العزيزة، أن أكون قد ورطتك».

- ردت السيدة دسبار مبتسمة: أنا لا أتورّط، ولا أفكّر إلا بك.

- ولكنك دعوته للعشاء مساء الإثنين.

- أجابت المركيزة بسرعة: سأكون مريضة، وستخطرينه بذلك، وسأحظر إدخاله بأيٍ من اسميه، إلى منزلي.»

رأى لوسيان أن يتجول في بهو الأوبرا خلال الاستراحة الأخيرة وقد رأى أن جميع الناس يؤمونه، ولاحظ في البدء أن أيّا من الأشخاص الذين وفدوا على مقصورة السيدة دسبار لم يوّجه إليه التحية، وتظاهر الجميع بعدم الانتباه إليه، وبدا هذا الأمر غريباً جداً لشاعر المقاطعة، خاصة وأنه جرّب أن يتوجّه إلى شاتليه فرمقه بازدراء بطرف عينه وتجنّبه باستمرار، وبعد أن اقتنع، بملاحظته الرجال المتجولّين في البهو، أن هندامه مثير للسخرية، عاد إلى الجلوس في زاوية مقصورته، وبقي طيلة المدّة الباقية من العرض مستغرقاً تارة بمشهد الباليه الفخم في الفصل الخامس الشهير بمرأى «الجحيم»؛ وتارة أخرى بمظهر القاعة التي راح بصره يتنقل فيها من مقصورة إلى أخرى، والأفكار العميقة تتناوبه بوجود هذا المجتمع الباريسي(١)، ولسان حاله يقول: «هي ذي إذن مملكتي! هوذا العالم الذي يجب أن أخضعه». وعاد إلى فندقه سيراً على الأقدام وهو يفكر بكل ماقاله الأشخاص الذين وفدوا يتوّددون للسيدة

(١) يتناقض هذا المشهد مع ملاحظة سابقة للروائي ذكر فيها أن الطبقة الراقية تهجر باريس في شهر حزيران، وأن جمهور الأوبرا في تلك الفترة أشبه بالسُّجُف المستهلكة.

دسبار، وبتصرفاتهم وفي اليوم التالي كان همّه الأول أن يذهب إلى ستوب[1]، الخياط الأكثر شهرة في تلك الحقبة، وتمكن بعد مزيد من الرجاء، وبفضل التسديد نقداً، من تفصيل ثياب يستلمها يوم الاثنين المشهود، ووعده ستوب بمعطف أنيق وصدار وبنطال لذلك اليوم الحاسم وأوصى لوسيان لدى خياطة بياضات على قمصان ومناديل، بل على جهاز من هذه الأشياء الصغيرة، وتوّجه إلى حذاء مشهور أخذ مقاس قدميه لإعداد حذاء وجزمة له، واشترى عصا جميلة من محل قرديه وقفّازات وأزرار أكمام قمصان من محل السيدة إيرلاند، أخيراً جرّب أن يكون على مستوى الغنادير، وعندما أمن جميع نزواته، توجّه إلى شارع نوف - دي - لوكسمبورغ، فوجد لويز قد خرجت.

قالت له ألبرتين: «ستتناول العشاء لدى السيدة المركيزة دسبار، وستعود متأخرة» ذهب لوسيان إلى أحد المطاعم الرخيصة في باليه - رويال فتعشى وتوجّه إلى النوم في ساعة مبكرة. وفي يوم الأحد ذهب منذ الساعة الحادية عشر لزيارة لويز، فلم يجدها قد نهضت من النوم، فعاد في الساعة الثانية.

قالت له ألبرتين: ماتزال سيدتي غير مستعدة لاستقبال أحد، لكنها أعطتني هذه الرسالة لك.

- ردّد لوسيان: غير مستعدة لاستقبال أحد، ولكنني لا أُعدُّ أحداً. . .

قالت ألبرتين بلهجة وقحة: لا أعلم.

كان لوسيان أقل دهشة لجواب ألبرتين منه لتلقي رسالة من لويز، ففض الغلاف في الشارع وقرأ هذه الأسطر الدافعة للقنوط:

«السيدة دسبار متوعكة، ولايمكنها استقبالك يوم الاثنين، وأنا منحرفة المزاج، ومع ذلك فسأذهب لأكون إلى جانبها، إنني قانطة من هذه المعاكسة الصغيرة، لكن مواهبك تطمئنني، وسيلمع نجمك دون أي تدجيل.»

---

(١) كان مقرّ هذا الخياط في ٩٢ شارع ريشليو.

قال لوسيان في نفسه وقد وصل إلى التويلري دون أن يحسّ بالمسافة التي قطعها:

«خالية من التوقيع!.». إن منحة البصيرة التي يمتلكها أصحاب المواهب جعلته يتوقّع المصيبة التي تنذر بها هذه الرسالة الفاترة. وتاه في أفكاره، وسار على غير هدى وهو ينظر إلى أوابد ساحة لويس الخامس عشر[1]؛ وكان الطقس جميلاً والعربات الفخمة تمرّ أمام ناظريه دون انقطاع متوجهة إلى جادة الشانزليزيه، واختلط بجماهير المتنزهين ورأى عندئذ ثلاثة أو أربعة آلاف عربة تتوافد على ذلك المكان في يوم أحد اعتدل مناخه، وكأنها تعدّ لمضمار لونشامب[2]: وأذهله الترف المتجلي في عُدَد الخيول وتبرجات المتنزهين وكسوات الحوذيين والخدم، ووصل في سيره إلى موقع الورش العاملة في قوس النصر[3] لكن ماذا حلّ به عندما شاهد أثناء عودته المركيزة دسبار، والسيدة دي بارجتون في عربة مطهمة الخيول، وتتألق من خلفها زينة خادم بثيابه الخضراء الموشاة بخيوط ذهبية تميّز عن سائر الخدم، وتوقّف رتل العربات عقب زحام وعرقلة. واستطاع لوسيان أن يرى لويز، وقد تحوّلت حتى لايمكن التعرّف عليها: فألوان زينتها قد اختيرت بطريقة تظهر نعومة بشرتها؛ وكانت ثيابها رائعة، وشعرها مسرح بعناية تلائمها، وقد اختيرت قبعتها بذوق مرهف تلفت الأنظار إلى جانب قبعة السيدة دسبار التي تعتبر مثالاً للموضة: إذ أن لاعتماد القبعة طرقاً غير محدودة: فإن وضعتها مرتدة كثيراً إلى الخلف بدت بمظهر

---

(1) هي ساحة الكونكورد، وقد دشنت في العام ١٧٦٣ باسم ساحة لويس الخامس عشر، وسميت في ١٧٩٢ ساحة الثورة، ثم في العام ١٧٩٥: ساحة الكونكورد، ثم أعيدت تسميتها في العام ١٨١٤: ساحة لويس الخامس عشر، وفي العام ١٨٢٦ ساحة لويس السادس عشر، ثم كان اسمها في العام ١٨٣٠ وحتى يومنا هذا ساحة الكونكورد.

(2) لونشامب Longchamp: مضمار طويل في غابة بولونية للعربات والخيول. دشنّ في العام ١٨٦٣ ميداناً لسباق الخيل.

(3) قوس النصر في ساحة النجمة في باريس: قرّر نابليون إنشاءه في العام ١٨٠٦ غداة انتصاره في أوسترليتز، ووضع حجر الأساس له في ١٥ آب. ووصلت الأعمال في العام ١٨١٤ إلى عقد القوس الكبير حين توقفت في عهد حكومة البوربون ورفعت الصقالة الخشبية، وفي العام ١٨٢٣ أمر لويس الثامن عشر باستئناف العمل الذي استمر متقطعاً إلى أن دشن القوس في ٢٩ تموز ١٨٣٦.

القحّة المتهتكة، وإن دليتها كثيراً إلى الأمام، كان ذلك دلالة تكتم، أمّا وضعها جانبياً فدلالة فروسية؛ أما النساء المحترمات فيضعن قبعاتهن كما يردن مكتسبات على الدوام المظهر الحسن؛ وقد تمكنت السيدة دي بارجتون على الفور من حلّ هذا الإشكال الغريب، فوضعت حزاماً جميلاً يرسم جمال قامتها الهيفاء، واتبعت حركات وتصرّفات نسيبتها، فتشبَّهت بها عند جلوسها، وعلقّت بإصبع يدها اليمنى سلسلة صغيرة في نهايتها حقّ عطور، وبذلك أظهرت حسن تكوين يدها الجميلة ضمن قفازها دون تكلّف في كشفها، أخيراً عملت على التشبّه بالسيدة دسبار دون تقليد غبي بل بجدارة النسيبة المقرّبة التي تعتزّ بها المركيزة. فكان النساء والرجال المتنزهون على الرصيف يلتفتون لمشاهدة العربة الفخمة الموسومة بشعاري دسبار وبلامون - شوفري المتماسين ودهش لوسيان من عدد الأشخاص الذين يوجّهون تحياتهم للسيدتين النسيبتين، فقد كان يجهل أن الطبقة النبيلة التي تتردد على عشرين صالة في باريس غدت على علم بقرابة السيدة دي بارجتون للسيدة دسبار ولاحظ كوكبة من الشباب الخيالة عرف منهم دي مارسي وراستينياك تواكب العربة لمرافقة السيدتين إلى منتزه الغابة، وكان من السهل على لوسيان أن يدرك من حركات هذين المزهوّين أنهما يثنيان على السيدة دي بارجتون ولما أجرته من تحولات على مظهرها، وكانت السيدة دسبار تتألق حسناً وعافية وهكذا لم يكن توعكها إلاذريعة لعدم استقبال لوسيان، لأنها لم تؤجل دعوة عشائها إلى يوم آخر.
واقترب الشاعر مغتاظاً من عربة السيدتين وسار متمهلاً، وعندما وجد نفسه على مرأى منهما وجّه إليهما التحية، وأشاحت السيّدة دي بارجتون بوجهها متجنّبة رؤيته، ونظرت إليه السيدة دسبار من طرف عينها ولم تردّ على تحيته، فاستهجان الارستقراطية الباريسيةمختلف عن رفض سادة آنغوليم، فالنبلاء الريفيون، مع محاولتهم النيل من لوسيان، لاينكرون قدرته، ويعتبرونه رجلاً، بينما لا وجود له بالنسبة للسيدة دسبار، ليس هذا حكماً وإنّما هو امتناع عن إصدار حكم، وانتابت الشاعر المسكين رعشة قاتلة عندما لاحظ أن دي مارسي يوجّه إليه منظاره ثم يرميه ببرود، خيل للوسيان فيه أن هذا النمر الباريسي يوجّه إليه طعنة سكين. ومرت

العربة وتملّك الغضب والرغبة في الانتقام هذا الرجل المهان: ولو تيسّر له الإمساك بالسيدة دي بارجتون لخنقها، وتمنّى لو أنّه فوكيه - تينفيل[1] ليستمتع بإرسال السيدة دسبار إلى المقصلة، وودّ لو يمكنه أن يطبق على دي مارسي تلك الأساليب الجهنمية من التعذيب التي ارتكبها المتوحشون، ثم رأى كاناليس يمرّ ممتطياً جواده، في كامل الأناقة التي يجب أن تظهر على أرق الشعراء، وهو يوجّه تحياته إلى أجمل النساء.

قال لوسيان في نفسه: «ياإلهي يسر لي الوصول إلى الذهب بأيّة وسيلة، فالذهب هو القدرة الوحيدة التي يسجد أمامها العالم» لكنه سمع صوت ضميره يرد مستنكراً: «كلا لكن المجد هو القدرة، والمجد لايُدرك إلا بالعمل! العمل! هذه هي كلمة دافيد، يا إلهي! لماذا أنا هنا؟ لكنني سأنتصر! وسأمرُّ في هذه الجادة مستقلّاً عربة فخمة، خلفها خادم خاص ببزّة متميّزة، وسيكون لي كثيرات من أمثال السيدة دسبار». نطق بهذه الكلمات المغتاظة وتوجّه لتناول عشائه بما لايتجاوز أربعين فلساً في مطعم هوربن[2]. وفي اليوم التالي، توجه في التاسعة صباحاً لزيارة لويز مصمماً على لومها لما أظهرته من بربرية نحوه، لكن البوّاب منعه من الصعود إلى شقّتها مدّعياً أنها غير موجودة؛ وبقي في الشارع يراقب المكان حتى الظهر حين رأى دو شاتليه يخرج من الشقة، وتجنّب هذا المنافس لوسيان بعد أن لمحه بطرف عينه، لكن الشاعر الملدوغ في صميمه تبعه، وأحسّ دُو شاتليه أنه محاصر، فارتد إلى الوراء، وحيّاه، وفي نيته أن يدخل في صميم الموضوع بعد مبادرته المهذّبة.

قال لوسيان: «أرجوك ياسيدي، أن تسمح لي بثانية من وقتك، فلدي كلمتان أريد قولهما لك. لقد أظهرت لي بادرة صداقة أودُّ أن أعتمد عليها لأسألك أتفه الخدمات. لقد خرجت لتوك من زيارة السيّدة دي بارجتون، فهلا بيّنت لي سبب تنكّرها مع السيّدة دسبار لي؟

---

(١) فوكيه - تنيفيل Fovquier - Tinville: (١٧٤٦ - ١٧٩٥) مدعي عام المحكمة الثورية، لم يرحم أحداً في عهد الإرهاب، وأرسل العديدين إلى المقصلة، ثم نفذ به، بدوره، حكم الإعدام عقب سقوط روبسبير.

(٢) مطعم هوربن HURBAIN: مطعم صغير كان يقع في رقم ٦٥ من رواق الحجر في الباليه رويال.

- أجاب شاتليه مظهراً بطيبة مزيّفة: سيّد شاردون، هل تعلم سبب مغادرة هاتين السيدتين للأوبرا من دونك؟

- كلا.

- الواقع أن السيد دي راستينياك قد ألحق بك الضرر منذ البداية، فهذا الغندور الشاب، عندما سأل عنك، أجاب بمنتهى الصراحة أن اسمك السيد شاردون وليس السيد دي روبمبره، وأن والدتك تقوم على تمريض النساء النفساوات بعد الوضع، وأن والدك كان في حياته صيدلياً في هومو، ضاحية آنغوليم، وأختك شابّة لطيفة تجيد كي القمصان. وأنها ستتزوج طباعاً في آنغوليم اسمه سيشار. هوذا العالم. أتريد أن تظهر؟ سيتحرّون عن وضعك، وقد جاء السيد دي مارسي يسخر منك أمام السيدة دسبار. وسرعان ما فضّلت هاتان السيّدتان الهرب خشية الإهانة بوجودك، لاتحاول أن تتصل بأي منهما، فالسيدة دسبار لن تستقبل نسيبتها السيّدة دي بارجتون إن استمرت هذه في علاقتها بك. إنّك صاحب موهبة فجرّب أن تأخذ بثأرك. الجأ إلى سقيفة، وحقّق أعمالاً مشهورة، استحوذ على قدرة ما، وسترى العالم عند قدميك، وستردّ إليه الصاع صاعين وفي ذات المكان الذي آلمك فيه. بقدر ماتظهر السيدة دي بارجتون لك من مشاعر الصداقة، بقدر ماتحاول الابتعاد عنك. هذه هي عواطف النساء؛ لكن الأمر لايتعلق باستعادة صداقة أناييس، وإنما بعدم تحولّها إلى عدوة لك، وسأهيىء لك الوسيلة لتجنب ذلك. سبق أن كتبت لك، فأعد لها جميع رسائلها، وستقدّر لك هذه البادرة النبيلة، فإن احتجت إليها فيما بعد، فلن تكون مناهضة لك، أما أنا فإني أعتقد بمستقبلك الواعد وسأدافع عنك في كل مكان، وإن رأيتَ منذ الآن أنني أستطيع أن أعينك في أمر فإنني مستعد لخدمتك».

كان لوسيان على درجة من الكآبة والشحوب، والإعياء، لم يستطع فيها أن يرد للمتظرف الذي استعاد في الجو الباريسي نشاطه التحية المتكلّفة التي قابله بها، وعاد إلى فندقه حيث وجد الخياط ستوب الذي حضر بنفسه لاليجرب له الثياب

التي أوصى عليها، وقد سبق له تجريبها، وإنما ليستوضح من صاحبة غايار - بوا عن مدى ملاءة زبونه المالية. وأفادت صاحبة الفندق أن لوسيان وصل من السفر في عربة وأن السيّدة دي بارجتون عادت معه من مسرح ڤودڤيل، يوم الخميس الماضي في عربتها الخاصة. وطمأنت هذه المعلومات الخياط ستوب، وكان ينادي لوسيان سيدي الكونت، وبين له بأيّ براعة أبرز له قوامه الجميل قائلاً:

«يمكن لشاب بهذه الأناقة أن يذهب للتنزه بكل ثقة في حدائق التويلري، وسيتزوج انكليزية ثرية خلال خمسة عشر يوماً».

هذه الدعابة اللطيفة من الخياط الألماني، وأناقة الملابس، ونعومة القماش، والوسامة التي وجد لوسيان نفسه بها وهو ينظر إلى المرآة جعلته أقل حزناً، وقال في نفسه بإبهام إن باريس كانت دائماً عاصمة المصادفات، وآمن بالمصادفة للحظة. أليس لديه ديوان شعر، ورواية رائعة: **نبّال شارل التاسع** بشكل مخطوطة؟ وأمِلَ بقدره ووعده ستوب بإنهاء المعطف وباقي الثياب في اليوم التالي. وفي الغد حضر الحذّاء، وخيّاطة البياضات، والخياط، ومعهم فواتيرهم، وكان لوسيان مايزال متبّعاً عادات المقاطعة، فلم يعرف كيف يصرفهم؛ وسدّد لهم كامل حساباتهم، فلم يبق معه من الألفي فرنك التي حملها معه إلى باريس إلا ثلاثمئة وستون فرنكاً: ولم يمض عليه إلا أسبوع في باريس!! غير أنه ارتدى ثيابه وذهب لإجراء دورة على مصطبة دير فويان، وأحسّ ببدء الانتقام؛ فهو في غاية الأناقة، والظرف، والوسامة حتى أن عدة نساء نظرن إليه، وعادت اثنتان أو ثلاثة وقد بُهرن بوسامته إلى الالتفات نحوه بعد أن تجاوزنه. ودرس لوسيان سيرورة الشباب وتصرفاتهم، وأتقن دروسه وهو يُفكّر بمبلغ الثلاثمئة وستين فرنكاً المتبقي معه. وفي المساء، خطر له وهو وحيد في غرفته أن يجلو مسألة عيشه في فندق غايار - بوا حيث يتناول وجبة الغداء من أطعمة بسيطة معتقداً بالتوفير وطلب كشف حسابه رغبة في

الانتقال، وفي اليوم التالي هرع إلى الحيّ اللاتيني وكان دافيد قد ذكر له رخص أسعاره، وبعد أن فتش طويلاً انتهى إلى فندق حقير في شارع كلوني[1] قرب السوربون حيث حصل على غرفة بالسعر الذي يرغب، وعاد سريعاً فسدّد حسابه لصاحبة فندق غايار - بوا ونقل أمتعته ليستقر خلال النهار في شارع كلوني ولم يستغرق هذا الانتقال إلا الوقت اللازم للعربة لقطع المسافة بين الفندقين.

بعد أن استقر في غرفته المتواضعة، جمع رسائل السيّدة دي بارجتون وضمّها في رزمة، ووضعها على منضدته، وقبل أن يبدأ بالكتابة لها فكّر بأحداث هذا الأسبوع المشؤوم[2]؛ لم يفكر بأنّه كان أوّل من تنكّر بطيش لحبّه. دون أن يعلم ما سيكون مصير لويز في باريس، ولم يلحظ أخطاءه، ولم ير إلا وضعه الحالي؛ وأتهم السيدة دي بارجتون بأنها بدلاً من أن تهديه ضلّلته، وتملّكه الغيظ، وشعر بالإباء، وكتب لها وهو في سورة الغضب، الرسالة التالية:

«ماذا تقولين، يا سيّدتي، عن امرأة أعجبها فتى خجول مسكين، ممتلئ بهذه المعتقدات النبيلة التي يسمّيها الرجل فيما بعد أوهاماً؛ فاستخدمت سحر التودُّد، ونباهة الذهن، وأجمل مظاهر الحبّ الأمومي لتحرف ذلك الفتى؟ ولم تدّخر الوعود الأكثر ملاطفة، ولا قصور أوراق اللعب التي تفتنه، واصطحبته، وتسلطت عليه، وأنّبته على قلّة ثقته، وأطرته وعلّلته بالأماني مرّة بعد مرّة، وعندما هجر

(١) يشكل شارع كلوني الجزء من شارع فيكتور - كوزين الواقع بين ساحة السوربون وشارع كوجاس.

(٢) شكل توقيت هذا الأسبوع خلاصة لرواية أوهام ضائعة في العام ١٨٣٧، فالروائي قد أشار بشكل عارض إلى أن سهرة مسرح ڤودڤيل جرت في يوم الخميس، وهذا يعني أنه وصل إلى باريس مع السيدة دي بارجتون في يوم الأربعاء، وفي يوم الجمعة كانا مدعوين إلى حفلة الأوبرا من قبل السيدة دسبار، وفي يوم السبت كان يوم قلق لوسيان وارتباكه، وفي يوم الأحد رفضت السيدة دي بارجتون استقباله، وألغت السيدة دسبار دعوته للعشاء المحدّدة ليوم الاثنين، وفي ذلك اليوم أيضاً عرف من دو شاتليه أن لويز تخلّت عنه نهائياً، وفي اليوم التالي سدّد نفقات ملابسه وأجرى حساباته، وفي يوم الأربعاء انتقل من فندقه، وبدأ يراجع أحداث هذا الأسبوع المشؤوم.

الفتى عائلته، وتبعها بلا تبصّر قادته إلى شاطئ بحر واسع، وأدخلته بابتسامة إلى قارب واه، وأطلقته وحيداً دون مساعدة عبر العواصف، ثم راحت، من الصخرة التي استقرّت عليها، تضحك وتتمنّى له حظاً طيّباً. أنت هذه المرأة وأنا هذا الفتى. بين يدي هذا الفتى تذكار يمكن أن يكشف عن جرائم إحسانك ونِعمَ هجرك. ستنتابك ذكريات تدفعك إلى الاحمرار خجلاً عند مصادفتك الفتى والأمواج تتقاذفه، إن فكرت باحتضانك السابق له. وعندما تقرئين هذه الرسالة سيكون التذكار في متناولك؛ وأنت حرُّة في نسيان كل شيء. فبعد الآمال الجميلة التي رافقت أصبعك وهو يدلُّني على السماء، لمحت حقائق الشقاء في أحوال باريس؛ وبينما تنطلقين متألقة، معبودة عبر أمجاد هذا العالم الذي قدتني إلى عتبته، سأرتعش في السقيفة البائسة التي رميتني بها، لكن قد ينتابك تبكيت الضمير وأنت ترتعين في المسرّات والاحتفالات، وقد تفكرين بالفتى الذي أغرقته في الهاوية؛ ففكّري ياسيدتي به دون تأنيب ضمير! فهذا الفتى من عمق شقائه، يمنحك الشيء الوحيد المتبقي له، يمنحك عفوه في نظرة أخيرة. نعم يا سيّدتي، فبفضلك لم يبق لي إلا العدم. العدم! أليس هو الذي استُخدمَ لتكوين العالم؟ وعلى العبقرية أن تسير على نهج الله: إنني أبدأ بامتلاك حلمه، ولا أعلم إن كنت سأمتلك قدرته. وسيكون عليك أن ترتعشي إن جرفني الشر، فأنت متواطئة مع أخطائي. للأسف! سأرثي لك لأنك لم تستطيعي السير معي على دروب المجد الذي أصبو إليه بالجدّ والعمل».

بعد أن كتب هذه الرسالة المفخّمة، إنمّا الممتلئة بعزّة نفس حزينة يغالي بها غالباً الفنان وهو في الحادية والعشرين من العمر؛ جمح الفكر بلوسيان إلى تذكّر عائلته، فتراءت له الشقة الجميلة التي هيأها له دافيد مضحياً بقسم من ثروته

المتواضعة، وتتابعت في خاطره المسرّات الهادئة، البسيطة، البيتية التي تذوقها، وطافت من حوله خيالات أمّه، وأخته، ودافيد، وتردّدت في سمعه الزفرات الدامعة التي تأوّهوا بها وهم يودعونه، وبكى بدوره، وأحسّ بأنه وحيد في باريس دون أصدقاء أو حماة له.

بعد عدة أيام تمكنّ أن يكتب لأخته الرسالة التالية.

عزيزتي إيڤ

إنّ للأخوات الحظوة البائسة في أن يلقين الأحزان بدلاً من الأفراح وهن يتقاسمن الحياة مع أخوة نذروا أنفسهم للفن، وقد بدأت أخشى أن أكون عالة عليك ألم يسبق لي استغلالكم كلكم، أنتم الذين ضحيتم من أجلي؟. ذكرى ماضيَّ هذه، المملوءة بأفراح العائلة، أعانتني على تحمل وحشة حاضري. وبسرعة النسر العائد إلى عشّه عبرت المسافة التي تفصلنا لأتخيل نفسي في جو العواطف الصادقة الحقيقة بعد أن عانيت أوائل بؤس المجتمع الباريسي وأوائل خيباته! هل سطعت أنواركم؟ وهل تضرّمت جمرات النار في مواقدكم؟ هل سمعتم طنيناً في آذانكم، فقالت أمي: «أيفكر لوسيان بنا؟» ويجيبها دافيد: «أهو في صراع مع الناس والأشياء؟». ياعزيزتي إيڤ، هذه الرسالة لك وحدك. فلكِ وحدك أجرؤ على البوح بما يحصل لي من خير وشر، وأنا أحمرُّ خجلاً من هذا وذاك، لأن الخير هنا نادر بقدر مايجب أن يكون الشرّ، وسأنبئك عن كثير من الأشياء بقليل من الكلمات: شعرت السيدة دي بارجتون بالخجل من صحبتي، فأنكرتني، وصرفتني، وتخلّت عني منذ اليوم التاسع لوصولنا[1]. وعندما تراني تشيح برأسها، وقد أنفقت من أجل اتباعها في العالم الذي أردت أن تطلعني فيه ألف وسبعمئة وستين فرنكاً من الألفي فرنك التي حملتها من آنغوليم، وتمكنتم من تأمينها لي بعد عناء، ستقولين «على ماذا؟». يا أختي المسكينة. إن باريس بالوعة

---

(١) أهي كذبة مقصودة من الروائي، أم نسيان؟ فلويز قد تخلّت عنه ولم تعد تراه منذ اليوم التالي لسهرة الأوبرا أي منذ اليوم الرابع لوصولهما إلى باريس.

رهيبة، يمكن الحصول على عشاء بثمانية عشر فلساً، بينما تناول عشاء بسيط في مطعم أنيق يكلّف على الأقل خمسين فرنكاً. يمكن شراء صدار أو بنطال بأربعة فرنكات وأربعين فلساً، بينما لايقوم خياط يتبع الموضة الدارجة على إعداد أحدهما بأقل من مئة فرنك. يجب منح فلس لاجتياز سيول الشارع عندما تمطر، ولاسبيل لركوب عربة بأقل من اثنين وثلاثين فلساً. وبعد أن سكنت في حي جميل، اضطررت للانتقال إلى نُزُل كلوني في شارع كلوني، أحد أفقر شوارع باريس الضيّقة وأكثرها عتمةً، فهو منحصر بين قباب ثلاث كنائس[1] وأبنية السوربون القديمة، وأنا أشغل غرفة في الطابق الرابع من هذا النزُل، وأدفع رغم قذارتها وعريها خمسة عشر فرنكاً أجرة شهرية لها. أقتصر عند الظهر على وجبة بسيطة من رغيف خبز بفلسين وكأس حليب بفلس واحد، لكنني أتناول عشاءً جيّداً في مطعم يُعرف باسم مطعم فليكوتو[2] ويقع على ساحة السوربون بالذات، ولن تتجاوز نفقاتي حتى الشتاء القادم أكثر من ستين فرنكاً في الشهر، على الأقل هذا ما آمله، وهكذا فإن المئتي وأربعين فرنكاً الباقية معي تكفي لإعالتي أربعة أشهر، سأتمكّن خلالها، دون شك من بيع رواية «**نبال شارل التاسع**» وديوان «**أزهار المرغريت**»؛ فلا يخالجك إذن أي قلق بشأني؛ فلئن كان الحاضر بارداً وعارياً وقاتماً فالمستقبل وضاء، وعامر، ورائع. وقد عانى كبار الرجال من صروف الدهر التي تؤلمني لكنها لن ترهقني. فقد كان بلوت[3] الشاعر الهزلي الكبير خادماً في مطحنة وألّف مكيافيلي[4] كتاب «الأمير» بينما كان يقضي نهاراته في أوساط العمال؛ آخيراً فإن سرڤانتس[5] الكبير فقد أحد ذراعيه في معركة ليبانت مساهماً في نصر ذلك اليوم،

(١) هي كنيسة السوربون، وكنيسة كلية كلوني، وكنيسة دير اليعقوبيين الذي هدم فيما بعد وشق عبره شارع كوجاس.

(٢) فليكوتو Flicoteaux : ورد اسم هذا المطعم المتواضع لدى كثير من مشاهير الأدباء مما سيأتي ذكره.

(٣) بلوت plaute : (٢٥٤ - ١٨٤ق.م) شاعر هزلي لاتيني.

(٤) مكيافيلي: (١٤٦٩ - ١٥٢٧) أديب وسياسي إيطاليا اشتهر بكتاب **الأمير** المنادي بمبدأ الغاية تبرر الوسيلة.

(٥) سرڤنتس (١٥٤٧ - ١٦١٦) من أكبر أدباء أسبانية، شارك في شبابه في معركة «لبانت» البحرية التي وقعت قرب المرفأ اليوناني المسمى بهذا الاسم وانتصر فيها دون جوان النمسة على الأتراك.

استقى بلزاك معلوماته عن ميكافيلي وسرڤنتس من كتاب السير الذاتية الشاملة لمؤلفه جوزيف ميشو (١٧٦٧ - ١٨٣٩) وهو أحد مراجع بلزاك المعتمدة.

وقد أطلق عليه كويتبو عصره لقب «العجوز الأكتع القبيح» وانقضت عشر سنوات بين صدور الجزء الأول والجزء الثاني من مؤلفه العظيم «دون كيشوت» لعدم وجود ناشر له، وأنا لم أصل إلى هذا الحد، فالأحزان والشقاء لاتنال إلا من المواهب المجهولة، لكن ما أن يُسلط على هذه المواهب الضوء حتى يغدو الأدباء أصحابها من الأغنياء، وسأكون غنياً، وأنا أعيش هذه الحالة فكرياً، فأقضي نصف يومي في مكتبة سان جنفييف حيث أتزوّد بالثقافة التي تنقصني، والتي لايمكنني الانطلاق بعيداً دون الحصول عليها؛ وأنا أجد نفسي الآن سعيداً تقريباً، فبعد عدة أيام تلاءمت بسرور مع وضعي، وسأنصرف منذ اليوم إلى عمل أحبّه؛ فمعيشتي الماديّة مؤمّنة وأنا منطلق في التأمل والدراسة، ولا أدري مايمكن أن يؤثر بي بعد أن تخليت عن العالم الذي يمكن أن ينال من زهوي في كل لحظة. إنّ على المشاهير أن يعيشوا بعيداً عن الأضواء أليسوا عصافير الغابة[1]؟ يغرّدون، ويفتنون الطبيعة دون أن يلحظهم أحد، وهذا ما سأفعله، بقدر ما أستطيع أن أحقق مخطّطات فكري الطموحة، وأنا لاأتأسف أبداً على السيّدة دي بارجتون؛ فامرأة تقوم بمثل هذا التصرف لاتستحق الذكرى؛ كما أنني لا أتأسف أبداً على مغادرتي آنغوليم. وكانت هذه المرأة على حقّ عندما رمتني في باريس وتركتني فيها دون سند إلا قواي الذاتية؛ فهذه البلاد هي بلاد الكتاب والمفكرين والشعراء؛ فهنا فقط يُزرَع المجد، وأنا أعرف المحاصيل الجميلة التي ينتجها الآن. هنا فقط يمكن أن يجد الكتاب في المتاحف والمجموعات مؤلفات عباقرة الزمن الماضي الحيّة التي تدفئ الخيال وتحفّزه. هنا فقط تقدّم المكتبات الواسعة المفتوحة على الدوام، للفكر المعلومات والأقوات. أخيراً ففي هواء باريس وفي أقل التفاصيل روح يمكن أن تتضوّع وتنطبع في الإبداعات الأدبية. يمكن تعلم أشياء خلال محادثة نصف ساعة في مقهى، أو

---

(١) يوجّه الروائي هنا بعض السخرية إلى شخصية لوسيان سبق أن ردّدها خصومه في الرواية الأولى «الشاعران» عندما جانسوا بين شاردون chardon وعصفور الحسون chardonneret.

مــســرح، لا تُتــعـلم خــلال عــشــر سنوات في المقــاطعــة والواقع أن كل شيء هنا استعراض ومقارنة وثقافة؛ اتساع رخيص، وغلاء متسع، هي ذي باريس حيث تجد كل نـحلة نخروبها، وتتمثّل كل نفس ماهو خاص ّبها. وإن كنت أتألم في هذه اللحظة، فلست نادماً على شيء؛ بل بالعكس فإن مستقبلاً جميلاً ينبسط ويبهج قلبي المتوجّع منذ فترة. وداعاً يا أختي العزيزة، لاتنتظري تلقي رسائلي بشكل منتظم؛ فإحدى خصائص باريس عدم معرفة كيفية مرور الزمن؛ والحياة فيها ذات سرعة مرعبة. القبلات الأكثر حنواً من أي وقت مضى لأمي، ولداقيد، ولك.

مطعم فليكوتو اسم مدوّن في كثير من المذكرات[1]. كان عدد قليل من الطلاّب يسكنون في الحّي اللاتيني خلال الاثنتي عشر سنة الأولى في عهد الملكية الثانية، ويرتادون معبد الجوع والشقاء هذا. وكانت وجبة العشاء فيه تتألف من ثلاثة صحون ودورق صغير من نبيذ أو زجاجة بيرة بثمانية عشر فلساً. أما إذا استبدل بالدورق زجاجة من النبيذ فالسعر اثنان وعشرون فلساً. وقد حال دون شك بين صديق الشباب هذا وبين جمعه ثروة طائلة مقال عن برنامجه مطبوع بأحرف

---

(١) يذكر الفريد دي موسيه هذا الاسم في دوبون ودوران، كما أن مقالة طريفة في مجلة لامود La Mode تنسب إلى بلزاك، وتتحدث عن غابة بولونيا وحديقة اللوكسمبورغ وتتحدّث عن هذا المطعم «فليكوتو العريق في القدم الذي لايسبب عسر الهضم لإنسان بل أنه يتميز خلال انتقال من أب إلى ابن بخلق المتاعب لأتباع الطبيب أبقراط والمشرع كوجاس» (عدد ٢ حزيران ١٨٣٠) وفي العام ١٨٢٣ خصص مونتيني فصلاً من مؤلفه «ريفي في باريس» للمطاعم ذات وجبة ٢٢ فلس. إذ يتذكّر صديق لمونتيني غدا صاحب مصرف، بكثير من التأثر الأوقات التي كان يذهب فيها لتناول وجبة طعامه عند فليكوتو بثلاثة أو أربعة أو خمسة فلوس كما أن بلزاك نفسه أثناء سكنه في شارع تورنون كان يتردّد على مطعم فليكوتو ليزدرد حساء طالب الطب والحقوق. كان بلزاك آنذاك شاباً قصير القامة، هزيلاً، أهيف، يعيش على الكفاف ويتناول عشاءه لدى فليكوتو كما ظهر اسم فليكوتو حتى في قصيدة «العقوبات» لفكتور هوغو:

كان هذا المتشرد الكاثوليكي يعيش في الزمن السابق

هزيلاً، على وجبة في مطعم فليكوتو، بدلاً من مائدة شيفيه.

نشير أخيراً إلى مقال جميل عن مطعم فليكوتو ظهر في مجلة الذوّاقة Gastronome (عدد ٢٨ تشرين الأول ١٨٣٠).

كبيرة في إعلانات منافسيه صيغ بالشكل التالي: «الخبز باعتدال»[1] أي كأنه «من الأسرار». أمجاد عديدة نُسبت إلى فليكوتو الأب المغذي، وبالتأكيد فإن نفس أكثر من رجل شهير أحست بمتع ذكريات عديدة لاتوصف عند رؤية مظهر الواجهة ذات المربعات الصغيرة المطلّة على ساحة السوربون، وعلى شارع نوف - دي - ريشيلو[2]، التي مازال فليكوتو الثاني أو الثالث محتفظاً بها منذ ماقبل أيام ثورة تموز، تاركاً عليها تلك الألوان السمراء، وهذا المنظر القديم والمحترم الذي ينمُّ عن ازدراء عميق للشعوذة التي يجريها معظم أصحاب المطاعم حالياً على الجدران الخارجية، في نوع من الإعلان يجتذب الأعين فتستثير المعدة؛ وبدلاً من الطرائد المحشوّة بالقش، وغير المخصصة للطبخ، وبدلاً من هذه الأسماك الخيالية التي تبرّر: «رأيت سمكة شبوط جميلة أنوي شراءها خلال ثمانية أيام». وبدلاً من هذه البواكير الخارقة المعروضة على بسطات خدّاعة لمتعة العرفاء وبلدانهم، يعرض فليكوتو المستقيم سلطانيات مزخرفة بعديد من التصليحات تتوزّع عليها أكوام الخوخ الناضج بهجةً لنظر الزبائن؛ وهو واثق أن كلمة تحلية أو فاكهةً التي أسرف في استخدامها ضمن إعلانات أخرى ليست شرُعة[3] لكن كُتَل الخبز ذات الست ليبرات المقطّعة إلى أربعة أقسام تضمن وعد الحصول على الخبز باعتدال. هذا هو ترف مؤسسة، لوكانت في زمن موليير لأشهرها بأبيات شعر هزلية تتهكم على اسمها. لكن فليكوتو مستمر وسيحيا ومادام الطلاب يرغبون بالعيش لا أكثر ولا أقلّ، ففيه يأكلون كما يعملون بفعالية كئيبة أو فرحة وفقاً للطبائع أو الظروف. كان هذا المطعم الشهير يتألف آنذاك من قاعتين منتظمتين في زاوية قائمة، طويلتين وضيّقتين، ومنخفضتين تطلُّ إحداهما على ساحة السوربون والأخرى على شارع نوف - دي ريشليو، وهما مؤثثتان بموائد واردة من إحدى قاعات الطعام مع فُوَط

---

(١) - هذه الذكريات تتوافق مع ماكتبه مونتيني: مطعم (٢٢ فلساً) محاكاة ساخرة للمطعم الكبير، فأنواع الأطعمة المسجلة في القائمة أكثر مما يوجد في المطبخ والوجبة مؤلفة من صحن حساء وصحنين آخرين، وتحلاية ودورق نبيذ «وخبز باعتدال».

(٢) اختفى هذا الشارع مع افتتاح جادة سان ميشيل.

(٣) وعد لايتقيَد به كشرَعة لويس الثامن عشر التي لم تطبق.

المشتركين الموضوعة في حلقات من معدن لمّاع مرقّمة. لم يكن فليكوتو الأول يبّدل الأغطية إلا كلّ يوم أَحَدَ؛ لكن فليكوتو الثاني غدا يُبدلها مرتين في الأسبوع، على مايقال، خشية المنافسة التي بدأت تهدّد أسرته المالكة، كان هذا المطعم أشبه بورشة مع أدواتها وأوعيتها، لا بقاعة ولائم بأناقتها ومسرّاتها؛ فكل زبون يخرج مسرعاً بعد تناول وجبته، والحركات في داخله سريعة فالنُّدُل يروحون ويجيئون دون تهاون، وكلّهم مشغولون في أعمال ضرورية. والأطعمة قليلة التنَوع، والبطاطا عنصر رئيس دائم فيها، فإن لم توجد في إيرلندا، ونقصت في كل مكان، فإنها موجودة باستمرار لدى فليكوتو، وهي تُقدَم فيه منذ ثلاثين سنة بلونها الأشقر الأثير لدى تيتيان[1] وقد أرفقت بأوراق سلطة خضراء مقطّعة، وتتمتّع بحظوة تتمناها النساء؛ هكذا كانت ترى في العام ١٨١٤، وهكذا ستوجد في العام ١٨٤٠. أما لحم ضلع الخروف أو لحم فتيلة العجل فعلى قائمة ذلك المطعم كما ديكة بروبير أو سمك استورجن لدى ڤيري، أطعمة فريدة ينبغي لمن يرغبها أن يوصي عليها منذ الصباح. ولحم البقرات غالب في هذا المطعم، ولحم العجل يبدو بالمظاهر الأكثر براعة. وعندما تكثر أسماك الغبَر والإسقُمري على سواحل المحيط فإنّها تبرز لدى فليكوتو، وهنا كلّ شيء يتناسب مع تقلّبات الزراعة ونزوات الفصول الفرنسية، وفيه تكتسب معلومات لايعرفها الأغنياء والبطّالون واللامبالون، تتعلق بأطوار الطبيعة. فالطالب المستقر في الحيّ اللاتيني يستقي المعلومات الأكثر دقة عن الأحوال المناخية: وهو يعرف مدى جودة مواسم الفاصولياء والبازلاء، ومتى يكثر وجود الملفوف في سوق الهال، وأيّ أنواع الخسّ تغزر فيه، ومتى يقلّ الشوندر. وقد تكرّرت إحدى النمائم القديمة أثناء وجود لوسيان تعزو كثرة انتشار شرائح اللحم إلى إصابات مميتة في الخيول. وقليلة هي المطاعم الباريسية التي يبدو فيها مثل هذا المشهد الجميل؛ فهنا لاتجد إلا الشبيبة والصدق، وبؤساً يتحمل بسرور مع وجود بعض الوجوه المضطرمة الرصينة، أو القلقة العابسة؛ ، الملابس عادة تنقصها العناية، وهكذا يلفت النظر الروّاد المتأنقون، وكل واحد يعرف إن مثل هذا الهندام

(١) تيتيان (١٤٩٠ - ١٥٧٦) رسّام إيطالي شهير (المترجم).

غير المألوف يعني موعداً مع حبيبة، أو سهرة في مسرح، أو زيارة لأوساط رفيعة المقام. ويقال إن صداقات عديدة نشأت بين طلاب غدوا من المشاهير، كما سنرى في هذه الرواية، إنّما باستثناء الشباب الوافدين من منطقة واحدة، يخيّم على متناولي العشاء جو من الرصانة يصعب الانشراح فيه، وقد يكون السبب عدم وجود النبيذ ومزجه بالماء ممايحول دون أي كشف عن المشاعر. ومن ألفوا فليكوتو يمكن أن يتذكّروا عدة شخصيات رصينة غامضة غلّفتهم سُحُب من البؤس الأكثر بروداً، تناولوا وجبات العشاء في هذا المطعم بانتظام خلال سنتين، ثم اختفوا دون أن تستطيع أعين المرتادين الأكثر فضولاً أن تكشف حقيقة هؤلاء العفاريت الباريسيين. كانت الصداقات المبتدئة لدى فليكوتو تتوطّد في المقاهي المجاورة على وهج بَنْش[١] مسكر عذب المذاق، أو على حرارة فنجان قهوة تعطّره خلاصة مشروب كحولي.

خلال الأيام الأولى من استقرار لوسيان في نزل كلوني، بدا ككل مبتدئ بمظهر خجول وسلوك مستقيم بتلك الحميّة الأوليّة التي تبدّد بسرعة الصعوبات والتسليات التي تعرضها باريس على جميع الكائنات من الأكثر ثراءً إلى الأشدّ فقراً، والتي تتطلّب من أجل كبحها حزم الموهبة الحقيقية العنيف أو إرادة الطموح المُصممة.

دخل لوسيان إلى مطعم فليكوتو نحو الساعة الرابعة والنصف مساءً، بعد أن لاحظ مزية الوصول مع أوائل الزبائن، إذ تكون أصناف الأطعمة المتنوعة، وبإمكانه أن يجد طبقه المفضل، وكجميع النفوس الشاعرية، آثر مكاناً معيناً ودلّ اختياره على حسن إدراك وفطنة؛ فمنذ اليوم الأول لارتياده هذا المطعم، لاحظ قرب صندوق المحاسبة مائدة تبدو من مظهر الزبائن الجالسين حولها، ومن أحاديثهم التي تمكن أن يلتقط بعضاً منها أنّهم من الزملاء الأدباء، كما أنه ضمن بدافع من الغريزة أنه بجلوسه قرب الصندوق يتمكن من أن يطيل الحديث مع أصحاب المطعم، فتتوثق مع الأيام صلته بهم، فيحصل إن حلّ به الضيق يوماً على

(١)بنش PUNCH: مشروب مؤلف من الروم، وماء الحياة، وعصارة ليمون، وقرفة (المترجم).

تسليف اضطراري ومهلة للدفع وهكذا جلس إلى مائدة صغيرة مربّعة قرب الصندوق، حيث لم يرَ إلا صحنين وفوطتين بيضاوين دون حلقة مخصصتين على الأرجح للزبائن الموقتين. كان مقابل لوسيان شاب نحيل الجسم، هو على مايبدو فقير مثله، فوجهه الجميل الذابل ينبىء بأن آماله خائبة أرهقته، وتركت على جبينه أخاديد لايمكن للبذور المنثورة فيها أن تنتش أبداً[1]، وأحسّ لوسيان أنه مدفوع إلى هذا الإنسان المجهول بهذه البقايا من الشعر وبمشاركة وجدانية لاتقاوم.

كان هذا الشاب، وهو الأوّل الذي تبادل معه شاعر آنغوليم، خلال أسبوع، لفتات بسيطة، وعبارات وملاحظات متبادلة، يسمى إيتين لوستو، وقد ترك كلوسيان مقاطعته، ومكان نشأته وهو إحدى مدن برّي، منذ سنتين، وهو بحركته المتهيّجة ونظرته المتّقدة، وكلامه المقتضب أحياناً[2] يكشف عن اختبار مرّ للحياة الأدبية، كان إيتين قد أتى من سانسير[3] ومأساته في جيبه، وهو منجذب بما يدغدغ أحلام لوسيان: المجد، والقدرة والمال. هذا الشاب الذي حضر إلى العشاء عدة أيام متتالية، لم يظهر بعد ذلك إلاّ عن بُعد، وكان لوسيان يأمل بعد غياب خمسة أو ستة أيام وبعد أن عثر مجدّداً على شاعره، أن يلقاه في اليوم التالي لكن خاب أمله إذ لاحظ أن المكان قد شغله زبون مجهول. عندما يتمّ لقاء بين شابين في العشية فإنّ خبرة المحادثة تنعكس على اليوم التالي، لكن هذه الانقطاعات تلزم لوسيان على أن يكسر الجليد في كل مرّة ويؤخّر توطيد الصداقة التي أحرزت بعض التقدّم في الأسابيع الأولى، وبعد أن سأل لوسيان محاسبة الصندوق علم أن صديقه المأمول

---

(١) هذا الوصف الأوّل للوستو ينقل بشكل حرفي أحياناً وصفاً لهوراس سان - أوبن (الاسم الأدبي المستعار لبلزاك في مطلع حياته) كما ورد في «حياة ومصائب» لجول ساندو (١٨١١-١٨٨٣) فقد جاء في كتاب ساندو (والأرجح أن ذلك بريشة بلزاك»: في أواخر شتاء١٨٢٩ تعرفت صدفة بشاب نحيل شاحب اسمه هوراس دي سان أوبن، وزرته أحياناً في السقيفة التي كان يشغلها في شارع فور - سان - جرمن، في نزل «الملاك الحارس». كان فقيراً لكنه أبي ويتميز خاصة بخجل الفاقة. وجهه جميل لكنه ذابل، ويبدو أن الآمال التي فارقته تركت أخاديد على جبنيه. وغالباً ماشاهدته بعد ذلك متنزهاً كئيباً في ممرات اللوكسمبورغ المورقة»

(٢) وصف مماثل لساندو في حديثه عن سان أوبن: «حركته متهيّجة، ونظرته متّقدة، وعباراته قصيرة متتابعة».

(٣) يأتي إتيين لوستو، وكان بلزاك قد أطلق عليه أولاً اسم إميل لوستو، من سانسير، ذات البلد الذي أتى منه إميل رنييو، صديق ساندو، وجورج صاند، وبلزاك، وقد بيّن پ. ج. كاستكس أن رنييو وهو طالب طب أحد النماذج الأولى للطبيب بياشون.

صديقه المأمول محرّر في صحيفة صغيرة، يعدُّ فيها مقالات عن الكتب التي تصدر مجدّداً، ويستعرض المسرحيات التي تمثل في مسارح آمبيغو - كوميك وغيته، وبانوراما - دراماتيك[1] وغدا هذا الشاب فجأة شخصية في نظر لوسيان الذي أراد أن تكون محادثته معه أكثر حميمية، مع استعداده للقيام ببعض التضحيات للحصول على صداقة ضرورية جداً لمبتدئ. وبقي الصحفي غائباً خمسة عشر يوماً، ولم يكن لوسيان يدري أنّ إيتين لايتناول عشاءه في مطعم فليكوتو إلا عندما يكون مفلساً، ولهذا كان يبدو بمظهر حزين ينمُّ عن الخيبة ولايقابل ابتسامات لوسيان وكلماته المتملّقة إلا ببرود؛ مع أن هذه العلاقة كانت تتطلب أفكاراً ناضجة، إذ يبدو أن هذا الصحفي الغامض كان يمارس حياةً مبذرة تمتزج فيها بعض كؤوس صغيرة، وفناجين قهوة، وكاسات بنش، وسهرات مسارح ووجبات آخر الليل؛ بينما كان سلوك لوسيان في الأيام الأولى من إقامته في الحي هو سلوك الفتى الفقير النادم على طيشه في تجربته الأولى للحياة الباريسية؛ ، هكذا فبعد أن درس أسعار هذه المشروبات وقدر مابقي في محفظة نقوده لم يجرؤ على مجاراة إيتين في تصرفاته خشية العودة إلى الهفوات التي مازال يعضُّ بنانه ندماً عليها، ويعود إلى ذكرى التزامه الورع في المقاطعة فتنتصب أمامه صورة ملاكيه الحارسين إيف وداقيد عند أقلّ تفكير سيّء تذكّره بالآمال المعقودة عليه، والسعادة التي تتوقعها أمّه العجوز على يديه، وجميع وعود عبقريته، كان يقضي نهاره في مكتبة سان جنيڤيف يدرس التاريخ، وبيّنت له أبحاثه أخطاءً مريعة في روايته «نبال شارل التاسع»؛ وما أن تغلق المكتبة أبوابها حتى يعود إلى غرفته الرطبة والباردة يصحّح مؤلّفه، ويعيد صياغته، ويحذف منه فصولاً كاملة. وبعد أن يتناول عشاءه لدى فليكوتو، يهبط إلى ممرّ التجارة ليطالع في صالة قراءة بلوس[2] مؤلفات الأدب

---

(١) آمبيغو - كوميك Ambigu-Comique مسرح كان موجوداً في البناء رقم٧٦ من جادة التامبل غيته Gaite: مسرح في ١٦-١٨ باب سان مارتن. بانوراما دراماتيك في panorama Dramatique ٤٨ جادة التامبل مقابل شارع شارلو.

(٢) مايزال قسم من هذا الممر موجوداً بين جادة سان جرمان وشارع سان - آندره - دي زار وكانت صالة قراءة بلوس في الرقم ٧ من هذا الممر، وهي من أهم صالات القراءة في البلاد اللاتينية، واستمرت حتى العام ١٨٨٣. وقد قامت صالات القراءة - لقاء اشتراك أو رسم دخول زهيد، عديدة في ظل الملكية الثانية وملكية تموز بسبب غلاء الكتب والصحف. وكانت هذه الصالات تحوي الروايات والصحف والمجلات، والإصدارات الجديدة التي لايتمكن الأفراد من شرائها لغلاء ثمنها، وقد كان في فرنسا، العام ١٨٣٠ نحو ١٥٠٠ صالة تحوي عشرات المجلات والصحف اليومية الفرنسية والأجنبية وآلاف الكتب الأخرى والدراسات التاريخية والأدبية. وهي تجتذب عدداً كبيراً من الطلاب والصحفيين والكتاب المحدودي الدخل.

المعاصر والمجلات الدورية، والصحف، والدواوين الشعرية ليتابع باستمرار الحركة الفكرية ويلتحق حوالي منتصف الليل بفندقه البائس موفّراً نفقات التدفئة والنور. وقد غيّرت هذه المطالعات كثيراً من أفكاره حتى أنه أعاد النظر في قصائده عن الأزهار، «**مرغريتاته العزيزة**» فراجعها ونقّحها حتى لم يبق فيها أكثر من مئة بيت بشكله الأولي وهكذا مارس لوسيان أولاً حياة أبناء المقاطعات الفقراء البريئة الصافية، هؤلاء الذين يجدون منتهى الترف لدى فليكوتو مقارنة بما اعتادوا عليه في البيت الأبوي،. ويروّحون عن أنفسهم بنزهات هادئة في ظلال ممرات اللوكسمبورغ الوارفة، وهم ينظرون فيها إلى الحسناوات بعين منحرفة، وقلب فوّار بالدماء الحارّة، وينصرفون بورَع وإخلاص إلى العمل دون أن يغادروا الحيّ لحرصهم على تأمين مستقبلهم. لكن لوسيان، الشاعر بالفطرة، تعرّض سريعاً لرغبات واسعة، ووجد نفسه ضعيفاً أمام إغراءات إعلانات المسارح: المسرح الفرنسي، والفودفيل، ومسرح المنوّعات، والأوبرا - كوميك حيث انتزعت منه ردهاتها ستين فرنكاً؛ فأي طالب تمكّن أن يقاوم متعة رؤية تالما[1] في الأدوار التي اشتهر بها؟ وسحر المسرح، هذا الحبّ الأول لجميع النفوس الشاعرية، لوسيان وبدا له الممثلون والممثلات شخصيات مهابة، ولم يصدق إمكان اجتياز الحاجز ورؤيتهم بلا تكلّف؛ وكان هؤلاء المؤلفون لمسراته كائنات رائعة تتحدّث عنهم الصحف كأنهم من مصالح الدولة الكبار. أي حلم ساحر يدغدغ الأديب في أن يكون مؤلفاً مسرحياً تمثل مسرحياته! بعض الشعراء الجريئين مثل كازيمير دلافيني[2] حققوا هذا الحلم. هذه الأفكار الخصبة، وهذه اللحظات من الإيمان بالنفس المتبوعة بقنوط، كانت تهز مشاعر لوسيان وتدفعه إلى الاستمرار في طريق العمل الدؤوب والتقتير رغم زمجرة أكثر من رغبة متحمسة، وزيادة في التعقل حرّم على نفسه أن يلج نطاق

(١) تالما Talma: (١٧٦٣ - ١٨٢٦): ممثل شهير، كان المفضل لنابليون، وشهده بلزاك في دور «سيلا» لجوي العام ١٨٢٢، وربّما أيضاً في دور «سينا» العام ١٨١٩.

(٢) كازيمير دلافيني C.Delavigne (١٧٩٣ - ١٨٤٣) شاعر ومؤلف مسرحي، عضو الأكادمية. ربّما شهد له بلزاك مسرحية «صلوات الغروب الصقلية(٢٣ تشرين الأول ١٨١٩) والمنبوذ (١ كانون الأول ١٨٢١) له أيضاً ديوان شعر «المسينيات».

الپاليه – رويال؛ هذا المكان المؤدي إلى الضياع الذي أنفق فيه في يوم واحد خمسين فرنكاً على وجبة طعام في مطعم ڤيري، ونحو خمسمئة فرنك على ملبوساته؛ وهكذا فعندما استسلم لإغراء رؤية فلوري، أو تالما أو الأخوين باتيست، أو ميشو[1]، لم يتجاوز الرواق المعتم حيث يجب الوقوف منذ الساعة الخامسة والنصف في صف طويل بانتظار حلول دورهم لشراء بطاقة، وحيث يضطر المتأخرون لدفع عشرة فلوس للحصول على مكان في المؤخرة قرب المكتب، وغالباً مايلقون بعد الوقوف لمدة ساعتين من يصيح «لم يبق محلات!» عبارة طالما رنّت في أذن أكثر من طالب ليعود خائب الآمل. كان لوسيان يعود بعد العرض وعيناه مسبلتان. لا يريد أت يلقي أيّة نظرة على الشوارع الممتلئة آنذاك بالإغراءات الحيّة؛ إذ ربّما أراد أن يتجنّب تكرار مغامرة سبق أن حصلت له، إحدى هذه المغامرات المتناهية في البساطة، لكنها ذات أهمية كبيرة في المخيّلات الشابة الموسوسة[2]. وفي يوم راجع ماتبقى في حوزته من دراهم، فارتاع من قلتها، وانتابه العرق البارد وهو يفكر بالتحري عن إحدى المكتبات والبحث في أحد الأعمال المأجورة؛ وكان الصحفي الشاب الذي عدّه صديقاً له قد انقطع عن المجيء إلى مطعم فليكوتو، وانتظر مصادفة لم تحدث؛ ففي باريس لاتقع المصادفات إلا للأشخاص الاجتماعيين ذوي العلاقات الواسعة التي تزيد من فرص النجاح أيّاً كان نوعها، والمصادفة هي أيضاً إلى جانب السعة والكثرة. وكرجل مايزال احتراس أبناء المقاطعات مؤثراً به لم يرد أن يصل إلى اللحظة الحرجة التي لايملك فيها إلابعض الفرنكات، وآثر أن يتصل سريعاً بأصحاب المكتبات والناشرين.

---

(١) جميع هؤلاء ممثلون في المسرح الفرنسي. فلوري Fleury (١٧٥٠ - ١٨٢٢): كان متقاعداً عن العمل في العام ١٨١٨ عند أول إقامة لوسيان في باريس. الأخوان باتيست Batiste (١٧٦١ ١٨٣٥ و١٧٦٥ - ١٨٣٩) تميّزا بأدوار الكوميديا. وأنطوان ميشو A.Michot (١٧٦٥ - ١٨٢٦) كان أقل شهرة من ميشلو Michelot (١٧٨٦ - ١٨٥٦) المرتبط بعمله مع تالما وباتيست البكر. ويبدو أن ورود اسم ميشو بدلاً من ميشلو غلطة مطبعية من بلزاك؟!.

(٤) تلميح، على الأرجح، لتجربة شخصية قصّها بلزاك في «ساعة من حياتي» (كانون الثاني أو شباط ١٨٢٢) في عمر لوسيان، صادف الروائي فتاة مجهولة في الباليه رويال. مومس أو متسولّة شابّة ضائعة؟ وأمسك بيد ناتالي وكانت نزهة عاطفية على طريقة ستيرن في روايته، لكن الروائي لم يكشف عن النهاية..

في أحد أيام شهر أيلول الباردة[1]، تأبط لوسيان مخطوطتيه، ونزل إلى شارع لاهارپ وسار حتى رصيف الأوغوستينيين فتجوّل على محاذاته، وهو ينظر تارة إلى مياه السين ومرّة إلى المكتبات، وكأنّ جنياً ينصحه بأن يلقي بنفسه في الماء بدلاً من أن يلقي بها في الأدب. وبعد تردّدات ممضّة، وبعد فحص معمّق للوجوه الأكثر أو الأقّل وداعة، أو المسليّة، الفرحة والحزينة، التي كان يلاحظها عبر زجاج الواجهات أو على عتبات الأبواب، لفت نظره مبنى أمامه مستخدمون يقومون بإعداد رزم من الكتب بمنتهى الهمّة والنشاط، ويهيئون منها إرساليات، وقد امتلأت الجدران بالإعلانات:

للبيع: الناسك بقلم دارلينكور الطبعة الثالثة.

ليونيد بقلم فيكتور دوكانج خمسة أجزاء مطبوعة على ورق صقيل الثمن ١٢ فرنك.

تحريضات أخلاقية تأليف كيرراتري[2].

هتف لوسيان: «يالسعادة هؤلاء!»

كان الإعلان وهو ابتكار جديد موفق للادفوكا الشهير قد ازدهر آنذاك على الجدران لأول مرة، وسرعان ما ترقّشت باريس من قبل مقلّدي هذه الطريقة الإعلانية، وهي مصدر دخل عام. أخيراً ازداد وجيب قلب لوسيان هماً وقلقاً، فقد رأى نفسه، وهو الكبير في آنغوليم صغيراً جداً جداً في باريس، وبعد أن طاف حول هذه الأماكن لملم أطراف شجاعته ودخل إلى تلك المكتبة التي تضجّ بالمستخدمين والزبائن، والناشرين! «وربّما بالمؤلفين» كما اعتقد، وبعد أن قرأ على الواجهة بأحرف كبيرة: «ڤيدال، وبورشون مكتبيّان وكلاء فرنسة والبلدان الأجنبية»؛ توجّه إلى أحد المستخدمين وقال: «أريد التحدّث مع السيد ڤيدال أو السيّد بورشون».

---

(١) عدّ بلزاك وصول لوسيان إلى باريس في شهر حزيران.

(٢) تعود الطبعة الثالثة عن «الناسك» إلى ٢٣ آذار ١٨٢١، وظهرت «ليونيد» في خمسة أجزاء لدى پوله pollet الذي شارك شخصياً في الرواية، أما «تحريضات أخلاقية» لكيراتيري فقد ظهرت طبعتها الثانية في العام ١٨١٨ لدى مردان وتروتل وورنز ولم تلقَ أيّ نجاح.

أجاب المستخدم وهو منصرف إلى عمله: «هذان السيدان مشغولان جداً».

- سأنتظر.

ترك الشاعر في المكتبة، فراح يتأمل رزم الكتب، وقضى ساعتين وهو يشاهد العناوين، ويفتح بعض المؤلفات، ويقرأ صفحة من هنا وصفحة من هناك، وانتهى إلى الاستناد قرب باب مزجج تغطيه ستائر صغيرة، اشتبه أن وراءه ڤيدال وبورشون إذ وصل إلى سمعه الحديث التالي:

«إن أردت أن تأخذ خمسمئة نسخة تخليت لك عنها مقابل خمسة فرنكات للنسخة مع نسختين مجانيتين عن كل دزينة.»

- كم يعود سعر النسخة عندئذ؟

- تنقص ١٦ فلساً.

- «أي بأربعة فرنكات وأربعة فلوس» قال ڤيدال أو بورشون لمن يعرض كتبه.

- «نعم» أجاب العارض.

- «على الحساب؟» سأل الشاري.

- يالك من فكه عريق! تريد أن تسدّد لي خلال ثمانية عشر شهراً، وبسندات تدفع خلال سنة؟

- «كلا تُسدد مباشرة» ردّ ڤيدال أو بورشون.

- وماهو أجل الاستحقاق؟ تسعة أشهر؟ سأل الناشر أو المؤلف الذي يعرض كتابه على الأرجح.

- «كلا ياعزيزي بعد سنة» أجاب أحد المكتبيين الوكيلين[1].

هتف العارض المجهول: «إنك تذبحني!.

رد الوكيل المكتبي: ولكن هل أمكننا تصريف / ٥٠٠/ نسخة من رواية

(١) يستدل من هذه المحادثة بين ناشر - تبيّن أنه بوله pollet ومكتبة توزيع بالجملة لقاء عمولة، أن الناشر يعرض ٥٠٠ نسخة بسعر النسخة ٥ فرنكات من رواية تتألف من ٤ أجزاء تباع بـ ١٢ فرنك في مكتبات المفرق كما يقدّم نسختين مجانتين مع كل دزينة، أي أن ڤيدال وبورشون يتلقيان ٥٨٤ نسخة لقاء ٢٥٠٠ف لن تدفع فوراً بعد أن قلت العملة النقدية في عهد الملكية الثانية - وإنما يُسلّم الناشر سنداً أو كمبيالة تؤدّى قيمتها بعد سنة أو ثمانية عشر شهراً ومن هنا خشية پوله أن يضطر أيضاً لإجراء حسم على سنده وهو المحتاج لمال يُسدّد له على الفور. ويبدو أن هذا هو حال بلزاك في مطلع حياته الأدبية، عندما نشر رواية «الثائر الملكي chouan».

«ليونيد» التي أودعها لدينا ناشر فيكتور دوكانج منذ سنة، لو أن الكتب تُصرّف وفق ما يشتهي الناشرون لغدونا من أصحاب الملايين، يا أستاذي العزيز، لكنها تُصرّف وفق رغبة الجمهور. إننا نوزّع روايات والتر سكوت بثمانية عشر فلساً للجزء الواحد، أي ثلاثة فرنكات واثني عشر فلساً للنسخة الكاملة من ٤ أجزاء[١]، فهل يمكنني أن أبيع كتبك بسعر أغلى؟. إن أردت تصريف هذه الرواية، فامنحني بعض التسهيلات.

ثم نادى المتحدث على شريكه؛ «فيدال».

وغادر رجل ضخم الجسم مكانه خلف الصندوق وتقدم من المتحدثَيْن وقد وضع قلمه خلف أذنه. سأله بورشون: «خلال رحلتك الأخيرة ما هو عدد النسخ التي وزعتها من دوكانج؟

- هي مئتا نسخة من رواية «عجوز كاليه الصغير»[٢] لكننا اضطررنا لقاء ذلك تخفيض سعر كتابين آخرين لم نحصل على حسم كبير لقاءهما فأصبحا من العنادل!»

عرف لوسيان فيما بعد أن تعبير «العنادل» يُطلق على الكتب التي تصفرّ أوراقها من طيلة العرض على رفوف المكتبات دون أن تجد شارياً وتخفَّض أسعارها تدريجياً أو تعاد إلى الموزع.

تابع فيدال: «أنت تعلم أن بيكار[٣] يحضّر روايات، ووعدنا بحسم ٢٠٪ على السعر المكتبي العادي[٤] وذلك ليحقق الشهرة والرواج لكتبه.

---

(١) في العام ١٨١٩ إلى العام ١٨٢٢، كانت روايات والترسكوت المؤلفة من ٤ أجزاء تباع بالمفرق بسعر ٢،٥ف للجزء الواحد، بينما تسلّم لتاجر الجملة «المكتب الموزع» بسعر النسخة (أي الأجزاء الأربعة) بفرنكين.

(٢) - فيكتور دوكانج (١٧٨٣ - ١٨٣٣): كاتب تعرض للسجن بسبب رواياته الليبرالية ومنها «آغات أو عجوز كاليه الصغير» التي ظهرت في العام ١٨١٩.

(٣) بيكار Picard لويس بنوا (١٧٦٩ - ١٨٢٨): ممثل وكاتب مسرحي وروائي فرنسي، ذكر بلزاك مسرحيته «بيت باليانصيب» في رواية «بييريت» وفي هذه الرواية **«أوهام ضائعة»**. من رواياته **«المتهوّس»** (١٨٢٣) وجيل بلاس الثورة (١٨٢٤) وهما روايتان ظهرتا قبل مدّة قليلة من **«رجل كبير من المقاطعات»**.

(٤) أي حسم ٢٠٪ عن سعر الجملة الذي تطبقه مكتبة التوزيع على سائر الناشرين أو الكتاب، وهذا يعني أن هذه المكتبة ستروّج كتباً على حساب «دوكانج».

ردّ الناشر آنذاك بشكل يدعو إلى الشفقة بعد أن سمع الملاحظة الأخيرة من فيدال إلى بورشون وكأنها تكشف عن خبايا المنافسة بين المؤلفين والناشرين ؛ حسن ، فلتكن المهلة سنة . مدّ بورشون يده للمجهول قائلاً : اتفقنا؟

صافحه الناشر وهو يقول : «نعم» ثم خرج .

سمع لوسيان بورشون يقول لفيدال : «لدينا طلبات لثلاثمئة نسخة ، وسنطيل له التسديد ، وسنبيع رواية «ليونيد» بسعر الوحدة مئة فلس ونصفي حسابها بعد ستة أشهر ، و ...

قاطعه فيدال : وهو ذا ربح مبلغ ألف وخمسمئة فرنك[(١)] .

- آه! لاحظت جيداً أنه متضايق .

- إنّه في ورطة! فقد دفع أربعة آلاف فرنك لدوكانج لقاء ألفي نسخة[(٢)] .

اعترض لوسيان طريق الشريكين قائلاً : «يسرني أيّها السيدان أن أوجه لكما التحية ، ردّ المكتبيان على تحيته بفتور ، فاستأنف : «إنني مؤلف رواية عن تاريخ فرنسة على طريقة والتر سكوت ، وعنوانها «**نبّال شارل التاسع**» وأنا أعرض عليكم شراءها . »

ألقى بورشون على لوسيان نظرة باردة وهو يضع قلمه على المنضدة ، ونظر فيدال إلى المؤلف وأجابه بخشونة : «أيّها السيّد ، لسنا ناشرين ، بل وكلاء بيع كتب ، وإن عملنا على نشر كتاب فذاك لمؤلّفٍ ذي شهرة ، عدا عن أننا لانشتري إلا الكتب الرصينة ، كتب التاريخ ، والخلاصات .

- لكن كتابي رصين جداً فهو يصف على ضوء الواقع الصراع بين الكاثوليك المؤيدين لملكية مطلقة والبروتستانت الذين يريدون إقامة جمهورية .

---

(١) لم يكن الكتاب الذي يعرضه بوله رواية «ليونيد» . ففيدال وبورشون يملكان ألف نسخة من «ليونيد» سيبيعانها بالمنافسة مع / ٥٠٠/ نسخة من الكتاب الجديد الذي عرضه بوله وبذلك يربحان ١٥٠٠ فرنك . ومن ذلك تلاحظ نسبة ربح المكتبة الموزعة الضئيلة بالمقارنة مع مكتبة البيع بالمفرق ، التي تشتري ليونيد بخمسة فرنكات وتبيعها بضعف ثمن الشراء أو أكثر .

(٢) هو سعر وعدد نسخ مرتفعان بالنسبة لتلك الآونة ، ويبدو أنّ فيكتور دوكانج قد حلّ محلّ بيغو - لُبرن (١٧٥٣ - ١٨٣٥) وأجرى معه بوله عقداً يتفرد فيه بنشر كتبه حصراً لقاء ٣٧٥ ف للجزء الواحد من الرواية ثم ٨٠٠ ف وهو مبلغ كان يعد كبيراً في ذلك الحين . ومثل هذه المجازفات سببّت إفلاس بوله .

نادى أحد المستخدمين فيدال فتوجّه إليه، واستأنف بورشون الكلام وقد أظهر تضايقه: «أنا لاأقول إن كتابك ليس تحفة. لكننا لانهتم إلا بالكتب المنشورة، فاذهب وقابل من يشترون المخطوطات، كالأب دوغرو [١] في شارع كوك قرب اللوفر، فهو أحدمن يهتمون بالروايات، ولو حدثتنا منذ لحظة لحوّلناك إلى السيّد بوله [٢] الناشر الذي خرج الآن وهو منافس دوغرو ومكتبات غاليري - دي- بوا.

استأنف لوسيان: «إنّ لي أيضاً ديوان شعر، يا سيدي».

صاح بورشون غاضباً: «ديوان شعر، ولكن من تحسبني؟» وقهقه ساخراً ثم انسحب إلى القسم الخلفي من المكتبة عندما سمع من يناديه.

غادر لوسيان المكان، وانتابته آلاف الأفكار وهو يعبر السين فوق الجسر الجديد؛ فقد أدرك من هذه المداولة التجارية أن الكتب بالنسبة لأصحاب المكتبات كبالات القطن بالنسبة لصانعي القبعات، سلعة يجب شراؤها رخيصة وبيعها غالية.

«كنت مخدوعاً» قال في نفسه، وقد انتابه الذهول للمظهر المادي الفظّ الذي وصل إليه الأدب، ولاحظ في شارع كوك دكاناً متواضعاً سبق أن مرّ أمامه وقد كُتب في أعلى واجهته بأحرف صفراء على أساس أخضر: «دوغرو- دار نشر» وتذكر أنه رأى هذه الكلمات متكرّرة في أسفل صفحة عنوان عدة روايات قرأها في صالة مطالعة بلوس [٣].

---

(١) دوغرو اسم محرف لبيغورو وهو ناشر حقيقي قرب ساحة سان جرمان- لوكسروا- شارع كوك.

(٢) بوله Pollet: ناشر دوكانج وقد نشر في العام ١٨٢٢ لبلزاك (تحت الاسم المستعار سان أوبن) روايتي **(نائب الأردين الأسقفي، والمعمر المئوي)**.

(٣) يبدو أن بيغورو- وهو النموذج الحقيقي لدوغرو- لم يساهم في نشر روايات مرحلة شباب بلزاك لكنه باعها، وتوجد مسجلة في كاتا لوغاته. وقد زعم أحد الصحفيين الفكهين، الكائدين، في مهاجمته لإعادة طبع سُوفرين لهذه الروايات (١٨ كانون ثاني ١٨٣٦) أن بيغورو وجد صعوبة في تصريفها فكتب: «ذهبت هذه الروايات المؤلفة من أربعة أجزاء، متخاصرة لتستريح في مكتبة بيغورو الذي يبيع عدا عن الروايات كبوش القرنفل وعرق السوس. واستخدم الكتبي روايات السيد هوراس سان أوبن أو فَيلرغله التي لاتباع في صر «القرنفل وعرق السوس».

دخل لوسيان الدكان وقد عَرَاه هذا الاضطراب الذي يتعرّض له جميع أصحاب الخيال الواسع عند إحساسهم بالإقدام على جدال صعب؛ ووجد في المحل عجوزاً فريداً، أحد هذه الوجوه الغريبة الممثلة للمكتبيين في العهد الامبراطوري. كان دوغرو يرتدي بزّة سوداء ذات أذيال مربَّعة عريضة من موضة الفراك الضيّق المفصّل بشكل ذنب سمكة المورة، وصداراً ذا مربعات من مختلف الألوان، تتدلى من جيبه سلسلة من فولاذ في نهايتها مفتاح نحاسي يتأرجح على سروال واسع أسود، ويحوي الجيب الآخر ساعة بحجم بصلة. يتمم هذا الهندام جوارب مُثناة بلون رمادي حديدي وحذاء ذو إبزيم فضيّ. كان العجوز عاري الرأس تتناثر على قحفه خصلات شعر وخطها الشيب. كان الأب دوغرو كما لقبه بورشون أشبه ببزته وسرواله وحذائه بأستاذ فنون جميلة، أما صداره وساعته وجورباه فتعبر عن زيّ تاجر، ومظهره لايكذّب أبداً هذا الوفاق الفريد؛ فهيئته مهيبة حازمة وعيناه برّاقتان، وفمه شكوك غامض، ووجهه كوجه أستاذ في علم البيان، لكنه مشوب بقلق الكتبي المبهم.

سأل لوسيان: السيد دوغرو؟

- هو أنا، أيّها السيّد...

- إنني مؤلّف رواية.

- إنّك ماتزال شاباً.

- لكن عمري، يا سيدي، لاعلاقة له بالموضوع ومد يدَه مقدماً المخطوطة.

تناول الكتبي العجوز الرواية، وعندما رأى الاسم على الغلاف هتف: «**نبال شارل التاسع**» عنوان جميل، لنرَ، اختصر أيّها الشاب الموضوع في كلمتين.

- يا سيدي، هذا مؤلف تاريخي على طراز والتر سكوت يتمثل فيه الصراع بين البروتستانت والكاثوليك معركة بين نظامي حكم يتعرّض فيه العرش لخطورة جدّية، وأنا منحاز في الرواية للكاثوليك (١).

---

(١) بلزاك يفكر كلوسيان، وقد دافع عن رأيه في ثلاثيته «كاترين دي مديسي» وهو في ذلك يشارك مجموعة بوشيز Buchez آراءهم المعارضة بشدّة للبروتستانتية.

- إيه! أيّها الشاب، هي ذي أفكار جيّدة. حسنٌ، أعدك بأن أقرأ مؤلفك، رغم أنني أحبّ رواية من طراز السيدة رادكليف[1]، ولكن إن كنت دؤوباً على العمل، ولديك أسلوب مقبول، ورأي، وأفكار، وفن الإخراج، فأنا لا أسعى لأفضل من أن أكون مفيداً لك؛ إذ ماذا يلزمنا؟ . . المخطوطات الجيدة.

- متى يمكنني مراجعتك؟

- سأذهب هذا المساء إلى الريف[2]، وسأعود بعد الغد، وسأكون قد قرأت مخطوطتك فإن وافقتني، ستتمكن من التعاقد على نشرها في ذات اليوم».

رأى لوسيان في الرجل الطيبة، فخطرت له الفكرة المشؤومة في إخراج مخطوطة «**أزهار المرغريت**» قائلاً:

- إن لديّ أيضاً، ياسيدي ديواناً من الشعر.

- قال العجوز ساخطاً وهو يمّد يده ليعيد إليه المخطوطة: آه! أنت شاعر لاأريد روايتك؛ فالشويعرون يفشلون عندما يتناولون مواضيع النثر، ففي النثر لاحشو بل تعبير بالضرورة عن أفكار.

- لكن والتر سكوت قد نظم بدوره شعراً. . .

بدا اللين على دوغرو، وخمّن ضائقة الشاب واحتفظ بالمخطوطة قائلاً: «هذا صحيح، أين تسكن؟ سأمرّ لرؤيتك.»

قدم لوسيان للعجوز عنوانه دون أن يرتاب بأيّة فكرة مسبقة لديه، ولم يتعرف فيه على الناشر التقليدي نصير المدرسة القديمة، رجل الزمن الذي تمنى فيه الناشرون أن يحتفظوا فيه بفولتير ومونتسكيو حبيسين في سقيفة يموتان من الجوع.

---

(١) هي الروائية الانكليزية آن راد كليف (١٧٦٤ - ١٨٢٣) التي أعطت نماذج رئيسة من «الرواية السوداء» منها «أسرار أودولف»، و«الإيطالي» المترجمان إلى الفرنسية العام ١٧٩٧، وحازتا شهرة استمرت حتى نهاية العهد القنصلي، ثم استعادت الروائية حظوتها نحو العام ١٨١٦ لتصل إلى القمة بين ١٨١٩ و١٨٢٢.

(٢) هذه التفاصيل تعيدنا إلى بيغورو الذي كان يملك بيتاً في شارع بيك بوس رقم ٧٢ يختلي فيه لقراءة المخطوطات.

قال الناشر العجوز للوسيان بعد أن قرأ عنوان سكنه: «سأعود بالضبط عن طريق الحيّ اللاتيني» واحتفظ بالمخطوطة، وبدت عليه علائم الشفقة وقد خمن ضائقة الشاب. فكر لوسيان وهو يحيي الناشر: يا للرجل الطيّب، لكأني صادفت صديق طفولتي، شخصاً خبيراً يقدّر الفكر، فلأتحدث عن هذا! سأخبر دافيد عن هذا الحدث: فالموهبة تُقدر بسرعة في بآريس». وعاد لوسيان خفيفاً، سعيداً، يحلم بالمجد. لم يفكر بالكلمات المشؤومة التي طرقت أذنه في مكتب ڤيدال وبورشون. ورأى نفسه يربح على الأقل ألفا ومئتي فرنك، تكفيه لإقامته سنة في باريس، سنة يحضر خلالها مؤلفات أخرى. كم بنى من مشاريع على هذا الأمل؟ كم من أحلام اليقظة العذبة تراءت له وهو يركز حياته على العمل؟ ورتّب أموره، واستعدّ لأصلاح أوضاعه، فعمّا قليل سيحصل على بعض المكتسبات. ولم يتمكن من معالجة نفاد صبره إلاّ بالاستمرار في المطالعة في صالة بلوس. ومرّ يومان دُهش خلالهما العجوز دوغرو بالأسلوب الذي اتبعه لوسيان في مؤلفه الأول، وسرتّه المبالغة في إبراز الطباع المعبّرة عن العصر الذي تجري فيه أحداث المأساة وفوجىء بجموح الخيال المتجلي على الدوام في وصف المؤلف الشاب للوقائع الآنية، التي لم تتخللها أيّة رتابة، فوفد مقتنعاً بأنه لم يُضلّل إلى الفندق الذي يقيم فيه هذا المؤهل لأن يكون مماثلاً لوالتر سكوت وفي نيّته أن يدفع له ألف فرنك لقاء الملكية الكاملة لرواية «**نبّال شارل التاسع**» وأن يربطه بعقد على عدّة مؤلفات وعند رؤيته للنُّزُل غيّر الثعلب العريق في المكر رأيه، «فشاب يرتضي بالسكن هنا ذو ذوق متواضع، محب للدراسة والعمل، وأستطيع إرضاءه بثمانمئة فرنك، وعندما سأل صاحبة النزل عن السيد لوسيان دي روبمبره أجابته «إنه في الطابق الرابع» ورفع المكتبي عينيه فلم يشاهد إلا السماء فوق الطابق الرابع؛ وقال في نفسه: «هذا الشاب فتى وسيم بل إنه جميل جداً، فإن كسب كثيراً من المال، سيلتهي ولن يعودَ يعمل؛ ولمصلحتنا المشتركة سأعرض عليه ستمئة فرنك. إنّما كانت الغرفة في عري يدفع إلى القنوط،

وعلى المنضدة كأس حليب ورغيف خبز بفلسين، وأثّر هذا العري الملازم للعبقرية على دوغرو الطيب وفكّر: «ليحافظ على هذه التقاليد البسيطة، وهذا الزهد في المأكل، وهذه الحاجات المتواضعة».

قال للوسيان «كم أنا مسرور لرؤيتك، هكذا أيّها السيّد، كان يعيش جان جاك، وأنت مشابه له في أكثر من طبع. ففي هذه المساكن تتألق نار العبقرية، وتؤلف الكتب الجيّدة. هكذا يجب أن يعيش رجال الآدب. بدلاً من الإفراط فيالتردد على المقاهي والمطاعم وإضاعة الوقت والمال والموهبة فيها» ثم جلس وهو يقول: «أيها الشاب، روايتك ليست سيّئة، وأنا أستاذ بيان سابق، وأعرف تاريخ فرنسة، وقد عبّرت عن أشياء ممتازة، وأنا أستشفُّ لك مستقبلاً زاهراً.

- آه! ياسيدي.

- أقول لك إن بإمكاننا تحقيق مشاريع مشتركة، وسأشتري روايتك. . . »

أحسّ لوسيان بقلبه ينتعش، فقد أقبلت أيام اليُسر وسيدخل عالم الأدب، وستنشر أخيراً مؤلفاته.

قال دوغرو بلهجة معسولة وهو ينظر إلى لوسيان كمن يجهد في إعلان سخائه:

«سأدفع لك أربعمئة فرنك»

سأل لوسيان: عن الجزء الأول؟

ردّ دوغرو دون أن يفاجأ باستغراب لوسيان: «عن كامل الرواية» ثم أضاف: «ولكن نقداً، وتتعهد بأن تقدّم لي روايتين كل سنة ولمدة ست سنوات، وإن نفدت الرواية الأولى خلال ستة أشهر، سأدفع لك ستمئة فرنك عن الروايات التالية، وهكذا فبإنجاز روايتين كل عام، ستحصل على مئة فرنك خلال كل شهر، وفي هذا ضمان لحياتك وتأمين سعادتك. إن لديّ مؤلفين لا أدفع لهم إلا ثلاثمئة فرنك عن الرواية؛ وأنا لا أعطي إلا مئتي فرنك عن ترجمة رواية من اللغة الإنكليزية؛ وكان هذا السعر باهظاً في السابق.

قال لوسيان وكأن رعشة باردة أصابته[١] : سيدي ، لايمكننا أن نتفاهم وأرجو أن تعيد لي مخطوطتي .

قال الناشر العجوز : هاهي . إنّك لاتعرف كيفية سير الأعمال أيها السيد ، فعند نشر الرواية الأولى لمؤلّف ، يجازف الناشر بألف وستمئة فرنك نفقات طباعة وورق وتأليف رواية أيسر من إيجاد مثل هذا المبلغ . لدي مخطوطات مئة رواية في مكتبي وليس في صندوقي مئة وستون ألف فرنك ؛ وللأسف لم أربح مثل هذا المبلغ بعد عمل عشرين عاماً في نشر الكتب . فمهنة طباعة الروايات لاتكسب ثروة ؛ وڤيدال وبورشون لايرضيان باعتمادها وتوزيعها لنا إلا بشروط تزداد تكاليفها علينا[٢] يوماً بعد يوم وحيث تجازف بوقتك ، يجب عليّ أن أنفق ألفي فرنك ، فإن أخطأنا التقدير إذ أن للكتب حظوظها[٣] ، خسرتُ ألفي فرنك ، أما أنت فما عليك إلا أن تنظم قصيدة ضد الحماقة العامة ؛ وبعد أن تتأمل ملياً فيما تشرفت بقوله لك ستأتي لمقابلتي مجدداً .

بدرت من لوسيان حركة ملؤها الزهو ، فاستأنف الناشر بلهجة الواثق المسيطر :

«ستعود إلي لأنّك لن تجد ناشراً يجازف بألفي فرنك[٤] من أجل روائي شاب

---

(١) هذا الحدث المتعلّق بزيارة الناشر للروائي تتماثل بشكل مدهش مع صفحة من «حياة ومصائب هوراس دى سان أوبن» من تأليف جول ساندو (١٨١١ - ١٨٨٣) وفيها يذكر ساندو أن الناشر بعد قراءة رواية «الجنّية الأخيرة قرر منح هوراس لقاءها مبلغ ١٥٠٠ف وعندما وصل إلى الشارع الضيّق المعتم أختصرها إلى ١٠٠٠ف وعندما رأى الفندق الحقير غدا المبلغ ٨٠٠ف حسم منها ١٠٠ف أخرى عندما شم رائحة كريهة على السلم ، ولما علم أنّه يسكن في الطابق السادس حسم ٥٠ف عن كل طابق ، وأخيراً عندما وجد غرفة سكن الروائي هزيلة عارية لم يعرض عليه إلا ثلاثمئة فرنك اضطر هوراس إلى القبول بها .

(٢) يبدو أننا نبتعد هنا عن بيغرو الذي كان يوزع الروايات التي ينشرها بنفسه على زبائنه الرئيسين ، وخاصة على قاعات المطالعة المنتشرة آنذاك .

(٣) وردت باللاتينية في النص .

(٤) يبدو هذا الرقم قليلاً ، ففي العام ١٨٢٩ كانت كلفة طباعة «الثائر الملكي» ٣٦٠٠ف ، وفي العام ١٨٣٠ كانت كلفة الرواية ، وفق ماذكره بلزاك ، التي يطبع منها ١٠٠٠ نسخة على أربعة أجزاء لتسهيل التوزيع والاشتراك ، نحو ٣٧٥٠ف بمعدل ٣,٧٥ف للنسخة الواحدة .

مجهول، ولن تجد مستخدماً يكلّف نفسه عناء قراءة خربشتك. ويمكنني وقد قرأتها بإمعان أن أشير إلى عدة أخطاء لغوية. فقد كتبت «لاحظ لفلان» بدلاً من «لفت نظر فلان إلى» وكتبت «بالرغم من» وكان بإمكانك أن تكتفي بالحرف «على».

احمرّ لوسيان خجلاً، بينما تابع المكتبي كلامه: «إن طلبت مقابلتي مجدّداً، ستخسر مئة فرنك، إذ أنني لن أدفع لك عندها إلا ثلاثمئة فرنك» ونهض وحيّاً، ومن الباب قال: «لولم تكن صاحب موهبة، ومستقبل واعد، ولولم أكن مهتماً بالشباب المجدّ، لما قدّمت لك هذا العرض السخي، مئة فرنك في الشهر! فكر في ذلك. بعد كل حساب رواية في دولاب الخزانة، ليست كحصان في إسطبل، إنّها لاتتغذى لتزداد قوّة، وفي الحقيقة لايمكنها وهي في مكانها أن تقدم لصاحبها أي غذاء!»

تناول لوسيان مخطوطته ورماها أرضاً وهو يصيح: «إنني أفضل حرقها، ياسيدي!

قال العجوز وهو يخرج: «إن لك رأس شاعر».

التهم لوسيان رغيفه بعد أن بلّل لقماته بالحليب وغادر غرفته التي لم تعد تتسع لكظم غيظه، ودار في حديقة النباتات كأسد في قفصه، ورأى أن يذهب إلى مكتبة سانت - جنفييف حيث كان يشاهد دائماً في ذات الزاوية شاباً في الخامسة والعشرين من العمر تقريباً يعمل بجد دؤوب لايلهيه شيء، ولايزعجه أمر، فهو منصرف إلى بحثه بما عرف عن رجال الأدب الحقيقيين. ولاشكّ أن هذا الشاب كان يدوام على المكتبة منذ مدة طويلة، فالمستخدمون وقيّم المكتبة يجاملونه وقيّم المكتبة يسمح له باستعارة كتب. لاحظ لوسيان أن المجدّ المجهول يعيدها في اليوم التالي، ورأى فيه الشاعر أخاً في البؤس والرجاء. كان هذا الدارس صغير القامة، نحيلاً، وشاحباً، يخفي جبينه الوضاح تحت شعر أسود كثيف غير معتنى به، جميل اليدين، وهو يجذب اللامبالين بتشابه مبهم مع صورة بونابرت مرسوماً من قبل

روبير لفيفر[1]. هذا الرسم قصيدة كاملة من كآبة جياشة، وطموح مكبوت، وفاعليّة خفيّة. افحصوا هذا الرسم جيّداً وستجدون فيه العبقرية والرزانة، الرقة والعظمة؛ فالعينان متألقتان كعيني امرأة، والنظرة متلهفة للمدى الرحب، ومتشوّقة لقهر الصعوبات، وعندما لايكتب اسم نابليون تحتها فستتأملونها طويلاً. كان الشاب الذي تتحقق في قسماته هذه الصورة يرتدي عادة بنطالاً ينشبك عند القدمين بحذاء ذي نعل ثخين، ومعطفاً من جوخ عادي، ورباط عنق أسود، وصداراً من الجوخ رمادي زُرِّر حتى أعلاه، وقبعة رخيصة الثمن. كان ازدراؤه لكل زينة باطلة ظاهراً. سبق للوسيان أن رأى هذا المجهول الغامض الموسوم بالطابع الذي تدمغ به العبقرية جبهة عبيدها، في مطعم فليكوتو، ولاحظ أنّه الأكثر انتظاماً من جميع الزبائن، وهو يأكل ليعيش دون اهتمام بالأطعمة التي تبدو أنّها مألوفة لديه؛ ويشرب الماء، وهو يبدي سواء أكان في المكتبة أم في المطعم نوعاً من الرزانة ناتجة، دون شك، عن شعور بحياة منشغلة بتحقيق مطمح كبير ممايجعله منعزلاً لايسعى للتقرّب من أحد، والتفكير العميق يبدو في نظرته، و التأمل يلوح على جبينه الجميل النبيل المظهر؛ بينما تنبئ عيناه السوداوان المتوقدتان عن تنبه سريع وعميق واعتياد على رؤية الأشياء في الصميم. كانت حركاته بسيطة لكنها تظهر الحزم.

وأحسّ لوسيان باحترام لا إرادي تجاه هذا الشاب وخاصة وقد بدا مراراً على كل منهما تبادل النظرات المعبرة عن رغبة في التعارف سواء أثناء الدخول أو الخروج من المكتبة أو المطعم، لكن لم يجرؤ أي منهما على أن يكون البادئ بمخاطبة الآخر؛ وكان هذا الشاب الصامت يذهب إلى نهاية القاعة، في القسم المرتدّ على ساحة السوربون، وبذلك لم يتمكن لوسيان أن يتصل به رغم شعوره بميل نحو الشاب المجدّ الذي تبدو عليه أعراض استعلاء فائقة الوصف؛ فكلٌّ منهما كما تبين لهما فيما بعد ذو طبيعة بكر خجول، تنتابها المخاوف المنبعثة من انفعالات الأشخاص الانعزاليين؛ ولولا لقاؤهما المفاجئ في لحظة الفاجعة التي ألّمت بلوسيان، لما تمّ

(١) هذا الرسم هو من وضع أوغست دنوايه.

الاتصال بينهما على الأرجح، أبداً؛ ولكن عندما دخل لوسيان في شارع غره[١] أبصر الشاب المجهول عائداً من مكتبة سانت جنفييف.

بادره الشاب بالقول: «المكتبة مغلقة، ولا أعلم السبب».

في تلك اللحظة كانت الدموع تترقرق في عيني لوسيان فشكر مخاطبه بإحدى هذه الحركات الأكثر بياناً من الكلام وكانت السبيل لانفتاح قلب كل من الشابين للآخر، فكلاهما متوجهان من شارع غره إلى شارع لاهارب[٢]. قال لوسيان: «سأذهب للتنزه، إذن، في حديقة اللوكسمبورغ، فعندما نخرج تصعب علينا العودة سريعاً للعمل».

قال الشاب المجهول: تهرب منّا، عندها الأفكار الضرورية، ولكنني أراك حزيناً أيّها السيّد؟

ردّ لوسيان: مررت بمغامرة فريدة.

ثم قصّ نبأ زيارته إلى مكتبة التوزيع على ضفة النهر ومن بعدها لقاءه مع الناشر والعرض الشحيح الذي تلقاه منه. ثم قدم نفسه لمحدّثه وقصّ عليه ببضع عبارات وضعه الحالي؛ فمنذ شهر تقريباً أنفق ستين فرنكاً على معيشته، وثلاثين فرنكاً أجرة النزل، وعشرين فرنكاً على وسائل التسلية والمرح. وعشرة فرنكات لصالة المطالعة أي ما مجموعه مئة وعشرون فرنكاً، ولم يبق في حوزته إلا مائة وعشرون فرنكاً.

قال له الشاب المجهول: ياسيدي، قصتك هي قصتي، وقصة ألف أو ألف ومئتي شاب يأتون من المقاطعات إلى باريس كل سنة. لكننا لسنا الأكثر تعاسة. هل ترى هذا المسرح؟ وأشار إلى قمم الأوديون. في أحد الأيام، سكن في أحد البيوت الواقعة على الساحة رجل ذو موهبة لكنه غائص في لجج البؤس، فهو متزوج -

---

(١) شارع غره Grés: يقع بين شارع السوربون وشارع سان جاك.

(٢) أزالت جادة سان ميشيل عند أحداثها نصف شارع لاهارب La Harpe الممتد نحو الجنوب إلى مابعد ساحة السوربون وهذا يعني أن الشابين كانا على بعد خطوات من حديقة اللوكسمبورغ.

وهذه مصيبة لم يبتل بها أيّنا حتى الآن - وهو يحبّ زوجته، الفقيرة أو الغنية - وفق ماتريد وصفها - بولدين على عاتقها؛ والرجل غارق في الديون، ولكنه واثق من قلمه، وقد قدم إلى الأوديون مسرحية من خمسة فصول قُبلت وأعطيت أفضلية المرور، وبدأ الممثلون التدرّب على تمثيلها، وكثّف مدير المسرح التمارين، وقد شكّلت هذه التسهيلات الخمسة، خمس عقبات كان التغلب عليها أصعب من كتابة فصول المسرحية، واستنفد المؤلف المسكين، بعد أن سكن في سقيفة يمكنك رؤيتها هنا، موارده الأخيرة ليتمكن من العيش حتى إخراج مسرحيته، ورهنت امرأته ثيابها، وعاشت العائلة على الخبز الجاف. وفي يوم التجربة الأخير، عشية يوم العرض الأول، كانت العائلة مدينةً في الحي بخمسين فرنكاً للخباز، وبائعة الحليب، والبوّاب. ولم يحتفظ الأديب إلا بالثياب الضرورية التي يمكنه الظهور فيها: سترة، وقميص وسروال، وصدار، وحذاء. كان واثقاً من النجاح، وجاء يقبِّل زوجته، ويعلن لها نهاية البلايا، وصاح أخيراً انتهت معاكسة الأقدار لنا. ردّت الزوجة: «كلا لم تنته، لقد جاء دور النار الآن. انظر، هاهو الأوديون يحترق». فلا تشكُ إذن، ولاتتذمر، فلديك ثياب، ولاتعيل امرأة ولا أولاداً، ومايزال في جيبك مئة وعشرون فرنكاً، ولست مديناً لأحد. نُقلت مسرحية الأديب إلى مسرح لوفوا حيث عُرضت ١٥٠ مرة، وكافأ الملك المؤلف[1] بتخصيص راتب له. ألم يقل بوفون: «إن العبقرية هي الصبر. والواقع أن الصبر لدى الإنسان يشبه أكثر ما يكون الطريقة التي تستخدمها الطبيعة في ابتكاراتها. فما هو الفن، ياسيدي؟ إنه الطبيعة مركّزة». كان الشابان قد وصلا آنذاك إلى حديقة اللوكسمبورغ، وعرف لوسيان اسم الشاب المجهول الذي يحاول مواساته، وهو

(١) سبق أن احترق الأوديون في العام ١٧٩٩ واحترق مرة ثانية في ٢٠ آذار ١٨١٨، ثم أعيد بناؤه سريعاً وافتتح مجدداً في شهر أيلول من العام ١٨١٩ تحت إدارة بيكار، وقد بيّنت السيدة مينينجه (في مقال نشر في السنة البلزاكية ١٩٧٩) أن بلزاك يلمح هنا إلى مسرحية **«عائلة غلينه أو الأزمنة الأولى العصيبة»** وهي مسرحية مؤلفة من خمسة فصول لمؤلفها **مرفيل** الذي منحه الملك لويس الثامن عشر راتباً سنوياً ١٢٠٠ف.

اسم غدا الآن مشهوراً، فهو دانييل دارتز أحد ألمع كتاب عصرنا، وأحد الأشخاص النادرين الذين تتوافق لديهم الموهبة المبدعة مع الخُلُق الرضي[1]»، وفقاً لفكرة رائعة نظمها أحد الشعراء.

استأنف دانييل بصوته العذب: «لايمكن أن تغدو رجلاً عظيماً دون مشقة، والعبقرية تسقي نتاجها بدموعها؛ والموهبة مخلوق معنوي يتعرض كجميع المخلوقات لطفولة تنتابها العِلَل؛ والمجتمع ينبذ المواهب الناقصة، كما تتخلّص الطبيعة من المخلوقات الضعيفة أو غير السويّة. وعلى من يريد أن يسمو على الناس أن يتهيأ للصراع ولايتراجع أمام أيّة صعوبة. والكاتب الكبير شهيد حيّ لايموت. هذا كل شيء. ثم تأملّ دارتز لوسيان بنظرة شاملة وقال: «إن على جبينك سمة العبقرية، فإذا لم يكن قلبك ممتلئاً بالعزيمة، وإذا لم تكن تتحلى بصبر ملائكي، وإذا لم تتمكن من متابعة الطريق إلى الهدف رغم معاكسة غرائب القدر ولم تكن في تجلّدك كتلك السلاحف في أوقيانوسها العظيم، فاصرف النظر منذ الآن وتخلَّ عن هذا المراد الوعر المسالك.

قال لوسيان: أنت تتوقع إذن المِحَن؟

- والاختبارات الشاقّة من جميع الأصناف، والافتراء، والخيانة، وجور منافسيَّ، والوقاحات، والدسائس، وخشونة المعشر، ولكن إن كان مؤلّفك جيداً، فأية أهمية لخسارة أولى ...

قال لوسيان: أتريد أن تقرأ مؤلّفي وتحكم عليه؟

قال دارتز: ليكن. إنني أسكن شارع الرياح- الأربع، في منزل سبق لأحد أشهر رجالنا، أحد أروع عبقريات زمننا، والظاهرة الفريدة في العلم، دسبلن، أكبر جراح معروف، أن عانى أوّل عذاب فيه وهو يعارك الصعوبات الأولى مع الحياة والمجد في باريس[2]؛ وهذه الذكرى تمنحني كل مساء جرعة من الشجاعة أحتاج

---

(١) هذه الفكرة وردت في بيت الشعر لفرنسوا آندريو (١٧٥٩- ١٨٣٣) في «**سيسيل وترنس**».

(٢) سبق ذكر هذه البدايات في قصة «**قداس الملحد** (انظر روايات بلزاك - ١ - مترجمة إلى العربية، منشورات وزارة الثقافة- دمشق ١٩٨٩، ص١٠٩- ١١٠) وقد وصف هذا المنزل في شارع الرياح الأربع بدقة.

إليها كل صباح فأنا في هذه الغرفة التي آكل فيها غالباً مثل رُوسّو، الخبز والكرز، إنّما دون وجود تريز فتعال بعد ساعة، فسأكون في المنزل.

افترق الشاعران بعد أن تصافحا بدفق مودة كئيبة فائقة الوصف.

ذهب لوسيان ليحضر مخطوطته، وذهب دانييل دارتز إلى دار الرهنيات ليرهن ساعته ليتمكن من شراء حزمتي حطب ليدفئ الغرفة التي سيستقبل فيها صديقه إذ أن الطقس بارد. حضر لوسيان في الوقت المحدّد ورأى منزلاً أكثر حقارة من فندقة له مدخل قاتم يبدأ في نهايته سلّم مظلم، وكانت غرفة دارتز في الطابق الخامس وهي ذات نافذتين رديئتين قامت بينهما مكتبة اسودَّ خشبها وهي ممتلئة بجذاذات مرقّمة، وفي ركن سرير ضيق من خشب مدهون شبيه بأسرّة مهاجع المدرسة الداخلية، ومنضدة مصباح مشتراة بالرخصة، بينما شغلت كنبتان غطّيتا بنسيج ليفي الركن الآخر من تلك الغرفة التي سترت جدرانها بورق اسكوتلندي سوّده الدخان ومرور الزمن، وقامت طاولة عمل ممتلئة بالأوراق بين المدفأة وإحدى النافذتين. وواجهت المدفأة خزانة ملابس عتيقة من خشب الأكاجو، وغطت سجادة قديمة كامل أرضية الغرفة، ويبدو أن هذا الأثاث القديم يعوّض عن التدفئة. وقد وضعت أمام طاولة العمل كرسي مكتب منّجد بتحور أحمر ابيضَّ من القدم. وصُفّت قرب الحائط ست كراس قديمة متممة للأثاث. وأبصر لوسيان على حافة المدفأة شمعداناً ذا واقية نظر مجهّز بأربع شمعات، وعندما سأل لوسيان عن سبب الإسراف في الشموع بعد أن رأى في جميع الأشياء مظاهر بؤس شديد، أجابه دارتيز باستحالة تحمّله لرائحة مشعَل الشحم، هذا الوضع كان دليلاً على رهافة المشاعر وقرينة إحساس فائق. دامت القراءة سبع ساعات، أصغى خلالها دانييل بورع دون أن يتفوّه بكلمة، أو يبدي أيّة ملاحظة، وهذا برهان نادر على حسن ذوق يمكن أن يبديه المؤلفون.

قال لوسيان بعد أن أنهى القراءة ووضع المخطوطة على حافة المدفأة: « وبعد ما رأيك؟ أجاب الشاب برصانة: «إنّك على درب طيّب جميل؛ لكن مؤلّفك يحتاج إلى تنقيح، إن أردت ألا تكون مقلّداً لوالترسكوت فيجب أن تبتكر طريقة مختلفة عنه، لكنك سرت على نهجه، وبدأت كبدايته بمحادثات طويلة لتعرض شخصيات روايتك وتتوصل من خلال حديثهم إلى الوصف وإلى الحدث. هذا التضاد الضروري لكل نتاج مسرحي يأتي في النهاية، وما عليك إلا أن تعكس حدّي القضيّة، وتستبدل بهذه المحادثات المسهبة، الرائعة لدى سكوت، لكنها دون طعم لديك أوصافاً تستجيب لها جيّداً لغتنا؛ وليكن الحوار لديك نتيجة متوقعة تتوّج استعداداتك، باشر أولاً بالحدث وخذ موضوعك حيناً بعرضه، وحيناً من نهايته، وأخيراً غيرّ مخططاتك، للتخلص من الرتابة. ستكون جديداً مع تبنيك، لتاريخ فرنسة، شكّل الحَدَث وفق حوار الأسكوتلندي. إن والترسكوت جامد العاطفة، وهو يجهلها، أو ربما كانت تقاليد بلاده المرائية تحرّم عليه التعبير عنها. فالمرأة بالنسبة إليه هي الواجب متجّسداً؛ ومع استثناءات نادرة، فإن بطلاته لايتغيّرن مطلقاً، وليس لهن إلا نموذج واحد، وفقاً لتعبير الرسّامين. فجميعهن ينبثقن من كلاريس هارلو، وبإعادتهن إلى فكرة، لايتمكن أن ينتج إلا نسخاً متماثلة عن هذا النموذج مع اختلاف في حيوية التلوين فقط. فالمرأة تسبب بالهوى الفوضى في المجتمع. وللهوى طوارئ لامتناهية. صورّ الأهواء إذن، وستحصل على موارد لاحصر لها، حَرَم هذا العبقري الكبير نفسه منها ليتيح لنفسه أن يُقرأ في جميع عائلات انكلترة المتظاهرة بالحشمة. أما في فرنسة فستجد الأخطاء الجذّابة والتقاليد البراقة للكاثوليكية في تعارضها مع الوجوه القاتمة للكالفينية خلال المرحلة الأكثر إثارة في تاريخها؛ وسترى أنَ كل حقبة ملكية أصيلة بدءاً من شارلمان تطلّب على الأقلّ مؤلفاً، وأحياناً أربعة أو خمسة مؤلّفات كما بالنسبة للويس الرابع عشر، وهنري الرابع، وفرنسوا الأول. وهكذا ستؤلف تاريخاً لفرنسة الرائعة تصورّ فيه الأزياء والأثاث، والمنازل بمظاهرها الخارجية والداخلية، والحياة الخاصة مع إضفاء

روح العصر على كل ذلك بدلاً من أن تقصَّ بعناء أحداثاً معروفة[1]. ولديك وسيلة في أن تكون مبدعاً بتقصي الأخطاء الشعبيّة التي تشوّه صورة معظم ملوكنا، فتجرأْ في أوّل مؤلّف لك أن تصحح صورة كاترين دي مديسي الكبيرة والرائعة التي ضحيت بها للأحكام المسبقة التي ماتزال تحاك حولها. وأخيراً صوّر شارل التاسع كما كان لا كما كتب عنه المؤرخون البروتستانت. وخلال عشر سنوات من الثبات والاستمرار ستنال المجد والثروة».

كانت الساعة قد بلغت التاسعة مساءً، فاتّبع لوسيان البادرة الخفيّة لصديقه

---

(١) تاريخ فرنسة الرائعة، هذا الذي يدعو دارتز لوسيان لكتابته، كان المشروع الأكثر طموحاً لبلزاك الشاب، عندما توقف عن أن يكون سان أوبن، وقد لَمح إليه في مقدمة الدراسة عن **كاترين دي مديسي** في أول إشارة لهذا العنوان تضمّنتها رسالة للدوقة دابرنتس بتاريخ ١٩ تموز ١٨٢٥ وتجدّد لديه هذا المشروع في العام ١٨٢٨ بعد فشله وإفلاس المطبعة التي أسسها. وقد جمع ج. دوكورنو (الجزء الرابع والعشرون من مؤلفات بلزاك، هواية الأصول، ١٩٧٢) شذرات هذا المشروع الواسع وبداياته الذي يمكن اعتبار رواية **آخر الثائرين الملكيين** في العام ١٨٢٩ المؤلف الوحيد المنتهي منه، ومن المعروف أن هذا الموضوع الحديث قد حرف المشروع البدائي نحو الملهاة الإنسانية. وفي بداية ١٨٣٠ كان بلزاك مايزال مصمّماً على تأليف سلسلة من الروايات التاريخية، لكنه تخلّى عن هذه الفكرة بعد مدّة وجيزة، لكنه أنقذ شيئاً من المشروع البدائي في مؤلفه «قصص ماجنة» وفي العام ١٨٣٦ فكرَ بأن «يدخل في الدراسات الفلسفية عدداً من المشاهد التاريخية منذ قرون غزو قبائل الفرانك حتى العام ١٨٠٠» (وفقاً لما ذكره في **أفكار، ومواضيع، وشذرات**، ص ١٣٨) لكن هذا الإنقاذ في اللحظة الأخيرة» لمشروع ١٨٢٤ - ١٨٢٥ لم يحدث. وبصورة عامة يتقصى بلزاك- شرط عدم العثور عليه- في شخصية لوسيان. لكن الصفحة أعلاه تبرهن على أنه أكثر شبهاً بدارتز الذي يعرض بلسانه نقده لوالترسكوت، وقد سبق له في «تنبيه» مقدمة «الفتى» (وهو العنوان البدائي **للثائر الملكي**) أن أخذ على الكاتب الاسكتلندي عدم قدرته في إبراز صورة الحبّ؛ وبدا اللوم ذاته في «مقدمة» الملهاة الإنسانية، العام١٨٤٢ لا توجد إلا امرأة واحدة بالنسبة للكاتب البروتستنتي الذي حرّم على نفسه وصف الأهواء. لكن والترسكوت، ورغم عيوبه، غير قابل للتقليد، وقد قالها بلزاك قبل دارتز «من يقلّده، يسعى إلى تدمير نفسه» (مسلسل الصحف السياسية، ١٤ نيسان ١٨٣٠) غير أنه على شاكلته يتناول التاريخ على مستوى الحياة الخاصة، وتاريخ الطبائع. وإرشادات دارتز حول استخدام الأوصاف الأوليّة، وتغيير المخططات ورسم الأهواء، هي ما اتّبعه بلزاك في رواياته، ورأس بونابرت، وشاعرية بلزاك... تعني بأي حذر وأيّة تحفظات يجب المقابلة بين دارتز وبوشيز.

المستقبلي ودعاه لتناول العشاء في مطعم إدُون[1] حيث أنفق اثني عشر فرنكاً. وخلال هذا العشاء كشف دانييل سرّ آماله ودراساته للوسيان؛ فهو لايرى الموهبة خارقة دون معارف ميتافيريقية عميقة، وهو يعمل في هذه المدّة على التدقيق في جميع الذخائر الفلسفية العائدة للأزمنة القديمة والحديثة ليستوعبها، وهو يريد أن يكون كموليير فيلسوفاً متعمّقاً قبل أن يؤلف مسرحيات[2]؛ وقد درس العالم المكتوب والعالم الحي، والفكر والواقع؛ وصادق الباحثين في العلوم الطبيعية، والأطباء الشباب، والكتاب السياسيين، والفنانين؛ أفراد مجتمع جادين، منصرفين للدراسة يبشرون بمستقبل واعد. وهو يعيش من إعداد مقالات معتنى بها، على قلة تعويضاتها، تُنشَر في معاجم السيَر، أو الموسوعات، أو دراسات العلوم الطبيعية، وهو لايكتب إلا ليحصل على ما يدرُّ عليه كفاية العيش ويمكنه من متابعة نشاطه الفكري؛ وكان له مؤلّف مخيّلة، وهو مشروع يقتصر فقط على دراسة موارد اللغة وهو كتاب ما يزال غير منته، يتناوله بالمراجعة والتنقيح نزوة منه، وهو يحتفظ به لأيام الضائقة الكبرى، ويُعَدُّ مؤلفاً سيكولوجياً جليل الأثر بشكل رواية. وبالرغم من أن دانييل قد كشف عن نفسه بتواضع فقد بدا للوسيان عملاقاً. وعند خروجهما من المطعم في الحادية عشر، كان لوسيان يحسّ بصداقة حميمة لهذه الفضيلة دون تفاخر، ولهذه الطبيعة السامية دون تعاظم، ولم يناقش الشاعر نصائح دانييل بل اتبّعها بحرفيتها، فهذه الموهبة الجميلة التي نضجت بالفكر، وبالنقد المنفرد، غير المنشور، المعدّله لاطلاع الغير، دفع أمامه فجأة باب أروع قصور الخيال المبتكر، وكأنّ شفتي ابن الأقاليم قد لامستا الجمر المتوقّد، وكأن كلمات المُجدّ الباريسي وجدتا في مخّ شاعر آنغوليم أرضاً مهيّأة، وبدأ لوسيان في تنقيح مؤلّفه،

(١) إدون EDON: مطعم في شارع فوسيه- سان جرمن دي بري، اشتهر بجودة خموره.

(٢) هنا أيضاً يستحضر دارتز بلزاك الذي كانت مطالعاته المنهجية الأولى خلال فترة ١٨١٨- ١٨٢٠ ذات اهتمامات فلسفية، وقد فكر في كتابة دراسة موسعة عن خلود الروح بقي منها بعض ملاحظات. وهو في المخطوطة يلمح لمكيافلي وليس لموليير، وفكّر وفقاً لما ذكره ر. غيز بأن يخطط ما بين ١٨٢٠- ١٨٢٥ لوضع طلسم أعطى له عنوان نبات «اليبروح» MANDRAGOR الذي تشبه جذوره أشكال الدمى المختلفة.

وقد أسعده أن يلقى في صحراء باريس قلباً ينبض بالعواطف الكريمة المنسجمة مع عواطفه؛ وتصرّف رجل المقاطعة الكبير كما يتصرّف جميع الشباب المتعطش للمودّة؛ فتعلّق كَمَرض مزمن بدارتز، فكان يمر على منزله ليصحبه إلى المكتبة، ويتنزه معه في حديقة اللوكسمبورغ خلال الأيام الجميلة، ويرافقه كل مساء حتى غرفته البائسة بعد أن يتناولا عشاءهما معاً في مطعم فليكوتو، أخيراً كان يلتصق به كالتصاق الجندي بجاره في سهول روسية المغطاة بالصقيع. وقد أحسّ لوسيان في الأيام الأولى من تعرفه على دانييل، بالأسى عندما لاحظ بعض الانزعاج من وجوده عند اجتماع أصدقاء دانييل الخلّص به؛ فمداولات هؤلاء الأشخاص الكبار الذين حدّثه دارتز عنهم بحماسة مركزة لم تكن تتعدّى حدود التحفظ مما لا يتوافق مع الدلائل الظاهرة لصداقتهم الوطيدة، وكان لوسيان يخرج عندئذ خلسة، وهو يعاني نوعاً من التأثر الناتج عن إحساسه بأنه يتعرض للإبعاد وعن الفضول الذي يثيره فيه هؤلاء الأشخاص المجهولون، إذ أنهم كانوا يتنادون دائماً بأسمائهم الأولى، وتظهر على جباه الجميع، كدارتز سمة العبقرية الخاصة. وبعد معارضات سرية مناوئة من قبل دانييل دون علم لوسيان، عُدَّ الأخير جديراً بالانضمام إلى هذه الندوة التي تجمع عقولاً كبيرة، وأمكن له منذ ذلك الحين التعرف على هؤلاء الأشخاص المتآلفين بعمق مشاركاتهم الوجدانية، وجديّة وجودهم الفكري، الذين كانوا يجتمعون كل مساء تقريباً عند دارتز، وكلّهم يستشفون فيه الكاتب الكبير، ويعدّونه رئيسهم، بعد أن فقدوا أحد تلك العقول الأكثر روعة في ذلك الزمن، عبقريّة صوفية، رئيسهم الأول، المنسحب لأسباب لافائدة من ذكرها إلى مقاطعته، وقد سمع لوسيان غالباً التحدّث عنه تحت اسم لويس[(١)]. ويسهل فهم مدى أهمية الفضول الذي أثاره هؤلاء الأشخاص في نفس الشاعر، وقد حظي كل منهم، كدارتز، بكل تقدير وخاصة بعد أن قضى العديد منهم.

---

(١) إنّه لويس لامبر بالطبع. هوذا تأثير مُفرط الدقة «لظهور مجدّد» أو بالأحرى لاختفاء شخصية روائية «لأسباب لافائدة من ذكرها» كما كتب بلزاك: مما يوحي بلغز أو سرٍّ، لايريد القاص أن يكشفه، وهو يتعلق بانسحاب ثم فقدان هذه الشخصية وكأنها تكوّن حقيقة منفصلة لا علاقة لهذا القاصّ بها، إلا إنّه أحد شهودها - ويمكن **للملهاة الإنسانية** أن تشبع فضول القارئ الراغب في معرفة سرّها.

من بين أولئك الذين مايزالون أحياء هوراس بيانشون وكان آنذاك طالب طب متدرب في مشفى أوتيل - ديو، وغدا بعدها أحد المشاعل النيّرة في مدرسة باريس وهو من المشاهير الآن ومن الضروري وصف شخصيته أو بيان خُلقه وطبيعة تفكيره ويليه ليون جيرو، هذا الفيلسوف المتعمّق، والمنظر الشجاع الذي يحرك جميع الأنظمة ويحكم عليها، ويعبر عن مضمونها، ويصوغها، ويجرها حتى أقدام معبوده **الإنسانية** الكبير دائماً حتى في أخطائه، المغفورة بإيمانه العميق. هذا المجدُّ الجريء، والعالم الوجداني غدا زعيم مدرسة أخلاقية وسياسية سيحكم الزمن وحده على قيمته[1]. وإذا كانت معتقداته قد هيأت له قدراً في مناطق غريبة عن تلك التي انطلق فيها رفاقه فقد بقي رغم ذلك الصديق الوفي لهم. وتمثل الفنّ بجوزيف بريدو أحد أفضل رسّامي المدرسة الحديثة. ولولا النوائب الخفيّة التي تحكم عليه بها طبيعة سرعة الانفعال، لاستطاع جوزيف وهو الذي لم يقل بعدُ كلمته الأخيرة، أن يتمّم مسيرة كبار معلمي الإيطالية: إذ أنّ له رسوم روما وألوان البندقية، لكن الحبّ يضنيه ولايخترق إلاّ قلبه: وما أن يرسل الحب سهامه إلى مخّه حتى يعكّر حياته، ويدفعه إلى القيام بتعرّجات غريبة؛ فإن أحيته خليلته المؤقتة في جو من السعادة، أو عرّضته لمزيد من البؤس، أرسل جوزيف إلى المعرض تصاميم يطغى اللون فيها على الرسم تارة، وتارة لوحات أراد أن ينهيها تحت وطأة الأحزان الخيالية حيث شغله الرسم عن اللون الذي يتصرّف به على هواه، فسها عنه وغدا لاوجود له. وهكذا كان يخدع دون انقطاع الجمهور وأصدقاءه. وكان هوفمان شديد الإعجاب به لابتكاراته الجريئة في مضمار الفن ولنزواته وتفننه. وعندما يكون كاملاً يستثير

---

(١) لم يظهر اسم جيرو إلا بعد الطباعة، ويُعتقد أنه مستوحى من شخصية بيير لرو P.LEROUX (١٧٩٧ - ١٨٧١) الاشتراكي السيموني الذي لم ينشر مؤلفه «من الإنسانية» إلا في العام ١٨٤٠، لكن أفكاره انتشرت في «الموسوعة الرائعة» التي كانت توزع سلسلة بواقع ١٠ سنتيمات للجزء من طبع لاشفارديير، ومن الممكن أن يكون بلزاك قد تعرف على آرائه من خلالها فذكره في «الأوهام الضائعة» في مقطع معدّل في العام ١٨٤٣.

الإعجاب ويتذوقه، وينفر عندئذ لأنّه لم يتلق التقريظ على الأعمال الناقصة حيث ترى عينا روحه كلَّ مايغيب عن أعين الجمهور، وهو غريب الأطوار إلى الدرجة القصوى، وقد رآه أصدقاؤه يتلف لوحة منتهية، وجد مظهرها متكلفاً، وقال: إنّها كثيرة التنميق، إنّها مغالية في مدرسيتها». مبتكر ورائع أحياناً، تتوفّر فيه كلُّ مصائب العضويات العصبية وكل نَعمها، حيث يصل التوق إلى الكمال حتى المرض. وذكاؤه أخ شقيق لذكاء ستيرن إنّما دون نتاج أدبي، ولكلماته ونفثات فكره طعم خارق، وهو فصيح يعرف كيف يحبُّ إنّما وفق نزواته التي يضمنها عواطفه كما يضمّنها نتاجه، وهو أثير لدى شلّة الأصدقاء وخاصة للعيوب التي يراها فيه العالم البرجوازي[1]. وأخيراً فوجنس ريدال أحد مؤلفي عصرنا الأكثر إبداعاً في الفكاهة، شاعر لايهتّم بالمجد، ولايعطي للمسرح إلا مؤلفاته الأكثر ابتذالاً، ويحفظ في كنانة مخّه لنفسه ولأصدقائه أجمل المشاهد، ولايطلب من الجمهور إلابعض المال اللازم لكفايته ولايريد بعد الحصول عليه القيام بأي عمل. كسول ومنتج كروسيني. ملتزم ككبار الشعراء الهزليين أن يرى في كل شيء ناحيته الإيجابية وأن يتجنب مظهره السلبي، ومع ارتيابه يمكنه أن يضحك ويضحكه كل شيء، فهو فيلسوف عملي كبير، ومعرفته بالعالم، وعبقريته في الملاحظة، وازدراؤه بالمجد الذي يسميه البهرجة، لم تجفف أبداً قلبه، وهو نشيط في خدمة الغير بقدر ماهو مهمل لمصالحه، فإن سعى فمن أجل صديق. وهو في ولائه لرابليه لايكره الموائد العامرة لكنه لايبحث عنها، وهو كئيب ومرح في آن معاً، ويطلق عليه أصدقاؤه لقب كلب الفوج، وهو ما يصوّره ويمثله خير تمثيل[2]. وهناك ثلاثة

---

(١) بريدو Bridau: لايظهر أيضاً في المخطوطة، وله ملامح دلاكروا، إنّما في حدود العموميات، مع بعض الفوارق.

(٢) عمد آ. آدم إلى مقارنة هذه الصورة البلزاكية بشهادات فيرون (في المذكرات) وغوزلان (في مؤلَفه بلزاك في منزله) عن جان- توسان ميرل (١٧٨٥- ١٨٥٢)؛ فهذا الصحفي الملكي كان أيضاً مؤلفاً مسرحياً ناجحاً، ذا موهبة سهلة، كما أنه بالنسبة لمن عرفوه، صديق أمين ورجل عيّاش محب للمتعة، وكان من ١٨٢٢- ١٨٢٦ مديراً لمسرح باب سان مارتن، وتزوج الممثلة الشهيرة ماري دورفال. لعلّ بلزاك كان يعنيه في حديثه عن فوجنس.

آخرون لم يكونوا يقلّون رفعة عن هؤلاء الأربعة الذين سبق ذكرهم، لكنهم توفوا خلال أوقات زمنية متقاربة. وأولهم ميرو[1] الذي توفي بعد أن أثار ذلك الجدل الشهير بين كوفيه وجيوفرواسان- هيلير حول قضية كبيرة قسمت الأوساط العلمية بين هاتين العبقريتين المتعادلتين، قبل عدة أشهر من موت ذلك المؤيد لعلم دقيق وتحليلي ضد الحلولية[2] التي كانت ما تزال حية ومتجلية في المانية. كان ميرو صديقاً للويس هذا الذي خطفه موت عاجل من الوسط الثقافي. إلى هذين الرجلين اللذين أبرزهما الموت، وطواهما النسيان الآن، رغم سعة علمهما وألَق عبقريتهما، يجب أن نضم ميشيل كرستيان الجمهوري بطموحه الواسع وحلمه الكبير في أوروبة اتحادية وهو يُعَدُّ ذا شأن في العام ١٨٣٠ في حركة السان سيمونيين الأخلاقية. رجل سياسة بقوة سان- جوست ودانتون، لكنه بسيط وناعم كفتاة، يدغدغه الحب والأوهام، وهبَ صوتاً رخيماً قميناً بأن يسحر موزار أو ويبر أو روسيني، وأن يفتن قلب الشعر حبّاً أو أملاً وهو يترنم ببعض أغاني برانجه[3].

كان ميشيل كرستيان فقيراً كلوسيان، ودانييل وجميع أصدقائه، وهو يكسب

---

(١) يبدو أن اسم ميرو هو تحريف لميران Meyranx الطبيب والعالم الطبيعي المتوفى العام ١٨٣٢ ولم يتعد السابعة والثلاثين من العمر وكان قد أعدّ مع لورنسة دراسة عن الرخويات قدمها بواسطة جيو فرواسان هيلير إلى أكاديمية العلوم (في ١٥ شباط ١٨٣٠) وكانت مناسبة لمنافس كوفيه لعرض أفكاره حول مطابقة المخطط العام للتركيب العضوي للرخويات والفقاريات، مما سبب جدلاً عنيفاً في جلسة ٢٩ آذار التي يرجح أن بلزاك كان من شهودها إذ أنه يلمح إليها في مسلسل الصحف السياسية بتاريخ ٣١ آذار دون اتخاذ موقف لكنه بإنهائه لرواية «سرافيتا» تبنى نظريات جيوفرواسان- هيلير حول وحدة التركيب العضوي. كما بينت الآنسة فارجو (في مثال «بلزاك وأسياد المتحف» مجلة التاريخ الأدبي- تشرين أول- كانون أول ١٩٦٥) كما أن بعض كلمات من «المقدمة» بتاريخ ١٨٤٢، توضح التلميح إلى صدى هذا الجدل العلمي في ألمانية: «جيو فرواسان هيلير المتصر على كوفيه في هذه النقطة من العلم المتعمق والذي وجه غوته الشهير تحية إلى انتصاره في مقال أخير كتبه. لكن ميرو يشكل رقماً في الرواية وليس شخصية، فهل عرف بلزاك ميران؟ لم يبرهن على ذلك، ولم يهتد إلى الروابط بين هذا العالم المنسي والنماذج المحققة بالنسبة لأعضاء «العصبة» الآخرين.

(٢) الحُلُولية Pantheisme: وحدة الوجود، وهي المذهب القائل بأن الله والطبيعة شيء واحد، وبأن الكون المادي والإنسان ليسا إلا مظاهر للذات الالهية.

(٣) برانجه: (١٧٨٠- ١٨٥٧) مغنٍّ فرنسي، صاحب أغنيات وطنية.

عيشه بلا مبالاة ديوجينية[١]، عن طريق إعداد فهارس للمؤلّفات الكبرى، ونشرات دعاية للمكتبات. كان صامتاً أبداً عن أسرار مبادئه كصمت القبر عن أسرار الموت. بوهيمي الفكر هذا، ورجل الدولة الكبير الذي كان متوقعاً له أن يغيّر وجه العالم، مات على حاجز سان ميرّي كجندي بسيط بعد أن اخترقت رصاصة تاجر ماجسد أحد أنبل المخلوقات التي وطئت التربة الفرنسية. قضى ميشيل كرستيان من أجل قضية لاتتعلق بمبادئه فاتحاده كان يهدّد الارستقراطية الأوروبية بشكل أكبر من الدعاية الجمهورية، فهو أكثر عقلانية وأقل جموداً من أفكار الحرية المريعة وغير المحدّدة التي ينادي بها الشباب الحمقى الذين يرون أنفسهم ورثة الجمعيةالوطنية[٢]. وبكى هذا العامّي النبيل جميعُ من عرفوه، وما من واحد منهم إلا ويفكر غالباً بهذا الرجل السياسي الكبير المجهول[٣].

(١) ديوجينية: نسبة إلى ديوجين الفيلسوف اليوناني (٤١٣- ٣٢٧ ق.م) الذي اشتهر بازدرائه لمتاع الدنيا والأعراف الاجتماعية، كان يسكن في برميل، وعندما قربه الاسكندر الكبير وسأله إن كان يريد أن يحقّق له شيئاً أجاب «نعم، أن تبتعد من أمامي فقد حجبت عني دفء الشمس».

(٢) الجمعية الوطنية: هي الجمعية الثورية التي حلت محل الجمعية التشريعية وحكمت فرنسة من ٢١ أيلول ١٧٩٢ حتى ٢٦ تشرين أول ١٧٩٥ وأعلنت الجمهورية وحكمت على لويس السادس عشر بالإعدام، وتميّزت بعهد الإرهاب والعنف الثوري.

(٣) لم يتوصل النقاد والدارسون إلى الكشف عن النموذج الذي استمد منه شخصية كرستيان، وقد قال عنه بلزاك صراحة أنه لم يبح بمبادئه لأحد - عدا أصدقاء «الندوه» ولم يقتل أي كاتب أو فنان- وفقاً لما ذكره آ. آدم في مذبحة حاجز سان ميرّي في حزيران ١٨٣٢. وكرستيان الشهيد المجهول شخصيةً متخيلة في قسمها الأعظم، وما نعلمه عن مبدئه لايتيح الاستدلال عليه. فبوشه وكارنو ولرو مروا في محيط السان سيمونية « وفكرة الاتحاد الأوربي» كانت في مركز اهتمام «الأوروبي» لبوشه لكن سان دي بوالكونت وهو ضابط لاوجه شبه بينه وبين كرستيان، هو من كتب عدداً من المقالات المغفلة عن الاتحاد في تلك المحلة. بينما نشر لرو في مجلة الغلوب Le Globe بتاريخ٢٤ تشرين ثاني ١٨٢٧ مقالاً بعنوان: عن الاتحاد الأوروبي ... وكرستيان ليس فارسي Farcy ولاكارل Carrel. إنه سقوط الجمهورية وبلزاك المتحزب للملكية يمدُّيده لهذا الجمهوري المسيحي، العقلاني المهاب الذي لايشبه السياسي المحترف في «خط الوسط» و«لاالشباب الحمقى الذين يعتبرون أنفسهم ورثة الجمعية الوطنية» والجمهورية كما الملكية الشرعية، ماتت « برصاصة تاجر ما».

ألّف هؤلاء الأشخاص التسعة ندوة أحلّ التقدير والصداقة فيها السلام بين الأفكار والمبادئ الأكثر تعارضاً، فدانييل دارتز النبيل البيكاردي مؤيد للملكية بقناعة تعادل القناعة التي كانت تدفع ميشيل كرستيان للتمسك بالاتحاد الأوروبي، وفولجنس ريدال كان يسخر من مبادئ ليون جيرو الفلسفية، وجيرو بدوره يتنبأ لدارتز بنهاية المسيحية والعائلة؛ بينما ميشيل كرستيان المؤمن بديانة المسيح، مشرّع المساواة الالهي، يدافع عن خلود الروح ضد مشرط بيانشون المحلل البارع، كانوا يتنافسون دون أن يتخاصموا وقد تجردوا من الغرور، فهم المحاضرون والمستمعون، يطلع كل منهم الباقين على أبحاثه، ويتشاورون فيما بينهم بحسن نيّة الشباب الرائعة. لكن إن تعلق الأمر بقضية هامة؟ عندها يتخلى المعارض عن رأيه ليشارك صديقه في أفكاره، فهو يحسّ أنّه أقدر على مساعدته، باعتباره غير متميّز في تلك القضية أو العمل الخارج عن أفكاره. كانوا جميعاً ذوي نفوس طيبة متسامحة، ميزتان تنطقان برفعة كل منهم. أما الحسد تلك البؤرة الرهيبة التي تعشّش فيها الآمال الخائبة، والمواهب المجهضة، والمساعي الفاشلة، والرغبات الكليمة فقد كانوا يجهلونه. فلكلّ منهم مجاله الخاص؛ ومن يُقْبَل في شلتهم كلوسيان يشعر بالارتياح، فالموهبة الحقيقية طفل طيب بريء، منفتح، بعيد عن التكلف دائماً. والسخرية عنده تداعب النفس، ولاتهدف أبداً النيل من الكرامة؛ وما أن يتبدّد الانفعال الأول الناتج عن المراعاة حتى يحسّ بحلاوات لامتناهية لدى هؤلاء الشباب الصفوة؛ فالألفة لاتنفي إحساس كلّ منهم بقيمته، وكل واحد يحسُّ بتقدير عميق لجاره، وبالقوة في أن يكون مُفضِّلاً أو مُتفضَّلاً عليه؛ يقبل الجميع ذلك بكل بساطة والأحاديث الممتلئة جاذبية ويسراً تتناول المواضيع الأكثر تنوّعاً. والكلمات الخفيفة كأنها الأسهم المتطايرة تتناول مع سرعتها لبّ الموضوع، فالشتاء الخارجي الكبير وبهاء الغنى الفكري يحدثان تبايناً فريداً؛ فهنا ما من أحد يفكر بواقع الحياة القاسي إلا ليستمد منه فكاهات محبّبة، ففي يوم هجم فيه البرد قبل الأوان، وصل خمسة من أصدقاء دارتز وقد خطرت لكل منهم ذات الفكرة، فحمل تحت معطفه حزمة من الحطب على نسق ما يحدث في تلك النزهات الحقليّة

التي يحضر فيها كل متنزه نصيبه من وجبة الطعام فيفاجأ الجميع بأن كلاً منهم قد أحضر علبة من اللحم المحفوظ . ووهبوا جميعهم ذلك الجمال المعنوي المنسكب على المظهر ، يكسب تلك الوجوه الشابة مسحة سماوية لاتقل عن تلك الناتجة عن الدراسات والسهرات فتبدو القسمات المُتعبة وكأن طهر الحياة وجذوة الفكر يخافها الانتظام والنقاء ، فالجباه تتميّز بسعة شاعريّة ، والأعين البرّاقة المتألقة تعبرّ عن حياة دون دنس ، وآلام البؤس عندما يحسُّ بها يبدو الرضى في تحمّلها ، وحماس الجميع في اعتناقها ، فلا تغيّر أبداً من الرصانة الخاصة في وجوه الشباب التي ما تزال في منجاة من الأخطاء الفادحة ، ولم ينتابها الضعف أمام أيّ من التسويات الخسيسة التي تقتلع الشقاء غير المحتمل ، والرغبة في الوصول دون أي اختيار للوسائل والمحاباة السهلة التي يتقبّل بها رجال الأدب الخيانات أو يغفرونها . وما يوطّد الصداقات ويضاعف جاذبيتها هو ذلك الشعور باليقين الذي ينقص عاطفة الحبّ؛ فقد كان هؤلاء الشباب واثقين من أنفسهم ؛ وعدو أحدهم هو عدوٌّ للجميع ، وهم مستعدون للتخلي عن مصالحهم الملحة في سبيل المحافظة على تضامن قلوبهم الموطّد ، وهم في أنفتهم وبعدهم عن كلّ خسَّة مستعدون لرفض قاطع لكلّ اتهام ، يدافع بعضهم عن بعضهم الآخر بكل ثقة ، يدفعهم نبل قلوبهم ، وشعور بتكافؤ قواهم ، في مجال العاطفة وفي القدرة على التفكير والتصريح بكل شيء في مجال العلم والمحاكمة العقلية . ومن هنا كانت براءة عشرتهم ، ومرح أحاديثهم ، فنفوسهم تنطلق على سجيّتها وهم متأكّدون من حسن تفاهمهم ، مما يجنّبهم كل تكلّف ويدفعهم إلى البوح بمتاعبهم ومسراتهم ، وهم يفكرون يتأملون بكل صراحة ؛ فالرهافة الجذّابة التي تجعل من حكاية «**الصديقين**»(١) كنزاً للنفوس الكبيرة تُعَدُّ أمراً عادياً لديهم ، وتشدّدهم في قبول عضو جديد في شِلّتهم يعود إلى تقدير لرفعتهم وسعادتهم وحرصهم على عدم المساس بهما بإدخال عناصر مجهولة وغير موثوقة .

---

(١) إحدى حكايات لافونتين المروية شعراً .

دام هذا الاتحاد في العواطف والمصالح دون مكدّر أو خيبة أمل مدة عشرين عاماً[1] والموت الذي اختطف لويس لامبر، وميرو، وميشيل كرستيان تمكن وحده أن يُنقص هذه الكوكبة النبيلة، وعندما أصابت رصاصة طائشة ميشيل كرستيان هرع هوراس بيانشون ودانييل دارتز وليون جيرو، وجوزيف بريدو، وفولجنس ريدال، رغم خطر المجازفة ينتشلون جثته من قلب المعركة على حاجز سان ميرّي لإجراء مراسم دفنه متحدّين العنف السياسي اللاهب، ورافقوا جثمان الصديق العزيز خلال الليل إلى مقبرة بير- لاشيز، بعد أن ذلّل هوراس بيانشون جميع العوائق ولم يتراجع أمام أيّ منها، مراجعاً الوزراء معلناً صداقته القديمة للاتحادي المتوفى. وكانت جنازته مشهداً مؤثراً نُقش في ذاكرة الأصدقاء قليلي العدد الذين رافقوا الرجال الخمسة المشهورين؛ ومن يتجول في تلك المقبرة الأنيقة يشهد قطعة أرض صغيرة اشتريت نهائياً وقد انتصب في وسطها قبر يغطيه العشب الأخضر الكثيف وارتفع عند رأسه صليب من خشب أسود حفُر عليه بأحرف حمراء الاسم والكنية، ميشيل كرستيان. إنّه الأبدة الوحيدة من هذا الطراز، فقد عمد الرجال الخمسة إلى تخليد ذكرى هذا الرجل البسيط بتلك البساطة.

في تلك السقيفة الباردة كانت تتحقق إذن أجمل أحلام الشعور، فهناك يتنوّر الأصدقاء، وكل منهم قوي في أحد فروع العلم، ينوّربه بعضُهم بعضَهم الآخر، بنيّة طيبة وبمنتهى الصراحة، حتى في معالجة الأفكار السيئة، وجميعهم ذوو ثقافة واسعة انصهرت في بوتقة البؤس. وما أن قُبل لوسيان بين هذه الكائنات المصطفاة وعُدّ نداً لهم حتى اتخذ ممثلاً للشعر والجمال فهو يتلو في اجتماعاتهم قصائد تلقى الإعجاب ويُطلب منه المزيد منها كما يُطلب من ميشيل كرستيان إنشاء إحدى الأغنيات وهكذا وجد لوسيان في صحراء باريس واحة في شارع الرياح الأربعة يستظلّ بها.

في بداية شهر تشرين أولّ انفق لوسيان ما تبقى معه من دراهم للحصول على بعض الحطب، وبقي دون مورد وسط زحمة العمل العائد إلى تنقيح مؤلّفه.

---

(١) هو ذا ما يميز هذه «الشلّة» عن باقي الزُمَر والجمعيات السان سيمونية أو غيرها من النوادي الفلسفية أو الأدبية في عهد الملكية الثانية.

كان دانييل دارتز يحرق المَدَر[١] ويتحمَّل البؤس بالشجاعة، وقد رتّب وضعه كفتاة عانس، واستعان بأساليب تقتير البخلاء، فأثارت شجاعته لوسيان الوافد مجدّداً إلى ندوته وهو يعاني نفوراً كؤوداً من التحدّث عن ضائقته، وفي ذات صباح ذهب إلى شارع دوكوك ليبيع مخطوطة «**نبال شارل التاسع**» فلم يجد دوغرو. كان لوسيان يجهل مدى تسامح النفوس الكبيرة؛ إذ أدرك كلّ واحد من أصدقائه الضعف الخاص بالشعراء، والوهن الذي يلي جهود الروح المستثارة بتأملات الطبيعة وهي ترنو إلى تجسيدها. فهؤلاء الأصدقاء الأقوياء على ظروف شقائهم أحسّوا بالرقّة أمام آلام لوسيان، وشعروا بإفلاسه وهكذا توّجت الندوة أمسياتها العذبة بالأحاديث والتأملات العميقة، والقصائد، والاعترافات وجولات ملء خفق الأجنحة في حقول الفكر، ومستقبل الأمم، ومجالات التاريخ، بالتفاتة تبرهن عن مدى قلّة فهم لوسيان لأصدقائه الجُدُد.

قال له دانييل: «لوسيان، ياصديقي، لم تأت مساء البارحة لتناول العشاء في مطعم فليكوتو، ونحن نعلم السبب.»

لم يستطع لوسيان حبس دموعه التي سالت على وجنتيه.

وقال له ميشيل كرستيان: لم تمنحنا الثقة، وسنستغني عن إيقاد النار في المدفأة، فعندما نكون عشرة...

قاطعه بيانشون: لقد وجد كل منا عملاً غير متوقع، فأنا قد كلفني دسبلين برعاية أحد المرضى الأغنياء، ودارتز أعد موضوعاً للمجلة الموسوعية[٢] وكرستيان

---

(١) المَدَر: كتل ترابية تفحمت فيها بقايا الأخشاب والجذور فغدت أشبه بالخُبّ تحترق بصعوبة وتؤمن بعض الدفء.

(٢) المجلة الموسوعية: (١٨١٩ - ١٨٢٣) صدر منها ستون جزءً، وكان يديرها جوليان، وقد أعلنت في بيانها الأول «أن هدفها عرض مسيرة المعارف البشرية ونجاحاتها المتتابعة ضمن علاقتها بالنظام الاجتماعي بدقّة وأمانة» والتزمت بهذا الهدف واستعانت بعدد من المساعدين لإعداد الكميَة الكبيرة من المعلومات التي عالجتها، ويحتمل أن يكون العلماء الشباب المنخرطون في الندوة ممن كتبوا لها، سيّما وقد خصصت زاوية للأدب بل أعطت تقارير عن روايتي بلزاك: «الثائر الملكي الأخير (آذار ١٨٣٠)وفيزيولوجية الزواج (شباط ١٨٣٠) ممايدفع إلى الاعتقاد بوجود علاقة لها مع بلزاك في تلك المدّة. وفي العام ١٨٣١ كان لرو وكارنو وجان رينو يديرون المجلة ممايقودنا على الأرجح إلى الندوة.

أراد الغناء مساء في جادة الشانزلزيه. وهو يبسط منديلاً ويشعل أربع شمعات، لكنه حظي برجل يريد خوض غمار السياسة فهيّأ له كتيباً على نسق ميكافيلي لقاء ستمئة فرنك؛ وقد اقترض ليون جيرو خمسين فرنكاً من ناشره، وباع جوزيف بعض رسومه وقدّم فولجنس مسرحيته فعُرضت الأحد الماضي وكانت القاعة ممتلئة بالجمهور.

قال دانييل: هي ذي مئتا فرنك أرجو قبولها، ولاتفكّر بإعادتها أبداً.

قال كرستيان: هيا ألا تعانقنا كأننا قمنا بعمل خارق؟

لفهم المتعة التي أحس بها لوسيان وسط هذه الموسوعة الحيّة من النفوس الملائكية[1] المتجلية في هؤلاء الشباب الذين رُسم كل منهم بتفرّد استمده من العلم الذي يمارسه يكفي العودة إلى الأجوبة التي تلقاها لوسيان على رسالة كتبها في اليوم التالي لعائلته، وهي تحفة حساسية، وإرادة طيّبة، وصرخة مروّعة مردّها الضائقة الملمّة به.

من دافيد سيشار إلى لوسيان

عزيزي لوسيان:

أرفق لك أمر دفع لصالحك يُسدَّد بعد تسعين يوماً وهو بقيمة مئتي فرنك يمكنك استلامها من السيد متيفيه، تاجر الورق، الذي أتعامل معه، في شارع سربنت في باريس.

ياصديقي الطيب لوسيان. نحن لانملك شيئاً على الإطلاق، وقد بدأت زوجتي تدير المطبعة وتقوم بواجبها بتفان، وصبر، ونشاط تدفعني إلى مباركة السماء التي أنعمت عليّ بهذه الزوجة مثيلة الملاك، وقد لاحظت هي بالذات عجز الحالة التي نحن فيها على مدك بأيّة مساعدة. لكنني أعتقد أنك ياصديقي على الدرب القويم، تكلؤك فيه قلوب على هذا القدر من الكبَر والنبل فلا تضلُّ عن

(١) سيرد في دراسة الرواية تحليل لهذه الاستعارات والتشابيه بالملائكة.

قدرك الجميل وأنت محاط بهذه العقول شبة الالهية أمثال السادة دانييل دارتز، وميشيل كرستيان وليون جيرو، والنصحاء السادة ميرو وبيانشون، وريدال الذين عرّفتنا رسالتك العزيزة عليهم. ودون علم إيڤ حررّت لك هذا السند وسأجد وسيلة لتسديده في زمن استحقاقه؛ فلا تحد عن دربك فهو على قسوته وسيلتك إلى المجد، وأنا أفضل معاناة ألف مشقة على أن أراك تسقط في حمأة من رذائل باريس التي رأيت منها الكثير؛ فكن شجاعاً وتجنب المتعاطين للأدب ممن عرفت منزلتهم الوضيعة أثناء وجودي في باريس، وكن المنافس والقرين لتلك النفوس السماوية التي تدفعني إلى الاعتزاز بها؛ وستكافأ على سلوكك سريعاً.

وداعاً يا أخي المحبوب، فقد أنعشت قلبي، ولم أكن اتوقّع منك مثل هذه الشجاعة.

دافيد

من إيڤ سيشار إلى لوسيان

يا أخي وصديقي

رسالتك أبكتنا جميعاً، فلتعلم تلك القلوب النبيلة التي وّجهك ملاكك الحارس نحوها أن أمّاً وأختاً مسكينة تتضرّعان إلى الله صبحاً ومساءً ليحفظهم، وإذا كانت الصلوات الأكثر ورعاً تصل إلى عرشه السماوي فستنال بعض حظوات لكم جميعاً. نعم يا أخي، لقد نُقِشَت أسماؤهم في قلبي. آه! سأراهم يوماً ما، سآتي، ولو اضطررت لقطع المسافة سيراً على الأقدام، لأشكرهم على صداقتهم لك لأنّها انبسطت كبلسم على جراحي المتفتّقة؛ فنحن هنا يا صديقي، نكدُّ كأفقر العمال، وزوجي، هذا الرجل الكبير المجهول الذي أزداد حبّاً له يوماً بعد يوم، وأنا أكتشف بين لحظة وأخرى ذخائر جديدة في قلبه الطيب، قد هجر مطبعته، وأنا أعرف السبب: فبؤسك، وبؤسنا وبؤس والدتنا يقتله، ومعبودنا دافيد

كبروميثيوس[1] الذي افترس كبده النسر، كآبة صفراء ذات منقار حاد؛ والرجل النبيل لايفكر أبداً بنفسه، وهو يأمل بالثروة، ويقضي أيامه في إجراء تجارب على صناعة الورق؛ وطلب مني أن أحلّ مكانه في إدارة أعمال المطبعة مع مساعدته لي بقدر ما تسمح له اهتماماته. للأسف! إنني حامل؛ وهذا الحدث الذي يجب أن يفعمني فرحاً أحزنني في الوضع الذي وصلنا إليه جميعاً؛ فوالدتي المسكينة تستمد من الضعف قوّة لمتابعة مهنتها الشاقة في السهر على المرضى، ولولاسعينا إلى بعض الثروة لكنّا سعداء. والأب العجوز سيشار لايريد أن يعطي ابنه فلساً، وقد ذهب دافيد لرؤيته وطلب منه إقراضه بعض المال لمساعدتك لأن رسالتك أقنطته، فرفض العجوز قائلاً: «إنني أعرف لوسيان، فسيضيع صوابه، ويرتكب الحماقات». ووبّخت دافيد على طلبه وأجبته أنني سأموت كَمَداً، إنْ أعوز لوسيان شيء ما؟ وهرعت ووالدتي دون علم دافيد إلى رهن بعض الأغراض التي ستستردها أمي عند حصولها على بعض المال، وهكذا استطعنا جمع مئة فرنك أرسلها لك بواسطة مكتب السفريات. وإن كنت لم أجب على رسالتك الأولى، فلا تلمني يا صديقي، فقد كنا في وضع نقضي فيه سواد الليالي وأنا أعمل كرجل. آه! لم أكن أعلم أنني أمتلك هذا القدر من القوّة. إن السيدة دي بارجتون امرأة عديمة القلب والروح، فقد كان لزاماً عليها دائماً، حتى عند تخليها عن غرامك، أن تحميك وتساعدك بعد أن انتزعتك من أحضاننا لتلقي بك في هذا اليمّ الباريسي الرهيب الذي تتوجب فيه بركة الله للعثور على صداقات حقيقية بين هذه السيول من الناس والمصالح. لكنها ليست ممن يؤسف عليه. كم أردت أنْ تكون إلى جانبك امرأة مضحّية، مماثلة لي، وها أنا مطمئنة الآن وقد علمت أنك محاط بأصدقاء يتابعون عواطفنا، فحلّق بجناحيك أيّها العبقري الجميل المحبوب فستكون فخرنا، كما أنت حبّنا.

«إيف».

---

(١) بروميثيوس: في الميثولوجية الإغريقية، ربُ العبقرية والنار، ابن تيتان وأخ أطلس، وهو يعد رائد الحضارة البشرية الأولى، وبعد أن شكل الإنسان من طيف الأرض، سرق نار السماء لإحيائه، فعاقبه زيوس بحبسه في جبال القوقاز حيث افترس كبده نسر، لكن هيراكليس تمكّن من إنقاذه (ملاحظة المترجم)

يا ولدي العزيز

لاأستطيع بعد كل ما قالته أختك، إلا أن أباركك، وأن أؤكد لك أن صلواتي وأفكاري لاتتركّز للأسف إلا عليك، على حساب أولئك الذين أراهم حولي. لأن بعض القلوب يشغلها على الدوام أعزاؤها الغائبون، وهكذا هو قلب[1]

«أمك»

بذلك تمكن لوسيان بعد يومين فقط من أن يعيد لأصدقائه المبلغ الذي قُدّم إليه بكل طيبة خاطر؛ وربّما لم تبدُ له الحياة في يوم ما أكثر جمالاً، لكن بادرة اعتزاز بنفسه لم تغب عن أنظار أصدقائه العميقة وحساسيتهم المرهفة.

- صاح فوجنس: «يمكن القول إنك تخاف أن نتفضّل عليك بمنّة».

- وقال ميشيل كرستيان: أوه! يبدو سروره أمام ناظري أكثر أهمية، فهو يؤكّد ما سبق أن ذكرته من ملاحظات خلاصتها إنّ لوسيان كثير الاعتداد بنفسه.

- قال دارتز: إنّه شاعر.

- أجاب لوسيان: هل تلومونني على مثل هذا الإحساس الطبيعي جداً؟

وقال ليون جيرو: يجب الأخذ بالاعتبار ما لم يخفه عنا، فهو ما يزال صريحاً، لكنني أخشى أن يتهيّبنا مستقبلاً.

قاطعه لوسيان متسائلاً: لكن لماذا؟.

أجاب جوزيف بريدو: إننا نتقصى ما في سريرتك.

- وقال له ميشيل كرستيان: إن لك روحاً شيطانية تبرّر أمام عينيك الأشياء الأكثر تناقضاً مع مبادئنا: وبدلاً من أن تكون سفسطائياً بأفكارك ستكون سفسطائياً بأعمالك.

---

(١) تشكّل هاتان الرسالتان عنصر التسلسل الرئيسي بين القسم الأوّل والقسم الثالث عبر القسم الثاني من الرواية. فموضوع المبتكر، وحَمَل إيف، والبؤس المخيّم على آنغوليم، وإهمال المطبعة، وجميع عناصر العودة إلى المقاطعة تبدو هكذا طبيعيةً في اللوحة الجدارية الباريسية. ورسالتا دافيد وإيف المُتصلتان بالصورة البريئة «والملائكة» تدخلان في المشهد الداخلي القاتم للمرحلة الباريسية ذات «الرؤى» الجلية للوحة الندوة.

- قال دارتز: آه! إنني خائف من هذا. ستجري في صميم نفسك مناقشات تستثير الإعجاب حيث ستبدو كبيراً لكنها ستنتهي إلى أعمال تستحق اللوم ... إنّك لن تكون أبداً متوافقاً مع ذاتك.

- سأل لوسيان: ولكن ما هي مستندات اتهامكم؟.

- صاح فولجنس: غرورك، يا شاعري العزيز، إنّه من الكبر حتى ليطغى على صداقتك، وكل غرور من هذا النوع يتضمّن أنانية رهيبة، والأنانية سُمُّ الصداقة.

صاح لوسيان: آه! يا إلهي، أنتم لاتعلمون إذن كم أحبكم.

- لو أنك تحبّنا كما نتحابب، هل كنت تلجأ إلى مثل هذه العُجالة والمغالاة في أن تعيد لنا ما أعطيناك إياه بمزيد من السرور.

- قال جوزيف بريدو بفظاظة: هنا لايُقرّض شيء بل يُمنح.

- قال له ميشيل كرستيان: لاتعتقد أننا قساة يا ولدي العزيز، إنّما نحن محترسون ونخشى أن نراك يوماً تفضل متُع انتقام تافه على مسرّات صداقتنا النقيّة. اقرأ «تاسو» لغوته[1]، أحد أكبر مؤلّفات هذا العبقري، وستجد فيه أن الشاعر يحب المواضيع البرّاقة، والولائم، والانتصارات، والشهرة: حَسَنٌ، كن تاسو دون جنونه، أيدعوك العالم وملذاته؟ ... ابق هنا، انقل إلى منطقة الأفكار كل ما تطلبه لتبجحاتك، والحماقة بالحماقة، ضع الفضيلة في أفعالك والرذيلة في أفكارك، بدلاً من أن تحسن التفكير وتسيء السلوك كما قال لك دارتز.

طأطأ لوسيان رأسه فأصدقاؤه على صواب وقال وهو يلقي عليهم نظرة إعجاب: «أعترف إنني لست بمثل قوتكم، وليس لي شدّة الكاهل والأكتاف لأدعم

---

(١) توركاتو تاسو TorquatoTasso، بالفرنسية LETASSE(١٥٤٤ - ١٥٩٥) شاعر إيطالي مؤلف: أورشليم المحررّة في العام ١٥٧٥ وهي ملحمة تمتزج فيها أحداث بطولية وورمانسية، وضع عنه جوهان ولفغانغ غوتة GOETHE(١٧٤٩ - ١٨٣٢) شاعر ألمانية الكبير في العام ١٧٨٩ المؤلف الذي يشيد به بلزاك أعلاه. (المترجم).

باريس وأصارع بشجاعة؛ فالطبيعة قد منحتنا طبائع وقدرات مختلفة، وأنتم تعرفون أكثر من أي شخص منقلب الرذائل والفضائل، وأنا إنسان حلّ به التعب، أعترف لكم بذلك.

- قال دارتز: سندعمك، هو ذا بالضبط المجال الذي تتجلّى فيه الصداقات الوفيّة.

- ردّ لوسيان: إن المساعدة التي تلقيتها عارضة ونحن جميعاً فقراء، ننضوي بعضنا وبعضنا الآخر بدرجات مختلفة تحت لواء البؤس، وستلاحقني الحاجة سريعاً، وكرستيان رهينة أعمال متقطعة، ولاتأثير له على دور النشر، كما أن بيانشون خارج عن محيط هذه الأعمال، ودارتز لايعرف إلا ناشري العلم أو الدراسات المتخصصة الذين ليس لهم أيّة علاقة بنشرِ المؤلّفات الأدبيَة الجديدة؛ وهوراس وفولجنس ريدال، وبريدو يعملون في مجال فكري بعيد كل البعد عن دور الكتب، ويجب علي أن أتخذ قراري.

قال بيانشون: انضوِ تحت لوائنا إذن، لواء الألم. تألم بشجاعة وانصرف إلى العمل.

ردّلوسيان بحدّة: لكن ما يقتصر على الألم بالنسبة لكم يُعَدُّ موتا لي.

قال ليون جيرو مبتسماً: قبل أن يصيح الديك ثلاث مرّات سيتنكّر هذا الرجل لقضية العمل لينحاز إلى متعة الكسل وفجور باريس.

- قال لوسيان ضاحكاً: إلى أين أوصلكم العمل؟

- قال جوزيف بريدو: عند الانطلاق من باريس إلى إيطالية لن تكون روما في منتصف الطريق. إنّك تريد أن تعطيك نبتات البازلاء حباتها مبتلّة بالزبدة.

قال ميشيل كرستيان: هذا لايحدث إلا لأبناء أعيان فرنسة الأبكار، أمّا نحن- الآخرين- فنبَذُرُها ونسقيها؛ لنجدها ألذّ طعماً بعد ما بذلناه من عناء.

غدت المحادثة ممتعة، وتغيّر موضوعها، فهذه النفوس البعيدة النظر، وهذه

القلوب الحساسة سعت لنسيان تلك المشاحنة الصغيرة مع لوسيان الذي أدرك مدى الصعوبة في خداع أصحابه، وأحسّ سريعاً بقنوط داخلي أخفاه بعناية عنهم معتقداً أنهم من المرشدين المتصلبين، ودفعته عقليته الجنوبية التي تضرب بسهولة على أوتار العواطف إلى اتخاذ القرارات الأكثر تناقضاً.

ذكر مرّات عديدة أنه سيلقي بنفسه للعمل في ميدان الصحافة، وقال له أصدقاؤه على الدوام: «احترس جيداً من ذلك».

- قال دارتز: سيكون ذلك قبر لوسيان الوسيم اللطيف الذي نحبُّ ونعرف.

- لن تقاوم التعارض الثابت بين المتعة والعمل، والقائم في حياة الصحفيين. والمقاومة هي أساس الفضيلة، وستكون مغتبطاً جداً في أن تمارس السلطة وأن يكون لك الحق في حياة وموت مؤلّفات الفكر، وأن تكون صحفياً خلال شهرين. امتهان الصحافة هو الانتقال إلى مرتبة قنصل في جمهورية الآداب إن من يستطيع أن يقول كل شيء، يتوصل إلى فعل كل شيء. هذا القول المأثور هو لنابوليون ويسهل فهمه واستيعابه[1].

- قال لوسيان: ألن تكونوا قريبين مني؟

- صاح فولجنس: أبداً، ما أن تغدو صحفياً حتى لاتفكّر بنا إلا بقدر ما تفكر فتاة الأوبرا المتألقة، المعبودة، وهي في عربتها المبطنة بالحرير، أو تجول في خاطرها ذكرى ضيعتها وبقراتها، وقبقابها الخشبي. إن لك الكثير من مزايا الصحفي: مفاجأة الفكرة وبريقها، وأنت لاتمتنع عن طرفة كلاميّة حتى لو أبكت صديقك. إنني أرى الصحفيين في أبهاء المسرح، إنهم يروّعونني. الصحافة

(١) في تشرين أول ١٨٣٨ باع بلزاك إلى تاجر ملبوسات محبوكة في حيّه (كما يشير في رسالة للسيّدة هانسكا) مجموعة سجل فيها خلال قراءاته أفكار نابوليون، طبع باربيه المؤلّف الذي يحمل عنوان: «أقوال نابوليون وأفكاره» المجموعة من قبل ج. ل. غودي في مطلع العام ١٨٣٩؛ والفكرة المذكورة هنا، واردة فيه تحت رقم ٢٥٨ بالنص التالي: «الشعب الذي يمكنه أن يقول كل شيء يستطيع فعل كل شيء».

جحيم، مهواة جور وأكاذيب، وخيانات لايمكن اجتيازها أو الخروج منها بنقاء إلاأن أظلّتك شجرةً غار فيرجيل الإلهية.

كلّما نَهَت جماعة الندوة لوسيان عن سلوك هذا الطريق كلما زادت رغبته في التعرّف على الخطر الكامن فيه، وبدأ يناقش نفسه: ألا يثير السخرية تعرضه مرّة أخرى للفاقة دون أن يفعل شيئاً لتلافيها؟ وبرؤية فشل مساعيه لنشر روايته الأولى لم يتشجّع على البدء بإنشاء رواية ثانية. ومن جهة أخرى، مِمَّ سيعيش خلال المدّةالتي ستستغرقها كتابتها؟ لقد نفد الصبر خلال شهر من الحِرمان. ألا يمكنه أن يمارس بنبل ما يقوم به الصحفيون دون وازع من ضمير أو وقار؟ إن أصدقاءه يهينونه بشكوكهم، ويريد أن يبرهن لهم عن رجاحة عقله، وقد يعينهم يوماً ما، وسيكون بشير أمجادهم!

إضافة إلى ذلك، سأل ذات مساء ميشيل كرستيان وهو يرافقه بصحبة ليون جيرو إلى مقر إقامته: «ما هي هذه الصداقة التي تتراجع أمام المشاركة في تحقيق هدف؟

أجاب ميشيل كرستيان: نحن لانتراجع أمام شيء، فإن دفعك سوء حظّك لقتل خليلتك، ساعدتك في إخفاء جريمتك وأنا أكن لك كل تقدير، لكن إن غدوت جاسوساً فسأهرب منك بارتياع، لأنك ستغدو مرذولاً وسافلاً بتحيّز. هي ذي الصحافة بكلمتين. إن الصداقة تصفح عن الخطأ، وبادرة الهوى المتسرّعة؛ إنما يجب أن تكون رادعة لقصد الصديق المُزمع على الاتّجار بروحه، وعقله، وتفكيره.

– ألا يمكن أن أعمل صحفياً لأبيع ديوان شعري وروايتي، وأهجر بعد ذلك الصحيفة؟

– قال ليون جيرو: يمكن لمكيافيلي لالوسيان دي روبمبره، أن يتصرف هكذا.

–هتف لوسيان: حَسَنٌ، سأبرهن لكم أنني مماثل لمكيا فيلي.

صاح ميشيل وهو يشدّ على يد ليون: آه! لقد أفسدته ثم التفت إلى لوسيان قائلاً: «لوسيان، لديك ثلاثمئة فرنك، يمكنك أن تعيش بها دون ضائقة مدة ثلاثة أشهر، وماعليك إلا أن تعمل، اكتب رواية جديدة، وسيساعدك دارتز وفولجس في مخططها، سيعلو شأنك، وستغدو روائياً. أما أنا فسأنسلُّ إلى أحد مواخير الفكر هذه، وسأغدو صحفياً خلال ثلاثة أشهر وأبيع كتبك إلى أحد الدور التي سأسهل منشوراتها وأكتب مقالات عنها، بحيث أؤمن نشر رواياتك، سنهيّىء لك النجاح، وستغدو شخصية هامة، وتبقى لوسياننا.

قال الشاعر: إنك تستخفّ بي إذن باعتقادك أنني سأهلك حيث تنجو أنت!

صاح ميشيل: اغفر له يا إلهي أنه طفل.

بعد أن نشط لوسيان نفسه خلال الأمسيات التي قضاها لدى دارتز، التفت إلى دراسة الفكاهات والمقالات التي تنشرها الصحف الصغيرة، وتأكد أنه مماثل على الأقل لأكثر المحررين نباهة، وجرب خفية هذه الرياضة الفكرية، وخرج ذات صباح وقد خطرت له الفكرة الظافرة بالذهاب للانضواء تحت لواء أحد قادة هذه الفرق الخفيفة العاملة في الصحافة؛ وارتدى أحسن ملابسه، واجتاز الجسور وهو يفكّر بأن المؤلفين والصحفيين، والكتاب، أخيراً جميع زملاء المستقبل سيكونون أكثر حناناً وتجرّداً من الناشرين اللذين خيّبا آماله، وأنّه سيحظى لديهم بالتعاطف والمودّة الطيبة المماثلة لتلك التي لقيها لدى جماعة شارع الرياح الأربعة؛ ووصل وهو فريسة انفعالات هاجس مسموع مقاوم طالما أحبه أصحاب الخيال الواسع، إلى شارع سان - فياكر[1]، قرب جادة مونمارتر، وتوقّف أمام البناء الذي توجد فيه مكاتب الصحيفة الصغيرة، التي أحسّ أمام مظهرها بما يماثل وجيب قلب شاب يدخل لأول مرة إلى مكان سيىء السمعة. غير أنّه توجّه إلى المكاتب الواقعة فوق الطابق الأرضي؛ وصادف في الغرفة الأولى المقسومة إلى قسمين متساويين بحاجز نصفه من ألواح خشبية والنصف الآخر من شبَك يرتفع حتى السقف، مُقعَداً

(١) سبق لبلزاك أن وصف مكتباً لصحيفة صغيرة في رواية «**المتصيّدة**» وجعله واقعاً في شارع سانتيه الذي يقع مباشرة في نهاية شارع سان فياكر.

مقطوع اليد يمسك بيده السليمة عدة مواعين من الورق حملها على رأسه، بينما عضّ أسنانه على سجلّ إدارة الطابع[1]؛ وأشار إليه هذا الرجل المسكين ذو الوجه الشاحب المزروع بالبثور الحمراء، مما أهّله لحمل لقب القريع[2]، للتوّجه إلى حارس الصحيفة القابع خلف الشبَكّ، وكان هذا ضابطاً سابقاً يتزين بوسام جوقة الشرف، ويحيط بأنفه شاربان رماديان، ويعتمر طاقية حرير سوداء، ويلتفُّ بمعطف أزرق واسع كسلحفاة تحت درَقتها.

سأل ضابط الأمبراطورية لوسيان: «في أي يوم يريد السيّد بدء اشتراكه؟

- لست آتياً من أجل اشتراك». أجاب الشاعر وهو ينظر إلى الباب المقابل للباب الذي دخل منه تعلوه لوحة كتب عليها: «مكتب التحرير» وفي أسفلها لافتة سجل عليها بأحرف عريضة «ممنوع الدخول»[3].

أجاب عسكري نابليون: «إذن أنت آت بناءً على شكوى. آه! تذكّرت: كنا قساةً على مارييت[4]، ولا أعلم سبب ذلك، ولكن ماذا تريد؟»

ثم أضاف هو ينظر إلى مجموعة السيوف والمسدّسات المرصوفة في خزانة تُشغلُ أحد الزوايا: «إن كنت قد حضرت لتمسح الإهانة بالدعوة إلى مبارزة فأنا مستعد!

---

(١) كانت الصحف تتعرّض لرسوم ضريبية ثقيلة، فكلّ عدد من الصحيفة يُختم من قبل إدارة الطابع التي بلَغت وارداتها في العام ١٨٢١، باستثناء الرسوم الأخرى المترتبة على الصحف السياسية، مليون فرنك.

(٢) ربّما فكّر بلزاك بالمقال الذي ظهر في ٥ شباط ١٨٢٩ بتوقيع لوتور - مزراي في مجلة «السارق» وفيه وصف لآذن المكتب كالتالي: «كان آذن مكتبي ضابطاً سابقاً شهد معركة أوسترليتز فمنّ عليه الوطن المعترف بجميله بغرفة ينام فيها قرب ساحة فَندوم».

(٣) يلمّح بلزاك في مقال كتبه، العام ١٨٤٢ محللاً كتاب صديقه بورجه «الصين والصينيون» إلى هذه اللوحة التي كتب عليها «يمنع على الجمهور الدخول» و قد جلس أحد المقعدين لحراسة الباب المعلّقة فوقه.

(٤) مارييت هو الاسم المستعار لراقصة المرح ماري غودشال تلميذة فستريس وخليلة فيليب بريدو (في رواية **المتصيّدة**) وقد ظهرت مجدداً في عدة روايات، وكانت السيّدة مونتيسو وهي شخصية راقصة أوبرا حقيقية اشتهرت في عهد الملكية الثانية وقد ذكرت، قبل طبعة فورن، مكانها.

- كلا أيّها السيد، لاعلاقة لي بذلك، جئت لمقابلة رئيس التحرير.

- مامن أحدٍ هنا قبل الساعة الرابعة بعد الظهر.

- ياصديقي جيرودو، حررّت أحد عشر عاموداً لقاء أجر خمسة فرنكات للعمودو فأنا أستحق خمسة وخمسين فرنكاً لكنني لم أتلق إلا أربعين فرنكاً، فأنتم مدينون لي بخمسة عشر فرنكاً، وكما قلت لك...

كانت هذه الكلمات تترافق مع تلوّن قسمات وجه صغير مراوغ يترجرج كبياض بيضة سيئة السلق وقد برزت منه عينان بزرقة فاتحة تعبّر عن مكر مرعب، وهي تعود إلى شاب نحيل يختفي خلف جسم العسكري القديم القاتم. واقشعرت أوصال لوسيان من سماع هذا الصوت الشبيه بمواء القطط المختلط مع بُحّة ضبع مختنقة.

قاطع الضابط المتقاعد محدثّه قائلاً: «نعم، يانصيري العزيز، لكنك تحسب العناوين والفراغات، بينما أمرني فينو أن أحسب مجموع الأسطر وأقسّمها على العدد المحدد لكل عمود، وبعد أن طبقت هذه العملية الخانقة على موضوعك اختزل منه ثلاثة أعمدة.

- إنّه لايدفع لقاء الفراغات والزخرفة! لكنه يحسبها على شريكه في كلفة التحرير المجمل[1]. سأذهب لرؤية ايتين لوستو، وڤرنو.

قال الضابط المتقاعد: «لايمكنني أن أخالف التعليمات ياصديقي، وأنت كيف تنكر جميل مرضعتك من أجل خمسة عشر فرنكاً، بينما تدبج المقالات بمثل سهولة تدخيني السيغار!

ايه! وفّر ثمن كأس بنش تدعو أصدقاءك إليه، أو اسعَ إلى كسب مباراة بليار إضافية وبذلك تعوض هذه الخمسة عشر فرنكاً.

---

(١) فينو مساهم في الصحيفة الصغيرة، وهو في ذات الوقت رئيس تحريرها، وكان يتقاضى بهذه الصفة خمسة فرنكات من دخل الصحيفة عن كل عمود فيها، ويبيح لنفسه أن يدفع أقل من ذلك لمحرريه وعندما خلفه لوستو لم يدفع إلا ثلاثة فرنكات عن العمود للوسيان.

في رسالتين كتبهما بلزاك لوالدته بتاريخ ١٢ و١٣آب ١٨٣٢ وأخرى لبيشو في ٢٤ آذار ١٨٣٣، يشكو الكاتب من هذه الحسابات الجائرة التي يعاني منها في تعامله مع «مجلة باريس».

أجاب المحرّر وهو ينهض ويغادر المكان : «إن فينو يحقق وفراً سيدفع ثمنه غالياً .

تمتم أمين الصندوق وهو ينظر إلى شاعر المقاطعات «ألا يمكن القول إنه فولتير وروسو؟»

قال لوسيان : سيدي ، سأعود نحو الساعة الرابعة .

خلال المناقشة كان لوسيان يتأمّل على الجدران صور بنجامين كونستان ، والجنرال فوا ونحو خمسة عشر خطيباً من مشاهير الحزب الليبرالي ، وقد اختلطت معها بعض الصور الكاريكاتورية المضادة للحكومة ؛ وتأمّل بصورة خاصة باب الحَرَم الذي تهيّأ فيه الصحفية الممتعة التي ستسليه كلّ يوم ، والتي تتمتع بحق السخرية من الملوك ، ومن الأحداث الأكثر أهمية ، وتطرح أخيراً على بساط البحث كلَّ شيء وبكلمة مناسبة منها ، وراح يتسكّع في الجادات ، ومنصرفاً إلى هذه المتعة الجديدة التي اجتذبته حتى أنه لم يلحظ عقارب الساعة في متاجر الساعاتيين إلا عند إشارتها إلى الرابعة بعد الظهر دون أن يتناول غداءه ، وهرع مسرعاً إلى شارع سان فياكر ، وصعد الدَّرَج قفزاً وفتح الباب ، فلم يجد العسكري الهرم ، لكنه رأى المُقعَد منكباً على أوراقه ذات الطابع وهو يقضم كسرة خبز ملازماً مكانه ، مستسلماً لقدره في العمل في الصحيفة كاستسلامه في السابق لما كُلف به من سخرة دون أن يدرك سبب الحملات السريعة التي أمر بها الامبراطور . وخطرت للوسيان الفكرة الجريئة في أن يخدع هذا الموظف الرهيب فشدّ على قبعته مغطياً بها جانب وجهه ، وفتح باب الحرم كأنه أحد العاملين في المكان ، فتجلّت أمام نظراته النهمة في مكتب التحرير طاولة مستديرة يعلوها غطاء أخضر ، وحولها ستة كراسٍ من خشب شجر الكرز مايزال قشُّ مقاعدها جديداً ، وبلاط تلك الغرفة الملوّن لم يُجلَ بعد لكنه نظيف مما يفيد قلَّةَ عدد المترددين عليها ، وعلى حافة المدفأة مرآة ، وساعة نوّاس يعلوها الغبار ، وشمعدانان غرزت بهما شمعتان دون عناية ، أخيراً بعض بطاقات الزيارة المتناثرة . وعلى الطاولة صحف قديمة تجعّدت أطرافها حول محبرة يبدو الحبر

فيها كالصمغ وهي مزّينة بريَشٍ تفتّلت أهدابها من التعرّض للشمس، ولاحظ على بعض الأوراق المهملة مقالات كتبت بخطّ غير واضح، وبأحرف شبه هيروغليفية، وهي ممزّقة في أعلاها من قبل منضّدي المطبعة دلالة على تنفيذ الطباعة، وتأمّل بإعجاب هنا وهناك رسوماً كاريكاتورية شكّلها بظرف أشخاص أرادوا تقطيع الوقت بتقطيعهم شيئاً ما تعبيراً بالأيدي، ورأى على أوراق الجدران المنمنمة الملونة بزرقة المياه المخضرّة تسعة أشكال مختلفة مثبتة بدبابيس تمثّل إيضاحات مضحكة رسمت بالريشة للناسك: - ظهور الناسك في المقاطعات أدهش النساء- الناسك يُقرأ في أحد القصور- تأثير الناسك على الحيوانات الداجنة - شرح كتاب الناسك لدى المتوحشين يحظى بنجاح منقطع النظير.

- في رواية الناسك، يغتصب مون- سوفاج إلوديا «وقد بدا هذا الكاريكاتور فاحشاً للوسيان لكنه أثار ضحكه».

- الناسك يترجم إلى اللغة الصينية، ويُقدّم من قبل المؤلف إلى الامبراطور في بكين.

- في الصحف يبدو الناسك متجولاً تحت قبة تظلله في موكب تطواف.

- الناسك يسبّب انفجاراً في آلة طباعة يؤدي إلى جرح «الدببة» الطابعين.

- أدهش الناسك الأكاديميين عند قراءتهم له معكوساً بروائعه الفائقة(١).

ولفت نظر لوسيان على رقعة من الصحيفة رسمٌ يمثل محرّراً يمدّ قبعته مستجدياً وقد كتب تحت الرسم «فينو، أين مئة فرنكي؟» ثم توقيع رسّام معروف لم يذع صيته أبداً. وبين المدفأة والنافذة قامت طاولة تعلوها خزانة أوراق وكنبة من

(١) بيَّن ج. ميرلان أن هذه السخريات تحاكي تلك التي كانت تنشرها الفيغارو في هزئها من المؤلّف الفيكونت شارل دار لينكور DARLINGOURT (١٧٨٩- ١٨٥٦)، الملقب «بالفيكونت المنقلب» نظراً لمغالاته في الأسلوب الملتوي المتضمن في روايته «الناسك Le,solitaire» التي ظهرت في ٢٠ كانون الثاني ١٨٢١، وطُبعت سبع مرات في ذات السنة، ثم في طبعة ثامنة في تموز ١٨٢٢، وتاسعة في تشرين ثاني ١٨٢٢، وعاشرة في تشرين أولّ ١٨٢٣؛ وسرَت شائعة ردّد بلزاك صداها، مفادها أن الفيكونت ليس غريباً عن نفاد هذا المخزون الكبير من النسخ في كل طبعة.

خشب الأكاجو وسلّة مهملات وسجادة متطاولة تُسمى بساط المدفأةَ والغبار يعلو كلّ هذا الأساس. ولم يكن للنوافذ ستائر، وفي أعلى خزانة الأوراق نحو عشرين موضوعاً استلمت خلال النهار، وصور، ونوطات موسيقية، وعلب عطوس[١] سُجّلت عليها شرعة الملكيّة الثاني الدستورية، ونسخة عن الطبعة التاسعة[٢] من «الناسك»، وهي دائماً السخرية الكبرى في تلك الآونة، ونحو عشر رسائل مختومة. بعد أن أحصى لوسيان هذا الأثاث الغريب وسرح به الفكر طويلاً تنبه إلى أن الساعة قد بلغت الخامسة، فعاد إلى المُقعَد يسأله؛ وكان كولوكينت* قد أنهى قضم كسرة خبز وانتظر بصبر الخفير العسكري صاحب الوسام، المتنزّه على الأرجح في الجادة. وفي تلك اللحظة ظهرت على عتبة الباب سيدة بعد أن سمع على درجات السلّم حفيف ثوبها ووقع خطواتها الأنثوية المميزّة، وكانت على جانب من الجمال.

توجّهت السيدة إلى لوسيان قائلة: «أنا أعلم يا سيدي، سبب إشادتكم بقبعات الآنسة فيرجيني وجئت أطلب منكم أولاً تسجيل اشتراك سنوي لي فحدّدوا لي شروطكم...

قاطعها لوسيان قائلاً: سيدتي أنا لست موظفاً في الجريدة.

- آه!

سألها المُقعَد: أتريدين اشتراكاً بدءاً من شهر تشرين أول؟.

ظهر العسكري المتقاعد آنذاك وسأل: «ماذا تريد السيّدة؟» ثم دخل في مداولة مع تاجرة القبعات الجميلة، وعندما طال انتظار لوسيان دخل إلى غرفة اجتماع الضابط السابق بالسيدة وسمعها تنطق بهذه العبارة الأخيرة: «سأكون

(١) علب العطوس هذه من مخيّلة الكولونيل توكيه ناشر مؤلفات فولتير في طبعة شعبية، أُطلق عليها اسم فولتير توكيه، وأحدثت ما يشبه الثورة في المكتبات، وقد ظهر على غلاف كل كتاب منها نص الشرُعة الدستوريةَ بأحرف دقيقة تحيط بها زخارف رمزية.

(٢) يراد هنا التعبير عن الدجل (الأدبي والتجاري) الذي أدانه بلزاك صراحة في دعوى اتهامه للمكتبات.

* كولوكينت Coloquinte اسم نبات هو الحنظل أو القرّيع من الفصيلة القرعية وبالتالي يُرجح أنه ليس الاسم الحقيقي لهذا الخفير وإنمّا هو لقب أطلق عليه. (ملاحظة المترجم).

مسرورة جداً يا سيدي عند استقبال الآنسة فلورنتين[١] في متجري لتختار ما تريده، وستجدني في قسم الشرائط التزيينية. إذن نحن متفقون: لن تتحدثوا بعد الآن في صحيفتكم عن الآنسة فيرجيني، هذه الإسكافية التي لاتعرف ابتكار أي زيّ، بينما تجد كل جديد لَديَّ» سمع لوسيان رنين بعض الدراهم تتدحرج في الصندوق، بدأ بعدها العسكري القديم يجري حساباته.

قال الشاعر متكدّراً: سيدّي إنني هنا منذ ساعة.

ردّ الضابط النابوليوني وهو يُبدي بعض التأثّر بدافع التهذيب: لم يأتوا، وأنا لا أستغرب ذلك، ومنذ بعض الوقت لم أعد أراهم أبداً، فنحن في منتصف الشهر كما ترى، وهؤلاء الماكرون لايأتون إلا للقبض من ٢٩ إلى ٣٠.

سأل لوسيان الذي حفظ اسم المدير: والسيد فينو؟

- إنه في منزله الواقع في شارع فيدو. كولوكينت، يا صديقي، احمل إليه كل ما ورد هذا اليوم عند نقلك هذه الأوراق[٢] إلى المطبعة».

قال لوسيان وكأنّه يكلم نفسه «أين تُعد الصحيفة إذن؟»

قال المستخدم الذي تلقّى من كولوكينت بقية ثمن الطابع: الصحيفة؟ الصحيفة!

تعال غداً يا صديقي في الساعة السادسة إلى المطبعة لترى انطلاق الحمّالين[٣]، أما الصحيفة، يا سيدي، فتتهيأ في الشارع، ولدى المؤلّفين، ثم في

---

(١) فلورنتين ممثلة في مسرح «الغيته» كان ينفق عليها كاردو وهي خليلة جيرودو «انظر رواية المتصيّدة».

(٢) المقصود بذلك الأوراق التي ينبغي أن تختم في إدارة الطابع قبل طباعتها في الصحيفة.

(٣) كان توزيع الصحف يتم من قبل متعهدين خاصين، وقد أشار بلزاك في رواية «**الفتاة ذات العينين الذهبيتين** إلى أحد هؤلاء الحمّالين الذي ينهض في الساعة الخامسة صباحاً ليأخذ حمله من صحيفة «الدستوري» ويذهب لتوزيعها قبل الساعة التاسعة.

المطبعة بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل[1]. في زمن الامبراطور، يا سيدي، لم تُعرَف كلّ هذه الدكاكين من الورق[2]، آه! كان بإمكانه أن ينفض لكم عنها الغبار بأربعة رجال يرأسهم عريّف دون أن يسمح بإزعاجه بعبارات منمّقة كما يفعل هؤلاء. لكن كفانا هذراً، فإن كان ابن أختي يجد في هذا العمل منفعته بينما تتمّ الكتابة لابن الآخر، فلاضرر في ذلك بعد كل حساب. آه! إنني لاأرى المشتركين يتزاحمون الآن، وأفضل عدم البقاء.

- أرى أنك يا سيدي مطّلع على تحرير الصحيفة.

قال العسكري وهو يتنحنح: حسب المواهب، تُمنَح خمسة فرنكات أو ثلاثة عن العمود ذي الخمسين سطراً بمعدّل أربعين حرفاً في السطر، دون حساب الفراغات، هو ذا الأمر، أمّا بالنسبة للمحرّرين فهم أشخاص غريبو الأطوار لاأقبلهم جنوداً متدرّبين، وهم يعتقدون أن بإمكانهم في وضع بعض أحرف كقوائم الذباب على ورق أبيض أن يزوروا ضابط خيّالة سابق في الحرس الامبراطوري بعد أن تقاعد من رئاسة كتيبة وسبق له أن دخل جميع العواصم الأوروبية مع نابوليون.

وجد لوسيان نفسه مضطراً للمغادرة بعد أن رأى عسكري نابوليون يرتدي معطفه الأزرق متهيئاً للخروج، فاعترض طريقه قبل انصرافه قائلاً بجرأة: «جئت ساعياً لأعمل محرّراً، وأقسم لك على أنني أكُنّ كلّ الاحترام والتقدير لضابط في الحرس الامبراطوري، أحد هؤلاء الرجال الذين قُدّوا من فولاذ...

قال الضابط وهو يربّت على بطن لوسيان: هذا كلام طيب أيّها المدني الشاب، ولكن إلى أيّة فئة من المحررين تريد الانضمام، ثم أزاحه بحركة فظة من طريقه وهبط الدَّرَج ولم يتوقف إلا عند غرفة البوّابة ليقول لها بعد أن أشعل سيكاره: «إذا حضر مشتركون، أيتها الأم شولّه، فاستقبليهم وسجلّي لي

(١) أي بعد الخروج من المسارح والملاهي الليلية التي يشار إلى أحداثها في اليوم التالي.
(٢) في العام ١٨١١ لم تبق إلا أربع صحف هي: «المرشد» و«صحيفة الأمبراطورية (وهو الاسم الجديد لصحيفة المناقشات) وجريدة فرنسة، وصحيفة باريس.

الملاحظات الضرورية عنهم» ثم التفت إلى لوسيان الذي كان يتبعه مستأنفاً كلامه: «الاشتراك على الدوام، لاأعرف غير ذلك؛ إن فينو ابن أختي، وهو الوحيد من العائلة الذي اهتم بشأني، ومن يعمد إلى الشجار معه يجد في مواجهته جيرودو العجوز، النقيب في خيّالة الحرس، الذي بدأ خيّالاً مبتدئاً في جيش سامبر وموز، وغدا بعد خمس سنوات مدرّب سلاح في أول فرق الهوسار في جيش إيطالية! وأضاف وهو يقوم بحركة المسايف الذي يجندل خصمه سريعاً: «واحد، اثنين، ويغدو المشتكي هباءً!». ثم عاد إلى مخاطبة لوسيان قائلاً: «وبعد يا صديقي، لدينا عدة فئات من المُحررين: المحرّر الذي ينشئ ويقبض لقاء إنشائه، والمحرر الذي ينشئ ولا يقبض شيئاً وهو ما نسميه المتطوع، وأخيراً المحرر الذي لا ينشئ شيئاً، ليس عن غباء، فهو يتجنب بذلك الأخطاء، وهو يدّعي أنه كاتب، وأنه ينتمي إلى الصحيفة، وهو يدعونا إلى ولائم عشاء، ويتسكّع في المسارح، وينفق على إحدى الممثلات، وهو سعيد جداً. فمن أيّة فئة تريد أن تكون؟

- أريد أن أكون محرّراً جاداً في عمله وأتلقى الأجر المناسب عن عملي.

- ها أنت مثل جميع المجنّدين الذين يريدون أن يغدوا مارشالات فرنسة! ثق بجيرودو الكهل، در يساراً ولا تتعجّل، واذهب لجمع الحُتات من الجدول، على نسق هذا الرجل الشجاع، الذي كما ترى من مظهره قد أدّى واجبه، أليس من العار أن يضطر جندي عجوز، رمى نفسه ألف مرّة في أشداق المدافع، إلى جَمع الحُتات في أزقة باريس؟ اللعنة! أنت لست إلا صعلوكاً، فأنت لم تدعم الامبراطور! أخيراً، يا صغيري، هذا الشخص الذي رأيته يراجعني هذا الصباح كسب أربعين فرنكاً في شهره، فهل يمكنك أن تنتج أكثر منه، إنّه في رأي فينو أظرف المحرّرين.

- عندما التحقت بالجيش في سامبروموز، ألم يُقَل لك إنك تعرّض نفسك للخطر.

-بالطبع.

- ومع ذلك التحقت به؟

- ما عليك إلا أن تذهب لمقابلة ابن أختي فينو، إنه شاب طيب، الأكثر استقامة بين الشباب الذين يمكن أن تلاقيهم، هذا إن تيسَّر لك ملاقاته، إذ أنه ينزلق كسمكة؛ فالأمر في مهنته لايتطلب أن تكتب، وإنمّا أن تُكتّب الآخرين؛ ويبدو لي أن أبناء الرعية يفضلون التنعّم مع الممثلات على الانصراف لتحبير الورق إيه! إنّهم أشخاص غريبو الأطوار! تشرّفت بلقياك.

حرّك أمين الصندوق عصاه المرصّصة الرهيبة، وهي إحدى حاميات جرمانيكوس[1]، وترك لوسيان مندهشاً من هذه اللوحة عن التحرير، قدر دهشته من نتائج الأدب النهائية لدى فيدال وبورشون. تردّد لوسيان عشر مرات على منزل آندوش فينو مدير الجريدة في شارع فيدو دون أن يحظى بلقائه، ففي الصباح الباكر لايكون فينو قد عاد من سهرته، وعند الظهر فينو يتسوّق، «وسيتناول غداءه في المقهى الفلاني»، ويذهب لوسيان إلى المقهى المعيّن، ويسأل بائعة شراب الليمون عن فينو فيلقى مظاهر ازدراء لامثيل لها ويُجاب: لقد خرج لتوّه. أخيراً خيّل للوسيان، المُجهد، أن فينو شخصية أسطورية مختلقة، ووجد من الأيسر له أن يسعى للقاء ايتيين لوستو لدى فليكوتو، فهذا الصحفي الشاب سيكشف له، دون شك، السرّالمخيّم على الصحيفة التي تعلّق بها.

منذ اليوم المبارك الذي تعرف فيه لوسيان على دانييل دارتز، غير مكان جلوسه في مطعم فليكوتو: فالصديقان يتناولان عشاءهما متجاورين، ويتحدثان همساً عن الأدب السامي، وعن المواضيع التي يجب معالجتها، وطريقة عرضها، والمباشرة بها، وشرح ما استعصى فهمه منها. وكان دانييل دارتز في تلك الفترة يصحّح مخطوطة **نبّال شارل التاسع**، ويصوغ مجدداً بعض الفصول، ويكتب فيها الصفحات الجميلة التي حوتها، ويضع لها المقدمة الرائعة التي تهيمن على الكتاب،

(١) جرمانيكوس: مأساة لآرنو (١٧٦٦- ١٨٣٤) وهو من الأدباء الأكاديميين المتحمسين للامبراطورية والمعارضين لآل بوربون، وقد مُثّلت هذه المأساة في ٢٢ آذار ١٨١٧ على المسرح الفرنسي، وأثارت عاصفة من الشجار بين النظارة، أعقبتها عدة مبارزات، بعد أن استخدم الفريقان المتشاجران الخيزرانات في العراك.

على الأرجح، وتطرح العديد من المعلومات عن الأدب الحديث. وفي يوم كان لوسيان يجلس إلى جانب دانييل وهو يشدّ على يده، فلمح على مدخل المطعم ايتين لوستو وهو يحرك مقبض الباب؛ مما دفعه إلى أن يترك يد دانييل فجأة ويطلب من النادل أن يأتي له بعشائه إلى مكانه القديم القريب من الصندوق. ألقى دارتز على لوسيان إحدى هذه النظرات الملائكية التي تغلّف المغفرة فيها اللوم، نظرة تأثّر منها لوسيان بشدّة وعاد يشدُّ مجدّداً على يد دانييل قائلاً: «الأمر يتعلّق بقضية هامة بالنسبة لي، سأحدثك عنها فيما بعد».

عاد لوسيان إلى مائدته السابقة في اللحظة التي كان فيها لوستو يتخذ مكاناً مجاوراً فبادله التحية ودخلا سريعاً في محادثة تطوّرت بحرارة دفعت لوسيان إلى الذهاب لإحضار مخطوطة ديوانه «**أزهار المرغريت**» بينما كان لوستو ينهي وجبة عشائه، بعد أن رأى من الأفضل أن يحيل أناشيده للصحفي، ويعتمد على وساطته في تأمين ناشر له، وإيجاد عمل له في الصحيفة. ولاحظ لوسيان عند عودته صديقه دانييل في زاوية المطعم يجلس حزيناً وقد أسند رأسه بيده وهو ينظر إليه بكآبة، لكنه وقد استبدّ به الشقاء وتملكه الطموح تظاهر بأنه لم يرَ أخاه في العصبة وتبع لوستو. وقبل غروب الشمس ذهب الصحفي والمستجد وجلسا تحت الأشجار في هذا القسم من حديقة اللوكسمبورغ الذي يؤدي عبر ممر المرصد الكبير إلى شارع «الغرب» وكان هذا الشارع آنذاك رزغة* طويلة تحفّه الحواجز الخشبية والمستنقعات. ولاتوجد منازل قربه إلا تلك المطلّة على شارع ڤوجيرا، أما الممرّ فغير مطروق إلانادراً، حتى ليمكنُ لعاشقين في موعد العشاء في باريس أن يتخاصما فيه ثم يقدم كل منهما للآخر عربون مصالحته دون عذول أو رقيب؛ إلا إن خَطَر للجندي الوقور حارس الشبك الصغير على مدخل شارع الغرب أن يزيد في عدد خطوات جولته الرتيبة إلى أن يبلغ مكاناً يعكّر صفوهما منه. في هذا الممرّ، وعلى مقعد من خشب بين شجرتي زيزفون استمع إتيين إلى لوسيان ينشد له بعض قصائد ديوان «أزهار المرغريت» التي اختارها عيّنات؛ وكان لوستو بعد قضاء سنتين في التدرب محرّراً

* الرزغة: المكان الرقيق الوحل.

قد تمكّن من هذه المهنة عدا عن صداقاته مع بعض مشاهير ذلك العصر مماجعل لوسيان يقدره عالياً، وهكذا فقد رأى وهو يحلّ رباط مخطوطته أنّ من الضروري أن يمهّد بمقدمة لأسلوب أشعاره فقال:

السونيتة* ياسيدي، من أصعب الأساليب الشعرية، فهذه القصيدة الصغيرة هُجرت بشكل عام إذ ما من شخص في فرنسة استطاع أن ينافس بترارك وهو صاحب اللغة الأكثر مرونة بما لايقاس من لغتنا في قبول تعابير وتوريات يرفضها مذهبنا الوضعي (اغفر لي هذه الكلمة). لذلك بدا لي الإبداع في التعبير عن قريحتي الشعرية بالسونيتات، ففكتور هوغو اعتمد النشيد، وكاناليس انطلق في القصيدة العابرة، وبرانجه حَصَرَ الأغنية، وكازيمير دلافيني استأثر بالمأساة، بينما لجأ لامارتين إلى التأمّلات(١).

سأله لوستو: هل أنت اتبّاعيّ أو إبداعي(٢).

عبّرت علائم الدهشة على لوسيان عن جهله الكامل بوضع الأمور في جمهورية الآداب مما دعا لوستو إلى زيادة الإيضاح فقال:

ياعزيزي، إنّك تصل إلى هذا الميدان وسط معركة حامية الوطيس ويجب أن تقرّر سريعاً معسكرك، فالأدب يتوزع على مناطق عدّة وقد انقسم كبار رجالنا إلى معسكرين فالملكيون إبداعيون والليبراليون اتباعيون، واختلاف الآراء الأدبية يقترن باختلاف الآراء السياسية ممايستتبع حرباً بجميع الأسلحة، وانسكاب الحبر سيولاً جارفة، كلمات طيّبة تخفي سهاماً حادّة، ونمائم قارصة، وتهكمات مفرطة. بين أمجاد وليدة وأمجاد غابرة. فبمفارقة غريبة يطلب الملكيون الإبداعيون الحرّية الأدبية وإلغاء القواعد المقرّرة التي تعطي الأشكال المتفق عليها لأدبنا بينما يتمسّك

---

* السونيتة Le ´sonnet: قصيدة تشتمل على أربعة عشر بيتاً نشأت في إيطاليا خلال القرن الثالث عشر، وانتقلت إلى فرنسة في القرن السادس عشر على يد كليمان مورو CL.MOROT.

(١) جميع الشخصيات حقيقية عدا كاناليس الذي ابتكره بلزاك وورد اسمه في عدد من روايات **الملهاة الإنسانية**.

(٢) وفقاً لرأي لاكو (في السنة البلزاكية ١٩٦٩)، يُعدُّ هذا الردّ استذكاراً لاستعراض الحظوة وهو شهادة للاتوش ودشامب (١٨١٨) تذوي أمامها تعسفات النقد والصحافة.

الليبراليون بالوحدات، ووزن البحر الاسكندري*، والفكرة الاتباعية. فالآراء الأدبية إذن في تعارض مع الآراء السياسية، فإذا كنت انتقائياً* لن تجد إنساناً إلى جانبك، فبأي معسكر تريد أن تلتحق.

- أيّهما القوي؟

- مشتركو الصحف الليبرالية أكثر عدداً من مشتركي الصحف الملكية والوزارية[1] غير أن كاناليس يشق طريقه متفوّقاً رغم أنه ملكي ونصير دين، وفي حمى البلاط والاكليروس.

استأنف ايتيين بعد أن لاحظ تردُّد لوسيان بين اللوائين[2] وخشية من الانضواء تحت أي منهما: إيه! السونيتات هي أدب ماقبل بوالو، فكن إبداعياً، فالمذهب الإبداعي يضم شباباً، أما الاتباعيون فرجعيون وستنتصر المدرسة الإبداعية.

كانت الرجعية آخر صفة أطلقتها الصحافة الإبداعية عن الاتباعيين.

---

* وزن البحر الاسكندري Alexandrin: بحر في الشعر الفرنسي يتألف من اثني عشر مقطعاً صوتياً.

* انتقائي Eclectique: نزعة ترمي إلى الجمع بين الآراء والمذاهب المختلفة ومحاولة التأليف بينها لتكوين رأي اصطفائي متماسك الأجزاء (المترجم).

(١) بتاريخ ١٥ كانون أوّل ١٨٢٤ كان عدد النسخ الموزّعة من الصحف الحكومية في باريس ١٤٣٤٤ نسخة وعدد نسخ صحف المعارضة ٤١٣٣٠، إنمّا يجب التنويه بأن الصحافة الحكومية في تلك المدّة كانت تتألف من عدة صحف (صحيفة باريس، والنجمة، والمرشد) وعدد نسخها المطبوعة لايتوافق مع عدد المشتركين هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن إقالة شاتوبريان من وزارة الخارجية حولّت إلى المعارضة نحو ١٨٠٠٠ صوت ملكي من مشتركي صحيفتي «المناقشات» و«اليومية» وأيّاً كان الأمر فإن تفوّق الصحافة الليبرالية في تلك الفترة، وخاصة صحيفة «الدستوري» كان جلياً.

(٢) في زمن **الأوهام الضائعة** (١٨٢١) لم تكن الأوضاع متّميزة إلى الحد الذي يؤكدّ عليه بلزاك، وقد بيّن رينه براي R.BRAY في تأريخ الإبداعية (١٩٣٢) أنّ الإبداعية كانت في تلك المدة ماتزال تفتش عن نفسها بين السياسة والأدب، وكانت الندوة الأولى التي اجتمعت لدى الأخوين دشامب (انطون وإميل) التي حظيت باحترام الإبداعيين الأوائل وتقديرهم الكبير، فلا مارتين ليس الرسول المبشّر بالأدب الجديد، ولم تتوضح الميول وتثبت إلا في العام ١٨٢٣، وموقتاً خاصة في كتاب **الشاعرية وعطارد في القرن التاسع عشر**، وفي نهاية العام ١٨٢٣ تماماً صدرت السلسلة الأدبية وهي صحيفة يومية أدبية ليبرالية صغيرة لعب فيها بلزاك دوراً، لكنه كان في حيرة كبيرة بين المعسكرين الأدبيين، وهكذا لم تشأ السلسلة الأدبية أن تقرّظ رواية **آنيت والمجرم** التي ألفها بلزاك وأصدرها باسم مستعار (سان أوبن) رغم أنها تُعَدُّ ذات اتجاه إبداعي وهكذا اضطر «سان أوبن» أن يجري هذا التقريظ بنفسه (٢٤ نيسان ١٨٢٤).

قلّب لوسيان مخطوطة ديوانه واختار **«اللؤلؤة الربيع**[1]» وهي إحدى السونيتتين اللتين تبرران عنوان الديوان وبدأ بإلقائها على مسامع إتيين:

لآلى المروج، لاتَدْعن ألوانكن المتآلفة
تلتمع دائماً للترويح عن الأعين
بل لتتابع ترداد أعز أمنياتنا
في قصائد تعلم الإنسان توددّاته

أسديِتَكُن الذهبية المرّصعة بالفضة
تكشفَ الكنوز حيث ستتهيآّ أربابها
وخيوط مآربكم التي يجري فيها دم غامض
تشير إلى مايقتضي النجاح من آلام المعاناة.

أمن أجل أن ينبثق الفجر تدحرج حجر القبر
وقام يسوع ليخلق عالماً أكثر جمالاً
ونفض جناحيه لتهطل شآبيب الفضائل

أو أن الخريف أبصر مجدّداً بتلاتكن البيضاء القصيرة
لتحدّث أنظارنا عن متُع أخلفت وعودها
أو لتذكرنا بالعشرين عاماً من زهرة شبابنا؟

انقبض لوسيان من الجمود التام في قَسَمات لوستو وهو يستمع إلى هذه القصيدة ولم يكن قد اختبر برودة الأعصاب المربكة التي تمنحها عادة النقد، والتي تميّز الصحفيين المُجهدين من الاستماع إلى النثر والشعر والمسرحيات؛ وغصّ

---

(١) هذه «السونيتة» من نظم الشاعر شارل لاسايي Ch.LASSAILLY (١٨٠٦ - ١٨٤٣) وقد نظمها خصيصاً بناءً على طلب بلزاك، لرواية **«أوهام ضائعة»** والمؤسف أن هذا الشاعر الذي كان يبشر بمستقبل زاهر في الأدب والصحافة انتابه الجنون وتوفي شاباً.

الشاعر، المتعوّد على أن يستقبل بالتصفيق والتهليل، وهو يبتلع خيبته وانتقل إلى قراءة السونيتة التي فضلتها السيدة دي بارجتون، وبعض أصدقائه في النادي الأدبي وهو يفكّر بأن هذه القصيدة الثانية قد تدفع مستمعه إلى التعبير عن رأيه في الديوان.

السونيتة الثانية
زهرة المرغريت

أنا زهرة المرغريت أجمل النورات
التي تتفتح كالأنجم على بساط العشب المخملي
سعيدة بالسعي إليّ من أجل جمالي وحده
وبأيامي التي تزهو بفجرٍ سرمديٍ

للأسف! رغم أمنياتي فإن فضيلة جديدة
صبت على جبينِي نورها الجلي المحتوم
فالقدر قد مَنَّ عليّ بهبة الحقيقة
وسأتألم وأموت: ومن العلم ماقتل

لم أعد أتمكن من الصمت أو الاستراحة
فقد اقتلع الحبّ مني المستقبل بكلمتين
وهو يمزق قلبي ليقرأ فيه أنّ له من يحبّه

إننّي الزهرة الوحيدة التي ترمى دون أسف
ويُعرى جبيني من تاجه الأبيض
وما أن يُكشفَ سِرّي حتى أسحق بالأقدام(١)

---

(١) هذه «السونيتة» للشاعرة والأديبة دلفين جيراردين (١٨٠٤ - ١٨٥٥) زوجة الصحفي والسياسي إميل دي جيراردين.

عندما الشاعر أنهى قصيدته التفت إلى مستمعه شبيه أريستارك[1] فوجده يتأمّل أشجار المشتل.

سأله لوسيان: ما رأيك؟.

- رأيي؟ تابع يا عزيزي، ألا أستمع إليك؟ الاستماع في باريس دون التفوّه بكلمة، بمثابة تقريظ.

- أتكتفي بما سمعت؟

ردّ الصحفي بشكل جاف تقريباً: تابعْ.

قرأ لوسيان السونيتة التالية، والسأم يدبّ في قلبه فبرودة لوستو العصيّة على الفهم ثبطت عزيمته، ولو كان أكثر خبرة بالحياة الأدبيّة لعلم أن صمت المؤلّفين وخشونتهم في مثل هذا الظرف يكشفان عن حَسَد يسبّبه مُؤلّف زميلهم الناجح، كما أن إعجابهم يعلن عن متعة مستوحاة من مُؤلّف تافه يُطمئنُ أنانيتهم وغرورهم.

السونيتة الثلاثون

الكاميليا

كل زهرة تنطق بكلمة من كتاب الطبيعة.
الوردة تعبّر عن الحبّ وتعيّد للجمال
والبنفسجة تضوّع روحاً محبّة نقيّة
والزنبقة تتألق ببساطتها.

لكن الكاميليا بدعة الزراعة
وردة دون رحيق، وزنبقة دون جلال
تبدو متفتحة في فصول البرودة
لتخلق المتاعب الغَنِجة للعذارى

(١) أريستارك: نحويّ وناقد اسكندري (مصري) «٢١٥ - ٢١٤ ق.م» يُعَدُّ مثال الناقد الحازم الصلب.

غير أنني، على حافة مقصورات المسرح
أحبّ أن أرى البتلات العاجيّة
لأزهار الكاميليا البيضاء في إكليل خجول.

وفي سواد خصلات شعر الصبايا الجميلات
اللواتي يوحين للأرواح بحب نقيّ
أزهار من المرمر الإغريقي صنعه المثال فيدياس[١]

سأل لوسيان صراحة: «ما حكمك على سونيتاتي المسكينة؟.
رد لوستو: أتريد الحقيقة؟
أجاب لوسيان: شبابي يطالبني بحبّها، وسعيي إلى النجاح يشوّقني إلى سماعها دون أن أتكدّر ولكن ليس دون قنوط.

إليك إذن يا عزيزي ما أرى: إن التعقيدات في السونيتة الأولى تكشف عن قصيدة نُظمت في أنغوليم، وأنت حريص دون شكّ، على الاحتفاظ بها، أما الثانية والثالثة فتشعران بجو باريس. ثم أضاف وهو يحرك يده بإشارة بدت شيّقة لرجل المقاطعات الكبير: «ولكن هلاّ قرأت لي سونيتة أخرى؟»
تشجّع لوسيان بهذا الطلب، فأخذ يقرأ بمزيد من الثقة، السونيتة التي فضلها دارتيز وبريدو بسبب لونها على الأرجح.

السونيتة الخمسون.
التوليب

أنا التوليب زهرة هولندة
وهذا هو جمالي الذي ثمّنه الفلمندي البخيل

(١) هذه السونيتة تعود كمثيلتها «لؤلؤة الربيع» إلى الشاعر شارل لاسايي.

بسعر أغلى من الألماس للواحدة من بصلاتي
عندما تكون أصولي عريقة وأكون منتصبة ريّانة

مظهري نبيلٌ عهد الإقطاع، مثل يولاند*
في ثوبها ذي الثنيات الطويلة، المجهّز غالياً
أحملُ شعارات وسُمت على لباسي
تُمثّلُ أشداقاً مخطّطَة بالفضة والذهب وأشرطة الأرجوان

غزَلَ البستانيُّ الالهيُّ بأصابعه
خيوطَ أشعة الشمسِ وأرجوانَ الملوك
ليعدّ لي ثوباً ذا لُحمة ناعمة مرهفة.

ما من زهرة في الحديقة تعادلني بهاءً
لكن الطبيعة، للأسف! لم تسكب عطراً
في كأسي المصاغ كَخزَف الصين[1].

قال لوسيان بعد لحظة صمت بدت له دهراً: والآن؟

قال ايتين لوستو برصانة وهو يتأمّل طرف حذاء لوسيان الذي حمله من أنغوليم وبدا عليه الآن القدم: «يا عزيزي، أنصحك بأن تصبغ جلد نعليك بالحبر الذي تكتب به بدلاً من شراء طلاء له، وأن تصنع من ريشتك مسواكاً لتظهر بمظهر من تناول عشاء جيّداً بعد خروجك من مطعم فليكوتو للتنزّه في هذا الممر الجميل

---

* يرجّح أنها يولاند أراغون ملكة صقلية (القرن الخامس عشر) ووالدة ماري دانجو ملكة فرنسة (المترجم)
(١) أشار غوتيه في كتابه «اونوره دي بلزاك» إلى أنه صاحب هذه السونيتة (ص. ١٢٤، العام ١٨٦٠).

من الحديقة؛ وأن تسعى لتأمين أيّ عمل مجز لك. يمكنك أن تغدو كاتباً صغيراً لدى مأمور الحجر إن غَلُظ قلبك، أو مستخدماً تجارياً إن كنت شديد الصلابة، أو جندياً إن كنت مغرماً بالموسيقى العسكرية. إن فيك نسيج ثلاثة شعراء، ولكن قبل أن تشقّ طريقك ستتعرض للموت ست مرّات من الجوع إن اعتمدت على شعرك في تأمين عيشك. والحال أنّ طموحاتك، وفقاً لتعابيرك الحديثة، تتطلّع إلى صك النقود من خلال محبرتك. أنا لاأحكم على شعرك فهو أسمى بكثير من القصائد التي تعجّ بها مستودعات المكتبات، فدواوينها الأنيقة الكاسدة ذات الثمن المرتفع بسبب الورق الصقيل اللمَاع الذي طبعت عليه تأتي كلّها تقريباً لتتراكم على بسطات ضفتي السين حيث يمكنك أن تتصفحها، إن أردت يوماً أن تقوم بجولة ثقافية على أرصفة الضفّاف بدءاً من بسطة الأب جيروم على جسر نوتردام حتى تصل إلى الجسر الملكي (بون رويال)[1]، وستصادف جميع البواكير الشعريّة، والإيحاءات، والتساميات، والتسابيح، والأغاني، والموشحات، والأناشيد الوطنية والغنائية، أخيراً كلّ ما أنتجته القرائح الشعرية منذ سبعة أعوام[2]، من قريض يعلوه الغبار، ويتلطخ بالوحل المتناثر من عجلات العربات، وتنتهك حرمته أيدي المارة الذين دفعهم الفضول للاطلاع على زخرفة العنوان. وأنت لاتعرف أيّة شخصيّة، ولست على اتصال بأيّة صحيفة: فأزهار مرغريت ديوانك ستبقى مغمضة محافظة على غصنها دون أن تمسّها يدٌ غير يدك، ولن تتفتح أبداً أمام شمس الإعلان في مرج الهوامش العريضة المزخرفة بالبراعم التي يسرف فيها دُوريا الشهير ناشر المشاهير،

(١) في الرسالة الحادية عشرة عن باريس (المنشورة في مجلة السارق Levoleur تاريخ ١٠ كانون الثاني ١٨٣١) يلمّح بلزاك إلى الشويعرين العاجزين الذين تذهب ايحاءاتهم قافلة إلى السيد جيروم، دافن موتى الأدب الذي لاحظتم دون شكّ برود وجهه تحت طلّة ماكنة جسر نوتردام.

(٢) أي منذ عودة آل بوربون تقريباً، ويلاحظ عبر كلمات لوستو مناخ ثقافي كامل يثيره الكاتب دون أن يوجب على نفسه تأريخاً دقيقاً، والتلميح إلى (الأناشيد الغنائية والبالاد ODES ETBAL-LADES، ١٨٢٢) لايعني دقة ملاحظاته، ونشير من الناحية الكمية، ووفقاً لما جاء في الدليل السنوي للطابعين «١٨٣٥» لبانسلين دوتّر أن الإنتاج الشعري (الدواوين والدراسات الشعرية) ضرب رقماً قياسياً، وكان كما يلي: ٣١٧ عنواناً في العام ١٨١٥؛ ٣٣٩ في ١٨١٦، ٢٥١ في ١٨١٧، ٣٠٩ في ١٨١٨؛ ٢٨٩ في ١٨١٩، ٢٦٠ في ١٨٢٠، ٤٠٢ في ١٨٢١.

وملك «أروقة الخشب Galéries de Bois يا صديقي العزيز، جئت مثلك بقلب مليء بالأوهام، مدفوعاً بحبّ الفنّ، ومحمولاً بتوق لا يُردُّ إلى المجد: فوجدتُ أمامي حقائق المهنة، وصعوبات المكتبة، وواقع البؤس وكان حماسي، المضغوط الآن، وفوراني الأوّل، يخفيان عني آلية العالم التي يجب رؤيتها، والتصادم مع جميع التروس، ومجابهة المحاور، والتلطخ بالشحوم، وسماع قعقعة السلاسل، وضجيج المقاود. ستدرك مثلي أن تحت جميع هذه الأشياء الجميلة المنشودة، يتحرك البشر والأهواء والضرورات. ستشارك حتماً في صراعات رهيبة، وستنتقل من عمل إلى عمل، ومن رجلٍ إلى رجل، ومن حزب إلى آخر حيث يجب القتال منهجياً كي لا يهجرك مناصروك؛ وهذه المعارك المقوتة تحيط بالروح، وتفسد القلب وتتعب في خسارة خالصة، لأن جهودك تستخدم غالباً لتتويج رجل تكرهه، وموهبة ثانوية تبرز رغماً عنك كأنها إحدى العبقريات. إنّ للحياة الأدبية خفاياها؛ والجماهير لا تهلّل إلا للنجاحات المستحقّة أو المفاجئة؛ أمّا الوسائل القبيحة دائماً والممثلون الثانويون المنمّقون، والمصفقون المأجورون وعناصر الخدمة فتحتجب في خفايا الكواليس إنك ما تزال في القاعدة، فاعتزل قبل أن تضع قدمك على أوّل درجات العرش الذي تتنازعه أطماع عديدة، ولا تلحق بنفسك العار من أجل لقمة العيش (وبلّلت دمعة عيني ايتيين لوستو). ثم استأنف وقد برزت في صوته نبرة غاضبة: «هل تعلم كيف أعيش؟» إن الدراهم القليلة التي أمكن لعائلتي أن تمدّني بها نفدت سريعاً، ووجدت نفسي دون أي مورد بعد أن تمكنت من تهيئة مسرحية للمسرح الفرنسي، وحماية أمير أو نبيل من حاشية الملك لا تكفي للحصول على أفضليّة في ذلك المسرح؛ فالممثّلون لا يمتثلون إلا لمن يهدّد أنانيتهم، فإذا كانت لك القدرة على تعميم إشاعة تقول إن الممثل الأوّل تنتابه بحّة ربو، أو إن الممثلة الأولى قد أصيبت بدمّل في مكان ما من جسمها، أو إن الخادمة اللعوب تلاطم ذباب وجهها، فسيبدأ العمل لتمثيل مسرحيتك في اليوم التالي، وأنا لا أعلم إن كنت سأصل إلى هذه القدرة من الآن وحتى سنتين: إذ يلزم كثير من الأصدقاء. أين

وكيف وبأية وسيلة يمكن أن أؤمن عيشي، سؤال تردّد في نفسي وأنا أحس بمخالب الجوع تَقترب مني. وبعد محاولات عديدة، وبعد أن كتبت رواية مغفلة اشتراها دوغرو بمئتي فرنك ولم تدرّعليه الكثير، تبيّن لي أن الصحافة وحدها قادرة على إعالتي. ولكن كيف يمكن الدخول إلى دكاكينها؟ لن أقصّ عليك مساعيّ وإلحاحاتي غير المجدية، ولا الأشهر الستة التي قضيتها مستخدماً دون أجر، ولاالادعاء بأنني أنفرّ المشترك بينما أنا بالعكس أطوّعه. إنني أتتبع أخبار مسارح الجادّة وأنشرها بالمجّان تقريباً في الصحيفة التي تعود إلى فينو، هذا الشاب البدين الذي ما يزال يتناول غداءه مرتين أو ثلاث مرات شهرياً في مقهى فولتير[1] (ولكنك لاتذهب إلى هذا المقهى!)؛ وكنت أحيا من بيع البطاقات التي يمنحني إياها مدراء هذه المسارح لتسديد أخبارهم في الصحيفة، والكتب التي ترسلها دور النشر لي للتحدث عنها. أخيراً كنت أتاجر؛ بعد أن يشبع فينو حاجته من الأتاوات التي يقدّمها له أرباب الصناعة. عيناً، والتي يسمح لي بأن أكتب المقالات عنها أو ضدها. فالماء طارد الرياح، ومعجون السلاطين، وزيت الرأس، والمزيج البرازيلي[2] تدفع عشرين أو ثلاثين فرنكاً عن المقال التهكمي. أما الكتب فأنا مضطر أن ألاحق النّاشر الذي لايعطي إلا نسخاً قليلة للصحيفة، و يأخذ فينو نسختين

(١) يقع هذا المقهى في الرقم (١) من ساحة الأوديون.

(٢) الماء طارد الرياح، ومعجون السلاطين: ابتكاران لسيزار بيروتو عطّار (الملهاة الإنسانية)، وعُرِف ماء سلاطين بيع من قبل تاجر حقيقي، هو ناكيه في حي الباليه- رويال. وكذلك ذرور السلاطين الذي استورد من قبل ديسي وبيفر، شارع سان- مارتن. أما زيت الرأس فهو ابتكار آخر لبيروتو، وباعه صهره بوبينو، وهيّأ أندوش فينوش نجاح زيت الشعر هذا بإعداد النشرة الدعائية له، والانصراف إلى ضجّة دعائية وقحة له في الصحف (انظر رواية **سيزاربيروتو**)؛ وكانت هذه العملية بداية ثروته. لكن المزيج البرازيلي عقار (حقيقي) من إنتاج الصيدلي لِبي، في ساحة موبير، وهو مخصّص للأمراض الزهريّة وكانت الطبعة الخامسة والثلاثون من نشرة دعاية الخليط إحدى أولى الطبعات التي أجراها بلزاك في مطبعته العام ١٨٢٦. وتشير المخطوطة أيضاً إلى معجون رينيو وهو دواء للحلق طرحه محلياً الدكتور فيرون مدير مجلة باريس ثم مدير الأوبرا وأخيراً وخاصة، مدير صحيفة الدستوري لكن هذا التلميح الشخصي المحذوف لايتيح لنا اعتبار فيرون الشخصية الحقيقية لفينو الشخصية الروائية.

يبيعهما، ويلزمني بدوري نسختين لأبيعهما[1]؛ فإن كان الكتاب من الروائع يتباخل الناشر ويتذمر؛ وهذا أمر كريه ولكنني أعيش من هذه المهنة مع مئة صحفي آخر! ولاتفكرّ أن العالم السياسي أكثر جمالاً من العالم الأدبي: فكلّ ما في هذين العالمين فَسَاد، وكل إنسان فيهما راش أو مرتشٍ. وعند وجود مشروع له بعض الأهمية في دار نشر، فإن صاحب الدار يدفع لي خشية مهاجمته. وهكذا فإن دخلي يتناسب مع النشرات الدعائية، فإن صدرت بالآلاف تدفقت النقود على كيسي، وتمكّنت من الإنفاق ببذخ على أصدقائي. أمّا عندما تضيق الحال لدى الناشرين فإنني أعود لتناول عشائي في مطعم فليكوتو. والممثلات بدورهن يدفعن ثمن المديح، لكن البارعات منهن يدفعن ثمن النقد أيضاً، فالصمت هو أكثر ما يخشينه، وهكذا فإن نقداً يسجل في وقت ما ليدحض في وقت آخر أفضل لهن من تقريظ عابر يُنسى في اليوم التالي؛ فالجدل المتواصل هو ركيزة الشهرة، ومن مهنة المسايفة هذه والمحاربة بالآراء والسمعات الصناعية والأدبيّة والمسرحيّة أجني مئة وخمسين فرنكاً شهرياً، ويمكنني أن أبيع رواية بخمسمئة فرنك وأن أُعدَّ رجلاً ذا شأن فيكون لي منزلي المؤثث بدلاً من العيش عند فلورين التي يعيلها تاجر عقاقير يحسب نفسه لورداً؛ وسأنتقل إلى جريدة هامة تخصص لي صفحة يومية[2]؛ بعدها ستغدو فلورين ممثلة، أمَّا أنا فلا أعلم ماذا سأمسي: وزيراً أو رجلاً شريفاً، كلّ شيء ممكن (وهزّ رأسه مستخزياً، وألقى على الأغصان المورقة نظرة قنوط رهيبة شاكية). إنّ لي مسرحية مأساوية جميلة تمّ قبولها! وبين أوراقي قصيدة تحتضر! وكنت إنساناً طيباً! ولي قلب نقيّ: لكنني أعاشر ممثلة من مسرح بانوراما - دراماتيك أنا الذي كان يحلم بغراميات رائعة مع النساء الأكثر تقديراً في المجتمع المخملي؛ ومن أجل نسخة إضافية رفض الناشر تقديمها لصحيفتي، وجّهت نقداً جارحاً لكتاب جيّد جميل.

---

(١) شكا وردة (في العام ١٨٥٧) من هذه التجاوزات فكتب «لكل صحيفة قيّمها الذي لايكتفي بالنسختين المرسلتين له بل يطلب نسخة ثالثة للمحررّ القوي رئيس قسم النقد، الذي يجب استجداء التقريظ منه. ولكن ماذا يحل بهذه النسخ الثلاثة؟ إنّها تباع بسعر بخس دون تقليب صفحاتها، وقبل ظهور المقال المتعلّق بها والمدفوعُ عنه غالياً ونقداً، عدا عن الهدايا المتنوعة التي يجب على الناشر تقديمها.

(٢) المقصود بذلك صفحة تتبّع الحياة الأدبية والمسرحية ونقد أو تقريظ الجديد من الكتب... إلخ.

ترقرقت الدموع في عيني لوسيان وشدّ على يد إتيين الذي نهض متوجهاً نحو ممر المرصد الكبير حيث يتنزّه الشاعران سعياً لهواء ملء رئتيهما واستأنف الصحفي الكلام قائلاً: «لايوجد أي شخص خارج العالم الأدبي يمكنه أن يعرف المغامرة الرهيبة التي يمكن أن توصل إلى مايجب تسميته، حسب المواهب، الرواج، والموضة، والسمعة، والشهرة، وذيوع الصيت، والحظوة العامة؛ هذه الدرجات المختلفة التي ترقى إلى المجد الذي لاتستبدله أبداً؛ فهذه الظاهرة المعنوية اللامعة تتركب من ألف حدث تتغير بمزيد من السرعة حتى لايمكن إعطاء مثال عن شخصين تحققت لهما بسلوك الطريق ذاته: فكاناليس وناتان شخصيتان غير متشابهتين ولن يتجدّدا أبداً؛ ودارتز الذي يجهد نفسه في العمل سيغدو شهيراً بمصادفة كبرى. وهذه الشهرة المرغوبة بهذا القدر الكبير هي دائماً أشبه بمومس متوّجة. نعم فهي تمثل في المؤلفات الرديئة من الأدب فتاة الرصيف المسكينة التي ترتعش من البرد؛ وهي في الأدب الثانوي المرأة المعالة التي تخرج من أماكن الصحافة السيئة وأنا أستخدم لدعمها؛ أمّا في الأدب الموفّق فهي المومس الفاتنة المتعجرفة مالكة الرياش، التي تدفع ضرائب للدولة، وتستقبل كبار السادة، وتعاملهم بلطف أو بقسوة؛ ولها خدمها المميزون وعربتها الخاصة، ولدائنيها الظامئين الصبر الطويل. آه! إنها بالنسبة للراغبين بها، بالنسبة لي سابقاً، وبالنسبة لك اليوم، ملاكاً ذا جناحين مبُرَقْشين، يرتدي غلالته البيضاء، ويرفع بيدٍ سعفة خضراءوبالأخرى سيفاً براقاً، وهو يمسك معاً في آن واحد التجريد الميتولوجي الذي يحيا في قعر بئر والفتاة الفاضلة المسكينة المنفيّة في الضاحية، والشهرة لاتغتني إلا بأنوار الفضيلة وبجهود العزيمة النبيلة، وهي تعاود التحليق في السموات بطبع طاهر إن لم تمت ملوّثة مُفتشة، مغتصبة، منسية في عربة نقل الفقراء؛ ومستحقوها، هؤلاء الرجال ذوو المخ المغلّف بالبرونز، والقلوب المحافظة على حرارتها تحت تهطال ثلوج التجارب، نادرون في البلاد التي تراها على امتداد نظرنا قال ذلك وأشار إلى المدينة الكبيرة التي يتصاعد الدخان منها مع ميَلان النهار.

طافت أمام عيني لوسيان بسرعة رؤيا شلّة الندوة فغلب عليه التأثّر، لكن لوستو جَذَبَه مجدّداً مسترسلاً في تفجّعه المريع.

«هؤلاء الرجال نادرون ومبعثرون في القبو المتخمر هذا[1]، نادرون كالعشّاق الحقيقيين في عالم الغرام، نادرون كالثروات الشريفة في عالم المال، نادرون كالرجل النقي في عالم الصحافة، إن خبرة أول من قال لي هذا الكلام قد ضاعت، كما أن خبرتي ستكون دون شكّ عديمة الجدوى بالنسبة لك. ومثل حماسك يدفع دائماً كل سنة، من المقاطعات إلى هنا عدداً مساوياً إن لم نقل متزايداً من الطموحات الفتية التي تنطلق مرفوعة الرأس، ثابتة الجنان لركوب الموجة الجديدة، المماثلة للأميرة طورانشاه في روايات ألف ليلة وليلة التي يريد كل واحد أن يكون بالنسبة لها الأمير خَلَف[2]! ولكن ما من أحد يعرف معنى اللغز؛ ويقع الجميع في حفرة الشقاء، وحمأة الصحيفة ومستنقع دار النشر، إنّهم يستجدون كالمتسولين مقالات سيرية، أو يكررون مواضيع ممجوجة[3]، أو يتعرّضون لترهات باريس في الصحف، أو يُعدّون كتباً يطلبها المرّوجون من تُجّار الأوراق السوداء الذين يفضلون حماقة تنفد خلال خمسة عشر يوماً على تحفة رائعة تقتضي بعض الوقت لبيع نسخها. هذه السُّرفات* المنسحقة، قبل أن تغدو فراشات، تعيش من العار والشنار، وهي مستعدة للعضّ والتبجح بموهبة وليدة بناء على أمر من أحد باشاوات

---

(١) تشبيه باريس بالقبو المتخمر، والرؤى السماويّة التي تمّر أمام أعين لوسيان، والصور «الملائكية» الملحّة، وكل مافي هذه الصفحة موشّى بتذكرات من «الكوميديا الإلهية».

(٢) طوران شاه أميرة الصين تعلن أنها لن تتزوج إلاّ من يجيب إجابات صحيحة على أسئلتها، وسيُقطع رأس كل من يجرؤ على التقدُّم لخطبتها ويخطئ في إجاباته. ولم ينجح في هذا الاختبار إلا خلف بن تمرتشاه.

(٣) محَن تعرض لها الوافدون الجُدد إلى غاب الساحة الأدبية الباريسية، ومنهم إيمبر غالوا الذي تطرّق فيكتور هوغو إلى قصته المؤسفة في مقال قرأه بلزاك (أوروبة الأدبية، ١٨٣٣) وأشار إليه بعد ثلاثة عشر عاماً. فضل غالوا الموت على هذه المهانات: (كلُّف بمهام تافهة تستنفد طاقات شباب قد يتمتعون بملكات إبداعية) الإقتصار على تدقيق كلمات المعاجم، جمع الوثائق، كتابة سير ذاتية لرجال معاصرين، لقاء عشرين فرنكاً عن العمود الصحفي، وجرّب غالوا القيام بهذه الأعمال لكن كرامته أبَت عليه الاستمرار فتخلى عن كل شيء.

* السُّرْفَة: دودة الفراش منذ خروجها من البيضة إلى أن تتحول إلى خادرة.

صحيفة **الدستوري** أو **اليومية**، أو **المناقشات**، أو بإشارة من الناشرين، أو برجاء من رفيق حسود، وغالباً لقاء دعوة عشاء. ومن يتمكنون من التغلب على العقبات ينسون بؤس بداياتهم. وأنا، مكلّمك الآن، وضعت خلاصة فكري في مقالات انتحلها أحد الأشقياء لنفسه وبناء على حسن وقعها في نفوس القراء غدا مدير قسم في إحدى الصحف: لكنه لم يحاول أن يضمني إلى العاملين في الصحيفة كمعاون له، ولم يعطني فلساً واحداً مما تلقاه عنها، واضطررت رغم كل ذلك أن أمدّ له يدي مصافحاً.

انتفض لوسيان قائلاً بأنفة: ولماذا؟.

أجاب لوستو ببرود: قد اضطر لوضع عشرة أسطر في صحيفته. أخيراً ياعزيزي، ليس العمل هو سرّ الثروة في الأدب، وإنّما السرّ أن تستثمر عمل الآخرين. ومالكو الصحف مقاولون ونحن البناؤون، وهكذا فكلّما كان أحدهم حقيراً كلما اغتنى بسرعة إذ يمكنه أن يبتلع علجوماً حيّاً، ويقبل كل شيء، ويدغدغ الأهواء المنحطّة لدى سلاطين الساحة الأدبيّة، كهذا الوافد الجديد من ليموج المسمّى هكتور مرلن الذي مارس الكتابة السياسية في صحيفة من مركز اليمين، وهويعمل في صحيفتنا الصغيرة:[1] وقد رأيته يلتقط قبعة مدير تحرير سقطت عرضاً. ودون أن أسيء إلى أحد أتوقّع لهذا الفتى أن يتسلّل بين أطماع المتنافسين خلال تصارعهم. إنّك تثير شفقتي. إنني أرى فيك نفسي كما كنت سابقاً، وأنا متأكّد أنّك ستغدو خلال سنة أو سنتين كما أنا الآن. إنّك تعتقد أنّ في هذه النصائح المرّة بعض حَسَد خفيّ، أو مصلحة شخصية، لكن قنوط نفس هالكة لاتتمكن من ترك جحيمها يمليها. ما من شخص يجرؤ على أن يقول لك ما أصرخ به بألم إنسان أصيب في قلبه، وكأيوب آخر على المزبلة: ها هي قروحي.

(١) في المخطوطة ألقي دور مرلن على فليسيان فرنو، والتصحيح إلى سان- جان فردلن يذكّر بسان مارك جيراردن وكذلك أيضاً بفردلن مسرحية **دور الحظوة** للاتوش (١٨١٨) والممثل الثانوي سميّة في الفشّار لبلزاك كما يرد اسم ماتيو فردلن محرّر ورقة اعلانات ووالده الطبّاع في التوزيع وهي مخطوطة لم تستخدم **لنائب دارسي** وفي الطبعة الأساسيّة كره مرلن محرراً سياسياً في صحيفة البريد Le courri-er الليبرالية، وهو يستعد للانتقال إلى صحيفة وزارية، لكنه يغدو، دفعة واحدة، ملكياً في طبعة فورن، ويتعاون بشكل مغفل مع «الصحيفة الصغيرة» التي يديرها فينو.

قال لوسيان: يجب أن أصارع في هذا الحقل أو ذاك.

تابع لوستو: اعرف إذن أن هذا الصراع لاهوادة فيه إن كنت صاحب موهبة وأفضل حظوظك فيه ألا تكون موهوباً؛ فصرامة ضميرك النقيّ الآن ستلين أمام أولئك الذين سترى نجاحك بين أيديهم، وهم بكلمة واحدة يمكن أن يمنحوك الحياة، لكنهم لا ينطقون بها: إذ، صدّقني، أن كاتب الطراز الدارج أكثر عجرفة وقسوة على الوافدين الجدد من الناشر الفظّ، فالناشر لايرى فيهم إلا سبب الخسارة، أما المؤلف فيخشاهم منافسين. ذاك يصرفك عنه أمّا هذا فيسحقك. لإنتاج مؤلّفات جميلة، يا ولدي البائس، يجب أن تغرف، ملء ريَشك، ومن حبر قلبك، الحنان، والنسغ والطاقة، وتبسطها آلاماً، وعواطف، وعبارات!. نعم ستكتب بدلاً من أن تتصرّف، وستنشد بدلاً من أن تصارع، وستحبُّ، وستكره، وستعيش في كتبك؛ ولكن عندما ستحتفظ بذخائرك لأسلوبك، وبذهبك وأرجوانك لشخصياتك، وتتجول في شوارع باريس بأسمال بالية، سعيداً لأنّك أطلقت منافساً للسجل المدني، كائناً اسمه أدولف، أو كورين، أو كلاريس، أو مانون، وأنّك أتلفت حياتَك ومعدتك لتمنح الحياة لهذا الكائن، فتراه مفترى عليه، مغدوراً به، مباعاً مُبعداً إلى مستنقعات النسيان من قبل الصحفيين، مدفوناً من قبل أعز أصدقائك؛ أيمكنك عند ذلك انتظار اليوم الذي ترى فيه مخلوقك ينفض عنه الثرى، وينهض مستيقظاً؛ من سيوقظه؟ ومتى؟ وكيف؟ يوجد كتاب رائع يُعدّ نموذج أنين التشكك هو أو برمن Oberman* الذي تجوّل وحيداً في صحراء رفوف المكتبات، وكان الوراقون يطلقون عليه بسخرية لقبَ العندليب «وهو اصطلاح في لغتهم الدارجة يعني «الكتاب الفاسد». لكن هل سيأتيه يوم قيامة كيوم الفصح المجيد؟ ما من أحد يعلم! قبل كل شيء حاول أن تجد ناشراً جريئاً ليصدر لك ديوان

(*) أوبرمن: رواية لسينانكور (١٧٧٠- ١٨٤٦)، ظهرت في العام ١٨٠٤ وهي اعترافات شاب في العشرين من عمره، لم تنتشر أولاً إلاضمن حلقة من الأصدقاء، لكنها عرفت شهرة فائقة بعد أكثر من ربع قرن، فظهرت لها طبعة مع مقدمة كتبها سانت بوف في العام ١٨٣٣ ثم طبعة ثالثة في العام ١٨٤٠ مع مقدمة كتبتها لها جورج صاند كما أن الموسيقار الهنغاري فرانز ليست F.Liszt (١٨١١- ١٨٨٦) وضع معزوفة موسيقية شهيرة للبيانو سمّاها «وادي أوبرمن». (ملاحظة من المترجم).

أزهار المرغريت، ولاتسأل عن المبلغ الذي سيدفعه لك، فالمهم أن تقنعه بنشره، وسترى آنذاك مشاهد شديدة الغرابة».

هذه الخطبة الطويلة القاسية بتحذيراتها، الملقاة بنبرات مختلفة من الأحاسيس والآلام المعبرة انهالت كانهيار ثلج على قلب لوسيان وسبّبت له برودة كالصقيع فبقي واقفاً، ملتزماً الصمت للحظة. أخيراً بدا وكأن فؤاده قد تنبّه بقصيدة الصعوبات فبدرت منه صيحة، وهو يشدّ على يد لوستو مصافحاً: «سأنتصر!»

- قال الصحفي: «حسناً، ها هو مسيحي آخر ينزل إلى الحلبة ليسلّم إلى الوحوش. يا عزيزي سيتمُّ في هذا المساء أوّل عرض في **البانوراما**- دراماتيك، وهو لن يبدأ قبل الثامنة، والساعة الآن السادسة، فاذهب وارتد أحسن بزّاتك، أعني اعتن بهندامك وتعال لمرافقتي، فأنا أسكن في شارع لاهارب، فوق مقهى سرفل، في الطابق الرابع.

سنمرّ على منزل دوريا أولاً. ماتزال على موقفك، أليس كذلك؟ إذن سأعرّفك على أحد ملوك دور النشر وبعض الصحفيين؛ فبعد السهرة المسرحية سنتناول وجبة ليلية لدى خليلتي مع الأصدقاء إذ أن عشاءنا كان خفيفاً، وستكون فرصة لك للقاء مع فينو مدير تحرير صحيفتنا ومالكها. أنت تعرف كلمة مينيت دي فودفيل: الزمن عليل كبير؟ إذن فالمصادفة بالنسبة لنا أيضاً عليل كبير، أريد أن أقول علّيمٌ كبير(١) ويجب انتهازها.

- قال لوسيان: لن أنسى أبداً هذا اليوم.

- احمل مخطوطتك وتأنّق لابسبب زيارة فلورين، وإنمّا من أجل مقابلة الناشر.

(١) تحريف للقول المأثور: الزمن معلّم كبير Le temps est un grand maître، استبدل بـ t في Maitre، g فغدت Maigre، واستخدم بلزاك هذه الفكاهة خاصة في رواية «بداية في الحياة» حيث يقوم ميستيغري تلميذ الرسام بإجراء العديد من هذه «الجناسات الناقصة» ولعل بلزاك استوحى ذلك من بومارشيه. أمامينيت فهي ممثلة حقيقية يعرفها الصحفيون جيّدا، بل إنّها وجهت رسالة شعرية مرهفة إلى صحيفتي الدستوري وجريدة فرنسة (بتاريخ ١٦ آذار ١٨٢٢) ثم تخلت عن التمثيل الفكاهي Vaudeville في العام ١٨٢٨ لتنصرف إلى التدريب الرياضي.

أثرت طيبة قلب الرفيق التي تلت صرخة الشاعر العنيفة بعد وصف الحرب الأدبية بمثل كِبَر تأثّره سابقاً من كلمات دارتز الرصينة التقيّة. ولم يقدّر وهو الشاب القليل التجربة المتحمّس لمنظور صراع مباشر بين الناس وبينه، حقيقة المصائب المعنويّة التي أنذره الصحفي بها. ولم يكن يعلم أنه قد وضع نفسه بين طريقين متميّزين، ونهجين يتمثّلان بالندوة والصحافة، أحدهما طويل، مشرّف، وموثوق؛ والآخر مزروع بالعقبات، خطر، ممتلئ بالمجاري الموحلة التي ستلطّخ وجدانه، ودفعه طبعه إلى أن يسلك الطريق الأقصر، الذي يبدو مستساغاً ظاهرياً، وأن يعتمد على الوسائل الحاسمة السريعة، ولم ير في تلك اللحظة أيّ فرق بين صداقة دارتز النبيلة وصحبة لوستو السهلة، بل تطلّع بروحه المندفعة إلى الصحافة كسلاح في متناوله، وأحس بمهارته في تحريكه، فأراد أخذه. هل أدرك، وهو المنبهر بعروض صديقه الجديد، الذي ربت على يده بعفوية بدت ظريفة، حاجة مَنْ في جيش الصحافة إلى الأصدقاء، كحاجة القادة إلى الجنود! ورأى فيه لوستو التصميم فجذبه إليه وهو يأمل بإلحاقه به. فالصحفي يسعى وراء أوّل صديق له كسعي لوسيان وراء أوّل مدافع عنه: الأوّل يريد الارتقاء إلى رتبة عريف، والثاني يريد أن يكون جندياً.

عاد المستجد فرحاً إلى فندقه، وبدأ يتزيّن بمثل زينته في ذلك اليوم المشؤوم الذي تهيّأ فيه إلى دخول مقصورة السيدة دسبار في الأوبرا. لكن ثيابه الآن أكثر لياقة وانسجاماً مع شخصيته. وارتدى سرواله الضيق ذا اللون الفاتح، وانتعل جزمته الجميلة ذات الشرّابة التي كلّفته أربعين فرنكاً، وبزة حفلات السهرة وسرّح شعره الأشقر الغزير الناعم وعطّره وتركه يسترسل حلقات لمّاعة على كتفيه، وازدهى جبينه بجرأة مستمدة من إحساسه بقيمته ومستقبله؛ وزاد من العناية بيديه وهما أشبه بأيدي النساء، فقلّم أظافره ونظّفها إلى أن غدت كحبّات لوز ورديّة، وبدت استدارة ذقنه البيضاء تلتمع فوق ياقة الساتين السوداء. وظهر شاباً لم يسبق لجبال البلاد اللاتينية أن رأت مثل وسامته.

استقل لوسيان عربة، وهو يبدو بجمال أحد أرباب الإغريق، وكان عند الساعة السابعة إلا ربعاً أمام مقهى سرفل[1]، ودعته البوّابة إلى تسلّق الطوابق

(١) بائع شراب ليمون استقرّ منذ العام ١٨١٢ في رقم ٨١ من شارع لاهارب.

الأربعة وهي تمدّه بمعلومات طبوغرافية لاتخلو من التعقيد، ووجد متسلحاً بهذه الإشارات، إنّما بعد عناء، باباً مفتوحاً في نهاية ممر معتم، وتعرّف على الغرفة الكلاسيكية في الحي اللاتيني؛ وبؤس الشباب يتابعه كمتابعته له في شارع كلوني لدى دارتز، ولدى كرستيان، وفي كل مكان، لكنه بؤس متميز بالمسحة التي يمنحها الطبع الصبور، وهو مروّع هنا. سرير من خشب الجوز، دون ستائر، وعند قاعدته سجادة قبيحة شُرِيَت عتيقة بالرخصة. وعلى النوافذ ستائر مصفرّة من دخان المدفأة المسطّمة ودخان التبغ، وفوق التبغ، وفوق حافة المدفأة مصباح كارسل[1] مُهدَى من فلورين، وهو وارد دون شك من سوق الرهنيّات؛ ثم صوان ملابس من الأكاجو الكامد اللون، ومنضدة مثقلة بالأوراق، وفوقها ريشتان أو ثلاث مشعّثة الأهداب وبعض كتُب حُملت مساء أو خلال اليوم: هذا هو أثاث هذه الغرفة الخالية من الأشياء الثمينة، وتضمّ بالعكس مجموعة قبيحة من أحذية رخيصة تفغر فاها في زاوية وجوارب قديمة في حالة مخرّمة، وفي زاوية أخرى أعقاب سكائر، ومناديل وسخة، وقمصان في جزئين، وربطات عنق في طبعة ثالثة. كانت أخيراً غرفة كخيمة أدبية في معسكر مؤثثه بسوالب يتمثّل فيها أكبر عري يمكن تصوّره. وعلى طاولة الليل المثقلة بكتب قرئت قبل الظهر يلتمع ملف فوماد[2] أحمر، وعلى حافّة المدفأة تتبعثر مجموعة أغراض بينها موسى حلاقة، وزوج طبنجات، وعلبة سيكار. وعلى لوحة حائط تحت قناع تصالب سيفا تدريب، بينما أكملت هذا الأثاث ثلاث كراس وكنبتان لاتليق إلا بأحقر فنادق ذلك الشارع.

هذه الغرفة الوسخة والكئيبة تكشف عن عيش غير مريح، وغير لائق؛ ينام فيها صاحبها ويعمل بسرعة عند الضرورة، ويسكنها قسراً وكلّ ما فيها يشير إلى رغبته بتركها. أي فرق بين الفوضى الوقحة وبين بؤس دارتز المحتشم النظيف؟!. لكن لوسيان لم يُعر انتباهاً لهذه المقارنة المغلّفة بذكرى، لأن إتيين بادره بفكاهة ليغطي عري العيب: «هو ذا وجاري*، لكن قاعة استقبالي في الشقّة الجديدة التي فرشها تاجر العقاقير لفلورين، والتي سنفتتحها هذا المساء».

---

(١) مصباح كارسل: (نسبة إلى اسم مخترعه): مصباح مجهز بنابض يدفع مكبساً يسير الزيت إلى فتيل المصباح.

(٢) هي قداحة فوماد Fumade الفوسفورية: زجاجة صغيرة ممتلئة بالفوسفور، يغمس بها عود ثقاب مُكَبرَت ثم يحك على سدادة فيعطي بعض النور لمدّة من الوقت.

(*) الوجار: بيت الكلب.

كان إتيين لوستو يرتدي سروالاً أسود، وينتعل حذاء ملمّعاً، وسترة مزرّرة حتى العنق، وقد تغطّى قميصه، وهو دون شكّ من إعداد فلورين بياقة من مخمل، وقام بمسح قبعته بظاهر يده ليعطيها مظهراً جديداً.

قال لوسيان: «لننطلق».

- على مهل فأنا أنتظر كتبيّاً يأتي لي ببعض النقود، فربّما سنقامر وليس معي فلساً واحداً، كما أنني بحاجة إلى قفّازات».

في هذه اللحظة سمع الصديقان الجديدان خطوات رجل في الممرّ.

قال لوستو: «إنّه هو، سترى يا عزيزي، المظهر الذي تأخذه العناية الالهية عندما تتجلّى للشعراء، ومن المفترض أنك قد رأيت، قبل أن تتأمّل دورياً الكتبي المتأنق في قمّة مجده، كتبي رصيف الأوغسطينيين، وكتبي الحسميّات، وتاجر الخردة الأدبية، والنورماندي بائع الخس[1] السابق. ثم هتف لوستو منادياً الوافد الجديد: هيّا أسرع أيّها التتري العجوز.

أجابه صوت مخنوق كأنه صادر عن جرس مصدوع: ها أنذا.

- ومعك الدراهم؟.

- «الدراهم؟ لايوجد درهم في المكتبة» أجاب شاب وهو يدخل الغرفة ويتأمل لوسيان بنظرة فضوليّة.

استأنف لوستو: أنت مدين لي بخمسين فرنك أولاً، ثم ها هما نسختان من «**رحلة إلى مصر**» وهي إحدى العجائب، والكتاب حافل بالصور وسيباع، وقد قبض فينو عن موضوعين بخصوصه يجب عليّ إنشاؤهما وأيضاً: نسختان من آخر

---

(١) هذه المسميات الفكهة لكتبيين جهلة تتضمن بعض الحقيقة، فمع انتشار حرية التجارة بعد سقوط تعاونيّة المكتبات، في العام ١٧٩٢، جرّب العديد من النورمانديين حظهم في هذه المهنة الجديدة. وفي عهد الملكية الثانية حذا عديد من أصحاب البسطات حذو آ. ع لكلير، «النورماندي الوافد إلى باريس لممارسة تجارة على الحواجز» ومن مدرسته، كما كتب إيمبر في مؤلّفه **سيرة الطابعين والكتبيين** (١٨٢٦)، تشكلت هذه المنابت من النورمانديين بائعي الكتب الذين يستثمرون الجادات وقسماً من شوارع العاصمة.

روايتين لفيكتور دوكانج المؤلّف الشهير في حيّ الماريّة وأيضاً نسختان من المؤلف الثاني للتاجر بول دي كوك الذي يعمل في المجال نفسه. وأيضاً نسختان عن دراسة إيزولت دُول المؤلِّف الشيّق عن المقاطعات. والمجموع مئة فرنك على أقل تقدير، يا عزيزي باربه.

نظر باربه إلى الكتب وهو يتفحص حوافّها وأغلفتها بعناية.

هتف لوستو: «أوه! إنها في حفظ كامل، فكتاب «الرحلة» لم يفتح، ولامؤلف دي كوك ولا روايتا دوكانج، ولاهذا الموجود على حافة المدفأة وهو بعنوان خواطر عن الرمزية[1] وسأسامحكم بثمنه، إذ يجب التخلّي عن الخرافة حتى لاتجلب آلاف العُث[2].

قال لوسيان مندهشاً: وبعد، كيف ستعدّ مقالاتك؟

ألقى باربيه على لوسيان نظرة مشوبة بالذهول، ثم تحول إلى إتيين قائلاً باستهزاء: «يبدو أن السيد لاينتمي إلى الوسط الأدبي البائس».

---

(١) يقارب آ. آدم بين رحلة في مصر «مشطوفة» من قبل لوستو، ورحلات إلى مصر وبلاد النوبة تأليف ج. بلزوني (١٨٢١) وفي ٣١ آذار ١٨٣٠ نشرت سلسلة الصحف السياسية تحت باب «رحلات» (مشاهد عن مصر وبلاد النوبة والأماكن المجاورة لهما تأليف: ج. ج. ريغو. واعتقد پ. باربربس أن بلزاك هو واضع هذا التحقيق، وأن هذه الصفحة من **أوهام ضائعة** ثمرة هذه التجربة. لكن هذا التقرير بعيد عن أسلوب بلزاك، ومؤلّف ريغو غير وارد فيه، كما أن تدقيق السلسلة متزن ومقرّظ، وهو في رأينا مصادفة عناوين وهو تذكار عرضي. تذكارات أيضاً هذه الإشارات إلى فيكتور دوكانج (١٧٨٣ - ١٨٣٣) هذا الروائي الشعبي والصحفي الليبرالي الذي سجن عدة مرات، وكذلك الإشارة إلى بول دي كوك (١٧٩٣ - ١٨٧١) الذي أعلن عن رواية في العام ١٨٢٢ مع ظهور رواية وريثة بيراغ، أما مؤلف إيزولت دول فهو وقائع «محلية» في جزئين من إعداد شارل ليونار دوزيّه ابن منطقه الدول (في الجورا على نهر الدوب) وقد نشر في العام ١٨٢٨، وذكر بلزاك أنّه قرأ هذا الكتاب كما ذكر شارل ويس في «الجورنال» بتاريخ ٤ تشرين أول ١٨٣٣، ونشر بلزاك للمؤلّف نفسه في مطبعته - شارل الماريه - كتاب أناشيد وقصائد متنوّعة.

أما كتاب **خواطر عن الرمزية** الذي لم يعطه لوستو أيّة أهمية فنرى فيه مؤلفاً اختصر عنوانه وهو «الديانات القديمة في اعتبار أشكالها الرمزية خاصة» لكروزيه وقام بترجمة عن الألمانية (١٨٢٥) ج. غينيور أخيراً فكتاب التتري أو ابنة المنفي الذي لمح إليه بلزاك في المخطوطة لايمكن أن يكون إلا كتاب فيلرغله: **التحري أو عودة المنفي** (پول ١٨٢٢) وعدم الدقة في العنوان، على بساطتها، تشير إلى أن بلزاك، بعكس ماكان يقال غالباً، لم يساهم في هذا العمل لبواتيڤن.

(٢) تلاعب جناس لفظي بين «Mythe» و«Mites».

- لاتغلط ياباربيه، لاتغلط، فالسيد شاعر، شاعر كبير سيتفوق على كاناليس، وبرنجه، ودلافيني، وينطلق بعيداً، إلا إذا رمى نفسه في النهر، ومع ذلك سيصل إلى سان كلو[1]. قال باربيه: إن ينتصح السيّد مني يترك الشعر إلى النثر، فرصيف الضفة يرفض الدواوين.

كان باربيه يرتدي معطفاً رخيصاً ذا زر واحد، بدت ياقته وسخة، وقد احتفظ بقبعته على رأسه، وكشف صداره عن قميص خشن من الكتان وهو ينتعل حذاء قديماً. في وجهه المستدير الذي تثقبه عينان جشعتان مظهر طيبة، لكن في نظرته القلق المبهم المعبّر عن الأشخاص الذين اعتادوا المماطلة في الدفع عند مطالبتهم بالمال رغم توفّره لديهم؛ لكن مكره مبطن ببدانته التي تعطيه شكل دحداح بسيط، وقد بدأ كاتباً في متجر لكنه افتتح منذ سنتين دكاناً صغيراً بائساً على رصيف الضفة وانطلق يدور على الصحفيين، والمؤلفين، والطابعين، يشتري بسعر بخس الكتب التي تُمنَح لهم، ويكسب من ذلك نحو عشرة أو عشرين فرنكاً في اليوم. وقد أثرى من مدّخراته، واكتسب بالخبرة إحساس تقدير حاجة كل شخص مما يساعده على ترصد الصفقة الرابحة فهو يحسم ١٥ إلى ٢٠٪ من المؤلفين الواقعين في ضيق، وسندات المكتبات التي يذهب في اليوم التالي ليشتري منها بأسعار مخفضة، ونقداً، بعض الكتب الرائجة، ويسدّد الثمن بسندات المكتبة الخاصة بدلاً من الدراهم[2]. وهو يقوم بالدراسات وقد أرشدته تحرياته إلى أن يتجنب الدواوين الشعرية والروايات الحديثة. وهو يؤثر المشاريع الصغيرة، والكتب ذات الفائدة العامة التي لاتكلفه ملكيتها الكاملة أكثر من ١٠٠٠ فرنك، ويمكنه أن يستثمرها على هواه مثل **تاريخ فرنسة في متناول الأولاد، ومسك دفاتر القيد الحسابي** في

(١) حيث يوجد سدٌّ تلتقط عنده جُثَثَ الغرقى.

(٢) هذه العملية الدوارة إن صحّ القول - تبدو ممكنة بالحاجة المزمنة إلى السيولة النقدية، فالكاتب لايتمكن من الانتظار حتى حلول موعد استحقاق سنده، وقد رأينا حاجة لوستو إلى القفازات - وما من مصرف يرتضي حسم سندات المكتبات لخوفهم من تسويفها. ولايجد صاحب السند مخرجاً إلا باللجوء إلى شخص مثل باربيه ليحسمها بمعدل ثلاثة أو أربعة أمثال معدل الحسم العادي عل« سندات الناشرين الذي يطمع بمؤلفاتهم، هؤلاء الناشرون الذين يعود إليهم ليشتري منهم المؤلفات التي يرغب بها بواسطة سنداتهم بالذات دون استطاعتهم كشف ابتزاز باربيه.

عشرين درساً، و**علم النبات للشابات**[1]. كما أنه فوّت فرصة الاتفاق على شراء حقّ نشر كتابين أو ثلاثة من الكتب الجيدة بعد أن منّى المؤلفين بالوعود وجعلهم يترددون عليه أكثر من عشرين مرّة دون أن يقرر شراء مخطوطاتهم، وعندما وُجّه إليه اللوم على هذه النذالة، كشف عن دعوة شهيرة بخصوص مخطوطة لم تكلّفه شيئاً وسرّبها إلى الصحافة وعادت إليه بألفين أو ثلاثة آلاف فرنك[2]؛ فباربيه هو صاحب المكتبة المرعب، الذي يعيش على الخبز والجوز؛ والذي يوقع قليلا من الكمبيالات، ويجمع المكاسب من الفواتير بتخفيض قيمتها، ويُهرّب بنفسه كتبه إلى جهات غير معروفة، ويعرض كتب غيره مطالباً بتسديد أثمانها. إنّه مصدر رعب الناشرين الذين لايعرفون كيف يتعاملون معه، فهو يسدّد لهم بعد حسومات تقرض فواتيرهم مخمّنا حاجاتهم الماسة ثم يتجنّبهم بعد معاملته القاسية خشية أن ينصبوا له شركاً.

قال لوستو: «حسناً، فلننه قضيتنا».

رد باربيه بأنفه: إيه! ياصديقي، في دكاني ستة آلاف كتاب للبيع، بيد أن الكتب ليست نقوداً، وفقاً لتعبير كتبي قديم، والمكتبة في وضع سيء.

قال إتيين: إن تذهب إلى دكانه، ياعزيزي لوسيان تجد على مبسطه، وهو من خشب السنديان المشترى من تاجر خمر بعد إفلاسه، شمعة غير مقصوصة الذُّبالة كي لاتستهلك بسرعة، وستلاحظ على نورها الخافت المغفل خزائن أدراج فارغة. وقد قام فتى بسترة زرقاء على حراسة هذا العَدَم؛ وهو ينفخ على أصابع يديه، أو يضرب الأرض بقدميه، أو يحكّ جنبيه على مقعده كحوذي عربة، ليحصل على الدفء. ولكن ألا تَنظر؟ إن الكتب لاتتعدّى في هذا الدكان ماهو موجود منها هنا. ومامن أحد يستطيع أن يخمّن التجارة التي تتمُّ فيه.

---

(١) هذه العناوين نموذجية لكنها لاتمكن من تحديد مكتبة خاصة فدلُوني نشر «**علم النبات للشابات**» (العام ١٨١٢) وفولكن نشر كتاب «**تاريخ فرنسة في متناول الأولاد**» (١٨١٨) وآ. آدم أشار إلى **مسك الدفاتر الأكثر سهولة أو الطريقة الجديدة التي يمكن تعلّمها في ٢٤ درساً** (١٨٢٠). كلّ ذلك يبعدنا عن باربا الذي أريد تجسيد باربه به.

(٢) تلميح ممكن إلى بيع مكتبة إيمري لكتاب التاريخ الكامل لقضية فوالدس الذي نشرته خلال العام ١٨١٧ ووزعته بواسطة مسلسل شبه يومي.

قال باربيه دون أن أن يستطيع كبح ابتسامته، وهو يخرج من جيبه ورقة ذات طابع: «هوذا سند بمئة فرنك تستحق الدفع بعد ثلاثة أشهر، وسآخذ كتبك. وكما ترى، لايمكنني أن أسدّد نقداً، فالمبيعات صعبة جداً. اعتقدت أنّك بحاجة لي، فجئت وليس في جيبي فلس واحد، ووقعت سنداً لأسدي إليك معروفاً فأنا لاأحب إعطاء توقيعي.

- هكذا، أنت تريد أيضاً تقديري وشكري.

أجاب باربيه: بالرغم من أن سنداتي لا تُدفَع أو تقابل بعواطف حارة، سأقبل تقديرك.

- لكن يلزمني قفازات، والعطّارون أجبن من أن يقبلوا سنداتكم، إليك هذه الصورة الرائعة هناك، في الدرج الأولّ في الخزانة، وهي تساوي ثمانين فرنكاً، وهي قبل الرسالة، وبعد المقال، وقد جعلت منها موضوعاً مضحكاً، فهناك لوم على أبقراط وهو يرفض هدايا كسرى ملك الفرس[1]. إيه! إن هذه اللوحة تناسب جميع الأطباء الذين يرفضون هدايا الطغاة الباريسيين المبالغ فيها؛ وستجد تحت الصورة نحو ثلاثين أغنية من الأناشيد البطولية الإسبانية، هيّا، خذ الجميع مقابل إعطائي أربعين فرنكاً نقداً.

قال المكتبي وهو يطلق صيحة دجاجة مذعورة: أربعون فرنكاً! إنّها لاتستحق أكثر من عشرين، وأنا أخشى عدم استطاعتي بيعها.

قال لوستو: أين هي العشرون فرنكاً؟

قال باربيه وهو يفتش في جيوبه: لعمري، لا أعلم إن كانت معي، ولكن هاهي. إنّك تشلحني وسطوتك علي لاتقاوم...

قال لوستو: هيّا لنذهب وتناول من لوسيان مخطوطة ديوانه ووضع خطاً بالحبر تحت رباطها.

سأل باربيه: هل لديك شيء آخر؟

(١) هي صورة لجان - باتيست ماسار، عن لوحة جيروده الشهيرة (١٧٩١).

أجاب إتيين: كلا يا شيلوكي[1] الصغير، لكنني سأعد لك صفقة ممتازة، والتفت إلى لوسيان قائلاً بصوت منخفض (سأجعله يخسر فيها ثلاثة آلاف فرنك تعويضاً عن سرقته لي).

قال لوسيان وهما يسيران نحو الباليه - رويال: ومقالاتك؟

- آه! إنك لاتعلم كيف تتمُّ. فيما يتعلق بالرحلة إلى مصر، قلبت صفحات من الكتاب دون تقطيعها وقرأت بضعة أسطر هنا وهناك، واكتشفت إحدى عشرة غلطة لغة فرنسية، وأنشأت عموداً قلت فيه: لو تعلم المؤلف لغة البطّات المنقوشة على المسلاّت المصريّة لعوّضته عن لغته التي يجهلها. وسأبرهن له عن ذلك. أقول بدلاً من أن يحدثنا عن التاريخ الطبيعي والآثار القديمة، لو يهتم بمستقبل مصر، وتقدّم الحضارة، ووسائل توثيق الصلات بين مصر وفرنسة التي خسرتها بعد غزوها لها، وكان مايزال بإمكانها استمالتها بالنفوذ المعنوي، وهنا اسهاب مشوب بنفحة وطنية، مشذّر بلمحات عن أهمية مرسيليا والشرق وتجارتنا.

- ولكن لوفعل ذلك، ماذا ستقول؟

- أقول بدلاً من أن يسبّب لنا الملَلَ بخلط سياسي، كان عليه أن يهتم بالفن، ويصف لنا البلاد من الناحية الجمالية والطبيعية، وهذا مايتفجع عليه النقد، فالسياسة تتدفق حولنا وتضجرنا إذ نجدها في كلّ شيء، وأنا أتأسف على هذه الرحلات الشيقة التي يمكن أن تشرح لنا مصاعب الإبحار. وجاذبية الخروج من المضايق، ومباهج اجتياز المسافات، أخيراً كلّ ما يحتاج إلى معرفته أولئك الذين يعدون مرور طير. أو قفزة سمكة، أو اكتشاف منطقة صيد. أو تحديد نقاط جغرافية، أو التعرف على قاع قليل العمق أحداثاً كبرى، وأطالب مجدّداً بالغوص لكشف غوامض هذه الأشياء العلمية غير المفهومة تماماً، التي تبهر ككلّ شيء عميق وغامض، ومكتنف بالأسرار. ويضحك المشترك، فتسليته قد أُمّنت. وفيما يتعلق بالروايات، تُعَدُّ فلورين من أكثر القارئين لها في العالم، وهي تجري التحليل لي

(١) شيلوك: الشخصية الرئيسة في مسرحية تاجر البندقية لشكسبير وترمز للمرابي اليهودي الجشع والدائن الذي لايرحم (المترجم).

وأنشىء مقالي اعتماداً على رأيه، وعندما تملُّ مما تسميه **تعقّد جُمَل الكاتب** آخذ الكتاب بعين الاعتبار وأطلب مجدداً نسخة من الناشر الذي يغتبط بإرسالها سريعاً مؤملاً الحظوة بتقريظ مرغوب.

هتف لوسيان المتشبع بمبادىء الندوة: ياالهي! ولكن النقد، النقد السامي المقدس! قال لوستو: ياعزيزي، النقد فرشاة لايمكن أن تُستعمل على الأقمشة الخفيفة لأنها تمسح كل شيء فيها. اسمعني جيداً، ولندع جانباً المهنة. هل ترى هذه العلامة؟ وأشار الى مخطوطة «**أزهار المرغريت**» وضعت خطاً صغيراً بالحبر يصل بين الرباط والغلاف. فإذا قرأ دوريا مخطوطتك، سيستحيل عليه بالتأكيد أن يضع الرباط في مكانه الأول، وهكذا تُعد هذه العلامة بمثابة ختم. وهذه تجربة أريد اختبارها ولن تكون دون جدوى. كما أن من المناسب أن تعرف عدم فائدة الذهاب الى تلك الدار دون عرّاب. كما يفعل أولئك الشباب الناشئين الذين يطوفون على عشرة ناشرين قبل أن يجدوا من يقدّم لهم كرسياً يجلسون عليه.

سبق للوسيان أن تحقق من صحة هذه التفاصيل بمعاناتها. وقام إيتيين بتسديد أجرة العربة بنقد الحوذي ثلاثة فرنكات أمام دهشة لوسيان المنذهل من هذا الإسراف الذي يلي ما ظهر له من بؤس صاحبه، ودخل الصديقان في أروقة غاليري الخشب، حيث تتربع المكتبة التي تحمل اسم المستجدّات؛ وكانت هذه الغاليري في تلك المدّة تعدّ من الطُرَف الباريسية الأكثر شهرة، ومن المفيد أن نصف هذا السوق القبيح، اذ أنّه لعب خلال ستة وثلاثين عاماً دوراً كبيراً في الحياة الباريسية حتى ليندر أن نجد رجلاً بلغ الأربعين من عمره إلا ويستمتع بهذا الوصف[1] الذي قد يبدو غير قابل لتصديق من هو أقل عمراً. ففي مكان رواق

---

(١) في المدّة من ١٧٨١ الي ١٧٨٤ قام دوق أورليان (١٧٤٧ ١٧٩٣) الملقب فيليب المساواة المثقل بالديون بالعمل على إشادة مجموعة أجنحة من الجوانب الثلاثة لحديقة الباليه- رويال: ستين جناحاً لكل منها ثلاثة قناطر على الحديقة وتتصل فيما بينها بممر داخلي في الطابق الأرضي، ويتألف كل جناح من ثلاثة طوابق الأخير منها بشكل راجع ذي فسحة سماوية مكشوفة واقترن الطابق الأرضي برواق أحيط بدكاكين تطلّ على الحديقة، وخُصّ بها تجار مستأجرون. أما الجهة الرابعة من ساحة عرض حرس الشرف- حيث يوجد حالياً رواق أورليان فشغلت برواق الخشب الشهير، ودام هذا السوق ستاً وثلاثين سنة وفقاً لما ذكره بلزاك الذي أرخ بداية له سنة وفاة الدوق- على المقصلة- في العام ١٧٩٣ بالرغم من أن الحركة التجارية بدأت فيه منذ العام ١٧٨٦.

أورليان العريض والعالي والبارد، شبيه دفيئة دون أزهار، كانت توجد برّاكات أو بتعبير أدق أخصاص من ألواح خشبية، سيئة السقوف، صغيرة، لاتضيئها من ناحية الفناء والحديقة إلا كوى أطلق عليها اسم نوافذ لكنها أشبه بالفتحات الضيقة المقامة في الحانات الريفية خلف الحواجز. وقد وجدت ثلاثة صفوف من الدكاكين تشكل رواقين بارتفاع نحو اثني عشر قدماً، وهكذا فدكاكين الوسط تطلّ على الرواقين اللذين ينشران فيها هواءً نتناً، ولايسمح سقفاهما إلا بمرور قليل من النور عبر ألواح زجاجية متسخة دوماً[1] وقد حظيت هذه النخاريب، عقب تدفق الناس على المكان، ورغم ضيق بعضها بحيث لايتجاوز ست أقدام عرضاً وثماني إلى عشر أقدام طولاً، فإن قيمة إيجاره تصل الى ٣٠٠٠ فرنك سنوياً[2] وقد أحيطت الدكاكين المطلة على الحديقة والفناء بشبك أخضر لمنع الناس، على الأرجح من تخريب الجبصين السيّء في جدران القسم الخلفي بالاحتكاك. وهناك توجد مساحة قدمين أو ثلاث تنبت فيها المنتجات الأكثر غرابة من نباتات يجهلها العلم مختلطة بصناعات متنوعة ليست أقلّ ازدهاراً: أوراق مبقعة تغلف نبتة ورد بحيث تتعطر أزهار الصور البديعية بالأزهار المجهضة في هذه الحديقة المهملة إنّما المرويّة بشكل منتن؛ وأشرطة من جميع الألوان تنشر النشرات الدعائية على الأوراق، وحطام القبعات يخنق النباتات ومن جهة الفناء، كما من جهة الحديقة، يقدّم مظهر هذا القصر الغريب الأطوار أوسخ ماتنتجه القذارة الباريسية: كلس حائل اللون، وأنقاض جصية، ودهانات قديمة،

(١) هو ذا الوصف الوارد في دليل باريس (المرشد الباريسي الحقيقي ١٨٢٨) لهذه الجهة من الباليه- رويال، ينفصل الفناء الثاني عن الحديقة برواق مضاعف من الخشب، ويُعمل الآن على هدمه ليستبدل به رواق جميل من حجر، وهنا تتزاحم في مئة وعشرين دكاناً مكتبات، وتاجرات قبعات، وخياطون، وتجار أدوات زينة، وقاعات مطالعة، ومنظفو أحذية، وجميعهم من الأشخاص المهذبين لكنهم متعطشون إلى جمع المال.

(٢) جاء في **دليل المرشد الحقيقي**: «كل الأماكن مشغولة في الباليه رويال بدءاً من الأقبية حتى السقائف، وأضيق الأماكن تؤجّر بأسعار كبيرة، لكن هذا المكان لامعادل له في النشاط التجاري فهو المركز الذي يؤمّه الأجانب وفضوليو المقاطعات.

ويافطات خارقة. أخيراً يلوث الجمهور الباريسي بشكل كبير الشبك الأخضر سواء من جانب الحديقة أو من جانب الفناء؛ وهكذا يبدو من الجانبين محيط معيب ومقزّز يمنع الأشخاص المرهفي الأحاسيس من الاقتراب من الرواقين، لكن هؤلاء الأشخاص لايتراجعون أمام هذه الأشياء الرهيبة كعدم تراجع أمراء حكايات الجن أمام التنانين والعقبات التي يضعها جني شرير دون لقائهم مع الأميرات. وقد كان ممرّ يخترق وسط هذين الرواقين ومايزال قائماً حتى اليوم، ويتم الدخول إليهما بباحتين معمَّدتين بدىء بهما قبل الثورة ثم هجرتا لنقص المال، فشكّل آنذاك الرواق الحجري الجميل المؤدّي إلى المسرح الفرنسي ممراً ضيقاً بارتفاع كبير، وغطاء سيّىء لايقي من الأمطار، وسمّي الرواق المزجج[1] تمييزاً له عن رواقي الخشب. وكانت سقوف هذه الأماكن الوضيعة في حالة سيئة حتى أن آل أورليان تعرّضوا لدعوى أقامها عليهم تاجر أقمشة وكشمير شهير وجد قسماً كبيراً من بضائعه قد تعرّض للتلف عقب ليلة ممطرة، مماسبب له خسارة مبلغ كبير من المال، وربح التاجر الدعوى؛ وقد استخدمت مشمعات مضاعفة بطبقة من القطران. أما أرضية الرواق المزجج حيث بدأ شيفه[2] جمع ثروته وأرضية رواقي الخشب فهما من تربة باريس الطبيعية المختلطة بوحول جزمات وأحذية المارة. فالأقدام تصطدم في كل وقت بجبال ووديان من الوحل المتصلّب، المكنوس دون انقطاع من التجار مشكلاً ركاماً يتطلب اعتياد الحذر في السير عبره.

هذه الأكداس من الطين، وهذه الألواح الزجاجية المتّسخة بالمطر والغبار، وهذه الأكواخ المسطحة المغطاة بالأسمال من الخارج، وقذارة الجدران التي بدىء بإنشائها. هذه المجموعة التي تنتمي إلى مخيم البوهيميين[3]، من برّاكات السوق

---

(١) نقرأ أيضاً في المرشد الحقيقي: من جهة شارع ريشليو يوجد الرواق المزجَّج المستخدم استمراراً لرواق الحجر، وهو ممر ضيّق وقائم يعج غالباً بالمارة ويخشى فيه على مافي الجيوب لانتشار النشّالين والمستهترات فيه.

(٢) وقد ورد في المرشد الحقيقي: «من الجور نسيان أسماء أوروبية مثل شيفه وكورسليه، هذان الاسمان الكبيران في عالم الأقوات والمواد الغذائية، وكان شيفه يشغل المتجر رقم ٢٢٠ في الرواق المزجّج.

(٣) سمي هذا السوق «مخيم التتر» قبل أن يحظى باسم «**أروقة الخشب**».

الموسميّة، والمنشآت الموقتة التي تحاط بها أوابد باريس التي لاتُجدد؛ هذا المظهر الكالح يلائم بشكل عجيب مختلف أنواع التجارة التي يعجُّ بها هذا العنبر الفاسق، الوقح، الممتلىء بالوشوشات والنشوات المجنونة، الذي حقق أرباحاً هائلة منذ ثورة ١٧٨٩ وحتى ثورة ١٨٣٠. فخلال عشرين سنة[١] كانت البورصة مواجهة له، في الطابق الأرضي من القصر، وهكذا فالرأي العام، والسمعات تتكوّن وتنحلّ هناك وكذلك القضايا السياسية والمالية حيث تُحدّد المواعيد في هذه الأروقة التي كان يلجأ إليها أصحاب البنوك والتجار، الذين يغصّ بهم فناء الباليه رويال، اتقاء للأمطار في مواسمها، ولانعلم كيف كانت طبيعة هذا المبنى تؤثر على مايدور فيه. وتردّد صداه. فقهقهات الضحك تسمع منه، ولايقوم جدل أو نقاش في أحد أطرافه إلا ويعلم الطرف الآخر أسبابه، ولايوجد هنا إلا المكتبات، والشعر والنثر، والسياسة، وبائعات القبعات، وأخيراً بنات اللهو اللواتي ينتشرن مساءً. وهنا كانت تزدهر الروايات والكتب، والأمجاد القديمة والحديثة، ومؤامرات التجمّعات في الأروقة وأكاذيب المكتبات، وهنا تباع أدوات الزينة والأزياء الحديثة للجمهور الذي يمتنع عن شرائها من أي مكان آخر، وهنا بيعت في أمسية واحدة آلاف من هذه الرسالة أو تلك من رسائل الهجاء والنقد الساخر الصادرة عن بول لويس كوريه[٢]، ومن هنا صدرت أول قصة رمزية بعنوان **مغامرات ابنة ملك** فكانت أول طلق ناري من آل أورليان على شرعة لويس الثامن عشر[٣]. وفي المرحلة التي بدأ فيها لوسيان نشاطه، كان

(١) في العهدين القنصلي والامبراطوري.

(٢) بول لويس كوريه (١٧٧٢-١٨٢٥) كاتب ساخر وجه رسائل هجاء ونقد لاذعة ضد عهد الملكية الثانية وخاصة النبلاء والإكليروس وإدارة الجيش، وكان يوقع باسم بول لويس، كرّم لاشافونيير وانتشرت رسائله في متاجر أزياء باليه رويال بين ١٨١٩ و١٨٢٣. مات مقتولاً.

(٣) مغامرات ابنة ملك ترويها بنفسها «قصة رمزية من إعداد جان فاتو (١٧٩٢-١٨٤٨) وكان قيم مكتبة لدى دوق أورليان في العام ١٨٢٢ بعد أن عمل سكرتيراً خاصاً لبواسي دانغلا رئيس المؤتمر الوطني. بقي على ولائه للويس فيليب حتى تبعه إلى منفاه، وكانت قصته المذكورة أعلاه قد صدرت عن دار دلوني وبونتيو في العام ١٨٢٠ ولاقت نجاحاً كبيراً فظهرت منها طبعتان في ١٨٢٠ ثم طبعة ثالثة في ١٨٢١ وهي تقصّ بالرمز حكاية «شرعة لويس الثامن عشر» التي يعدّها بلزاك «أول طلق ناري يوجهه آل أورليان لشرعة لويس الثامن عشر».

لبعض الدكاكين واجهات وتزجيجات أنيقة تقريباً لكنها تعود إلى الصفوف المطلة على الحديقة أو الفناء. وحتى اليوم الذي تهدّمت فيه تلك المستعمرة الغريبة تحت مطرقة المهندس فونتين[1]، كانت الدكاكين الواقعة بين الرواقين ماتزال مفتوحة مدعمة بركائز كما دكاكين الأسواق الموقتة في المقاطعات، وكانت العين لاتطلّ على الرواقين إلا من خلال الأبواب المزجّجة وعبر البضائع؛ ولما كان من المتعذر إيقاد نار في تلك الأماكن، لجأ التجار إلى مدافىء من الماء الساخن أو الحجر وأقاموا من أنفسهم شرطة مكافحة النيران، اذ أن أي تغافل كفيل بأن يشعل خلال ربع ساعة هذه الجمهورية من الأخشاب التي جففتها الشمس والتي تبدو كالمحترقة بالفحش، وقد أثقلت بأكداس الأنسجة الرقيقة، والموسلين، والورق، تداعبها أحياناً بعض تيارات هوائية. وكانت دكاكين صانعات القبعات ممتلئة بنماذج غير معقولة يبدو أنها للعرض وليست للبيع، وهي معلّقة بالمئات بأسياخ من حديد تنتهي بمساند بشكل فطور تزيّن الأروقة بالألوان المتعددة؛ وقد تساءل المتنزهون خلال عشرين عاماً على أي الرؤوس ستستقرّ هذه القبعات منهية سيرة حياتها؛ وعاملات دميمات عامّة، لكنهن ماجنات يعترضن المارّات بكلمات ماكرة وفقاً لعادات ولغة سوق الهال[2]؛ وفتاة لعوب ذلقة اللسان، جريئة النظرات تقف على كرسي منخفض تتحرش بالعابرين: «ألا تشترين إحدى هذه القبعات الجميلة ياسيدتي؟» «ألا تسمح لي ببيعك شيئاً ما، أيّها السيد؟» وكانت مفرداتها الغزيرة، والطريفة تتلوّن كتموّجات الصوت بنظرات وانتقادات للمارّة. وكان أصحاب المكتبات وصانعات القبعات يتعايشون في عِشرة طيبة؛ وفي الممر المسمى بتفخيم الرواق المزجّج وُجد المتكسبون الأكثر غرابة: المقماقون[3] والمشعوذون من جميع الأنواع، ومن يقوم بمشاهد لاتراها في أي

(١) **فونتين** (بيير فرنسوا) «١٧٦٢-١٨٥٣» مهندس فرنسي مشهور شق شارع الريفولي، وأقام قوس نصر كاروسل.

(٢) **سوق الهال**: سوق شهيرة ببيع المواد الغذائية بالجملة في الدائرة الإدارية الأولى في باريس.

(٣) **المقماقون**: جمع مقماق: شخص يتكلم كأنّ صوته يخرج من بطنه دون حركات من شفتيه، وهو يحرك عادة دمية في يده حتى ليبدو الكلام صادر عنها.

مكان، أو يريك العالم كلّه. هناك استقر لأول مرة الرجل الذي جمع سبعمئة ألف أو ثمانمئة ألف فرنك وهو يتجول في المعارض يحمل شمساً تدور في إطار أسود، وتتفجّر حولها هذه الكلمات المكتوبة بالأحمر: «هنا **يرى الرجل مالايتمكن الربّ من رؤيته: لقاء فلسين**. والنباح لايرضى دخول شخص بمفرده إلى مقصورته، كما أنه لايقبل دخول أكثر من اثنين معاً. وما أن تدخل حتى تجد نفسك أمام مرآة كبيرة، وفجأة ينبعث صوت، يرعب حتى هوفمان البرليني[1]، فكأنّه منطلق من آلة أفلت نابضها: «إنكم ترون هنا ياسادة مالايمكن للرب في أزليته أن يراه، أي مثلكم، أما الرب فلامثيل له» ويخرج المشاهد خجلاً دون أن يجروء على الاعتراف بحمقه. ومن جميع الأبواب الصغيرة تنطلق أصوات تتباهى بمناظر كونية (كوسموراما)[2]، ومشاهد من القسطنطينية، ومسارح دمى[3]، وأشخاص آليين يلعبون الشطرنج، وكلاب تميز أجمل نساء المجتمع، وفيتز- جَمس الذي اشتهر في مقهى بورل قبل أن يلقى الموت في مونمارتر منضمّاً إلى تلاميذ كلية العلوم التقنية[4]، وتوجد بائعات ثمار وبائعات أزهار، وخياط شهير تلتمع مطرزاته العسكرية مساءً كالشموس.

في الصباح وحتى الساعة الثانية بعد الظهر، تكون أروقة الخشب خرساء، قاتمة، خالية من البشر، والتجار يتسامرون فيما بينهم، ولاتبدأ المواعيد المعطاة للجماهير الباريسية إلا في الساعة الثالثة بعد الظهر، ساعة افتتاح البورصة، وما

(١) **هوفمان** (ارنست تيودور) «١٧٧٦-١٨٢٢» كاتب ومؤلف موسيقي ألماني له اوبرات وقصص خرافية مرعبة (المترجم).

(٢) **الكوسموراما** Cosmorama: في الرقم ٢٣١ من الرواق المزجّج: مجموعة مشاهد بصرية لمدن ومناطق مختلفة من العالم وكانت تفتح كل مساء بين السابعة والعاشرة بسعر دخول ١,٥٠ ف و٠,٧٥ ف للأولاد.

(٣) خاصة مسرح سرافين: في الرقم ١٢١ من رواق الحجر: حيث تقوم دمى تمثل رجالاً ونساءً مجهزة بمزاليق بإجراء حوار وإنشاء أغنيات، وبعد المسرحية الرئيسة يتم عرض ظلال صينية، وهي مشاهد يقبل عليها الأولاد والخدم بأسعار دخول ٧٥ و٦٠ و ٤٠ سنتيماً.

(٤) يعارض مونغلاف في كتابه «**السيرة الذاتية الرائعة لأعيان فرنسة (١٨٢٦)**» بهذا الموت المشرّف العبارات التي قيل أن الدوق فيتزجيمس - والمقماق أخ غير شرعي له - قد وجهها في ٣٠ آذار ١٨١٤ وهو يوم معركة باريس، إلى الحرس الوطني يدعوه فيها إلى العصيان على الامبراطور.

أن يفد الناس جموعاً حتى يبدأ الشباب المتعطشون للأدب، وعديمو الموارد المالية، بقراءات مجانية على رفوف المكتبات، ويفسح المستخدمون، المكلفون بمراقبة الكتب المعروضة، المجال للأشخاص الفقراء بتقليب الصفحات مشفقين عليهم. وعندما يكون الكتاب من القطع المتوسط بمئتي صفحة مثل **سمارا، وبيير شليمبل وجون شوغار، وجوكو**(1) فإنّه يقرأ في جلستين؛ وفي تلك الحقبة لم تكن قاعات القراءة قد أحدثت، ويجب على الكتاب قراءته، وهكذا كانت الروايات تباع بأرقام تبدو خيالية الآن(2)، إذن فقد وجد آنذاك مالاأدريه من طبع فرنسي ميال إلى الإحسان على النباهة الشابة الفقيرة والتوّاقة إلى المعرفة. وكانت شاعرية هذا السوق الرهيب تتفجّر مع نهاية النهار، ومن جميع الشوارع المتاخمة تروح وتجيء أعداد كبيرة من الفتيات اللواتي يتجولن دون رقيب أو حسيب، وتهرع فتاة المتعة من جميع أنحاء باريس **لتشيّد قصرها**. وكانت أروقة الحجر تنتمي إلى بيوتات ذات امتياز تمتلك حقّ عرض مخلوقات يرفلن بأثواب كالأميرات بين هذه القنطرة وتلك وفي المكان الموافق لها من الحديقة(3)، بينما كانت أروقة الخشب مكاناً عاماً للدعارة، والقصر على الخصوص، فقد كان ذكره يعني مركز الدعارة، إذ تدخل

---

(1) **سمارا وجون شوغار** من تأليف نوديه الأولى في العام ١٨٢١ والثانية في ١٨١٨ و **جوكو** من تأليف بوجنز في العام ١٨٢٤ وبيير شليمبل رواية لشاميسو إنّما لم يكن لها ترجمة إلى الفرنسية زمن الملكية الثانية.

(2) شيء نادر يحدث مع بلزاك فتخونه الذاكرة فيخطىء في التأريخ، فقد كانت صالات القراءة عديدة في عهد الملكية الثانية، وفي العام ١٨٢١ وجد منها العشرات في باريس، وذكر بلزاك نفسه أن لوسيان كان يقضي وقته لدى بلوس في ممرّ التجارة؛ كما أن قوله عن بيع الروايات بأعداد كبيرة مشكوك فيه، والتحريات التي أجريت في دور المحفوظات الوطنية، في العام ١٩٧٧، تشير إلى أن الروايات بقيت من وسائل الترف، وفهارس دور القراءة وكذلك قوائم الكتب الدورية السنوية لبيغورو وكذلك مشروع الاشتراكات العامة تشير إلى أن سعرها المرتفع كان حائلاً دون شرائها، وجميع روايات أيام شباب بلزاك صدرت بألف نسخة تقريباً، وعندما صدرت رواية «**كلوتيلد دي لوزينيان**» بـ ١٥٠٠ نسخة انتهت بعض النسخ إلى دكاكين العطارين.

(3) يشير الدليل «المرشد الباريسي الحقيقي» الذي سبق ذكره، محذراً أو مرغباً الغريب العابر: «الرواق عامر بأماكن برّاقة تجمع فيها كل مبتكر لإرضاء الترف والأحاسيس الشهوانية والملذات، ومعاذ الله أن نشير هنا للغريب عن أيّ من هذه الترسانات من الفساد والفجور التي يمكن أن ينقاد لها بالإغواءات الأكثر خطراً.

المرأة إليه، وتخرج برفقة فريستها تقوده الى حيث يحلو لها. وهكذا كانت أولئك النسوة يجذبن مساءً الى أروقة الخشب جمهوراً كبيراً حتى لايمكن السير فيها إلا بحذر وضمن صف طويل كما في التطواف أو في حفلة رقص تنكرية. ولم يكن هذا التمّهل يزعج أحداً، إذ أنه يستخدم للتفحّص. ولهؤلاء النساء هندام لم يعد موجوداً. فظهورهن معراة حتى الخصر، كما أن تقويرة الثوب تعرض بسخاء من الأمام وقد ابتكرن تسريحات شعر خاصة للفت الأنظار، فهذه كوشوازية[١]، وتلك اسبانية، الواحدة ذات شعر معقوص مثل كلب جعد والأخرى في خصلات مسترسلة، وقد انحصرت سيقانهن في جوارب بيضاء فبدت أكثر عرياً بشكل غير معروف إنّما عن قصد دائماً، وهكذا ضاعت كلّ هذه القصيدة المخزية. فالحرية المطلقة في الأسئلة والأجوبة، وهذه الصفاقة العامة المتناسقة مع المكان لم تعد موجودة لافي حفلةالرقص المقنّعة، ولا في حفلات الرقص الشهيرة التي تقام حالياً: فالجو رهيب مرح، وبشرة الأكتاف والنحور الناصعة تتألّق وسط ثياب الرجال القاتمة على الدوام تقريباً، وتحدث هذه التباينات الرائعة، وجلبة الأصوات وضجة التنزه تشكل وشوشات تسمع من وسط الحديقة كنغمة عميقة مستمرة تطرّزها ضحكات الفتيات أو صيحات شجار نادر؛ والأشخاص المحترمون والرجال المتميزون يمرون عَبرَ أناس ذوي وجوه تستحق الشنق، ولهذه الجموع الهائلة مالاأدري من الطرافة، فهي تهز مشاعر من يبدو لامبالياً، عديم التأثر. وهكذا فإن كل باريس تأتي الى هنا حتى اللحظة الأخيرة، تتنزه فوق الألواح الخشبيةالتي مدّها المهندس فوق الأقبية، خلال أعمال البناء، والتأسفات البالغة والإجماعية ترافق سقوط هذه القطع الخشبية القبيحة.

كان المكتبي لادفوغا قد استقرّ منذ بضعة أيام على زاوية الممرّ الذي يفصل الرواقين من الوسط[٢]، أمام دوريا، الشاب المنسيّ الآن، إنّما الجريء، الذي مهد الطريق الذي لمع فيه منافسه[٣]، وكان دكان دوريا في صف يطلّ على

(١) كوشوازية: منطقة كو Caux في مقاطعة النورماندي.

(٢) في الرقم ١٩٥ من رواق الخشب..

(٣) دوريا اسم شخص حقيقي كمعظم الشخصيات البلزاكية، وهو اسم يعود الى كاتب قاضي صلح الدائرة الإدارية العاشرة في باريس الذي سجل الحجز على تفليسة كانل (في ١٤ تموز ١٨٢٦) وسترد في الدراسة المطولة للرواية العلاقة بين لادفوغا ودوريا.

الحديقة، بينما دكان لادفوغا مطلّ على الفناء؛ وكان دوريا قد قسم دكانه الى قسمين جعل أوسعهما مخزناً لمكتبته، والآخر مكتباً له. وكان لوسيان الذي حضر إلى هذا السوق لأول مرة مساءً قد انتابه الذهول من هذا المظهر الذي لايستطيع مقاومته الريفيون والشباب، فأضاع رفيقه.

قالت إحدى المخلوقات لرجل عجوز وهي تشير إلى لوسيان: «لو أنك بوسامة هذا الفتى لاستسلمت إليك في الحال».

انتاب الخجل لوسيان وككلب يقود أعمى تبع هذا السيل من البشر، وهو في حالة هياج وذهول يصعب وصفها؛ تطارده أنظار النساء وتستثيره الأذرع والأجسام المكوّرة البضة، وتبهره النحور الجريئة، وهو يقبض بشدة على مخطوطته خشية أن تختطف منه، وهو البريء الساذج!.

فجأة أحسّ بيد تقبض على ذراعه، وخشي أن يكون ديوان شعره قد استهوى أحد المؤلفين وسمع صوتاً يهتف به: «وبعد أيّها السيّد» تعرف به على صديقه لوستو الذي استأنف كلامه «كنت أعرف جيداً أنك ستمرّ من هذا المكان!»؛ وكان الشاعر قد وصل إلى باب مخزن طلب منه لوستو أن يدخلا إليه، والمخزن مكتظ بأشخاص ينتظر كل منهم دوره ليكلم سلطان المكتبة؛ والطابعون، وتجار الورق، والرسّامون يتجمهرون حول المستخدمين يسألونهم عن سير الأعمال أو يتداولون معهم.

قال لوستو: هوذا فينو، مدير صحيفتي يتحدّث مع شاب موهوب، فليسيان ڤرنو، الخبيث الماكر كأحد الأمراض السريّة.

قال فينو الذي توجّه مع ڤرنو نحو لوستو، «أخيراً حصلتُ لك على موعد للعرض الأول لمسرحيتك، وسأكون أوّل الحاضرين.

- هل بعتها لبرولار[1]؟

- وبعد؟ المهم حان دورك، ماذا جئت تطلب من دوريا؟ آه! لقد اتفقنا على إبراز وتشجيع بول دي كوك، وقد تعاقد دوريا على شراء مئتي نسخة من مؤلّفه،

(١) برولار: سمسار مسارح شهير سيرد التعليق على شخصيته في دراسة الرواية.

بينما رفض فكتور دوكانج العهدة إليه بإحدى رواياته، لذلك سيخلق دوريا مؤلّفاً جديداً من الطراز ذاته ستضع بول دي كوك في مرتبة يتفوّق فيها على دوكانج.

- لكن لي مسرحية مع دوكانج في الغيته.

- حسناًو ستقول له إنني صاحب المقال، وأتوقع رؤيته محتداً، لكنك ستلطف من غضبه فهو مدين لك بالشكر.

قال إتيين لفينو: ألا يمكنك أن تحسم لي هذا السند بقيمة مئة فرنك من أمين صندوق دوريا؟ فكما تعلم سنتناول وجبة طعام في سهرة هذا المساء بمناسبة تدشين شقة فلورين الجديدة.

قال فينو وهو يتظاهر باستعادة تذكره للدعوة: «آه! نعم، إنك تنافسنا الآن». ثم التفت الى أمين الصندوق وهو يقدم له سند باربيه: «غابوسون، ألاتعطي لهذا الرجل تسعين فرنكاً إكراماً لي، وتأخذ هذا السند ياصديقي؟

تناول لوستو ريشة أمين الصندوق ووقع له على السند واستلم المبلغ، ولوسيان يتابع المشهد بكل حواسه، لايفوته حرف من تلك المحادثة.

استأنف إتيين: «ليس هذا كل شيء ياصديقي العزيز، ولن أقول لك شكراً فنحن متضامنون في السراء والضراء، وعلي أن أقدم هذا السيد لدوريا وأرجو أن تزكي طلبي لديه.

- سأله فينو: وماهو طلبك؟

- أجاب لوسيان: أن ينشر لي ديواناً شعرياً.

- بدرت من فينو انتفاضة استغراب وقال: آه!

نظر فرنو إلى لوسيان وقال: لو أن السيّد يتردّد على أوساط دور النشر منذ مدة، لرمى مخطوطة ديوانه في الركن الأكثر وحشة من مسكنه.

في تلك اللحظة أطلّ عليهم إميل بلونده، الشاب الوسيم، الذي بدأ ينشر

في صحيفة «المناقشات Les Débats» مقالات بعيدة الأثر[1]، وصافح فينو ولوستو، ووجّه تحية خفيفة لفرنو.

قال له لوستو: تعال لتشاركنا وجبة منتصف الليل لدى فلورين.

قال الشاب: سأجيء، ولكن من سيكون هناك؟

رد لوستو: آه! فلورين وماتيفا تاجر العقاقير؛ ودوبرويل المؤلف الذي أعطى دوراً لفلورين في بداية عملها المسرحي، وعجوز صغير هو الأب كاردو، وصهره كاموزو، ثم فينو..

- هل يحضِّر تاجر العقاقير الأمور بشكل مناسب؟

قال لوسيان: آمل ألا يقدّم لنا عقاقيره.

قال بلوندو برصانة وهو يتأمل لوسيان: يبدو السيد بروح مرحة، هل سيكون بين الحفل يالوستو؟

- نعم.

- سنضحك جيداً.

احمرّ وجه لوسيان حتى أذنيه.

قال بلونده وهو ينقر على الزجاج المقابل لمكتب دوريا: هل ستتأخر يادوريا؟

(١) من المجازفة اقتراح نموذج لشخصية بلونده، ويشير التعديل في الطبعة اللاحقة أن بلزاك أراد أولاً أن يشخص كلودڤينيون (ببعض ملامح أو على الأقل ببعض عادات غوستاف بلانش) وقبل أن يجعل منه محرّراً شهيراً في صحيفة **المناقشات** و«أحد أمراء النقد في تلميح واضح إلى جانين» في **منيرفا**، وهي مجموعة ليبرالية على الخصوص، وفي **المحافظ** (الأدبيّة دون شك)، وهي نموذج الصحيفة الملكية (الرومنطيقية قبل الاتجاه الأدبي، وفي **عطارد فرنسة** الصحيفة الليبرالية- لكنه في تعديل ١٨٢٣- انفتح على التجديدات الأدبية قليلاً- وفي مخطوطة **أمير من بوهيمية**، لاحظ باتريك برتيه أن بلزاك بدأ باعطاء اسم روميو لهذه الشخصية، وفي **الرعادة** اختزل بلونده- **الرجل الكبير** إلى مفسد للوسيان- وهو دور أسند فيما بعد للوستو- وبدا ليبرالياً، لكن **حجرة العاديات القديمة** لاتوضح كيفية تحوّل هذه الشخصية التي أعطيت اسماً أولاً هو ألفريد.

- سآتيك حالاً ياصديقي .

التفت لوستو إلى لوسيان قائلاً : حسن، هذا الشاب، وهو بمثل عمرك، يعمل في صحيفة **المناقشات**، وهو أحد أمراء النقد المرهوبي الجانب؛ وسيأتي دوريا ليمالقه، وسنستطيع عندئذ أن نعرض قضيتنا على باشا النشر والطباعة، ودون ذلك لن يأتي دورنا قبل الساعة الحادية عشر ، فالمراجعون يزدادون عدداً من لحظة إلى أخرى .

انضم لوسيان ولوستو بعد ذلك إلى بلونده وفينو وفرنو وشكلوا حلقة في نهاية المتجر .

قال بلونده لغابوسون، المستخدم الأول في المكان، الذي قدم لتحيته : ماذا يفعل دوريا الآن؟

- إنه يشتري صحيفة أسبوعية ينشط فيها معارضته لتأثير صحيفة **مينرفا**[1] الداعمة حصراً لإيمري **وللمحافظ** الرومنطيقية بشكل مطلق .

هل يدفع جيداً؟

قال أمين الصندوق : لكن كالمعتاد دائماً. . . كثيراً!

في تلك اللحظة دخل شاب نُشرت له حديثاً رواية رائعة بيعت بسرعة وتُوجت بنجاح رائع، رواية يقوم دوريا بنشر طبعتها الثانية، ولفت مظهر هذا

---

(١) حلت مجلة **منيرفا** الفرنسية في شباط ١٨١٨ محل **عطارد** التي منعت، وضمت إليها ذات المحرّين، ومنهم أركان الليبرالية السياسية والأدبية : بنجامين كونستان، وجوي، وتيسو، وغيرهم وتوقفت عن الظهور بانتظام بعد مقتل الدوق دي بري . فهي لم تكن موجودة في وقت لادفوغا . وقد وجدت أيضاً مجلة **منيرفا أدبية** (من ١٨٢٠ إلى ١٨٢٢) بعنوان **النحلة** منذ العدد ٢٦، ويحتمل أن يكون تلميح المؤلف متعلقاً بالمجلة الأولى، كما وجدت أيضاً مجلة **محافظ** ملكية متطرفة، ومجلة **محافظ أدبية**، يدير الأولى منهما شاتو بريان ولامنيه، وقد انهارت بذات الأحداث التي أودت بمجلة **منيرفا** المعارضة لها : أما الثانية فقد أسسها الأخوان هوغو، وكانت بمثابة ملحق أدبي للأولى، ورغم أنها بقيت من ١٨١٩ الى آذار ١٨٢١ فإنها كانت متوقفة في فترة أحداث الرواية . فأي أسبوعية إذن أراد دوريا أن يحييها؟ في المخطوطة يذكر **عطارد فرنسة**، تلك الصحيفة التي ذكرنا أنها توقفت في العام ١٨١٨، وقد يكون في فكر بلزاك **عطارد القرن التاسع عشر** التي وضعت في المزاد بناء على طلب المساهمين، وأرسيت على لادفوغا لقاء ٦٠٥٠ ف بتاريخ ١٨ أيلول ١٨٢٧ كما أن مجلة عطارد أخرى تولّدت بتاريخ ١٧ تموز ١٨١٩ لمعارضة **منيرفا** المتولدة من **عطارد ١٨١٨** وتوبع الموضوع لكن عطارد توقفت بدورها في العام ١٨٢٠، وهكذا مامن حلّ يناسب تماماً تأريخ الرواية .

الشـاب، الذي وهب تلك الهيئـة الغـريبـة الخـارجـة عن المألوف المميـزة لطبـاع الفنانين، كل اهتمام لوسيان.

همس لوستو في أذن شاعر المقاطعة: «هوذا ناتان».

رفع ناتان قبعته، وأحنى قامته الشابة، رغم الأنفة الوحشية الظاهرة على سماته، محيياً الصحفيين، ووقف شبه خاشع أمام بلونده الذي لم يكن يعرفه إلا بالنظر وقال:

سيدي، إنني سعيد للفرصة التي هيأتها لي المصادفة...

قال فليسيان للوستو: إنه مرتبك إلى حدّ الحشو في كلامه.

واستأنف ناتان مخاطباً بلونده: لأعبّر عن عرفان الجميل للمقال الرائع الذي تكرّمت علي به في **صحيفة المناقشات** فحققت لي به نصف النجاح الذي لاقاه كتابي.

ردّ بلونده بلهجة اختلطت الحماية فيها باللطف: كلا ياعزيزي، كلا، أنت صاحب موهبة أثّرت بي، وأنا سعيد لتعرفي عليك.

- بما أن مقالك قد صدر فلن أظهر كمتملّق لسلطان بيانك، وتعارفنا يستحق التكريم فهلا شرفتني وأسعدتني بقبول دعوتي لك للعشاء غداً؟ سيكون فينو موجوداً:

ثم أضاف وهو يصافح إتيين: وأنت ياصديقي لوستو لن ترفض دعوتي؟

واستأنف تمجيده لبلونده: آه! إنك على الدرب الرائع ياسيدي، فأنت استمرار لأمثال دوسو، وفيقه، وجوفروا[1]! وقد أشاد هوفمان بك أمام تلميذه كلود ڤينيون، وهو أحد أصدقائي، وقال إنه يموت مطمئناً لأن **صحيفة المناقشات** ستبقى خالدة، لاشك أنهم يدفعون لك بسخاء؟

---

(١) من بين هؤلاء النقاد، كان جيوفروا وحده قد توفي قبل أحداث هذه الرواية، وكانوا جميعهم من أقطاب **صحيفة المناقشات** (أو الامبراطورية) في ظل النظام السابق، وقد انضم الأحياء منهم إلى عهد الملكية الثانية دون أن يتوقفوا كلياً عن نشاطاتهم، ولم يحسنوا التكيّف كما فعل إيتيين، الرقيب الامبراطوري السابق، الذي غدا أحد الصحفيين الأكثر لسعاً في مجلة منيرفا؛ وهكذا فقد عُدّوا من رجال الماضي، الماضي القريب جداً، المحافظ على مجده في أبّهة النقد، وبالإجمال فما من أحد حلّ مكانهم، ومن هنا المديح الموجّه من ناتان لبلونده.

أجاب بلونده: مئة فرنك عن العمود، وهو سعر ضئيل. عند اضطرارنا لقراءة الكتب لنجد من بين مئة منها واحداً يستحق الاهتمام مثل مؤلفك الذي أسعدني حقاً.

همس لوستو في أذن لوسيان: وعاد على صاحبه بألف وخمسمئة فرنك.

تابع ناتان: ولكنك تهتم بالسياسة؟

أجاب بلونده: نعم من وقت الى آخر.

وجد لوسيان نفسه كجنين يطلع مجدّداً على الدنيا، وكان قد أعجب بكتاب ناتان، وهو يوقر المؤلف كأنه أحد الأرباب، لذلك فقد ذهل لهذا التزلف الخنوع أمام ناقد لم يسبق له معرفة اسمه ومدى شهرته. تساءل في نفسه: «هل سأتصرف يوماً مثل هذا التصرف؟ هل يجب أن يتنازل الإنسان إذن عن كرامته؟! ألا ترفع هامتك ياناتان، وتعيد قبعتك إلى وضعها على رأسك؟ لقد أبدعت كتاباً رائعاً، ولم يقم الناقد إلا بتسطير مقال عنه. كانت هذه أفكار تجعل الدم يغلي في عروقه، وكان يلحظ بين مدّة وأخرى شباناً خجولين، ومؤلفين معوزين، جاؤوا يطلبون مقابلة دوريا، وارتدوا قانطين عند رؤيتهم مدى الازدحام عند بابه، وكل يقول في نفسه «سأعود فيما بعد؟» بينما وقف سياسيان أو ثلاثة يتحدثون عن دعوة المجلس النيابي والقضايا العامة وسط مجموعة من مشاهير السياسيين وكان للصحيفة التي يفاوض دوريا بشأن شرائها الحق في التعرّض للتعليق السياسي، وقد غدت منابر الصحافة المأذون بتوزيعها رسمياً نادرة، والحصول على حق امتياز إصدار مجلة أو صحيفة[1] يتطلب مساعٍ كتأسيس أحد المسارح؛ ، كان أحد المساهمين البارزين في صحيفة **الدستوري** بين مجموعة السياسيين، ولوستو يفي الفصاحة حقها كشيشرون، وهكذا بين عبارة وأخرى، كان دوريا يكبر في خاطر

---

(١) خضع إصدار الدوريات بموجب قانوني ٢١ آذار ١٨٢٠ و٢٦ تموز ١٨٢١ إلى الحصول على امتياز مسبق، لذلك لجأ دوريا إلى شراء مجلة سبق صدورها متوقعاً عدم قبول الحكومة بإطلاق صحيفة أو مجلة معارضة جديدة.

لوسيان الذي يرى الأدب والسياسة يتضافران في ذلك المكان. وتلقى رجل المقاطعةمن مظهر الأديب المشهور وهو يعهّر ربّة الشعر أمام الصحفي، ويُذلّ الفنّ كما تُذل المرأة العاهرة ضمن هذه الأروقة القبيحة، تلقى دروساً رهيبة. فالمال! المال هو كلمة حلّ كل لغز. وأحسّ لوسيان أنّه وحيد، مجهول، يتعلق نجاحه وحظه بخيط صداقة واه مشكوك بها وأتهم أصدقاءه الحنونين الحقيقيين في الندوة بأنهم أعطوه صورة بألوان مزيفة عن العالم، ومنعوه من إلقاء نفسه في هذا المعترك والريشة في يده، وهتف في أعماق نفسه: سأكون بلونده»؛ وتضاءلت قيمة لوستو، وقد كان في نظره بمنتهى الكبر منذ لحظة، عندما كان يصيح به على هضاب اللوكسمبورغ كنسر جريح، وبدا له المكتبي ذو المكانة، والوسيط لجميع هذه المخلوقات، الرجل الأكثر أهمية. وأحس الشاعر، ومخطوطته في يده برجفة أشبه بقشعريرة الخوف. ففي وسط هذا المكان وعلى قواعد من خشب مدهونة بلون الرخام رأى تماثيل نصفية لبايرون وغوته، والسيد دي كاناليس الذي كان دوريا يأمل في الحصول على حق نشر ديوان له. وأمكن للوسيان وهو في هذا الدكان أن يقدر الموقع الذي يمكن أن يضعه فيه صاحب المكتبة، وأحسّ لاإرادياً بأنه يفقد مكانته الحقيقية، فتخاذلت عزيمته وهو يستشف مدى تأثير دوريا على مستقبله وانتظر بقلق ظهوره.

بدا الرجل بقامته القصيرة وجسمه البدين ووجه الربّل كأنه أحد قناصل الولايات الرومانية القديمة، مع ملامح طيبة تلطفه وتميز الأشخاص السطحيين وهو يقول: «وبعد يا أبنائي ها أنا أملك المجلة الأسبوعية الوحيدة التي يمكن شراؤها، ولها ألفا مشترك.

هتف بلونده: يالك من مهرج! فدمغة الضريبة تشير إلى سبعمئة، وهذا رقم جميل موفّق .

ردّ دوريا: «أقسم بشرفي الأكثر قدسية على أنهم ألف ومئتان». ثم أردف بصوت منخفض: «وقد ذكرت أنهم ألفان بسبب عدد الموجودين بيننا من الورّاقين والطبّاعين» واستأنف بصوت عال: «خلتك أكثر نباهة ياصغيري».

سأله فينو: هل ستضم شركاء لك؟

رد دوريا: هذا يتوقف على شروط، هل تريد الثُّلث مقابل أربعين ألف فرنك؟

- أوافق، إن ضممت إلى هيئة التحرير إميل بلونده الذي تراه، وكلود فينيون، وسكريب، وتيودور لكليرك، وفليسيان فرنو، وجاي وجوي، ولوستو[١]..

قال شاعر المقاطعة بجرأة وهو يقاطع فينو: ولماذا لاتذكر لوسيان دي روبمبره.

أنهى فينو تعداده بالقول: وناتان؟

قطب المكتبي حاجبيه وهو يلتفت إلى صاحب ديوان «**أزهار المرغريت**»، وقال: «ولماذا لاتذكر المتنزهين خارجاً» ثم ألقى على لوسيان نظرة مزدرية وقال: «هل لي شرف التعرف على مخاطبي؟

أجاب لوستو: «لحظة ياسيد دوريا، فأنا من أتى بهذا السيد لمقابلتك، وأرجو أن تصغي إليّ بينما يفكر فينو باقتراحك».

أحسّ لوسيان بالعرق البارد يبلّل ظهر قميصه وهو يقابل بهذا البرود وعدم الرضى من قبل باديشاه المكتبة الرهيب الذي يكلم فينو دون تكلف رغم مايبديه هذا من احترام له، ويخاطب بلوندة المهاب بكلمة «ياصغيري»، ويمد يده بجلال لناتان مع إشارة تودّد.

هتف دوريا: مشروع نشر جديد، ياصغيري. لكنك تعرف أن لدي ألف ومئة مخطوطة للنشر، نعم ياسادة ألف ومئة، اسألوا غابوسون؟ أخيراً سأحتاج

(١) اقتراح بهيئة تحرير متنوعة مستعدة للقبول للعمل مع إغفال أسماء أصحابها: بلونده من المناقشات، وناتان من الغازيت، وجاي جوي (مع تيسو) من المتعاونين مع الصحافة الليبرالية، واستبعد بلزاك اسم فيڤيه وهو قطب صحافي سابق مرموق، وكان قد سجله في المخطوطة.

قريباً إلى جهاز اداري كامل لتصنيف هذا المستودع من المخطوطات، وجهاز قراءة آخر للحكم عليها، وجلسات كاملة للاقتراع على أهميتها بموجب فيشات يدلي الحاضرون فيها بأصواتهم، وأمين سرّ دائم يقدم لي التقارير عنها. سيكون هذا المكان فرعاً من الأكاديمية الفرنسية، وسيتقاضى أكاديميو رواق الخشب رواتب أفضل من تلك التي يمنحها اتحاد المجامع.

قال بلونده: إنّها فكرة.

تابع دوريا: لكنها فكرة سيئة، فليس في نيتي أن أقوم بتعرية الهذارين من بينكم الذين نصبوا أنفسهم أدباء عندما فشلوا في أن يكونوا رأسماليين، أو حذائين، أو رقباء، أو خدماً، أو إداريين، أو مأموري حجز. فهنا لامكان إلا لمن ذاع صيته! فهيا كوِّنوا شهرتكم[1] وتعالوا إليّ لأغدق عليكم الذهب. عملت منذسنتين على إشهار ثلاثة رجال فكان جزائي نكران الجميل، وهاهو ناتان يطالب الآن بستة آلاف فرنك عن الطبعة الثانية لكتابه بعد أن أنفقت لترويج طبعته الأولى ثلاثة آلاف فرنك أجرة مقالات، منها ألف فرنك لبلونده عن مقالين إضافة إلى حفلة عشاء كلّفت خمسمئة فرنك.

سأل لوسيان، وقد فقد بلونده في نظره كثيراً من اعتباره عندما علم بقيمة المبلغ الذي تقاضاه من دوريا لقاء نشر مقاليه في **المناقشات**: «ولكن ياسيدي، إن تأخذ جميع دور النشر بالنهج الذي تدعو إليه كيف يمكن للأديب إصدار كتابه الأول.

ردّ دوريا وهو يلقي نظرة قاتلة على لوسيان الوسيم رغم هيئته المحببة: هذا

---

(١) هي لازمة جميع المقالات التي تكتب عن النصح المقدّم للشاب الوافد من المقاطعات إلى باريس (وستتناول ذلك في الدراسة) وقد كتب فيكتور هوغو بهذا الخصوص في **إمبر غالوا**: «النهر الجهنمي ستيكس» الذي يعترض الفنان الشاب المسكين المجهول هو قول صاحب المكتبة له وهو يعيد إليه مخطوطته: «تعالَ بعد أن تشتهر»، وقول المسرح: «تعال بعد أن تشتهر» وقول المتحف: «تعال بعد أن تشتهر». إيه! ياللعجب! أتيحوا له أن يبدأ، ساعدوه! ألم يكن المشهورون في بداياتهم مغمورين؟ وكيف تكتسب الشهرة، مهما كانت العبقرية دون متحف للوحة، ومسرح للتمثيلية، وناشر للكتاب؟».

لايعنيني، ولاوقت عندي لنشر كتاب والمجازفة بألفي فرنك لأكسب ألفي فرنك، أريد أن أجري مضاربات في الأدب: أنشر مؤلفاً في أربعين جزءاً، وبعشرة آلاف نسخة كما تفعل دار بانكوك ودار بودوان، فقدرتي الواسعة والمقالات التي أكلّف بها تنهض بمشروع ثلاثمئة ألف فرنك، بدلاً من دفع مؤلَّف بألفي فرنك يحتاج جهداً لإبراز اسم المؤلف الجديد وكتابه بقدر الجهد الذي بُذل لإنجاح **المسارح الأجنبية**، أو **انتصارات وغزوات**، أو **مذكرات عن الثورة**[1]، وكل منها يدرُّ ثروة. أنا لست هنا لأكون مرقاة للأمجاد القادمة، بل لأكسب المال وأُكسبَ أصحاب الشهرة. والمخطوطة التي أشتريها بمئة ألف فرنك أرخص سعراً من تلك التي يطلب عنها مؤلِّف مجهول ستمئة فرنك. واذا لم أكن نصيراً كلياً للآداب والفنون، فإن لي الحق باعتراف الأدب بفضلي، فقد رفعت سعر المخطوطة إلى أكثر من الضعف[2].

ثم ربّت دوريا على كتف الشاعر بحركة عدم كلفة مستهجنة وهو يقول: «إنني أشرح لك هذه الأسباب ياصغيري، لأنك صديق لوستو، ولو تحدثت مع جميع المؤلفين الذين يقصدونني لأنشر لهم لوجب أن أقفل دكاني، إذ أنني سأقضي عندها كل وقتي في محادثات ممتعة للغاية، لكنها غالية جداً، وأنا لم أصل بعد إلى درجة من الغنى لإضاعة وقتي في سماع منولوجات كلّ مغرور مزهوّ بنفسه فهذا لايحدث إلا في التمثيليات الكلاسيكية على خشبة المسرح.

(١) لويس بانكوك (١٧٨٠-١٨٤٤) مكتبي وصاحب مطبعة باريسي، نشر بين ١٨١٧و ١٨٢١: **انتصارات، وغزوات ونكبات، وحروب الفرنسيين الأهليّة وخلفياته** (في ٢٥ جزءاً وملحقاً إضافياً في العام ١٨٢٢) وقام أبناء فرنسوا جان بودوان، وخاصة الكسندر بين عامي ١٨٢٠ و١٨٢٧ بنشر المجموعة الواسعة والشهيرة **مذكرات عن الثورة الفرنسية** تحت إدارة برفيل وباريير (٥٣ جزءاً) أما مؤلّف «**التمثيليات الشهيرة على المسارح الأجنبية** فقد نشرها لادفوغا في ٢٣ جزءاً بين عامي ١٨٢١ و١٨٢٣ وقد حظي هذا المؤلف بشهرة واسعة.

(٢) عرف هذا السخاء عن لادفوغا وروي عنه قوله: ورقة مقابل ورقة، وورقة نثر بليغ مقابل ورقة ألف فرنك (وردت في مجلة «**الفارس**» تاريخ ١١ أيلول ١٨٥٤) واشترى **الأعمال الكاملة** لشاتوبريان بمبلغ ٣٠٠٠٠٠ ف، ودفع ثمن مؤلف مدرسة الشيوخ في العام ١٨٢٣ لكازيمير دلافيني (١٧٩٣-١٨٤٣) ١٣٥٠٠ف، كما أن بوله أفلس بعد أن دفع ٤٠٠٠ف ثمن رواية لدوكانج (١٧٨٣-١٨٣٣) «الكاتب الليبرالي الملاحق من السلطات».

كان مظهر الترف المتجلّي في هندام دوريا يدعم أمام ناظري شاعر المقاطعة هذا الخطاب المنطقي القاسي.

التفت دوريا إلى لوستو يسأله: «ماهذه المخطوطة التي يحملها صاحبك؟»

- ديوان شعر رائع.

وارتد عن ذلك نحو غابوسون بحركة جديرة بالممثل، تالما، محذراً: غابوسون، ياصديقي، من يأتي اعتباراً من اليوم إلى هنا ليعرض علي مخطوطات.. وتوقف للحظة ليوجّه نظره إلى ثلاثة مستخدمين آخرين رفعوا رؤوسهم من بين أكداس الكتب عندما سمعوا صوت معلمهم الغاضب الذي كان يتأمل مفتتناً أظافر يده الجميلة ثم استأنف: من يحمل إليَّ مخطوطات، أيّاً كان، تسألونه أهي شعر أم نثر؟ وعليكم أن تصرفوه حالاً عند كونها شعراً؛ فالقصائد تفترس المكتبات.

هتف الصحفيون: مرحى! هذا قول طيّب يادوريا.

صاح المكتبي وهو يتناول المخطوطة من يد لوسيان ويلوّح بها: هذا واقع حقيقي، فأنتم لاتعلمون، أيها السادة، ماسببته نجاحات اللورد بايرون، ولامارتين، وفيكتور هوغو، وكازيمير دلافيني، وكاناليس، وبرانجيه، فأمجادهم دفعت إلينا غزوات من البرابرة[1]، وأنا واثق أنّ في دور النشر الآن أكثر من ألف ديوان من الشعر تبدأ بحكايات متوقفة لارأس لها ولاذنب، على مثال **القرصان ولارا**. وبذريعة الابتكار يلجأ الشبان إلى مقاطع شعرية غير مفهومة، وإلى قصائد وصفية تعتقد المدرسة الناشئة أنها مجددة فيها بانتحال ديليل[2]. ومنذ

---

(١) البرابرة: اسم أطلقته على الأغلب الصحف الليبرالية الصغيرة في عهد الملكية الثانية على المقلدين من شعراء أونا ثرين للآداب الأجنبية وقد لمحت صحيفة «اليقظة» الملكية، بتاريخ ١٤ آب ١٨٢٢، دون أن تتبنى الفكرة أو التعبير، «لغزو البرابرة الكامل لأدبنا».

(٢) ديليل DELILLE (الراهب جاك) «١٧٣٨-١٨١٣» شاعر فرنسي، كان راهباً، ترجم «الجيورجيات» لفيرجيل فحظي باستحسان فولتير وفردريك الثاني ١٧٧٤ وكرس الأدب اللاتيني في الكوليج دي فرانس ١٧٧٣ فانطلق في الشعر الوصفي وأصدر **الحدائق** (١٧٨٢) والشعر الفلسفي (**التخيل** ١٧٨٤).

سنتين تكاثر الشعراء كالخنافس، وسبّبوا لي خسارة عشرين ألف فرنك في العام الماضي، اسألوا غابوسون؟. يمكون وجود شعراء خالدين في العالم؛ وأنا أعرف آخرين بعمر الورود، مازالوا مرد اللحى. ثم التفت إلى لوسيان قائلاً: لكن في المكتبة أيها الشاب، لايوجد إلا أربعة: برانجه، وكازيمير دلافيني، ولامارتين، وفيكتور هوغو؛ لأن كالناليس!... شاعر خلقته قدرة المقالات[1].

لم يجرؤ لوسيان على أن ينتصب قائماً مظهراً الأنفة أمام هؤلاء الأشخاص ذوي المكانة الذين كانوا يقهقهون ضاحكين، فقد أدرك أنه سيتعرّض للسخرية، لكنه أحسّ برغبة عنيفة في أن يقفز على عُنُق هذا الكتبي ليشوّش له هذا التناسق المهين في عقدة ربطة عنقه، ويحطم له السلسلة الذهبية التي تلمع على صدره، ويرمي ساعته أرضاً ويسحقها بقدميه[2]، وشرّعت كرامته المستثارة راية الانتقام فأضمر حقداً مميتاً لهذا المكتبي الذي كان يزهو بابتسامته.

قال بلونده: الشعر كالشمس التي تنبت الغابات الخالدة وتولّد في الوقت نفسه البرغش والذباب الصغير والبعوض، ولاتوجد فضيلة إلا وتقابلها رذيلة، والأدب قد ولد الكتبيين.

قال لوستو: وولّد الصحفيين!

انطلق دوريا في ضحكة مجلجلة وسأل وهو يشير إلى المخطوطة: أخيراً، ماهذا؟

ردّ لوستو: مجموعة سونيتات تخزي بترارك.

قال دوريا: وكيف تفهمها؟

---

(١) أضاف بلزاك في العام ١٨٤٣ هذا التلميح لكاناليس لإبعاد الالتباس بين الشاعر المختلق في الملهاة الإنسانية ولامارتين المعتبر نموذجاً له.

(٢) أناقة دوريا المفرطة تشير إلى نموذجه الحقيقي لادفوغا، وقد أجرى آ. آدم بهذا الخصوص مقاربة مفيدة: ولاحظ كار أن الكتبي كان يتزين بخواتم عديدة، وتحدثت الفيغارو عن أصابع تنثني على الألماس وأظافر مطلية بالبريق.

أجاب لوستو وقد لمح الابتسامة تفتر على جميع الشفاه: كما يفهمها جميع الناس.

لم يتكدّر لوسيان من هذه المداولة لكنه أحسّ بالعرق يتصبب منه.

قال دوريا وهو يبدي حركة ملكية تعبّر عن مدى تنازله: «حسنٌ، سأقرؤها؛ واذا كانت سونيتاتك على مستوى القرن التاسع عشر، فسأجعل منك، ياصغيري، شاعراً كبيراً».

قال أحد خطباء المجلس التشريعي الذي كان يتبادل الحديث مع أحد محرري صحيفة الدستوري ومدير مجلة منيرڤا[1]: إذا كانت نفسه بمثل وسامته فلن تتعرض لمجازفة كبيرة.

قال دوريا: جنرال! المجد يعني إنفاق ١٢٠٠٠ فرنك أجور مقالات وثلاثة آلاف فرنك نفقات حفلات عشاء، اسأل مؤلف «الناسك»[2]، وإذا رغب السيد بنجامن كونستان أن يُعدَّ مقالاً عن هذا الشاعر الشاب، فلن أتأخر عن توقيع عقد معه.

عند سماع كلمة الجنرال واسم بنجامن كونستان أخذ الكُتُبي في نظر رجل المقاطعات الكبير مناسيب جبل الأولمب.

قال فينو: لوستو، لي حديث معك، لكنني سألقاك في المسرح. دوريا، إنني موافق على شراكتك إنّما ضمن شروط، فلندخل إلى مكتبك.

قال دوريا وهو يفسح المجال لفينو ليمر أمامه، ويقوم بحركة رجل منشغل بأمور عشرة أشخاص آخرين ينتظرون: ألا تدخل، ياصغيري؟ واستعد للدخول

---

(١) المتحدثان هما الأديب الفرنسي من أصل سويسري بنجامن كونستان (١٧٦٧-١٨٣٠) والجنرال فوي FOY (١٧٧٥-١٨٢٥) الذي عمل في العام ١٨١٤ على تراجع جيش الامبراطورية من اسبانية، وغدا في عهد الملكية الثانية نائباً ليبرالياً، وقد سببت جنازته مظاهرة معارضة صاخبة ضد الملكية الثانية.

(٢) مؤلف رواية الناسك Le solitaire التي ظهرت في العام ١٨٢١ هو الفيكونت أرلنكور (١٧٨٩-١٨٥٦).

إلى مكتبه، عندما اعترضه لوسيان متسائلاً بقلق: هل ستحتفظ بمخطوطتي، ومتى أتلقى منك جواباً؟

- ارجع ياصغيري الشاعر بعد ثلاثة أو أربعة أيام، وسنرى.

قاد لوستو لوسيان دون أن يفسح له المجال لإلقاء تحية الوداع على فرنو، وبلونده، وراوول ناتان، والجنرال فوي، وبنجامن كونستان الذي كانت مذكراته عن حكم المئة يوم[1] قد بدأت بالظهور، وتأمّل سريعاً رأس كونستان الأشقر الناعم، ووجهه المتطاول، وعينيه الورعتين، وفمه اللطيف، أخيراً الرجل الذي كان خلال عشرين سنة بالنسبة لمدام دي ستيل مثيل بوتمكين لامبراطورة روسية[2]، والذي عارض البوربونيين كما عارض من قبلهم نابوليون لكنه مات مرهقاً من انتصاره.

هتف لوسيان عندما استقل عربة إلى جانب لوستو: ياللهذه المكتبة!

قال إتيين للحوذي: أسرع بنا إلى بانوراما- دراماتيك، وستنال ثلاثين فلساً لقاء مشوارك.

ثم التفت إلى لوسيان معلقاً على تعجبه، وقد داعبته عزة النفس للاستمرار معلماً له:

«دوريا رجل ماكر يبيع سنوياً كتباً بقيمة مليون وخمسمئة ألف أو مليون وستمئة ألف فرنك فهو بمثابة وزير آداب، وهو مماثل في جشعه لباربيه ويمارس تأثيره على الجماهير، لكنه ذو نمط يتقيّد به، فهو سخي، لكنه مهذار مزهوّ بنفسه، أما تفكيره فيتكوّن من كل مايسمع قوله من حوله، ومكتبته مكان لقاء ممتاز يمكن لشخصيات العصر المرموقة تبادل الأحاديث فيها، ويمكن، ياعزيزي، لشاب أن يتعلم من خلال سماعها، في ساعة من الزمن، مايقتضيه تقليب كتب

(١) كان كونستان مديراً مسؤولاً لمجلة منيرڤا الفرنسية وبدأ بنشر مذكراته عن حكم المئة يوم في المجلة المذكورة في أيلول ١٨١٩ ثم ظهر القسم الأول منها في كتاب نشره بيشه في العام ١٨٢٠ ونُشر القسم الثاني في العام ١٨٢٢.

(٢) بوتمكين: (١٧٣٩-١٧٩١): فيلد مارشال روسي، عشيق كاترين الثانية امبراطورة روسية، أمّامدام دي ستيل DE STAEL فهي الأديبة الفرنسية المشهورة (١٧٦٦-١٨١٧) ابنة الوزير نيكر (المترجم).

لعدة سنوات، ففيها تناقش مقالات، وتعرض مواضيع، وتُعقد صلات مع أشخاص هامين أو ذوي تأثير يمكن جني فوائد منها، ، والنجاح في أيامنا يتطلب كثيراً من هذه الصلات، وكل شيء يعتمد على المصادفة كما رأيت، والخطر في أن يعتزل المرء في تفكيره ويركن في زاوية منفرداً.

قال لوسيان: لكن يا لِقّحة ربّ المكان!

أجاب إتيين: إيه! إننا جميعاً نسخر من دوريا، إنك محتاج إليه، يرفسك غير مبال ويسير، وهو محتاج إلى مجلة المناقشات مما يمكّن إميل بلونده من التلاعب به كخذروف. ولكن! عندما ستدخل الساحة الأدبية سترى أشياء أخرى كثيرة، فماذا أقصّ عليك؟.

أجاب لوسيان: نعم، إنّك على حق، تألمت في تلك المكتبة أكثر مما توقعت ومما قدرت لي في برنامجك.

- ولماذا تستسلم للألم؟ فالموضوع الذي يقرض حياتنا، ويقضّ مضاجعنا، ونُمعن النظر فيه خلال ليال مجدّة، وكل هذه الجولات في حقول الفكر، وبناء صرحنا الأدبي بدمنا، يغدو بالنسبة للناشرين مجرّد صفقة رابحة أو خاسرة. إمكان رواج بيع المخطوطة بعد طباعتها أم كسادها، هذه هي كلّ القضية، فالكتاب في نظرهم يمثل رأسمال يجازف به، وكلّما كان الكتاب جميلاً زاد التخوّف من إمكان تسويقه؛ فالرجل السامي يرتفع فوق مستوى الجماهير، ونجاحه يرتبط مباشرة بالوقت اللازم لتقدير مؤلّفه، ومامن ناشر يريد الانتظار، ويجب في نظره أن يباع غداً الكتاب الذي يطبعه اليوم، وفي مثل هذا النهج يرفض الناشرون الكتب الرئيسة التي تتطلب استحساناً واعياً لكنه بطيء.

هتف لوستو: إن دارتز على حقّ.

قال لوستو: أتعرف دارتز؟ لاأرى ماهو أخطر من أصحاب النفوس المعتزلة، الذين يفكرون، كهذا الفتى، أنّ بقدرتهم جذب الناس إليهم بتحميس

المخيلات الشابة بمعتقد يدغدغ مواطن القوة الواسعة التي نحسّ بها في أنفسنا؛ فهؤلاء الأشخاص ذوو المجد المؤجّل حتى إلى مابعد الوفاة يثبطون العزيمة في المرحلة التي تكون فيها الحركة ممكنة ومجدية.

كان من شأن هذه الفورة التي اتخذت فيها المحاكمة شكلاً جازماً، أن دفعت لوسيان إلى التردّد بين نهج الفقر المستكين الذي تعظ به الندوة، ومذهب الكفاح الذي يعرضه لوستو، وهكذا لزم شاعر انغولم الصمت إلى أن وصلا جادة «التامبل».

كان مسرح البانوراما- دراماتيك، الذي حل منزل محلّه الآن، قاعة عرض جذّابة تقع مقابل شارع شارلو على جادة التامبل. وقد فشلت إدارتان بتحقيق النجاح لها[١]. بالرغم من أن الممثل ڤينيول الذي ورث شهرة بوتيه[٢] بدأ التمثيل فيه، وكذلك فلورين التي حظيت بالشهرة بعد خمس سنوات من افتتاحه؛ والمسارح كالبشر تخضع للقضاء والقدر، وقد تعرّض البانوراما- دراماتيك لمنافسة الآمبيغو، وغيته وباب سان مارتن ومسارح الفودفيل[٣] ولم يستطع الصمود أمام مناورات هذه المسارح والشرط التعسفي في امتيازه يقيّده، إضافة لنقص المسرحيات الجيدة المتناسبة مع هذا الشرط، ولم يرد الممثلون الاختلاف مع

(١) لم يحظ هذا المسرح الذي يتسع لألف وأربعمئة مشاهد إلا بعمرٍ قصير جداً. فقد بني في العام ١٨٢٠ في رقم ٤٨ من جادة «التامبل» مقابل الحديقة التركية، ودُشّن في ١٤ نيسان ١٨٢١، وكانت تُعرض على خشبته مسرحيات خفيفة مرحة (فودفيل)، وقطع مأساوية شجية، ومنح حق الاستثمار إلى آلو ALAUX الرسّام المزخرف، وهو يتضمن شرطاً تعسفياً ملزماً: «عدم ظهور أكثر من ممثلين اثنين يقومان بالحوار»، وكان من الممثلين الهزليين العاملين فيه «فوترن» ومن العاشقات ماريا وفلورڤيل، وظهر فيه بُوفيه أيضاً منذ العرض الأول، ومن المتعاونين مع هذا المسرح سيسري CI-CERI أحد أشهر مهندسي المناظر. وقد بُدلت إدارته في أول نيسان ١٨٢٢ وحل لانغلوا دي سان مونتان محل آلو مع إعفاء من الشرط التعسفي السابق، وشكلت له لجنة قراءة من أعضائها نوديه، والبارون تايلور ولاتوش وفي أول كانون الثاني ١٨٢٣ اشتكى سيستين دي لاروشفوكول من عدم تقيد هذا المسرح بشروط امتيازه وفي ٢٤ نيسان صدر حكم بإيقاف العمل فيه، وكان آخر عرض له في آب ١٨٢٣، وبيع المبنى وهدم في العام التالي.

(٢) ظهر اسم ڤينيول في طبعة فورن المصحّحة، مكان اسم بوفيه في الطبعات المنشورة أثناء حياة بلزاك. وكان هذا الممثل الهزلي الكبير (١٨٠٠-١٨٨٨) قد حظي بنجاح استثنائي في العام ١٨٣٥ في دور الأب غراندة (**مسرحية ابنة البخيل**- المقتبسة عن رواية بلزاك) أثناء تمثيله في مسرح =

المسارح القائمة من أجل مسرح تحوم الشكوك حول بقائه. غير أن الإدارة كانت تعلّق الآمال على مسرحية جديدة، هي نوع من مشجاة هزلية لمؤلف شاب، اسمه دو برويل يتعاون مع بعض كُتّاب مشهورين، لكنه ادعى أنّه ألّف هذه المسرحية بمفرده من أجل إشهار فلورين ممثلة أولى بعد عملها ممثلة ثانوية في «غيته» حيث لعبت في أدوار صغيرة خلال سنة أظهرت فيها براعتها دون أن تحظى من المسرح المذكور بتعاقد طويل الأمد، وهكذا تمكّن «البانوراما» من انتزاعها من جاره، كذلك فإن كورالي وهي ممثلة أخرى بدأت العمل فيه.

عندما وصل الصديقان إلى المسرح دُهش لوسيان مما تتمتع به الصحافة من نفوذ، فقد أحنى مراقب الدخول رأسه احتراماً لإتيين الذي أشار للوسيان قائلاً: «السيد بصحبتي» وأفسح لهما المراقب العام الطريق مبدياً أسفه لتعذر إيجاد مكان ملائم لهما «إلا أن يتخلّى لهما مدير المسرح عن مقصورته الخاصة.

قضى إتيين ولوسيان بعض الوقت تائهين في الممرات وهما يبحثان مع مرشدات المقاعد عن مكان، ولما لم يهتديا قال لوستو: لنذهب إلى الصالة لنحدّث المدير الذي سيأخذنا في مقصورته، ثمّ إنها فرصة لأعرفك على فلورين بطلة هذه الأمسية.

=الجمباز، وأخذ عليه معاصروه انسياقه غالباً مع الذكرى على طريقة بوتيه» ويضيف لاروس القرن التاسع عشر الذي يروي هذه الحكاية ويؤكد حكم بلزاك: «ومن المتفق عليه أن بوفيه لم يسيء اختيار نموذجه» فبوتيه (١٧٧٤-١٨٣٨) الذي اشتهر في مسرح المنوّعات، وباب سان مارتن، وغيته، كان مع برونه أحد أفضل الممثلين الهزليين في عهد الملكية الثانية ومع أودري أحد الأكثر شعبية، وبوضع فينيول (الوهمي) مكان بوفيه الحقيقي، يقطع بلزاك الرابطة مع الحقيقة التاريخية، وهي رابطة غير قابلة للزوال، فقد راهن على المسح التدريجي للمرجع الخارجي، وهذا يطرح مرة أخرى مشكلة قراءة العمل. فهل الغرض من تحويل بوفيه إلى فينيول جعله بطلاً لإحدى الروايات التي أراد بلزاك أن يخصّ بها المسرح ولم يتوفر له الوقت لكتابتها.

(٣) كان الأمبيغو- كوميك يقع في جادة «التامبل» في رقمي ٧٤ و ٧٦ ويعرض تمثيليات ميلودراما وباليه وكوميديا واحترقت صالته ليلة ١٣-١٤ تموز ١٨٢٧، وكان الغيته في رقم ٦٨-٧٠ من الجادة نفسها، ويعرض الميلودراما رغم اسمه، وإلى هذا المسرح قدم بلزاك في العام ١٨٢٢ مسرحيته «الأسود Nègre فرفضت، أما قاعة باب سان مارتن (١٨٠٣ كراسي) ففي ١٦-١٨ من الجادة وتعرض ميلودراما، وباليه وكوميديا وفودفيل، ويشار خاصة إلى جمال زخرفتها. وكان قسم من زبائن هذه المسارح ينتمي إلى الطبقة الشعبية، أما مسرح الفودفيل فكان في رقم ١٤-١٦ شارع سان أونوره.

وبإشارة من لوستو فتح حاجب الصالة بمفتاح صغير باباً خفيّاً في الجدار الضخم، وتبع لوسيان صديقه، ومرّ فجأة من الممر المضاء إلى نفق معتم يستخدم في جميع المسارح تقريباً قناة اتصال بين الصالة والدهاليز، وبعد صعود عدة درجات رطبة، أبصر شاعر المقاطعة المشهد الأكثر غرابة: تضيق الدعامات الحاملة، وارتفاع السقف، والسلالم ذات المسارج، وزخرفة المناظر الرهيبة عن قرب، والممثلين كأنّهم تماثيل من جص، وثيابهم الغريبة المعدّة من أقمشة خشنة، والعمال بستراتهم المزينة، والحبال المعلّقة، ووكيل المسرح وهو يتجوّل وقبعته على رأسه، والممثلين الثانويين جلوساً ينتظرون، وقماشة المسرح الخلفية المعلقة، ورجال المطافىء. كلّ هذه المجموعة المضحكة، الوسخة، المريعة، الصارخة، لاوجه للشبه بينها وبين ماسبق للوسيان رؤيته وهو على مقعده في المسرح مما زاد من دهشته.

كانت تهيأ للعرض مشجاة كبيرة بعنوان **برترام** وهي مقتبسة عن مأساة لماتورين، قدرها كلّ التقدير نوديه، واللورد بايرون، ووالتر سكوت، لكنها لم تلق أي نجاح في باريس[1].

قال إتيين للوسيان: «لا تترك ذراعي إن أردت ألا تقع في حفرة خفية، أو تتلقى مثقاباً على رأسك، أو تقلب قصراً، أو تعلق في كوخ» ثم سأل إحدى الممثلات وكانت تتهيأ للدخول إلى الخشبة وهي تصغي إلى الممثلين: «أما تزال فلورين في مقصورتها، ياجوهرتي؟»

- نعم ياحبّي، أشكرك على كل ماقلته عني، وزدت لطفاً بإدخال فلورين إلى هذا المكان.

---

(١) **برترام أو القرصان**: مُثلت في ٢٦ تشرين ثاني ١٨٢٢، وبعكس ماذكره بلزاك، يبدو أن هذه المسرحية قد لاقت نجاحاً كبيراً إذ أنها عرضت ٦٨ مرة، وقد خصّتها **صحيفة المسارح** بتاريخ ٢٨ تشرين الثاني بالتقريظ، وقد ترجمت هذه المأساة لماتورين من قبل نوديه وتايلور، وبالرغم من أن المشجاة من ثلاثة فصول موقعة من ريمون، يبدو أن نوديه عضو لجنة القراءة في البانوراماساهم في تكييف النص.

- هيا لاتتأخري عن دورك المؤثّر ياصغيرتي، ردّدي عليّ كلمات أسرع، ارفع اليدين، توقف أيّها التعس[1]! فهي تستحق غلة ألفي فرنك.

انتاب الذهول لوسيان وهو يرى الممثلة تقف كما في المشهد وتصرخ «توقف أيّها التعس» بطريقة دبّت في نفسه الرعب، إذ بدت وكأنها امرأة أخرى.

قال للوستو: هوذا إذن المسرح.

- إنّه كمكتبة رواق الخشب، وكالصحيفة بالنسبة للأدب، مطبخ حقيقي.

في هذه اللحظة ظهر ناتان فسأله لوستو: ماذا جئت تفعل هنا؟

ردّ ناتان: إنني أعدُّ أخبار المسارح الصغيرة لصحيفة الغازيت[2]، بانتظار ماهو أفضل.

قال له لوستو: تعال لتسهر معنا هذا المساء، وبالمقابل ضمِّن أخبارك تقريظاً بفلورين.

أجاب ناتان: إنني في خدمتك.

- هل تعلم؟ إنها تسكن الآن في شارع بوندي.

قالت الممثلة وهي تدخل إلى الدهليز من خشبة المسرح: «من هو هذا الشاب الوسيم الذي بصحبتك ياعزيزي لوستو؟

- آه! ياعزيزتي، إنه شاعر كبير، رجل سيغدو شهيراً، وبما أنكما ستكونان على مائدة واحدة هذا المساء، ياسيد ناتان، فاسمح لي أن أقدم لك السيد لوسيان دي روبمبره.

قال راوول للوسيان: أقدّم لك راوول ناتان بالوسيان.

قال لوسيان مخاطباً ناتان: يقيناً ياسيدي، قرأت كتابك منذ يومين، ولم أتصور أنك بعد هذا المؤلف وبعد ديوان شعرك ستكون على هذا القدر من التواضع أمام صحفي.

---

(١) استشهاد من الذاكرة يبرهن على أن بلزاك قد حضر عرض البانوراما. فهناك كاهن، ناسك، يصرخ في مسرحية برترام أو القرصان: «توقفي أيّها التعسة!» (III-١١) كما أن التعسة تصرخ في مكان آخر: «توقف» (II- ١٢).

(٢) هي غازيت دي فرانس صحيفة يومية ملكية.

أجاب ناتان وقد افترّت شفتاه بابتسامة خفيفة: سأنتظر صدور كتابك الأوّل.

هتف فرنو وهو يرى هذا الثلاثي: عجباً! عجبا! المتطرفون الملكيون والليبراليون[١] يتصافحون بحرارة.

قال ناتان: إنني أدين بآراء صحيفتي في الصباح فقط، وأنا أفكر كما أشاء مساءً، ففي الليل يكون جميع المحررين رماديين.

قال فليسيان موجهاً كلامه للوستو: إتيين، كان فينو معي وهو يبحث عنك، وهاهو...

قال فينو: آه! ماهذا؟ ألا يوجد مكان؟

قالت الممثلة والبشر يطفح من أساريرها: لك مكان دائم في قلوبنا.

- عجباً ياصغيرتي فلورفيل[٢]، لقد شفيت من غرامك إذن، قيل لنا أن أميراً روسيّاً اختطفك.

قالت فلورفيل، وهي الممثلة التي صاحت من قبل: «توقف، أيّها التعس»: وهل تخطف النساء الآن؟ لقد بقينا عشرة أيام في سان مانديه، وتركها أميري لتسديد تعويض للإدارة عن غيابي، وتابعت فلورفيل ضاحكة: إنّ المدير يتضرّع إلى الله ليرسل إلى هنا كثيراً من الأمراء الروس فتعويضاتهم تشكل إيرادات دون نفقات.

---

(١) ذكر في المخطوطة أن لوستو كان يتعاون مع مجلة «المرأة، مرآة **العروض المسرحية**» وهي مجلة معارضة لحكومات الملكية الثانية وظهرت في شباط ١٨٢١ وبقيت حتى حزيران ١٨٢٣، وكان المحررون الرئيسيون في هذه الصحيفة الليبرالية الخالصة: جوي وآرنو، وكوشوا- لمير، كما كتب فيها لاتوش. هل في هذا تماثل جديد بين لوستو ولاتوش؟

(٢) فلورفيل ممثلة حقيقية وقد بدأت في فودڤيلالعام ١٨١٩، ودخلت في البانوراما عند افتتاحها، وبعكس تبديل المواقع بين بوفيه وفينيول، هوذا ممثلة حقيقية تأخذ دوراً وهمياً. في المخطوطة يذكر بلزاك كورالي. ومثل هذا التحول مريب خاصة- وهو مثالي في التباسه؟- تأريخية تلك الفترة..

قال فينو لقروية جميلة تستمع إليهم : وأنت ياصغيرتي، من وضع أقراط الألماس فِي أذنيك، أهو أحد الأمراء الهنود؟

- كلا ولكنه تاجر طلاء أحذية، انكليزي جوّاب! ليس لي حظ كفلورين وكورالي في التعرف على تجار أثرياء ملوا عشرة زوجاتهم : أيكنّ سعيدات؟

- هتف لوستو : ستتأخرين عن دورك يافلورفيل، فطلاء صديقتك أضاع صوابك.

- قال لها ناتان : إن أردت النجاح عليك أن تتخلي عن الصياح كسعلاة : «لقد نجا!» وأن تدخلي دون تصنع إلى أن تصلي إلى مقدمة المسرح لتقولي بصوت يخرج من عمقَ صدرك :

«لقد أنقذ» كما قالت باستا في دور تانكرد[1] : «أوه! ياوطن» ثم أضاف وهو يدفعها برفق إلى الأمام : هيّا اذهبي الآن.

قال فرنو : أضاعت الفرصة السانحة لها، وفقدت تأثيرها.

قال لوستو، والتصفيق الحادّ ينطلق من القاعة : ماذا فعلت؟

قالت الممثلة ضحية تاجر طلاء الأحذية : كشفت للنظارة عن أعلى صدرها، وهو المصدر الرئيس لفتنتها، وهي تجثو على ركبتيها.

قال فينو لإتيين : تخلّى لنا المدير عن مقصورته، ستجدني فيها.

قاد لوستو آنذاك لوسيان، في القسم الخلفي من المسرح، عبر متاهة الدهاليز والممرات، والسلالم حتى الطابق الثالث إلى غرفة صغيرة وصلا إليها يتبعهما ناتان وفليسيان فرنو.

(١) كتب ستندال في «حياة روسيني» (الأشخاص الذين شاهدوا السيدة باستا في دور تانكرد، وحدهم يعرفون أن ترنيمة : «**إيه ياوطن، أيهّا الوطن العقوق**» يمكن أن تكون أكثر سمواً وأكثر جاذبية من اللحن ذاته) وفي برترام أو القرصان، تصرخ إيموجين (II، ١٣) «ياإلهي أشكرك، سينجو بحياته» (ويستمر النقاش) كما يرد في ذات المشهد : «ألديني! آه سأنقذ حياته على الأقل».

قالت فلورين مرحبة: «طاب يومكم أو طاب مساؤكم ياسادة». ثم التفتت موجهة كلامها لرجل بدين قصير القامة يقف في زاوية: «هؤلاء السادة هم محكّمو أقداري، فمستقبلي بين أيديهم، لكنّهم على ماأتوقع، لن يفارقوا مائدتنا هذه الليلة إلا غدا صباحاً بعد أن يتعتعهم السكر، هذا إذا لم ينس السيد لوستو شيئاً.

قال لها إتيين: كيف أنسى! سيكون على المائدة بلونده من صحيفة **المناقشات**، بلونده الحقيقي، بلونده بذاته، أخيراً بلونده.

قالت فلورين وهي تثب إلى عنق لوستو: اوه! ياعزيزي لوستو يجب أن أقبلك.

ظهر الجدّ على ملامح ماتيفا، الرجل البدين، أمام هذا التعبير العاطفي؛ فقد كانت فلورين في سن السادسة عشرة فتاة نحيلة يتفتح جمالها كبرعم زهر ممتلىء وعوداً، ولايمكن أن تعجب إلا الفنانين الذين يفضلون الرسوم الأولية على اللوحات، وكانت في قسمات تلك الممثلة الجذابة كلّ النعومة المميزة لها، وهي أشبه بمينيون غوته؛ وفكر ماتيفا تاجر العقاقير الغني في شارع اللومبارديين[1] أن ممثلة الجادات الصغيرة ستكون قليلة النفقات، لكن فلورين كلّفته خلال أحد عشر شهراً ستين ألف فرنك؛ ومامن شيء بدا أكثر غرابة للوسيان من هذا التاجر الشريف المستقيم المتربّع كتمثال ترمينوس(*) في زاوية هذا المكان الذي لاتتجاوز مساحته عشرة أقدام مربّعة، وقد غطيت جدرانه بورق تزخرفه صورة بسيشه(**)، ووضع فيه ديوان وكرسيّان، وسجّادة، ومدفأة، وخزانة حائط.

---

(١) ذكرت لورسورفيل في قصّها سيرة بلزاك انبهار أخيها باكتشاف هذا الاسم الحقيقي لشخص في الماريه: «وجدت ماتيفا في شارع اللؤلؤة.. أنا أرى الآن بطلي ماتيفا: إنّ له وجه قطّ شاحب، رغم بعض بدانة فيه» كما أن الروائي غوزلان نطق بعبارة مماثلة بخصوص ز. ماركاس، ومثله ألبيريك سكوندفي في حديثه عن إفانجليستا:

* ترمينوس: ربّ لاتيني يمثل بتمثال نصفي ينتهي بغمد (المترجم).

** بسيشه: تجسيد للروح على صورة فتاة جميلة لها جناحا فراشة (المترجم).

وكانت وصيفة تساعد الممثلة في ارتداء ملابس تظهرها سيدة اسبانية، فالتمثيلية معقّدة ولفلورين دور كونتيسة فيها[1].

قال ناتان لفيليسيان: ستغدو هذه المخلوقة خلال خمس سنوات أجمل ممثلة في باريس.

قالت فلورين مخاطبة الصحفيين الثلاثة: آه! اعتنوا بي جيداً في كتاباتكم غداً. فأولاً سأحتفظ بالعربات هذه الليلة، لأنكم لن تغادروا منزلي إلا وأنتم سكارى كما في ثلاثاء المرافع؛ ففي قبو ماتيفا خمور معتّقة، أوه! خمور جديرة بلويس الثامن عشر، وقد ضمّ طبّاخ وزير بروسية إلى خدمته.

قال ناتان: إننا توقعنا، عند رؤية السيّد، منجزات ضخمة.

أجابت فلورين: وهو يعلم أنه سيستضيف الرجال الأكثر أهمية في باريس.

كان ماتيفا ينظر إلى لوسيان بعين قلقة فوسامة هذا الشاب الكبيرة أثارت غيرته.

قالت فلورين وهي تشير إلى لوسيان: «ولكن هوذا شخص لاأعرفه، من أحضر أبولون بلفيدير من فلورنسة إلى هنا؟ إن السيد لطيف كأنه صورة من لوحة لجيروده[2].

قال لوستو: آنستي، السيّد شاعر من الأقاليم، فاتني أن أقدمه لك فجمالك هذا المساء يشلّ التفكير بالمجاملات المتأدّبة العابرة.

سألت فلورين، أهو غنيٌّ لينصرف إلى الشعر؟

أجاب لوسيان: فقير كأيوب.

---

(١) في طبعة سابقة ذكر بلزاك «في دور ابنة القاضي» وهو استعادة من الذاكرة لبطلة مسرحية قاضي زالاميا (١٦٣٦) للشاعر الاسباني كالدرون بركة (١٦٠٠-١٦٨١).

(٢) إنه آنديميون: أحد أبطال الميتولوجية الإغريقية وقد حافظ له زيوس على وسامته حتى الأزل. وهو يلعب دوراً كبيراً في وصف بلزاك التصويري كما بيّن أوليفيه بونار في (فن الرسم في الخلق البلزاكي).

قالت الممثلة: للشعر اغراؤه علينا جميعاً.

في تلك اللحظة دخل دو برويل، مؤلّف المسرحية، وهو شاب قصير القامة، نحيف الجسم، يسترنحوله بمعطف، ويشغل عدا ممارسة التأليف المسرحي وظيفة إدارية[1]، كما أنه ملاّك، ويقوم بأعمال الصرافة وقال: «ياعزيزتي فلورين، أنت تحفظين جيداً دورك، أليس كذلك؟لاأريد أن تخونك الذاكرة، انتبهي الى مشهد الفصل الثاني، فهو لاذع ويحتاج إلى الدقة، أكّدي على نبرة جازمة في عبارة: **لاأحبّك** كما اتفقنا.

قال ماتيفا لفلورين: لماذا تأخذين أدواراً تقتضي النطق بمثل هذه العبارات؟

استقبل جميع الحاضرين ملاحظة تاجر العقاقير بالضحك، بينما صاحت به فلورين: «وماشأنك بذلك أيّها الحيوان- البهيم، مادام خطابي غير موجّه إليك. والتفتت إلى المؤلفين مضيفة: أوه! إنه يسعدني بحماقاته، قسماً بشرفي كفتاة إنني أدفع غالياً لقاء غباوته حتى لأخشى أن يدمرني.

أجاب تاجر العقاقير: ولكنك تنظرين إليهَ عندما ترددين هذه العبارة وأنت تراجعين دورك، وهذا مايخيفني.

أجابت: حسن، سأنظر إلى عزيزي لوستو من الآن فصاعداً.

قُرع جرس في الممرات، فقالت فلورين: اذهبوا جميعاً، واتركوني أراجع دوري وأحاول فهمه.

كان لوسيان ولوستو آخر الراحلين، وقبّل لوستو كتفي فلورين، وسمع لوسيان الممثلة تهمس له: يستحيل هذا المساء، فهذا البهيم الأخرق ذكر لزوجته أنّه سيتغيب في الريف.

---

(١)في الواقع كان دو برويل معاون رئيس مكتب في وزارة المالية وهو يمثل النوع «مستخدم- أديب» من صنف «مؤلف مسرحيات خفيفة» وفق التصنيف الذي اقترحه بلزاك في فيزيولوجية المستخدم، وقد خصَّصت السيدة منينيجه في دراستها عن رواية« **المستخدمين** » فصلاً ذكرت فيه عدم جدوى البحث عن نموذج حقيقي وحيد في مجموعة مؤلّفي المسرحيات الخفيفية البيروقراطيين المعاصرين لبلزاك.

قال إتيين للوستو: ألا تجدها لطيفة؟

صاح لوسيان: ولكن ياعزيزي، بوجود هذا الماتيفا..

قاطعه لوستو: إيه! ياولدي، مازلت جاهلاً بالحياة الباريسية. هناك بعض الضرورات التي نضطر لقبولها! فكأنك قد أحببت امرأة متزوّجة. يجب تحكيم العقل».

دخل إتيين ولوسيان إلى مقصورة أمامية في القاعة حيث وجدا مدير المسرح وفينو، وكان ماتيفا في مقصورة مقابلة مع أحد أصدقائه المسمى كاموزو وهو تاجر حرائر ينفق على كورالي، يرافقه حموه[1] العجوز القصير القامة الوقور. كان هؤلاء البورجوازيون الثلاثة ينظفون عدسات مناظيرهم وهم يرقبون النظارة الذين يقلقونهم بحركاتهم؛ فمن المقاصير تطلّ مجموعات غريبة من مشاهدي العرض المسرحي الأوّل: صحفيون مع خليلاتهم، ونساء برفقة العشاق الذين ينفقون عليهن، وشيوخ ألفوا المسارح التي تحلو لهم في عروضها الأولى، وأشخاص من نخبة المجتمع يحبون هذه الأنواع من المشاهد المثيرة. في مقصورة أولى وجد المدير العام مع عائلته وهو من وظف دوبرويل في الإدارة المالية؛ حيث يقبض معدّ المسرحيات الخفيفة رواتب وظيفة دون عمل. وكان لوسيان منذ مغادرته المطعم بعد وجبة العشاء ومرافقته للوستو يتنقل من عجب إلى أعجب؛ فالحياة الأدبية التي بدت في عينيه منذ شهرين مثال الشحّ والعري؛ ثم مثال الرهبة في غرفة لوستو، والحقارة والغطرسة معاً في رواقي الخشب؛ تجري الآن في أبّهات غريبة وتحت مظاهر فريدة. هذا الخليط من اليُسر والعُسر، والتسوية مع الضمير، والمزايا والدنايا، والمُتع والخيبات، والكِبَر والخضوع، جعله مخبولاً كرجل يشهد عرضاً مسرحياً خارقاً.

---

(١)في طبعة فورن تظهر شخصية كاردو مع شخصيته كاموزو، وبدأ ظهور الروائي لدى بلزاك مع «**بداية في الحياة**» (١٨٤٢) لذلك لاتظهر شخصيته إلا متأخرة **في رجل كبير من المقاطعات**، وفي **المتصيدة وسيزار بيروتو**.

قال فينو لمدير المسرح: هل تعتقد أن مسرحية دوبرويل ستدرّ عليك المال؟

- إنّها ذات حبكة معقّدة، أراد فيها دوبرويل أن يسير على خطا بومارشيه[1]؛ وجمهور الجادات لايحبّ هذا النوع، فهو يريد أن يُحشى بالانفعالات، فالفكر غير مقدّر هنا؛ وكل شيء يتوقف، هذا المساء على فلورين وكورالي وروعة ظرفهما وجمالهما، فهاتان المخلوقتان بثيابهما القصيرة سترقصان رقصة اسبانية يمكن أن تنتزع إعجاب الجماهير؛ وهذا العرض لعبة ورق، فإن قرّظته الصحف في حال نجاحه، ببعض مقالات مسليّة، أمكنني أن أكسب نحو ثلاثمئة ألف فرنك.

- دع عنك، أرى أنّه لن يكون إلا نجاحاً اعتبارياً بين النخبة دون الجمهور.

- هناك مؤامرة دبّرتها المسارح الثلاثة المجاورة لنا، وسيتم بموجبها القيام ببعض صفير الاستهجان، لكنني اتخذت إجراءً لإحباط هذه النوايا السيئة، ودفعت علاوة للمأجورين المرسلين لإفشال العرض، وسيصفرون برعونة في مشاهد تحظى بالاستحسان العام. وهاهم ثلاثة تجّار أرادوا أن يضمنوا النجاح لكورالي وفلورين، فابتاع كل منهم مئة بطاقة وزّعها على معارف قادرين أن يُلقوا بالمتآمرين خارج القاعة، لكن المتآمرين وقد قبضوا الأجر مضاعفاً لن يجابهوا مشجعي المسرحية وسينسحبون معترفين بخيبتهم، وهذا مايسرُّ جماهير الحاضرين.

هتف فينو: ثلاثمئة بطاقة، أيّ أشخاص أعزّة.

- نعم، مع ممثلتين أُخريين جميلتين تتمتعان بمثل حماية فلورين وكورالي الغنية، يمكنني التخلّص من مأزق حرج.

منذ ساعتين، كان كل شيء، تحت سمع لوسيان، ينحلّ بالمال. ففي المسرح، كما في المكتبة، وفي المكتبة كما في الصحيفة، ليس الفن أو المجد هما

(١) بومارشيه (١٧٣٢-١٧٩٩) أديب ومسرحي فرنسي، مؤلّف حلاق إشبيلية، وزواج فيغارو (المترجم).

القضية، وكانت ضربات رقّاص المال الكبير المتكررة تقرع مدوّمة في رأسه وقلبه؛ ولم يستطع والجوقة تعزف لحن افتتاح العرض إلا أن يقارن تصفيق النظارة وصفير مثيري الفتنة مع مشاهد الشعر الهادئة والنقية التي استمتع بها في مطبعة دافيد وهو يرنو معه إلى عجائب الفن وانتصارات العبقرية النبيلة، ورفيف أجنحة المجد البيضاء؛ وترقرقت دمعة في عين الشاعر وهو يتذكر أمسيات الندوة.

سأله إتيين لوستو: مابك؟

قال: أرى الشعر في الوحل.

- إيه ياعزيزي، مازلت غارقاً في الأوهام.

- لكن هل يجب إذن التصاغر وتحمّل هذين الفظين ماتيفا وكاموزو، كما تتحمل الممثلات الصحفيين، وكما نتحمل نحن الكتبيين.

همس إتيين في أذنه وهو يشير إلى فينو: ياعزيزي، أترى هذا الفتى الثقيل، عديم الفكر والموهبة، إنّما الطمّاع، الساعي إلى المال بأي ثمن، الماهر في تحقيق الصفقات، الذي اقتنص مني في مكتب دُوريا أربعين بالمئة، مبدياً التكرم عليّ بمنّة؟.. إنّه يملك أساليب تجعل عِدَّة عبقريات ناشئة تجثو أمامه لقاء مئة فرنك[1].

---

(١) جاء في «**بهاء وتعاسة الغانيات**» عن فينو أيضاً: «إنّه يخفي إرادة عنيفة تحت مظاهر ثقيلة، ومخدّرات حماقة وقحة ممسوحة بلذعة فكاهة كما يُمسح خبز المناورة بالثوم» وهذه الصورة تكمل ماورد في «**أوهام ضائعة**» مما دفع جان بوميه أمام «شبيه توركاره» إلى التفكير بشكل لايقاوم ببولوز مدير **مجلة العالمين**. لكن بعض التلميح الممسوح دفع آ. آدم إلى اعتبار ڤيرون النموذج الحقيقي. إنّما يمكن القول إن بلزاك عمد إلى الغموض ليتجنب أي تحديد واقعي. ومن جهة أخرى فإن فينو الذي اختار أن يستغل موهبة الآخرين بعد أن أحسّ بأنّه خال من كل موهبة، لايبرر مقارنته بلبواتيفن سان آلم الذي هوجم بعنف من قبل ناقدي بلزاك رغم أنه رجل ذو موهبة وخيال، وقد وُلد صحفياً، ولم يظهر كرجل أعمال وصولي. كما يمكن التفكير بهوراس ريسون لكن ليس لدينا معلومات محدّدة عن هذا الرجل، والتشابه الاسمي الذي كشف عنه و. كونر بين أوجين فينو في رواية **بيت نوسنجن**، وأوجين غينو المتعاون مع مجلة **باريس والقرن** غير مقنع، خاصة وأنّه يتوافق مع اقتران اضطراري بين آندوش فينو وآندوش جينو (دوق دابرنتس) ولايتعدى التحوّل الصوتي ويبعد=

انقبض قلب لوسيان، وتذكر الرسم الموضوع على غطاء منضدة التحرير وتحته عبارة:

«فينو، أين مئة فرنكي؟» وهتف: «أفضل الموت على أن أكون أحدهم. أجابه لوستو: بل فضّل الحياة».

في اللحظة التي بدأت فيها ستارة المسرح ترتفع خرج المدير إلى الدهاليز ليعطي بعض التوجيهات والتفت فينو إلى ايتين يقول: «ياعزيزي، سأحصل على ثلث ملكية الصحيفة الأسبوعية، وقد فاوضت على شرط أن أكون المدير ورئيس التحرير لقاء ثلاثين ألف فرنك نقداً. إنه مشروع رائع، وقد أنبأني بلونده أن قوانين مقيّدة لإعطاء امتيازات جديدة تُحضّر الآن، مما يشير إلى أن الصحف المرخصة حالياً ستبقى وحدها[1] وخلال ستة أشهر يجب دفع مليون لشراء صحيفة قائمة. إذن فقد وفّرت على نفسي أكثر من عشرة آلاف فرنك. انتبه إليّ جيداً: إذا تمكنت أن تقنع ماتيفا بشراء نصف حصتي أي سُدسَ المجلة بمبلغ ثلاثين ألف فرنك، فسأكلفك برئاسة تحرير صحيفتي الصغرى لقاء راتب مئتين وخمسين فرنكاً في الشهر، وستكون الناطق باسمي، فأنا أريد دائماً إدارة التحرير

=كل تحديد. أما التداعي التقليدي بين آميدي بيشو وآندوش فينو فأكثر مكانة، ويمكن كما ذكر ب. غويون في طبعة «**غوديسار الشهير**» أن يكون هذا الثنائي فينو - بيشو قد دخل أو اقتحم بشكل مغفل نتاج بلزاك منذ العام ١٨٣٣: «هوذا فتى ضخم [مما يمكن من المقارنة مع فتى ثقيل في **أوهام ضائعة**] يسرق كل مايقع تحت يده منذ عشرين عاماً، ولايفعل شيئاً غير تلويث مايلمسه» وفي ذات المدّة دخل بيشو في **حكايات ماجنة** (في **الديك بسلطة محلية** خاصة) كما أن كلمة **بيشوتيات** تذكّر **بفينوتيات** التي استخدمها بلزاك عنواناً للفصل ٣٧ من **رجل كبير** (في الطبعة الأصلية)، وباختصار فإن بلزاك قد عبّر بالتأكيد عن حقده على مدير **مجلة العالمين** في وصفه لفينو، لكنه تعمّد أن يضحي بماضي نموذجه كاتباً، وبأهمية نشاطه مترجماً عن الانكليزية، وبدوره الأدبي على رأس إدارة مجلتين من المرتبة الأولى الخ.. فالرجل الوصولي المحدود والفظ الذي خلقه يشكل نمطاً يقود إلى بيشو بل يخلق الحاجة للبحث عن نماذج أخرى. كما أن بعض الايضاحات المصوّرة تدفع إلى ذكر ڤيكتور بوهن، ولنُضف أيضاً إلى أن ب. باربريس (في مؤلّف بلزاك ومرض العصر) رسم نقلاً عن بارانت ورُموزا صورةَ لجاك كوست **مدير مجلة الزمن** والبائع التصفوي **للويّحات الشاملة** خلال الاستيفاء الحاصل في العام ١٨٢٤، وهي صورة لها مظهر عائلي لايُدحض مع فينو.

(١) كانت هذه القوانين في زمن أحداث الرواية قد أعلنت رسمياً، وكان أهمها ماأعقب مقتل الدوق دي بري، فقد أعاد الرقابة ونظام الإذن المسبق بالنشر في الدوريات السياسية كلياً أو جزئياً (٣١ آذار ١٨٢٠) ثم شدّدت هذه الإجراءات بقانون ٢٦ تموز ١٨٢١ الذي عممها على جميع الصحف الدورية.

والمحافظة على جميع مصالحي إنّما في الخفاء، ستسدّد لك عن كلّ عمود ينشر في الصحيفة خمسة فرنكات، ولن تدفع عن كل عمود للمحرّر إلا ثلاثة وبذلك تكسب خمسة عشر فرنكاً يومياً، عدا عما تجنيه من التحرير المجاني[1]، وبالتالي ستجني على الأقل أربعمئة وخمسين فرنكاً إضافياً في الشهر؛ لكنني أريد أن أبقى السيد المطلق في مهاجمة الأشخاص والقضايا في صحيفتي أو الدفاع عنهم كما يحلو لي؛ لكنني أترك لك حرية التعبير عن أحقادك أو صداقاتك التي لاتتعارض مع سياستي. ربّما سأغدو موالياً للوزارة أو متطرفاً ملكياً، فأنا لاأعلم حتى الآن، لكنني أريد أن أحتفظ بعلاقاتي الليبرالية لحين الحاجة. أصرح لك بكل شيء لأنني أراك ولداً طيباً؛ وربّما عهدت إليك بالتقارير التي أعدها في الصحيفة بنفسي عن مداولات المجلس التشريعي إذ أنني لن أتمكن على الأرجح، من الاستمرار في إعدادها[2].

هكذا ماعليك إلا استغلال فلورين في هذه الوساطة التي تعود عليك بالمنفعة الشخصية؛ أقنعها بأن تضغط جيداً على تاجر العقاقير: فليس أمامي إلاثمانية وأربعون ساعة للدفع أو التراجع. وقد باع دوريا الثلث الثاني لصاحب مطبعته وتاجر الورق بثلاثين ألف فرنك، وبقي له الثلث الأخير مجاناً بل وربح عشرة آلاف فرنك إذ أنه اشترى الصحيفة بخمسين ألف فرنك لكن حق الامتياز سيباع للبلاط بمئتي ألف فرنك، إن كان له الحسّ السليم، كما يزعم، في إخماد الصحف[3].

هتف لوستو: يالك من محظوظ.

---

(١) كان الكتبيون يلحقون «بخدماتهم الصحفية» **تحاليل**، هي أشبه باعلانات مقنّعة يكتبها على الأغلب مؤلفو الكتب أنفسهم. وكانت بعض الصحف الصغيرة التي تعاني من قلة وجود المراجعين للكتب توافق على نشرها في قسم التحرير.

(٢) كانت تقارير مداولات المجلس التشريعي اختصاصاً يعهد به غالباً في الصحف اليومية الكبرى إلى محررين بالأجرة «دون صفة سياسية» تتعلق بالمناسبة. كذلك فإن القضايا التافهة تصرّف من قبل صحفيين لاعلاقة لهم بالقسم السياسي. وفي العام ١٨٢٤ كان هوراس ريسون- مستغل بلزاك يُعد تقارير المجلس في صحيفة «**الدستوري**».

(٣) هذا هو الحساب الذي أجراه جاك كوست، الذي اشترت منه الحكومة بمبلغ ٢٠٠٠٠٠ ف بتاريخ كانون ثاني ١٨٢٤ صحيفة «**اللويحات الشاملة**».

- لو أنك عانيت من أيام البؤس التي عرفتها لما نطقت بهذه الكلمة، وأنا حتى هذا الوقت أقاسي تعاسة لابُرء لي منها، فأبي مايزال بائع قبّعات في شارع كوك، والثورة وحدها يمكن أن ترفعني، وبما أن الاضطراب الاجتماعي غير متوقع حالياً، فيجب أن أحظى بالملايين، ولاأعلم أي الأمرين أسهل، وقد يكون الثورة، ولو أنني أحمل اسم صاحبك لكنت في وضع حسن. صه، هاهو المدير قادم. وداعاً. قال فينو وهو ينهض؛ إنني ذاهب الى الأوبرا، وقد اضطر الى خوض مبارزة غداً. فقد نشرت تحت توقيع «ف» مقالاً صاعقاً ضد راقصتين تبين أن لكل منهما صاحباً من الجنرالات؛ سأهاجم، وبشكل عنيف الأوبرا.

قال المدير: آه! ماذا؟

أجاب فينو: نعم سأهاجم كلّ من يشحّ عليّ، فهذا يلغي تخصيصي بمقصورة دائمة، وذاك يرفض الاشتراك بخمسين نسخة من صحيفتي، وقد وجهت إنذاراً للأوبرا فأنا أريد الآن أن تشترك بمئة عدد، وأن يخصص لي أربعة مقاصير شهرياً فإن قبلت إدارتها سيرتفع عدد المشتركين في الصحيفة إلى ثمانمئة، ولدي الوسائل لزيادة هذا العدد حالياً إلى الألف، مع زيادة أخرى في شهر كانون ثاني أصل فيها إلى ألف ومئتين:

قال المدير: سينتهي بك الأمر إلى إفلاسنا.

- هل أصابك السقم باشتراكاتك العشرة، لقد كافأتك بمقالين جيّدين في **الدستوري**.

- صاح المدير: أنا لا أشكو منك.

استأنف فينو: موعدنا غداً مساءً يالوستو، ستعطيني الجواب في المسرح الفرنسي حيث سيجري عرض أولّ، وبما أنني لاأستطيع إعداد مقال عنه فستأخذ مقصورة صحيفتي، وأنا أعطيك الأفضلية، فقد أرهقت نفسك من أجلي، وأنا معترف بجميلك، وقد عرض علي فليسيان فرنو حسم الرواتب لمدة سنة، ومبلغ عشرين ألف فرنك لقاء ملكية ثلث الصحيفة، لكنني أريد أن أبقى السيّد المطلق، وداعاً.

قال لوسيان للوستو : إن فينو اسم على مسمى .

أجاب لوسيان دون أن يبالي إن كان الرجل الماكر يسمعه وهو يغلق الباب خلفه : «إنه مشنوق يشقّ طريقه .

قال المدير : هو؟ سيغدو مليونيراً، وسيتمتع باحترام عام، وسيكون له على الأرجح صداقات عديدة» .

قال لوسيان : ياإلهي، أيّ كهف! ثم أشار إلى فلورين التي كانت تغمز لهم بعينها على خشبة المسرح واستأنف : هل ستدفع هذه الفتاة العذبة لتقوم بمثل هذه الوساطة؟

أجاب لوستو : وستنجح فأنت لاتعلم مدى تضحية هذه المخلوقات العزيزة ونباهتهن . قال المدير مؤيداً رأي لوستو : إنّهن يكفّرن عن جميع خطاياهن، ويمسحن كل أخطائهن بإخلاصهن في حب خالد شامل عندما يحببن، فعاطفة الممثلة جمال يزداد تألقاً حتى ليحدث تبايناً عنيفاً مع محيطها .

علّق لوستو بقوله : إنّها جوهرة في دِمنة موحلة وهي جديرة بالتاج الأكثر شموخاً .

تابع المدير : لكنني أرى كورالي شاردة، ويبدو أن صديقك **فتن** كورالي دون أن يدري، فهو يفقدها جميع تأثيراتها، وهي ساهية كلياً عن دورها، وقد غفلت مرتين عن همسات الملقن . ثم التفت إلى لوسيان قائلاً : أرجوك ياسيدي، تحوّل إلى هذه الزاوية، وإن كانت كورالي مغرمة بك فسأقول لها إنك قد غادرت المسرح .

هتف لوستو : إيه! كلا، قل لها إن السيد سيكون على مائدتنا هذه الليلة، ويمكن أن تفعل به ماتشاء، وعندها ستنصرف إلى دورها بإتقان الآنسة مارس[(١)]» .

---

(١) الآنسة مارس ؛ آن بوتيه (١٧٧٩ - ١٨٤٧) ممثلة فرنسية مشهورة، مثلت أدواراً هامة في مسرحيات رومنطيقية (المترجم) .

انصرف المدير والتفت لوسيان إلى اتيين قائلاً: ألا يحرجك أن تدفع فلورين لتطلب من ذلك التاجر ثلاثين ألف فرنك لقاء نصف شيء اشتراه فينو بهذه القيمة؟»

لم يترك لوستو للوسيان الفرصة لإنهاء محاكمته بل قاطعه بقوله: من أيّ بلاد جئت ياولدي العزيز، إنّ هذا التاجر ليس إنساناً بل خزنة مال يهبها الغرام.

- لكن ألا تحس بتبكيت الضمير؟

- الضمير، ياعزيزي، هو إحدى هذه الهراوات التي يتناولها المرء لينهال فيها على جاره، لكنه لايضرب بها أبداًنفسه. آه! ماهذا؟ أي شيطان حلّ بك؟ تهيّيء لك المصادفة معجزة انتظرتها منذ سنتين، فتغفل عنها بمناقشة الوسائل؟ مابك؟ وأنت الذي أخال فيك الذكاء الموجّه إلى حريّة الأفكار التي يتميز بها المغامرون المثقفون في هذا العالم الذي نعيش فيه، تتخبط في وساوس راهبة تقيّة تلوم نفسها لأنّها أكلت بيضتها بشهيّة؟.. إن تنجح فلورين أصبح رئيس تحرير براتب مئتين وخمسين فرنكاً شهرياً، وأنصرف إلى المسارح الكبرى. وأترك لفرنو مسارح الفودفيل. وتضع رجلك في السرج لتحل مكاني في جميع مسارح الجادات[1]. وستتقاضى آنذاك ثلاثة فرنكات عن كل عمود، وتكتب عموداً في اليوم، وثلاثين في الشهر تعود عليك بتسعين فرنكاً، وتتلقى كتباً تبيعها لباربيه بستين فرنكاً، ويمكنك أن تطلب من كل مسرح عشر بطاقات مجانية شهرياً فتجمع من المسارح الأربعة أربعين بطاقة تبيعها لسمسار مسارح أعرفك عليه، وهو شبيه باربيه بأربعين فرنكاً، وهكذا تصل إلى نحو مئتي فرنك شهرياً، وبإمكانك أن تشعر فينو بالاستفادة منك ليخصك بنشر مقال في مجلته الجديدة الاسبوعية، شهرياً، يعود عليك بمئة فرنك، وإذا برهنت عن موهبة فائقة، إذ أن

(١) ايضاح هام يستحق أن يتثبت منه: فعمل محرر الأخبار في صحيفة صغيرة يبدأ بتقارير عن جادة التامبل يتبعها بأخرى عن مسارح الفودفيل قبل أن يتوّجها بأخبار «المسارح الكبرى» وهذا التسلسل الهرمي يتناسب تماماً مع أسعار الدخول.

مثل هذه المقالات توقع، ولاتترك غفلاً كما في الصحيفة الصغيرة، فيمكن أن تكسب من ذلك ثلاثمئة فرنك شهرياً. ياعزيزي، هناك أصحاب مواهب كهذا المسكين دارتز الذي يتناول عشاءه يومياً في مطعم فليكوتو، ستمرُّ عليهم عشر سنوات قبل أن يكسبوا ثلاثمئة فرنك، أما أنت فستجني من ريشتك أربعة آلاف فرنك سنوياً، عدا المؤلفات التي تعدّها للنشر.

والحال أن مدير المنطقة لايتعدى دخله ثلاثة آلاف فرنك سنوياً، وهو يعيش عيشة مضطربة منصرفاً لحلّ مشاكل منطقته. ولن أحدثك عن متعة ارتيادك المسارح دون أن تدفع فلساً، لأن هذه المتعة ستغدو سريعاً متعبة لك، ولكن ستحظى بحرية التنقل بين دهاليز المسارح الأربعة؛ فكن صلباً ونبيهاً خلال شهر أو شهرين، وستغرق في الدعوات إلى حفلات الممثلات ويتملقك عشاقهن، ولن تتناول عشاءك عند فليكوتو إلا عندما تملُّ من دعوات المآدب والولائم في المدينة، أولا تجد في جيبك أكثر من ثلاثين فلساً، لن تعلم أين ستضع رأسك في الساعة الخامسة مساء وأنت تتجول في حديقة اللوكسمبورغ. إنك على وشك أن تغدو واحداً من المئة المحظوظين الذين يفرضون آراءهم على فرنسة كلّها. إن نجحنا، يمكنك خلال ثلاثة أيام، بثلاثين كلمة طريفة مطبوعة، بمعدّل ثلاث كلمات في اليوم، أن تجعل حياة إنسان جحيماً، أو أن تخلق فيضاً دافقاً من المتعة لدى جميع ممثلات مسارحك؛ يمكنك أن تُسقط مسرحية جيّدة، وتجعل باريس كلّها تجري لمشاهدة مسرحية تافهة. إن رفض دوريا أن ينشر لك ديوان **أزهار المرغريت** دون أن يدفع لك شيئاً، يمكنك أن تأتي به إليك طائعاً خانعاً لتوافق له على نشره لقاء ألفي فرنك مكافأة لك عليه. كن صاحب موهبة، واقذف في ثلاث صحف مختلفة ثلاث مقالات تهدّد بتعطيل بعض مضاربات دوريا أو تحطّ من شأن كتاب يؤمّل أرباحاً وفيرة من نشره، تجده يأتي زاحفاً إلى سقيفتك كياسمينة برّ تسعى للنور والماء. أخيراً فالناشرون الذين سبق أن اعتذر لك كل بدوره عن قبول روايتك ستجدهم يقفون صفاً على بابك يرجو كل واحد منهم أن تخصّه بها وسيرتفع ثمن المخطوطة التي ثمّنها الأب دروغيرو بأربعمئة فرنك ليبلغ أربعة

آلاف فرنك! هذه هي مكاسب مهنة الصحفي. وهكذا فلندقق في دنو الوافدين الجدد من الصحف؛ فهي لاتقتصر على الحاجة إلى الموهبة الواسعة، وإنّما تتطلّب أيضاً محالفة حظّ كبير لدخول عالمها. وأنت تجادل فيما توفّر لك مَن حظّ!... أترى؟ لو لم نلتق اليوم لدى فليكوتو، لوجب أن تنتظر أيضاً مدة ثلاث سنوات أو أن تموت من الجوع كما أتوقع لدارتز في سقيفته. عندما يغدو دارتز مفكراً شهيراً كبايل[1]، أو كاتباً كبيراً كروسو، نكون نحن قد توصلنا إلى جمع ثروة وغدونا سادة تفكيره ومجده. ويكون فينو قد أصبح نائباً ومالكاً لصحيفة كبرى. ونكون نحن قد بلغنا مانصبو اليه: أعضاء في مجلس أعيان فرنسة أو مرموقين في سجن سانت بيلاجي بعد تراكم ديوننا[2].

هتف لوسيان متذكّرا المشهد الذي جرى أمامه: وسيبيع فينو صحيفته الكبرى للوزراء الذين يعطونه مزيداً من المال، كما باع مديحه للسيدة باستيين موجّهاً الذم للآنسة فيرجيني مبيناً أن قبعات الأولى أجود من تلك التي كانت الصحيفة تروّج لها أولاً.

ردّ لوستو بلهجة جافّة: إنّك أحمق ياعزيزي، فقد كان فينو منذ ثلاث سنوات يسير بنعل مثقوب، ويتناول عشاءه في مطعم تابار[3] بثمانية عشر فلساً، ويُعدّ نشرة دعائية مطوّلة لقاء عشرة فرنكات، ويلتصق ثوبه على جسده بسرّ غامض غموض الحبل بلادنس: أمّا فينو الآن فهو مستقلّ بصحيفته المقدّرة بمئة ألف فرنك، مع اشتراكات تُسدَّد دون توزيع، واشتراكات حقيقية ومساهمات غير مباشرة ملحوظة من نسيبه، وهو يكسب عشرين ألف فرنك سنوياً، وهو يجلس يومياً إلى موائد العشاء الأكثر بذخاً في العالم، وقد اشترى عربة منذ شهر؛ أخيراً هاهو غدا على رأس مجلة أسبوعية يملك سدسها مجاناً، وراتب

(١) بايل، بيير BAYLE (١٦٤٧-١٧٠٦) مؤلف القاموس التاريخي والنقدي، ويعد أسلوبه المدقق طليعة الفكر الفلسفي في القرن الثامن عشر (المترجم).

(٢) سجن في رقم ١٤ من شارع «لاكلي» خُصص لتوقيف الدائنين الممتنعين عن دفع ديونهم أو العاجزين دونها.

(٣) تابار: مطعم في شارع روهان رقم ٢٤.

خمسمئة فرنك شهرياً يضاف إليه ألف فرنك حصيلة التحرير المجاني الذي يتقاضى أجره من شركائه. وستكون أنت أوّل الموافقين بمنتهى السعادة، على تقديم ثلاث مقالات له مجاناً، إن رضي أن يدفع لك خمسين فرنكاً، أجرة تحرير الصفحة. يمكنك أن تحكم على فينو عندما تغدو في وضع مماثل لوضعه فالإنسان لايُدانُ إلا من قبل نظرائه، ألا تتوّقع مستقبلاً حافلاً عندما تنقاد دون تبصر لأحقاد الموقع، فتجرّح عندما يطلب منك فينو التجريح؛ وتقرّظ عندما يطلب منك التقريظ. وإن ترد الانتقام من أحد ما، عدواً كان أو صديقاً، يمكنك أن تكيل له الضربات بجملة تدرجها كل صباح في صحيفتنا وأنت تقول لي: لوستو، لنقتل هذا الرجل! وستجدّد قتل ضحيتك في مقال واسع تنشره في المجلة الأسبوعية. أخيراً، إن كانت القضية هامة بالنسبة لك، فسيسمح لك فينو، وقد غدوت ضرورياً له، أن توجّه لخصمك ضربة هراوة أخيراً في مقال يُنشر في صحيفة كبرى يصل عدد مشتركيها إلى عشرة آلاف أو اثني عشر ألف مشترك.

سأل لوسيان منبهراً: أتعتقد أن فلورين ستتمكن من إقناع تاجر العقاقير بهذه الصفقة؟

- أنا على يقين من ذلك، هاهي لحظات الاستراحة، أنا ذاهب لأهمس في أذنها كلمتين، إذ يجب أن تتمّ الصفقة هذا المساء، وما أن أعرض الموضوع على فلورين حتى تتوحّد أفكارها مع فكري لتحقيق الهدف المشترك.

- وهذا التاجر الشريف القابع هناك، وقد فغر فاه ببلاهة وهو ينظر بإعجاب إلى فلورين دون أن يرتاب بالتواطؤ على اقتلاع ثلاثين ألف فرنك منه.

صاح لوستو: حماقة أخرى تبدُر منك! لاتقل إننا نسرق الرجل؟ ولكن ياعزيزي، إن كان الوزير سيشتري الصحيفة فسيقبض تاجر العقاقير خلال ستة أشهر خمسين ألفاً بدلاً من آلافه الثلاثين ثم أن ماتيفا لن يفكر بالصحيفة بل بمصلحة فلورين، وعندما يعرف تملُّك ماتيفا وكاموزو (اللذين سيتقاسمان المشروع) حُصةً في مجلة، ستنشر جميع الصحف مقالات متسامحة تمدح فيها

فلورين وكورالي، وستشتهر فلورين، وقد تحصل على عقد في مسرح آخر باثني عشر ألف فرنك، أخيراً، سيوفر ماتيفا الألف فرنك التي ينفقها شهرياً على الهدايا التي يقدمها للصحفيين ومآدب العشاء التي يقيمها لهم؛ إنك ماتزال جاهلاً بالمشاريع وتصرفات الرجال.

قال لوسيان: ياللرجل المسكين! كان يتوقّع أن يقضي ليلة هنيئة.

واستأنف لوستو: وسينشر إلى نصفين بألف حجة وبرهان إلى أن يُلوّح لفلورين بعقد شرائه للسُدس من فينو، أما أنا فسأصبح في اليوم التالي رئيساً للتحرير، وسأكسب ألف فرنك شهرياً. وهتف عشيق فلورين: هي ذي نهاية أيام بؤسي.

خرج لوستو تاركاً لوسيان مذهولاً، ضائعاً في لُجّة من الأفكار، يحوم فوق العالم كما هو، فبعد أن رأى في رواقي الخشب خيوط المكتبة ومطبخ المجد، وبعد أن تجوّل في دهاليز المسرح، ظهر للشاعر مقلوب الضمائر، ولعبة دواليب الحياة الباريسية، وآلية كل شيء، وحسد لوستو على سعادته وهو يتأمّل بإعجاب فلورين على خشبة المسرح، ونسي للحظات ماتيفا. وبقي هكذا لمدّة وجيزة، قد لاتتجاوز خمس دقائق، لكنها بدت له دهراً، فقد ألهبت نفسه أفكار جيّاشة فكأن حواسه قد استثيرت بمشهد هؤلاء الممثلات ذوات العيون الشهوانيّة المشوبة بالاحمرار، والنحور البرّاقة، وقد ارتدين تنانير باسكية مغرية بقصرها وثنياتها الخليعة التي تكشف عن سيقان تلتمع تحت الجوارب الحمراء ذات الزوايا الخضراء بينما كعوب أحذيتهن تدق خشبة المسرح في انفعال؛ وصفًّا فساد يمشيان على خطين متوازيين كدفق سيلي فيضان يريدان الالتقاء، وهما ينهشان الشاعر المستند إلى زاوية المقصورة وذراعه على مخمل المسند الأحمر، ويده مدلاة، وعيناه محدّقتان على الستّارة؛ وهو أكثر تقبلاً لسحر هذه الحياة المختلطة بالغيوم والبروق التي تلتمع كومضات أسهم نارية بعد ليل عميق من حياته المجدّة، القاتمة، الرتيبة. وفجأة أزيح طرف ستارة المسرح، وغمر شعاع نظرة مغرمة

عيني لوسيان الشاردتين، واستيقظ الشاعر من خدره ليتعرّف على عين كورالي وهي تلهبه، فأشاح وجهه ورأى عندئذ كاموزو يدخل إلى المقصورة المواجهة له. كان هذا الهاوي الضخم الجثة، البدين، تاجر حرائر في شارع بوردون، وقاضياً في محكمة التجارة، وأباً لأربعة أولاد، ومتزوّجاً للمرة الثانية، وثرياً يدخّل ثمانين ألف فرنك سنوياً، لكنه يبدو وهو في السادسة والخمسين من العمر والشعر الرمادي كأنّه قبعة على قحف رأسه، بمظهر المنافق المستمتع بكهولته، الذي لايريد أن يترك الحياة دون أن ينال نصيباً طيّباً من ملذّاتها، بعد أن تحمّل على مضض مشاق التجارة وإهاناتها؛ لكن هذا الجبين الشاحب بلون الزبدة الطازجة، وهاتان الوجنتان المتقشفتان على نضارتهما أضيق من أن تتسع لابتهاج بلغ الذروة: لم يصطحب كاموزو زوجته؛ فقد كان عازماً أن يصفق ويهلّل لكورالي بكلّ حرية، فهي تجسد كل غرور هذا البورجوازي الثري وزهوه، وهو يحسّ قربها أنه نبيل الأمس العريق. ويعتقد، في هذه اللحظة، أنه الشريك المناصف لنجاح هذه الممثلة، وبالأحرى يؤمن بذلك لأنه سدّد الثمن. لكن وجود حميّ كاموزو، وهو عجوز قصير القامة، شائب الشعر، ماجن العينين، إلا أنّه مع ذلك مهيب المظهر، حدّ من تصرّفاته.

استيقظ نفور لوسيان، وتذكر الحبّ النقيّ المتحمس الذي أحسّ به تجاه السيدة دي بارجتون وسرعان مابسط غرام الشعراء المتميز جناحيه الأبيضين، وحفّت آلاف الذكريات بآفاقها المزرّقة برجل آنغولم الكبير الذي غرق مجدداً في أحلام اليقظة. ورُفعت الستارة وانكشف المشهد عن كورالي وفلورين.

قالت فلورين همساً بينما كورالي تتهيّأ لبدء الحوار: ياعزيزتي، إنه يفكّر بك كتفكيره بالسلطان العثماني.

لم يستطع لوسيان أن يحبس ضحكته، ونظر إلى كورالي، هذه المرأة هي واحدة من ممثلات باريس الأكثر جاذبية وعذوبة. إنّها منافسة السيّدة بيرآن

والآنسة فلوريه(1). وسيكون حظها كحظهما، فهي نموذج الفتيات اللواتي لايستعصي عليهن، متى شئن، استهواء أي رجل. فكورالي تشكل النموذج الفائق للجمال الشرقي، بهذا الوجه المتطاول البيضوي ذي اللون العاجي والفم الأحمر كحبّة رمان، والذقن الدقيقة الناعمة كأنها حافّة كأس. تحت أجفانها المنكشفة عن حدقتين سوداوين كالسَبَج، وتحت أهدابها المحنيّة تبرق نظرات خاملة تذكر بوهج الصحارى تشعّ من عينين مظلّلتين بطوق زيتوني يعلوهما حاجبان مقوسّان كثيفا الأشعار، يحدّان جبيناً أسمر متوّجاً بعصابتين من شعر كالإبنوس ينعكس عليه النور كما على البرنيق، ويخال لمن يراه أن روعة الفكر الناطق بالعبقرية تكمن فيه. لكن كورالي، على شاكلة الكثيرات من الممثلات دون رجاحة العقل رغم سخريتها في الكواليس، ودون ثقافة رغم خبرتها في الصالونات. لاتملك إلا تعبير الحواس وطيبة النساء العاشقات. على كل حال، هل يمكن التفكير بالخُلُق عندما تبهر النظر بذراعيها البضّتين الناعمتين، وأصابعها المغزلية وكتفيها المذهبين، ونحرها الخليق بترانيم نشيد الأنشاد، مع خصر مقوّس متلوّ وساقين تغلّفتا بالحرير الأحمر في منتهى الأناقة؟ هذه المحاسن ذات الشاعرية الشرقية فعلاً، يزيد من بروزها الزي الاسباني السائد في مسارحنا، وبظهور كورالي تعمّ الفرحة في الصالة، وتتوجّه جميع الأعين ترقب خصرها المشدود بالتنورة الباسكيّة التي يرسم عليها ردفاها الأندلسيان التواءات شهوانية. مرت لحظة على لوسيان خيل إليه فيها أن هذه المخلوقة تمثل من أجله فقط، ونظر إلى كاموزو نظرة صبي الجنة إلى قشرة التفاحة، ووضع الحبّ الشهواني فوق الحبّ النقيّ الوفي، والاستمتاع فوق الأمنية، ونفخ فيه شيطان الفجور أفكاراً مريعة. قال في نفسه: «أجهل كل شيء عن الحبّ الذي تثيره الأطعمة الفاخرة، والنبيذ

(1) تشير مراجع «سير الممثلين والممثلات» إلى وجود ممثلة باسم كورالي في مسرح باب سان مارتن كانت تقوم في العام ١٨٢٦ بدور «العاشقة الثانية» وكان ساقاها أجمل مافيها وقد عرفت جيداً كيف تستخدمهما. أما الآنسة فلوريه فهي ممثلة توفيت في العام ١٨٢٣، في ربيعها التاسع عشر، بعد أن قدمت بدايات واعدة في مسرح الجمناز، ويقال إنها ماتت مسمومة، كما أن السيدة بيران ممثلة جذابة توفيت قبل الأوان.

المعتّق، وأفراح المادة. عشت حتى الآن بالفكر لابالفعل، وعلى الرجل الذي يريد وصف كل شيء أن يتعرّف على كل شيء. هي ذي أولّ مأدبة ليلية مترفة أحضرها، وأولّ حفلة سكر لي مع جماعة غريبة، فلماذا لاأتذوق لمرة واحدة هذه الملذّات الشهيرة التي كان يتهافت عليها كبار نبلاء القرن الأخير بعيشهم مع الرذائل؟ ألا يجب أن نتعلم مباهج غراميات العاهرات والممثلات ومزاياها وانفعالاتها ووسائلها ورهافتها خاصة وأن الهدف يقتصر على نقلها إلى المناطق الجميلة من الحب الحقيقي. أليس في ذلك، بعد كل حساب، شاعرية الأحاسيس؟ منذ شهرين، كانت تبدو لي هؤلاء النساء ربّات يحرسهن تنانين لا تقارب، وهاهي الآن واحدة تتفوق في جمالها على فلورين التي حسدت لوستو على حظوته بها، فلماذا لاأستفيد من نزوة كورالي، بينما كبار النبلاء يشترون بأعز كنوزهم ليلة يقضونها مع مثيلاتها؟ والسفراء عندما يضعون قدمهم في هذه الأغوار لايبالون بأمسهم ولابغدهم. سأكون غبيّاً أخرق إن التزمت بتعفّف لايلتزم به الأمراء خاصة وأنني غير مرتبط بأية حبيبة!». لم يعد لوسيان يفكر بكاموزو وبعد أن أظهر للوستو عميق اشمئزازه لمشاركته الممقوتة غيره في علاقته مع فلورين، وقع في تلك الهوة منجرفاً برغبة يقودها نفاق الهوى.

قال له لوستو عند عودته: «كورالي تهيم بك حباً. فجمالك الجدير بأشهر تماثيل الإغريق أحدث بلبلة خارقة في دهاليز المسرح، ستغمرك السعادة ياعزيزي، فكورالي ببلوغها سن الثامنة عشرة تتمكن بجمالها، وخلال بضعة أيام، أن تكسب ستين ألف فرنك سنوياً، وهي ماتزال محتشمة جداً، فقد باعتها أمّها منذ ثلاث سنوات بستين ألف فرنك[1]، ولم تجنِ حتى الآن إلا الأحزان، وهي تفتش عن السعادة ودفعها القنوط إلى العمل في المسرح، بعد أن نفرت من دي مارسي، أولّ متملك لها، وبعد خروجها من محنتها القاسية، وإخلاء ملك غناديرنا سبيلها، وجدت هذا الكاموزو الطيّب الذي لاتكنّ له الحب لكنها ترتضي حبّه لها لمعاملته إياها كوالد رغم تعذيبها له، وقد رفضت حتى الآن أكثر

(١)هل كان بلزاك يفكر بأوليمب بليسية، وقد ذكر آ. آدم أن من غدت زوجة روسيني باعتها أمها في مطلع شبابها إلى دوق شاب بمبلغ ٤٠٠٠٠ ف.

العروض إغراءً، وتمسّكت بكاموزو الملاطف لها، فأنت إذن أول من أغرمت به. فقد أحست بهواك من أوّل نظرة كطلقة رصاصة تخترق قلبها، وانتابها القنوط عندما لاحظت برودك نحوها فاستسلمت للبكاء معتزلة في مقصورتها، وذهبت فلورين إليها تهدّىء من روعها، ويخشى أن تفشل المسرحية فكورالي لم تعد تذكر دورها، ووداعاً للعقد الذي يهيئه كاموزو لها مع إدارة مسرح الجمناز!..

قال لوسيان وقد أحسّ بقلبه يطفح نشوة بهذه الكلمات التي تدغدغ زهوه وغروره:

ياللفتاة المسكينة! مرّت علي، ياعزيزي، في هذه الأمسية، أحداث تفوق ماعرفته خلال الثمانية عشر عاماً الأولى من عمري». وقصّ على صديقه غرامياته مع السيّدة دي بارجتون وكرهه للبارون شاتليه.

- اسمع. إن الصحيفة بحاجة إلى خصم توجّه إليه سهامها، وسننال من غريمك، فهذا البارون أحد متأنقي الامبراطورية، وهو موال للوزارة، فهو هدف مناسب لنا، وأنا أراه غالباً في الأوبرا، ويمكنني أن ألحظ من مكاني سيّدتك الكبيرة، وغالباً ماتكون في مقصورة المركيزة دسبار، والبارون يتودّد إلى معشوقتك السابقة، وهي محك اختبار له[1]. انتظر! أرسل لي فينو رسالة مستعجلة ينبئني فيها أن الصحيفة دون مقالات تكمل صفحاتها وهذا مقلب دبّره أحد محررينا، الماكر هكتور مرلن الذي اقتطع له الفراغ الأبيض في مقاله، وكان فينو في غاية الضيق وهو يعد مقالاً عاجلاً ينقد فيه الأوبرا، وماعليك ياعزيزي إلا أن تعد مقالاً عن هذه المسرحية التي نشهدها الآن، فهيّا استمع إليها جيداً وفكّر بها، وسأذهب بدوري إلى مكتب مدير المسرح لأعد ثلاثة أعمدة عن غريمك وهذه اللعوب التي استخفّت بك، وأؤكد لك أنهما لن يكونا مسرورين غداً.

---

(١) وردت في النص «Os de seiche عظم حُبّار» والحُبّار رخوية من رأسيات الأرجل ذات قوقعة داخلية بشكل مجن «عظم الحبّار» ويوضع هذا العظم في أقفاص طيور الزينة لتشحذ عليه مناقيرها، ورأينا أن نشير إلى هذا الترميز بمحك اختبار (المترجم).

-هوذا إذن، أين وكيف يتم إعداد الصحيفة؟! هتف لوسيان.

- رد لوستو: الأمر كذلك دائماً، فمنذ عشرة أشهر قضيتها في هذه الصحيفة وهي حتى الساعة الثامنة مساءً غير مكتملة الصفحات. إنّ المشروع الذي لن يتحقق أبداً هو تهيئة عدّة أعداد مسبقاً. فهاهي الساعة العاشرة الآن، ولم يُنضّد في الصحيفة سطر واحد. سأذهب لأطلب من فرنو وناتان أن يختتما العدد بشكل فكه وتهيئة عدة مُلحٍ لاذعة عن النواب، وعن رئيس مجلس القضاء الأعلى كرو- زوه(١)، والوزراء، وحتى عن أصدقائنا إن لزم الأمر، وفي هذه الحالة يمكن أن يسخر الصحفي بأبيه، فهو كالقرصان الذي يحشو مدافعه بذهب غنائمه لينقذ نفسه من الموت. أظهر روح الفكاهة في مقالك تحقق خطوة كبيرة لاقناع فينو باستخدامك: فهو مقتنع بما يحقق مصلحته الشخصية، وهذه أفضل وأوثق القناعات بعد رهينة الاستدانة في مؤسسة الرهنيات(٢).

هتف لوسيان: أي الرجال الصحفيون إذن؟ كيف يمكن الجلوس للكتابة بروح مرحة..

- تماماً كما توقد سراجاً يعطيك نوراً مادام في خزّانه نقطة زيت.

في اللحظة التي فتح فيها لوستو باب المقصورة دخل مدير المسرح ومعه دوبرويل.

قال مؤلف المسرحية للوسيان: سيّدي، دعني أقول نيابة عنك لكورالي أنّك سترافقها بعد تناول وجبة السهر، وإلا ستفشل مسرحيتي. فالفتاة المسكينة لم تعد تدري ماتقول أو ماتفعل، فهي تبكي عندما يجب أن تضحك، وتضحك عندما يجب أن تبكي، وقد قوبلت بالصفير، وإنّما مازال بإمكانك إنقاذ المسرحية، وليس فيما يتحقق لك من متعة أي ضير عليك.

---

(١) ذكر آ. آدم أن لويس الثامن عشر سمع قرعاً على باب مكتبه فظن أن المركيزة دي كايلا، خليلته، فقال دون تكلّف: «ادخلي يازوّه» لكن الطارق كان رئيس القضاء دامبري الذي لقبته الصحافة الساخرة بعدها ظنين- زوه Cru- Zoé.

(٢) **مؤسسة الرهنيات** Mont de Piété: مؤسسة تقرض المحتاجين مبالغ ضئيلة لقاء رهن عيني: قطعة حلي أو ساعة أو رهناً يفوق قيمة الدين. (المترجم).

- سيدي، لست معتاداً على مشاركة منافسين لي.

- هتف المدير وهو ينظر إلى المؤلف: لاتذكر لها هذا الشرط، فكورالي مستعدة أن تتخلّى عن كاموزو، فالمالك المحترم لهذه **الشرنقة الذهبية** يقدم لها ألفي فرنك شهرياً، ويسدد ثمن جميع ملابسها، ويدفع مكافآت جميع المصفقين لها.

قال لوسيان متعالياً: بما أن عرضك لايلزمني بشيء، فما عليك إلاأن تنقذ مسرحيتك بنفسك.

قال له دوبرويل متوسلاً: لكن لاتتخذ مظهر من يقابل عاطفة تلك الفتاة الجذابة بالصدود.

هتف الشاعر: اسمحوا لي ياسادة، فيجب أن أنصرف إلى كتابة مقال عن مسرحيتكم، مع توجيه ابتسامة لبطلتها وفقاً لطلبكم.

انسحب المؤلّف بعد أن لوّح بإشارة مطمئنة لكورالي أثارت بعدها الإعجاب في إتقان دورها. وكان الممثل بوفّيه يقوم بدور القاضي في المسرحية معبّراً لأول مرة عن موهبته في تبديل سحنته إلى عجوز هرم(١) وأطل في نهاية العرض وسط عاصفة من التصفيق قائلاً: «يشرفنا ياسادة، أن نعلن أن المسرحية التي قمنا بتمثيلها من إعداد الاديبين راوول ودي كورسي(٢)».

قال لوستو: «هوذا قلم ناتان في المسرحية، لم أفاجأ أبداً بحضوره».

---

(١) يتذكر بلزاك دون شك بوفيه بعد ذلك بزمن طويل، عندما لعب بمهارة دور الأب غرانده، في مسرحية «ابنة البخيل» التي اقتبسها بايار ودوبير عن روايته «**أوجيني غرانده**» ومثلت بدءاً من ٧ كانون الثاني ١٨٣٥ على مسرح الجيمناز.

(٢) جرياً على تقليد قديم كان يذكر اسم مؤلفي المسرحية- التي تحوز على استحسان جماهير المشاهدين- في نهاية العرض وكما الأمر في هذه المسرحية الاسبانية التي اشترك في وضعها مؤلفان، جرت العادة أن يشترك أحياناً ثلاثة أو أربعة مؤلفين في إعداد الميلودرامات أو التمثيليات الخفيفة ويتقاسمون الريع ولم تتوقف صحف ذلك العصر عن السخرية بأرباع المؤلفين أو مؤلفي الأرباع. وكما يمكن أن نرى هنا أيضاً، لم يكن المؤلف يغامر بذكر اسمه الكامل، فكارموش وسكريب وميلفيل وكثيرون غيرهم كانوا يفضلون كما فعل ناتان في مسرحية القاضي الاقتصار على ذكر الاسم الأوّل -دون الكنية، ويبدو أن دوبرويل استوحى اسماً أدبياً مستعاراً من فردريك دي كورسي (١٧٩٥-١٨٦٢) وهو مؤلّف عدد كبير من المسرحيات الخفيفة- فودڤيل.

نهضت القاعة تهلّل هاتفة: «كورالي! كورالي!» وانطلق من المقصورة التي يجلس فيها التاجران صوت كالرعد: «وفلورين!- فلورين وكورالي!» وردّدت عندها أصوات من القاعة: فلورين وكورالي! وارتفع الستار، وظهر بوفيه مجدّداً وهو يمسك بيدي الممثلتين، وألقى ماتيفا وكاموزو للممثلتين بإكليلين من الأزهار، وتناولت كورالي إكليلها ووجّهته تحية للوسيان الذي مرت عليه هاتان الساعتان في المسرح كأنه في حلم؛ فقد بدأت الدهاليز رغم قبحها تمارس هذا التأثير الساحر، فالشاعر، ومايزال على براءته، تنشق فيها ريح الفوضى وجو الملذّات، ففي هذه الممرات القذرة التي تدخّن فيها الأسرجة الزيتية، وتزدحم الماكنات، يسود مايشبه الطاعون الذي يفترس الروح، والحياة فيها ليست حقيقية ولاتقيّة. ففيها يُسخر من كل شيء جديٍّ، وماهو غير ممكن يبدو صحيحاً واقعياً، وكأنه مخدّر بالنسبة للوسيان، بينما كورالي أتمت إغراقه في نشوة سارّة. وأطفئت الثريا وخلت القاعة إلا من العاملات اللواتي يحدثن ضجة غريبة بإزاحة المقاعد الصغيرة، وإغلاق المقصورات، وأطفىء صف الأنوار في مقدمة المسرح كأنه شمعة واحدة، فانبعثت منه رائحة منتنة، ورُفع الستار، وتدلى مصباح من السقف، وبدأ رجال المطافىء دورتهم مع الخدم، وحلت البرودة والرعب والعتمة والفراغ محل روعة المشهد، ومنظر المقصورات الغاصة بالنساء الجميلات، والأنوار الخلابة، وسحر التزيينات والزخرفات الرائعة، والأثواب المترفة الجديدة؛ فكان التغيّر قبيحاً موحشاً أغرق لوسيان في ذهول يعجز عنه الوصف، لم يستيقظ منه إلا على صوت لوستو يناديه من أعلى الخشبة: «مالك ياعزيزي؟ ألا تأتي؟ اقفز من المقصورة إلى هنا. وبقفزة كان لوسيان إلى جانب صديقه، وكاد ألا يتعرّف على فلورين وكورالي، وهما تتدثران الآن بمعطفين ثخينين مبطنين وتعتمر كل منهما قبعة ذات برقع أسود، فبدتا أشبه بفراشتين تعودان إلى يرقتيهما.

قالت له كورالي وهي ترتعش: «أتسمح لي بأن أتأبط ذراعك؟»

- «بكل طيبة خاطر» أجاب لوسيان، وسرعان ماالتصقت الممثلة بالشاعر بتلذذ الهرّة التي تتمسّح بساق سيدها بحماس الوفي المشوق، وأحسّ لوسيان بقلبها يخفق إلى جانب قلبه كعصفور اطمأن إلى اليد التي أمسكت به.

قالت له: «سنذهب إلى مائدة السهرة معاً!».

خرج الأربعة من باب الممثلين المطلّ على شارع فوسيه- دو- تامبل حيث كانت تنتظرهما عربتان واسعتان. وصعدت كورالي برفقة لوسيان إلى عربة كان كاموزو وحموه كاردو ينتظران فيها، وتبعهم دوبرويل؛ بينما التحق مدير المسرح بالعربة الأخرى مع فلورين وماتيفا ولوستو.

قالت كورالي: «هذه العربات معيبة».

علّق دوبرويل على ملاحظتها: ولماذا لايكون لك عربتك الفخمة الخاصة؟

ردّت كورالي بسخرية: لماذا؟ لاأريد أن أذكر السبب أمام السيد كاردو الذي يبدو أنه درّب صهره على الشحّ دون شك. هل تصدق أنه، وهو العجوز لايعطي فلورنتين إلا خمسمئة فرنك شهرياً، وهو مبلغ يكاد لايكفي لتسديد أجرة شقّتها وتأمين قوت يومها وشراء خفّين لقدميها. بينما عرض المركيز العجوز دي روشفيد[1]، صاحب دخل الستمئة ألف فرنك سنوياً، أن يقدّم لي عربة مجهزة مع حوذي وخادم منذ شهرين، لكنني رفضت فأنا فنانة ولست مومساً.

قال كاموزو برصانة: ستكون لك عربتك الخاصة، بعد غدٍ ياآنسة، إذ لم يسبق أن طلبت مني ذلك.

- وهل يحتاج هذا إلى طلب؟ من يحبُّ امرأة لايتركها تتخبط في الوحل وتُعرض ساقيها للكسر بتنقلها سيراً على الأقدام، ففرسان الأُون وحدهم يحبون رؤية الوحل على أطراف الأثواب».

---

(١) أحد شخصيات رواية «بياترس».

بعـد أن نطقت كـورالي بهـذه الكلمـات بحـدَّة حطمت قلب كـامـوزو، تلمّست ساق لوسيان وضغطت عليها بين ساقيها، ثم أمسكت يده وشدّت عليها بيـدها، ولزمت الصـمت وبدت وكـأنّهـا تركّـز على التنّعم بإحـدى هذه الملذات اللامتناهية التي تكافأ بها هؤلاء المخلوقات المسكينة تعويضاً عن همومهن السابقة، وتعاساتهن، مما يخلق في نفوسهن شاعرية لاتعرفها النساء الأخريات اللواتي لم يتعرضن لحسن الحظ لهذه التباينات.

قـال دو بويـل لـكـورالي: أخيـراً تـوصـلت لـلـقيـام بالدور بمثل مـهـارة الآنسة مارس.

علق كـامـوزو على مـلاحظة دوبرويل بالقـول: نعم، بدت الآنسـة حـتى منتصف الفصل الثاني وكـأنّ شيئاً ما يضايقها، لكنها انطلقت بعد ذلك في حماس رائع، إنّك مدين لها بنصف النجاح.

قال دوبرويل: وهي مدينةٌ لي بنصف براعتها[1].

قالت كورالي بصوت متهدّج: إنكما تتنازعان على غفارة الأسقف[2].

استغلت الممثلة لحظة مرور في شارع مظلم فرفعت يد لوسيان إلى شفتيها وقبّلتها وقطرات من دموعها تبللها، وأحسّ لوسيان بقشعريرة تأثّر تهزّ كيانه حتى العظم، فاستكانة العاهرة العاشـقة تتضـمن روعة تلقّن الملائكة درساً في التسامح.

قال دوبرويل موجّهاً كلامه للوسيان: ستقوم ياسيدي بإعداد مقال عن المسرحية، وأعتقد أنّ بإمكانك أن تضمنه فقرة طيبة عن عزيزتنا كورالي.

قال كاموزو وقد خالط صوته توسّل من يجثو على ركبتيه أمام لوسيان: إيه! قدّم لنا هذه الخدمة الصغيرة، وستجدني الخادم المستعد في كل وقت لتنفيذ ماتطلب.

---

(١) تلميح إلى أنه لم يكتب إلا نصف المسرحية.

(٢) قول يطلق على الأشخاص الذين يتنازعون على شيء لايملكونه ولايمكنهم الحصول عليه، وبلزاك من المعجبين بهذا التعبير، وقد استخدمه في قصة «**الولد الملعون**».

صاحت الممثلة غاضبة: لكن دعوا للسيد حريته وكتابة مايريد. بابا كاموزو، اشتر لي عربات لاتقريظات.

أجاب لوسيان بكل تهذيب: ستلقين التقريظ الذي تستحقينه دون مقابل، إذ لم يسبق لي أن كتبت في الصحف ولست مطّلعاً على تقاليدها، وستكون لك باكورة ريشتي.

قال دوبرويل: سيكون ذلك مسلياً.

قال كاردو العجوز وقد صعق من مهاجمة كورالي له: « هانحن في شارع بوندي». قالت كورالي خلال المدّة القصيرة التي بقيت فيها وحيدة مع لوسيان في العربة: «وعدتني بأن تقدّم لي بواكير ريشتك وأعدك بأن تكون بواكير قلبي لك».

التحقت كورالي بفلورين في غرفة نومها لتتزينا فيها. ولم يكن لوسيان قد اطلع على البذخ الذي يسرف فيه التجار الأثرياء الذين يريدون التمتع بالحياة في سبيل استمالة الممثلات أو الإنفاق على خليلاتهم. وبالرغم من أن ماتيفا، الأقل غنى من صديقه كاموزو، قد قتّر بعض التقتير في إعداد شقّة فلورين، فقد دهش لوسيان وهو يرى قاعة طعام زخرفت بإتقان فني، وقد نُجّد فرشها بالمخمل الأخضر المزيّن بمسامير ذات رؤوس مذّهبة، وأضيئت بمصابيح جميلة، وتوزّعت فيها أصص نباتات تغصّ بأكمام الزهور والبراعم، تجاورها صالة غطيت جدرانها بقماش حريري أصفر مزيّن بزخارف ضاربة للسمرة. ويتألق فيها أثاث حديث الطراز: ثريا تومير[1]، وسجّادة عجمية، وساعة كبيرة ذات نواس، وشمعدانات وخزفيات اختيرت بذوق وعناية فائقين، فقد عهد بها ماتيفا إلى غريندو، المهندس المعماري الشاب الذي سبق أن بنى له بيتاً، وكان يعلم لمن تُعد هذه الشقة الآن، فبذل فيها عناية خاصة، كما كان ماتيفا بعقلية التاجر دائماً، يتخذ

(١) تومير وشركاه: مصنعو أثاث الكونت دارتوا، ومعدّو البرونز لمفروشات القصور الملكية، كانت محلاتهم في رقم ٢، جادة بواسونيير، ورقم ٧ شارع بوشرا.

الاحتياطات حتى لايلمس أي شيء، وكأنّ أرقام جميع الفواتير متمثلة في ذهنه، وهو ينظر إلى هذه الروائع وكأنّها جواهر أخرجت بعدم احتراس من محافظها.

بدا الأب كاردو أمام هذه الشقة وكأن عينيه تقولان: هي ذي ماسأجبرُ على إعداد مماثلة لها لفلورنتين.

أدرك لوسيان فجأة سبب عدم اهتمام لوستو الصحفي المعشوق بحالة الغرفة المزرية التي يسكنها، فهو ملك هذه الاحتفالات الخفيّ، وهو من ينعم بكل هذه الأشياء الجميلة، وهكذا جلس مرتاحاً، سيّداً للمنزل، أمام المدفأة، وهو يتحدث مع مدير المسرح الذي كان يقدّم التهاني لدو برويل.

فجأة دخل فينو صائحاً: «المقالات! المقالات!» ما من شيء في علبة بريد الصحيفة وليس بين يدي المنضدين إلا مقالي، وقد أوشكوا على الانتهاء منه.

قال إتيين: وصلنا للتوّ؛ وسنجد منضدة ومدفأة في غرفة جلوس فلورين، وسيؤمن لنا السيد ماتيفا الحبر والأوراق اللازمة لنكتب بسرعة مايتمّم عدد الصحيفة؛ بينما تنهي فلورين وكورالي زينتهما.

هرع كاردو، وكاموزو، وماتيفا إلى الخروج بحثاً عن الريش ولوازم الكتابة التي يحتاجها الكاتبان، وفي تلك اللحظة دخلت إحدى أجمل راقصات ذلك الزمن، توليا[1]، إلى الصالة وبادرت فينو بالقول:

«ياعزيزي تمت الموافقة لك على المئة اشتراك التي طلبتها دون أن تتكلّف الإدارة شيئاً فقد فرضتها على المنشدين والجوقة الموسيقية وأعضاء فرقة الباليه، ولم يعترض أحد، فصحيفتك مشهورة بظرفها، كما وافقت الإدارة على

(١) توليا: إحدى البطلات الروائية في **الملهاة الإنسانية**، أظهرها بلزاك في **المرأة السامية (رواية المستخدمون)** وغدت امرأة دو برويل بعد أن كانت خليلة الدوق دي رتوره، وبرزت في قصة **أمير من بوهيمية** وتبينت السيدة منينيجه في طبعتها لرواية **المستخدمين** الخلق المبهم لهذه الشخصية، وقد أدرجت توليا في **أوهام ضائعة** متأخرة، وحلت محلّ ماريا التي تحمل اسم ممثلة في البانوراما- دراماتيك، لكن لايمكن الخلط بينهما، فماريا البانوراما ليست راقصة وماريا بلزاك لاترقص في البانوراما.

تخصيصك بالمقصورات التي طلبتها أخيراً هاهي قيمة اشتراك الأشهر الثلاثة الأولى، فلاتدمرني؛ ومدت يدها تناوله ورقتين نقديتين.

صاح فينو: ياالخسارتي!، ذهبت افتتاحيتي للعدد سدى، ويجب الالتحاق بالصحيفة حالاً لحذف قدحي المعيب.

هتف بلونده الذي كان يتبع الراقصة مع ناتان، وخلفهما فرنووكلود فينيون: أية حركة رائعة، لاييس[١] الربانية، ستنضمين إلى مائدتنا هذه الليلة، ياحبي العزيز، وإلا سحقتك كما تسحق الفراشة مثيلتك في الحركات، وبصفتك راقصة، لن تثير موهبتك أية منافسة هنا، أمّا من ناحية الجمال فكلّ نساء هذه السهرة واثقات من فتنتهن ولن تظهر منهن أية غيرة.

عاد فينو للصياح: ياالهي! ياأصدقائي، دوبرويل، ناتان، بلونده، أنقذوني فأنا أحتاج إلى مايملأ خمسة أعمدة في الصحيفة.

قال لوسيان: سأعد عمودين عن مسرحية هذا المساء.

وقال لوستو: وسيشغل مقالي عموداً.

استأنف فينو: حسنٌ، ناتان، ڤرنو، دوبرويل، هيئوا لي دعابات الصفحة الأخيرة[٢]. وسيتمكن بلونده المقدام من التفضل علي بعمودي الصفحة الأولى الصغيرين، وسأجري بكل ذلك إلى المطبعة. ولحسن الحظ فإن عربة توليا تنتظرها على مدخل البناء.

قالت توليا: نعم، لكن الدوق فيها مع وزير الماني.

قال ناتان: لندعُ الدوق والوزير لينضمّا إلينا.

---

(١) لاييس LAIS: اسم حملته عدة راقصات وبنات هوى إغريقيات في عصور مختلفة (المترجم).

(٢) الصفحة الأخيرة التي اشتهرت باسم «ضربات المشرط» في صحيفة **الفيغارو**، و«ضربات العكازة في صحيفة **الشيطان الأعرج**، و«الصليات» في صحيفة **القرصان**، والتي أطلق عليها فينو لقب «دعابات الصفحة الأخيرة» كانت من أخطر الأسلحة التي استعملتها صحف المعارضة مما سيأتي ذكره في «الدراسة عن الرواية والمؤلف».

صاح بلونده: ألماني، إنّه شريّب جيّد، ومستمع جيّد، وسنقص عليه كثيراً من الحكايات الماجنة التي يمكن أن يكتب عنها إلي بلاطه.

قال فينو: لنختر من بيننا الشخصية الأكثر رزانة للنزول لدعوتهما. هيّا دو برويل، آتنا بما عرف عنك من بيروقراطية بالدوق دي رتوره والوزير. دع توليا تتأبّط ذراعك، ياالهي، كم أنت جميلة هذا المساء ياتوليا!..

قال ماتيفا شاحب الوجه: سنكون ثلاثة عشر.

هتفت فلورنتين الواصلة للتوّ، من الباب: بل أربعة عشر، فهاأنا أحضر لمراقبة لوردي كاردو.

قال لوستو: كما أن كلود ڤينيون يصحب بلونده.

رد بلونده وهو يمسك بيده محبرة: أتيت لكم به رجل شراب. ثم توجّه مخاطباً ناتان وڤرنو: وأنتما ماعليكما إلا الصمود أمام ستّ وخمسين زجاجة نبيذ سنشربها، أسكرا دوبرويل خاصة، فهو كاتب «فودفيل» وبإمكانه أن يوجّه بعض الوخزات اللاذعة، حفزاه ليروي طُرفه».

انصرف لوسيان المتحمس رغبة في إظهار كفاءته أمام هذه الشخصيات المتميزة إلى كتابة أوّل مقال له على ضوء شموع ورديّة أشعلها له ماتيفا قرب منضدة مستديرة في غرفة جلوس فلورين وخرج بالصفحات التالية:

البانوراما- دراماتيك

العرض الأوّل «القاضي في ورطة»

مسرحية معقدة في ثلاثة فصول. بداية تمثيل الآنسة فلورين، والآنسة كورالي، بوفّيه[١]

دخول وخروج، حديث ومداولات، ورواح ومجيء، بحث عن شيء، وعدم العثور على شيء، فالضجة في كل مكان. فقد القاضي ابنته، وعثر على قلنسوته، لكن القلنسوة ليست على مقاس رأسه، قد تكون قلنسوة لصّ. ولكن أين اللصّ؟ ويُدخل ويُخرج، ويتُحدث ويتنزّه، ويبُحث باطراد، وينتهي القاضي إلى العثور على رجل دون ابنته، وعلى ابنته دون رجل. وهذا مايرضي القاضي، لكنه لايرضي الجمهور، ويعود الهدوء ويريد القاضي استجواب الرجل. ويجلس هذا القاضي العجوز على ديوان القضاء العريض، وهو يُصلح من كُمّي جُبّته، فاسبانية هي البلد الوحيد التي يحرص فيها القضاة على أكمام واسعة، ويُرى حول أعناقهم هذه الأطواق من القماش المثنّى المنتفش التي تشكل في مسارح باريس نصف مهامها.

هذا القاضي الذي هرول مراراً بخطوات العجوز المصدور الصغيرة، هو بوفّيه؛ بوفيه خليفة بوتيه، والممثل الشاب[٢] الذي أتقن دور العجوز حتى أضحك أكبر المتقدمين عمراً بين العجائز. إن له مستقبل مئة عجوز في هذا الجبين الأصلع، وهذا الصوت المرتعش، وهاتين الساقين المرتجفتين في بنطال يلتصق بهما تحت جسم جيرونت[٣].

---

(١) ابتكر بلزاك عنوان هذه المسرحية الخيالية. ويبدو في هذا التقرير عنها محاكاة جانين (١٨٠٤-١٨٧٤) الكاتب والناقد، ويكفي كما فعل آ. آدم مقارنة أسلوب الأسطر الأولى مع تحليل جانين **لجلد الحبب** في مجلة الفنان عدد ١٤ آب ١٨٤٣١: «تسمعون ضجة كبيرة، يُدخل ويخرج، ويُصطدم، ويُصرخ، ويزُعق، ويلُعب، وينتشى، ويُجنُّ، ويتُحامق، ويُحتضر، وتُوجه اللطمات والقبلات، وعضّات التلذّذ، والنار، والحديد. هوذّا جلد الحبب.

(٢) ولد بوفيه في العام ١٨٠٠ ويبدو أن بلزاك قد نسي أنه قد عدّل الاسم إلى فينيول، أو أنه أراد تعايش الحقيقة مع الخيال كما سبق له في وضع لامارتين في مواجهة كاناليس، ولادفوغا في مواجهة دُوريا.

(٣) جيرونت (من الكلمة اليونانية جيرون وتعني العجوز) هو الاسم الذي يطلق على العجوز المثير للسخرية الذي يخدع غالباً من قبل أبنائه وخدمه في المسرحيات الكلاسيكية (المترجم).

بدا هذا الممثل الشاب على درجة من الشيخوخة يخشى فيها أن تعمّ كمرض سارٍ. لكن ياله من قاض يثير الإعجاب! يالابتسامته الجذّابة القلقة، وحماقته الكبيرة! أيّة وجاهة غبية! أي تردّد قضائي! كم يعرف هذا الرجل جيداً أن كلّ شيء يمكن أن يغدو على التناوب صحيحاً ومغلوطاً! كم هو جدير بمنصب وزير ملك دستوري! كان الرجل المجهول يجيب على كل طلب من طلبات القاضي بسؤال حتى غدا هو المستنطق والقاضي هو الظنين الذي يوضّح بإجاباته كل مايستفهم عنه؛ وأثار هذا المشهد بجوّه الهزلي الخالص المستمد من أسلوب موليير الضحك والسرور في القاعة، وبدا جميع الناس راضين عن المشهد؛ ولكنني غير قادر على أن أبين لكم ماهو واضح فيه وماهو غامض: ابنة القاضي هنا تمثل فتاة أندلسية حقيقية، اسبانية، بعينين اسبانيتين، وسحنةٍ اسبانية، وقامة اسبانية، ومشية اسبانية، اسبانية من رأسها حتى أخمص قدميها، بخنجرها المغمد في ربطة الساق، وغرامها الكامن في القلب، وصليبها المدلّى بشريط يحيط بعنقها. في نهاية الفصل، سألني أحدهم كيف تسير المسرحية، فقلت له: إنّ لها جوارب حمراء ذات حواف خضراء، وقدم بهذا الكِبر في حذاء مبرنق، وبأجمل ساق أندلسية! آه! يالابنة القاضي هذه، إنّها تسيل اللعاب حبّاً، وتثير فيك رغبات رهيبة، وتدفعك إلى أن تقفز على خشبة المسرح لتقدّم لها كوخك وقلبك، أو دخل ثلاثين ألف فرنك سنوياً وريشتك.

هذه الأندلسية هي أجمل ممثلة في باريس، كورالي، إذ يجب الإعلان عن اسمها وهي قادرة أن تكون كونتيسة أو فتاة لعوباً، ولانعلم أي الحالين سيكون أكثر إعجاباً. يمكنها أن تغدو ماشاءت، فقد خلقت لتمثل جميع الأدوار. أليس هذا أحسن مايُقال عن ممثلة في الجادة؟

«في الفصل الثاني وصلت اسبانية من باريس بوجهها الذي يشبه نقش جوهرة خاتم، وعينيها القاتلتين؛ وسألت بدوري من أين أتت، وقيل لي إنها خرجت من دهليز المسرح، واسمها الآنسة فلورين، لكن أقسم أنني لم أصدق

ذلك لما في حركاتها من استثارة، ومافي غرامها من فوران. وهذه المنافسة لابنة القاضي هي زوجة نبيل قُدَّ من أرومة ألماڤيڤا[1] القادرة على إنجاب مئة من كبار نبلاء الجادّة، وإذا لم يكن لفلورين جوارب حمراء ذات حواف خضراء، ولاحذاءٌ مبرنق، فإنّ لها خماراً وطرحةً، تعرف سيدةٌ نبيلة مثلها كيف تستخدمهما بشكل يثير الإعجاب. وقد أظهرت بإبداع أن باستطاعة النمرة أن تغدو هرّة، وأدركت من الكلمات اللاذعة التي تبادلتها الإسبانيتان أن بين الحنايا نار غيرة تتأجج. وعندما بدأ كل شيء يُسوّى، شوشت حماقة القاضي الوضع برمّته؛ وراحت هذه الجموع من المشاعل، والأثرياء، والخدم، والمزيّنين، والنبلاء، والقضاة، والفتيات، والنساء يذهبون ويعودون، ويدورون، وتعقدت الحبكة، وتركتها في تعقيدها، لأن هاتين الفاتنتين فلورين الغيور وكورالي السعيدة أغرقتاني في ثنيات تنورتيهما الباسكيتين وشفافية خماريهما، وجمال قدميهما الصغيرتين.

«أمكنني أن أصل إلى الفصل الثالث، دون حدوث سبب لأي أذى، أو قيام ضرورة لتدّخل مفوّض الشرطة، أو إثارة الاستنكار في القاعة، وآمنت آنذاك بمتانة الأخلاق العامة الورعة التي يُهتّم بها كثيراً في المجلس النيابي حتى ليكاد يقال إن فرنسة خلت من الأخلاق؛ واستطعت أن أفهم أن الأمر يتعلق برجل يحبُّ امرأتين دون أن تبادله الحبّ أيٌّ منهما، أو أنّهما تحبّانه دون أن يحبَّ أيّاً منهما، وهو لايحبُّ القضاة أو أن القضاة لايحبونه؛ لكنه بكل تأكيد، يحب أحداً ما، ذاته أو الله، كسبيل وحيد باق، إذ أنه سيدخل سلك الرهبنة. وإذا أردتم أن تعرفوا المزيد، فما عليكم إلا أن تسرعوا إلى البانوراما - دراماتيك؛ وهاأنتم قد أخطرتم بما يستلزم ذهابكم مرَّة أولى لتألفوا هذه الجوارب الحمراء الظافرة بحوافها الخضراء، وهذه الأعين التي تُرشّح شعاع الشمس، وهذه الرقة

---

(١) ألماڤيڤا: أحد شخصيات مسرحيتي حلاق إشبيلية، وزواج فيغارو لبومارشيه وهو مثال النبيل الجذّاب المستهتر(المترجم).

في باريسية تقنعت أندلسية، وأندلسية تقنعت باريسية. ثم عليكم أن تذهبوا مرة ثانية لتستمعوا بالتمثيلية التي تثير الضحك على شكل العجوز وتدفع إلى البكاء على شكل النبيل العاشق، وقد نجحت التمثيلية بالشكلين، بعد أن سعى المؤلف متعاوناً، على مايقال، مع أحد كبار شعرائنا، إلى الفوز وهو يمسك بكل يد من يديه فتاة عاشقة. وهكذا كاد يقتل متعة وانشراحاً جمهور نظّارته المتأثر، فكأنّ سيقان هاتين الفتاتين أكثر ظرفاً من فطنة المؤلف، لكن ماكادت المتنافستان تنصرفان حتى تجلّت فكاهة الحوار مما يبرهن على جودة متميزة للمسرحية، وأعلن اسم المؤلف وسط التصفيق الحاد، مما أقلق مهندس القاعة؛ لكن المؤلف الذي اعتاد على حركة المصفقين المأجورين[1] التي تفور كبركان فيزوف لم يرتعش. إنّه السيد دي كورسي. أمّا الممثلتان فقد رفضتا رقصة بوليرو إشبيلية التي حظيت في السابق بإعجاب آباء المجمّع المسكوني، وسمحت بها الرقابة رغم الخلاعة الخطرة في بعض المشاهد. هذا البوليرو[2] يكفي لجذب جميع العجائز الذين لايعرفون ماذا يفعلون بثمالة غرامهم، ودفعني الإحسان لتنبيههم إلى المحافظة على صفاء عدسات مناظيرهم.

بينما كان لوسيان يكتب هذه الصفحة التي أحدثت ثورة في الصحافة بالكشف عن طريقة جديدة ومبتكرة، كان لوستو بدوره يعد مقالاً في موضوع السلوك بعنوان **الغندور السابق** بدأه كالتالي:

(١) حظي المصفقون المأجورون بسلسلة من النعوت المشينة في الصحف الصغيرة: فهم «كتيبة التطبيب» و«زمرةالتطبيب القذرة» و«الزمرة الدنيئة» و«مرتزقة التلميع» و«فرسان التصفيق» و«العصبة السوداء» ويلاحظ أن بلزاك كان أميناً على أسلوب الصحيفة الصغيرة.

(٢) هذا البوليرو يذكّر **بالكاشوشا** التي رقصتها فاني إيسلر، ووصفها جانين في صحيفتي **الشيطان الأعرج والفنان** في تقريره عن هذا الباليه (في العام ١٨٣٦) وورد فيه: «لم يسبق للأختين إظهار مثل هذه البراعة في الرقص، كانتا خفيفتين، أنيقتين، جذّابتين» فهذان القوامان النسائيان ينسيان المؤامرة المتفككة. ثم رقصت فاني وحدها «البوليرو، البوليرو، الرقصة الاسبانية التي تستهوي القلب والروح وتقذف إليك بشابة تهتز أعطافها نشوة وهوًى في رقصة غرام سكرى! يجب التجرؤ على كل شيء عند الاستسلام إلى هذه الساعة من الجنون.

غندور الامبراطورية على الدوام رجل طويل ممشوق القامة، حريص على رشاقته يلبس مشداً ويحمل وسام جوقة الشرف، ويسمى بوتليه أو شيئاً من هذا القبيل؛ ومن أجل أن يتلاءم مع مجريات الوقت الحاضر أضاف بارون الامبراطور هذا لاسمه دالة النبالة فغدا دو بوتليه على أن يعود إلى بوتليه في حال قيام ثورة، فالرجل ذو وجهين كاسمه؛ وهو الآن منصرف إلى الغزل في ضاحية سان جِرمن، بعد أن كان المتباهي حامل الذيل المفيد والممتع لأثواب أخت هذا الرجل الذي يمنعني الحياء من ذكر اسمه، وإذا كان دو بوتليه يتنّصل من خدمته لدى صاحبة السمو الامبراطوري، فإنه مايزال يتغنى بمآثره مع المتفضلة الحميمة عليه.

كان المقال نسيج شخصيات حمقاء تقريباً، كما كانت تصوّر في ذلك العصر، لكن هذا النمط ازداد إتقاناً بعد ذلك، وخاصة من قبل **الفيغارو**؛ فقد وجد بين السيدة دي بارجتون التي يغازلها البارون شاتليه وعظم الحُبّار مماثلة مضحكة تسلّي دون الحاجة إلى معرفة الشخصين اللذين يُسخر منهما، وقورن شاتليه بمالك الحزين؛ وغراميات مالك الحزين لاتتمكن من ابتلاع عظم الحبّار الذي يتكسّر إلى ثلاث شظايا عندما يتعرض للسقوط فيثير ضحكاً لايقاوم. وكان لهذه السخرية التي تناولتها عدة مقالات صدى هائل في ضاحية سان جرمن، وكانت سبباً من ألف سبب وسبب للإجراءات الصارمة التي تضمنها قانون الصحافة. بعد ساعة من ذلك عاد بلونده، ولوستو ولوسيان إلى الصالة التي يتسامر فيها المدعوون والدوق والوزير مع النساء الأربعة والتجار الثلاثة ومدير المسرح، وفينو، والمؤلّفين الثلاثة. وحضر صانع يعتمر قبعة من ورق(١)يطلب مقالات للصحيفة، وقال:

---

(١) ملاحظة دقيقة وحقيقية من طبّاع قديم؛ وسبق لسيشار العجوز أن ذكّر في بدء عمله فتى في المطبعة بوضع قبعة من ورق على رأسه.

«العمال متعطلون وسينصرفون اذا لم أحمل إليهم شيئاً.

قال فينو: خذ هذه عشرة فرنكات، ولينتظروا.

- اذا أعطيتهم إياها ياسيدي ستحلُّ عربدة السكر محل التنضيد، ووداعاً للصحيفة. علق فينو ضاحكاً: هذا الفتى يرعبني بسرعة بديهته».

مرّت لحظة توقّع فيها الوزير مستقبلاً باهراً لهذا الفتى، ودخل خلالها الصحفيون الثلاثة وقرأ بلونده مقالاً فكها للغاية ينقد الرومنطيقيين. وأثار مقال لوستو الضحك، وطلب الدوق دي رتوره، كي لاتُستفزّ ضاحية سان جرمن تضمين المقال مديحاً غير مباشر للسيدة دسبار.

قال فينو للوسيان: «وأنت، أسمعنا ما كتبته».

عندما أنهى لوسيان قراءة مقاله، وهو يرتعش خوفاً، ضجّت الصالة بالتصفيق وقبّلت الممثلتان الصحفي المبتدىء، وعانقه التجار الثلاثة حتى كادوا يخنقونه، وشدّ دو برويل على يده والدمعة في عينه، ودعاه مدير المسرح إلى حفل عشاء.

وقال بلونده «لم يعد من مجال لتكرار عبارة شاتوبريان «أنت فتى رائع» التي وجّهها إلى فيكتور هوغو، لذلك دعني أقول لك بكل بساطة: إنَّك رجل فكر وقلب وأسلوب.

قال فينو وهو يشكر إيتيين موجهاً إليه نظرة المستغل: السيد من الآن فصاعداً أحد محرري الصحيفة.

قال لوستوموجهاً كلامه لبلونده ودوبرويل: ماذا أعددتما؟

قال ناتان: هوَذا ماكتب دوبرويل:

برؤية مدى إشغال الفيكونت آ * للجمهور، قال الفيكونت ديموستين: سأرتاح منهم على الأرجح[1].

قالت سيّدة لملكي متطرف كان ينقد خطاب السيد باسكيه، ويعدّه يسير على نهج دكاز[2]: نعم ولكن ربلتي ساقيه ملكية تماماً.

- قال فينو: إذا كانت هذه هي البداية، فلا أطلب أكثر من ذلك، فكل شيء على مايرام، ناول المقالات إلى فتى المطبعة قائلاً: هيّا إلى الصحيفة. ثم التفت إلى زمرة الكتاب الذين كانوا ينظرون إلى لوسيان بمراءاة وقال: سيكون هذا العدد من صحيفتنا مموّها لكنه أفضل أعدادنا.

- قال بلونده مشيراً إلى لوسيان: هذا الفتى صاحب فكاهة.

- قال كلود مينيون: إن مقاله جيدّ.

- هتف ماتيفا: إلى المائدة.

تأبطت فلورين ذراع الدوق بينما حرصت كورالي على أن تكون إلى جانب لوسيان أما الراقصة فكان بلونده والوزير الألماني مرافقيها من جانب وآخر.

- قال الوزير مخاطباً إيتيين: لا أعلم لماذا تهاجم السيدة دي بارجتون والبارون شاتليه الذي يقال أنه سمي محافظاً لشارنت ومديراً لمكتب العرائض.

- ردّ لوست: تخلت السيدة دي بارجتون عن لوسيان بعد أن أوقعته في غرامها.

---

(١) - الفيكونت آ *: هو الفيكونت آرلنكور، بالطبع، وكان مؤلف رواية «الناسك» المثير للسخرية أضحوكة الصحافة الصغيرة. أما ديموستين فهو سوستين دي لاروشفوكو الذي لايقل عنه حماقة. وقد سمي في العام ١٨٢٤ مديراً للفنون الجميلة، فعمد إلى تطويل أثواب الراقصات، ووضع أوراقاً مقصوصة بشكل وريقات كرمة على معروضات اللوفر الفنية العارية، وخلق ابتكاراً متميزاً في الأوبرا عندما فصل مقصورات النساء عن مقصورات الرجال. وكان لاكروا يهاجمه باستمرار ويطلق عليه دائماً اسم «الأحمق». وعمل سوستين جاهداً ليخفف من نقد الصحافة له حتى أنّه عقد اتفاقاً مع مجلة «عطارد القرن التاسع عشر» يدفع بموجبه مبلغ ١٥٠٠ ف لقاء عدم مهاجمته لمدة سنة بدءً من ١١ تشرين ثاني ١٨٢٥.

(٢) - باسكيه (١٧٦٧ - ١٨٦٢): رجل دولة فرنسي، عيّن رئيساً لمجلس الأعيان في عهد لويس فيليب ودكاز (١٧٨٠ - ١٨٦٠): رجل دولة فرنسي كان وزيراً للويس الثامن عشر وعرف بليبراليته.

- قال الوزير مستغرباً: رغم وسامته!

قدمت الوجبة الليلية في فضيات جديدة وخزفيات سيڤر[1] الشهيرة، وعلى غطاء وفوط مائدة مُدمسقة تعبر عن أبهة مرفهة. وكان الطباخ شيفه قد أعد أطباق هذه الوليمة، بينما اختار أشهر تاجر على ضفة سان برنار، صديق لكاموزو وماتيفا وكاردوخمورها، وكان لوسيان الذي يشهد لأوّل مرة الترف الباريسي ويشارك في الاستمتاع به، ينتقل من مفاجآة إلى أخرى مخفياً دهشته كرجل فكر وقلب وأسلوب وفقاً لقول بلونده.

همست كورالي في أذن فلورين وهما تعبران الصالة: ساعديني على أن أُسكر كاموزو بحيث يضطر إلى المبيت على أحد مقاعد منزلك.

ردّت فلورين مستعملة كلمة من المفردات الخاصة بلغة هؤلاء الفتيات: طبَّقت إذن صحفيك؟ أجابت كورالي مع حركة لطيفة من كتفيها تثير الإعجاب: كلا ياعزيزتي، لقد أحببته! رنت هذه الكلمات في أذن لوسيان يحملها هوى الخطيئة الرئيسة الخامسة[2]. كانت كورالي متأنقة بشكل رائع، وزينتها تبرز محاسنها المميزة، الكمالات الخاصة بكل امرأة دون سواها، فثوبها من قماش رائع مستحدث كثوب فلورين، هو قماش موسلين الحرير التي وصلت بواكيره بفضل إحدى العنايات الباريسية الخاصة، من مصانع ليون، إلى كاموزو بصفته صاحب متجر **الشرنقة الذهبية**. وهكذا فالعشق والزينة، وهذا الخضاب، وهذا العطر النسائي أذكت إغواءات كورالي السعيدة، فالمتعة المتوقعة، التي لايخفى مظهرها على أحد، تمارس غواية واسعة على الشباب. وربما كان اليقين بنيلها هو في نظرهم يساوي كل إغراء المواخير، وربما كان هذا اليقين هو سر الإخلاص الأمين المستمر؟

---

(١) - سيفر SEVRES: محلة جنوب غرب باريس أقيم فيها منذ العام ١٧٦٣ المصنع والمتحف الوطني للخزف والقيشاني الذي اشتهر في العالم أجمع. (المترجم)

(٢) - الخطيئة الرئيسة عكس العرضية وهي ملازمة لصاحبها وقد اصطلح على أنها سبعٌ: ١ - البخل ٢-الغضب ٣ - الحسد أو الشهوة ٤ - الشره أو الطمع ٥ - الفِسق أو الفجور ٦ - العجرفة أو الغرور ٧-الكسل. (المترجم)

والحبّ النقي الصادق، الحبّ الأوّل في آخر الأمر، المقترن بأحد هذه الهيجانات الغريبة التي تلسع هذه المخلوقات المسكينة، وكذلك الافتتان بوسامة لوسيان، ولّدت كلها عاطفة كورالي القلبية.

همست في أذن لوسيان وهما يأخذان مكانهما على المائدة: سأستمر على حبّك حتى لو حلّ بك القبح والسقم!.

أيّة كلمة يهمس بها لشاعر! لقد اختفى كاموزو، ولم يعد لوسيان يراه أبداً وهو يرنو إلى كورالي. أيمكن لرجل كلّه تمتع وإحساس، ملول من رتابة المقاطعة، مُنجذب بلجج باريس، منهك بالبؤس، منكّد بعفته الاضطرارية، متعب من حياته الرهبانية في شارع كلوني، ومن مساعيه الخائبة، أيمكنه أن ينسحب من هذه المأدبة العامرة؟ إن للوسيان الآن رجلاً في سرير كورالي، وأخرى في دبق الصحيفة التي بذل كل جهد دون أن يتمكن من اللحاق بها، وبعد عديد من النوبات التي قام بها عبثاً إلى شارع سنتيه[1]، ها هو الآن يجد الصحيفة وهو جالس إلى مائدة، يأكل ويشرب هنيئاً مريئاً، وهو سعيد مزهو بشبابه. لقد انتقم من جميع آلامه الماضية بمقال سيُنشر نهار غدٍ ليخترق صدر شخصين ويكيل لهما صاع الألم والغيظ الذي سقياه إياه صاعين. ونظر إلى لوستو وهو يقول في نفسه: «هوذا صديق!» دون أن يخامره شك بخشية لوستو منه منافساً خطيراً. فقد أخطأ لوسيان بإظهار كل براعته، فمقال باهت كان أفضل له وهو يفي بالغرض، وكان بلونده معبراً عن الغيرة التي تنهش لوستو عندما قال لفينو بوجوب الرضوخ إلى موهبته بمثل هذه القوة، وأملى هذا الحكم على لوستو سلوكه فقرَّر أن يبقى صديقاً للوسيان، وأن يتفاهم مع فينو في استثمار وافد جديد بمثل هذا الخطر، مبقياً إياه لحين الحاجة كان هذا قراراً سريعاً أدركه هذان الرجلان بجميع أبعاده واتفقا عليه بعبارتين قيلتا همساً: إنه صاحب موهبة - سيصعب إرضاؤه - أوه! - حسن!

---

(١) - سبق للمؤلف أن حدّد شارع سان فياكر مركزاً لمكاتب الصحيفة الصغيرة وها هو الآن يعيده إلى شارع سنتيه أي إلى ذات العنوان الذي ذكره في رواية **المتصيِّدة**.

- قال الدبلوماسي الألماني بطيبة قلب هادئة وقور وهو ينظر إلى بلونده الذي تعرف عليه لدى الكونتيسة دي مونكورنه: لا أحضر مأدبة عشاء مع صحفيين فرنسيين إلا وأرتعب، فهناك كلمة لبلوشر[1]، أنتم مكلفون بالوفاء بها.

- سأله ناتان: أية كلمة؟

- عندما وصل بلوشر إلى تلال مونماوتر مع ساكِنْ في العام ١٨١٤، واغفروا لي ياسادة، إعادتكم إلى تلك البرهة المشؤومة بالنسبة لكم، قال ساكن، وكان رجلا فظاً قاسياً:

سنحرق إذن باريس! . أجاب بلوشر وهو يشير إلى داء فطريات رقيّة كان ينخر جذوع الأشجار بشدة فتبدو وهي تكاد تتهاوى تحت أقدامهما في وادي نهر السين: «احذر ففرنسة لاتموت إلا من هذا[2]». ثم تابع الوزير بعد لحظة تفكير: إنني أشكر الله لعدم وجود صحف في بلادي، فأنا ما أزال تحت وطأة الذعر الذي أحدثه في نفسي هذا الفتى المعتمر قبعة ورقية، والذي يمتلك محاكمة ومنطق دبلوماسي عريق، ويبدو لي إنني في هذا المساء أجلس إلى مائدة وحولي سباع وفهود يشرفونني بعرض براثنهم في قفازات مخملية.

- قال بلونده: من الواضح أن بإمكاننا القول والبرهان لأوروبة أن معاليكم تقيأ ثعباناً لم يستطع أن يلدغ الآنسة توليا أجمل راقصاتنا، وعندها لجأتم إلى قصة حواء في التوراة وأفضتم في التعليقات على الخطيئة الأولى والأخيرة، ولكن اطمئن فأنت ضيفنا.

- قال فينو: لو فعلتم لكانت فكاهة بارعة.

---

(١) - بلوشر (١٧٤٢ - ١٨١٩): قائد بروسي، برز في معركة فرنسة ١٨١٤، لكن نابوليون تمكن من دحره في معركة لينيين العام ١٨١٥، إنما استطاع أن يصل في الوقت المناسب لنجدة ولينغتون في معركة واترلو ولهزيمة نابوليون.

(٢) - في الأقوال المأثورة عن نابوليون وحكمه ينسب بلزاك قولاً مماثلاً للامبراطور: لن تموت فرنسة إلا من باريس.

- وقال لوستو: يمكننا طباعة دراسات علمية عن جميع الأفاعي الموجودة في القلب والجسم البشريين لنصل إلى الجسم الدبلوماسي.

- وقال فرنو: يمكننا أن نبرهن على وجود ثعبان ما في هذا الإناء المملوء بالكرز المغطس بالمشروب الكحولي.

- وقال ڤينيون للدبلوماسي: وستقتنع تماماً بوجوده.

- صاح الدوق دي رتوره: لاتوقظوا براثنكم الهاجعة ياسادة.

- قال فينو: إنّ تأثير الصحيفة وقدرتها مايزالان في فجرهما، فالصحافة في طفولتها وستكبر وسيخضع كل شيء فيها للدعاية، والفكر سينور الجميع، إنه...

- قاطع بلونده فينو: ويلطخ كل شيء.

- قال كلود فينيون: هذه كلمة.

- وقال لوستو: وستصنع ملوكاً.

- وعلق الدبلوماسي: وستحاكم الملكية.

- قال بلونده: وهكذا لو لم توجد الصحافة لوجب ابتكارها[1]، ولكن ها نحن نعيش.

- قال الدبلوماسي: وستموتون، ألا ترون أن تفوق الجماهير بفرض هدايتكم لها، سيصعّب سمو الفرد ويبذر المحاكمة العقلية في قلب الطبقات الدنيا ستحصدون الثورة، وستكونون أوّل ضحاياها. ما الذي يُحطم في باريس عندما تحدث فتنة؟

- قال ناتان: مصابيح الشارع، لكن سنكون سذجاً إن ساورتنا المخاوف، وسنغدو مخبولين.

- قال الوزير: إنكم شعب نبيه جداً إلى درجة لاتسمحون فيها لأية حكومة

---

(١) - ورد هذا القول في آخر حكمة من **«دراسة عن الصحافة الباريسية»** لبلزاك (١٨٤٣) وثبتت بنصها في مخطوطة: **رجل كبير من المقاطعات**.

أن تسيطر وإلا لجددتم بأقلامكم الغزو الكاسح لأوروبة بعد أن عجزت سيوفكم عن الاحتفاظ بها.

- قال كلود ڤينيون: الصحف شرّ، ويمكن الاستفادة من الشر، لكن الحكومة تريد مكافحته، وسيقوم الصراع. فمن سيرضخ؟ هذه هي المسألة.

- قال بلونده: الحكومة، أنا أقتل نفسي صائحاً في وجهها. الفكر في فرنسة أقوى من كل شيء، وللصحافة زيادة عن فكر جميع الرجال الأذكياء، رياء طرطوف.

- قال فينو: بلونده! بلونده! ذهبت بعيداً، فلدينا مشتركون هنا.

- ردّ بلوندة: إنك تملك أحد هذه المستودعات الحاوية على السموم، وحقك أن تخاف، أما أنا فلا أبالي بجميع دكاكينكم، ومع هذا فأنا أحيا.

- قال كلود ڤينيون: بلونده محق، فالصحيفة، بدلا من أن تكون مرجع فتوى، غدت وسيلة للأحزاب، ومن الوسيلة إلى المتاجرة، وكجميع صنوف المتاجرات، لاخلق لها ولا دين، فكل صحيفة، كما قال بلونده، دكان يباع فيه للجمهور كلمات باللون الذي يريده! ولو وجدت صحيفة للأحداب لتغنت صبحاً ومساءً بجمال، وطيبة وضرورة الحدبات. فالصحيفة لم تعد موجودة لتهدي، بل لتداهن الآراء، وهكذا فجميع الصحف ستغدو في وقت ما جبانة، منافقة، معيبة، كذابة، مجرمة، ستقتل الأفكار والأنظمة والناس، وسيكون هذا سبب ازدهارها بالذات، فستنتفع من حكمة جميع أهل الحجى: فالشر سيقع دون أن يُدان أحد بذنب، وسأكون أنا فينيون، وستكونون أنتم، يالوستو، وبلونده، وفينو، مماثلين لأريستيد، وأفلاطون، وكاتون، وبلوتارك[1]، سنكون جميعاً أبرياء ونتمكن من

(١) - أريستيد (٥٤٠ - ٤٦٨ ق.م): رجل دولة وقائد إغريقي إتيني، لقب: البار.
أفلاطون (٤٥٧ - ٣٤٧ ق.م): الفيلسوف اليوناني الشهير.
كاتون (٢٣٤ - ١٤٩ ق.م): رجل دولة روماني من كبار الخطباء والكتاب باللغة اللاتينية.
بلوتارك (٥٠ - ١٢٥): مؤرخ يوناني شهير.

غسل أيدينا من كل شقاء، وقد ذكر نابوليون سبب هذه الظاهرة الأخلاقية، أو اللاأخلاقية - لكم أن تصفوها كما تشاؤون - في كلمة سامية أملتها عليه دراساته عن المؤتمر الوطني فقال: **لاتقع مسؤولية الجرائم الجماعية على أحد**[1]. ويمكن للصحيفة أن تجيز لنفسها السلوك الأكثر بشاعة دون أن يشعر أي من العاملين فيها أن هذا معيب له شخصياً.

- قال دوبرويل: ولكن للسلطة قوانينها الرادعة، وهي تعدّها الآن.

- قال ناتان: وماذا يستطيع القانون أن يفعل تجاه العقلية الفرنسية، الأكثر نفاذاً من جميع المذيبات.

- وتابع ڤينيون: لايمكن للأفكار أن تُحيد إلا بالأفكار، فالإرهاب والاستبداد يمكنهما وحدهما خنق العبقرية الفرنسية التي تستجيب لغتها بشكل مدهش للتلميح، وللتعابير ذات المعنيين[2]، وكلما كان القانون زجرياً كلما تفجر الفكر كبخار في ماكنة ذات صمام[3]. وهكذا فالملك يقوم بالأعمال الطيبة، أما إن كانت الصحيفة ضده، فالوزير الأول هو صاحب هذه الأعمال، والعكس

---

(١) - المؤتمر الوطني: هو المؤتمر الذي حكم فرنسة في عهد الثورة من ١٧٩٢ إلى ١٧٩٥ وأعلن الجمهورية، وحكم بالإعدام على الملك ونشر الإرهاب، وهذه الحكمة وردت في حكم نابوليون وأفكاره لبلزاك.

(٢) - من المعروف أن الصحافة السياسية قد عجلت بسقوط البوربونيين لكن دور الصحافة الصغيرة الأدبية - صحافة هؤلاء الذين يتحدثون - غير معروف تماماً فقد كانت تتحرك بمهارة في حدود التلميح والتهديد، وتمتنع عن دفع الرسوم التي تسمح لها بالتطرق إلى المواضيع السياسية وكانت هذه الصحف وهي النظارة والبندور (القيثارة)، والشيطان الأعرج، والقرصان، والألبوم، والفيغارو وغيرها، توجه النقد، دون الإخلال بالقانون، لأعضاء الوزارة ولسياسة الحكومة وبعد ذلك إلى الملك نفسه، فكانت النكتة والشواهد الأوروبية، ورد فعل الجماهير والتلاعب البياني بالألفاظ «الجناس»، والمعلومات المناخية المزيفة تمر بسهولة عبر شباك المراقبة.

(٣) - ترى الآنسة ب. كنيدر التي تحضر مؤلفاً عن إميل دي جيراردين (١٨٠٦ - ١٨٨١) في هذه العبارات لڤينيون، بعض الأفكار والصور الشائعة عن الصحفي الشهير. الذي كتب في العام ١٨٣٥ عندما أرادت قوانيننا أن تتلافى أخطار الصحافة اقتصرت على تركيز القوى حتى الانفجار، واستمر جيراردين على هذا الرأي بذات العبارات في مناسبات عديدة.

بالعكس. وإذا اختلقت الصحيفة غيمة مشينة عوتبت من السلطة عليها، وإن كان المتذمر فرداً اعترض على تذمره باسم الحرية الكبيرة المتسامحة، وإن لجأ إلى المحاكم قيل له إنه لم يطلب من الصحيفة إجراء التصحيح، ولكن إن طلب ذلك؟ رُفض طلبه مع ابتسامة عريضة، فما يعتبره جريمة ليس إلا أمراً تافها. فإن استمرّ في دعواه وانتصرت الصحيفة فستسخر من ضحيتها وتهزئه، أما في حال معاقبتها بدفع غرامة فستعدّ الشاكي عدواً للحريات وللبلاد وللأنوار، وهو لص وصاحب الصحيفة أشرف رجل في المملكة. وهكذا فجرائم الصحيفة توافه، ومهاجموها وحوش، ويمكنها في كل وقت أن تقنع الأشخاص الذين يقرؤونها كل يوم بما تريد، ثم فالشيء الذي لايعجبها ليس وطنياً، وهي لاتخطىء أبداً، وتستخدم الدين ضد الدين، والشرعة ضد الملك، وتسخر من الهيئة القضائية عندما تتكدّر منها، وتمدها عندما تساير الأهواء الشعبية، ولأجل اكتساب المشتركين تبتكر القصص الأكثر تحريكاً للمشاعر، وتقوم بعروض التباهي كبوبيش[1]، وتقدّم أباها، نيئاً متبلاً بالملح، عرضة لسخرياتها لقاء تسلية جمهورها واستمالته. إنّها الممثل يضع رماد ولده في إجانةٍ* ليبكي حقيقة، والعشيقة تضحي بكل شيء في سبيل عشيقها...

صاح بلونده مقاطعاً فينيون: إنّها أخيراً، الشعب مصغراً على ورقة.

تابع فينيون: الشعب المرائي دون شهامة، الذي سيطرد من أحضانه كلّ موهبة كما طردت أثينة أريستيد. وسنرى الصحف المدارة في البدء من قبل أشراف الرجال تسقط بين يدي غير الأكفاء الضعفاء الذين يتصفون بالجبن والأناة ويستخدمون المحاة والممسحة اللتين تأنف منهما العبقريات الصادقة أو تنتقل إلى العطارين الذين يمتلكون المال لشراء الأقلام. نحن نرى منذ الآن هذه الأشياء! ولكن خلال عشر سنوات سيخيل لأول فتى يتخرج من الكلية أنّه غدا رجلاً ذا شأن، وسيبرز نفسه في عمود من صحيفة ليوجه صفعة للمتقدمين عليه،

---

(١) - بوبيش Bobeche مؤلف وممثل استعراض، ومهرج في عهد الامبراطورية و الملكية الثانية، كان يقوم باستعراضاته مع شريكه في التهريج غاليمافرة في جادة التامبل.

* الإجانة: وعاء أو جرّة كان القدماء الذين يتبعون تقليد حرق الموتى يضعون فيها رماد موتاهم ويطلق عليها اسم المَرْنَدة.

وسيسحبهم من أقدامهم ليأخذ مكانهم. كان نابوليون على حق في لجم الصحافة، وأنا أراهن على أن الصحف المؤيّدة للمعارضة الآن، وفي حال قيام حكومة ممن تناصرهم، ستقوم بتوجيه القدح والذم لها، وبذات الحجج وذات المقالات الموجهة الآن ضد الملك، في اللحظة التي ترفض تلك الحكومة لهؤلاء الصحف أي مطلب. ومهما تجر تنازلات للصحفيين تزدد صعوبة إرضاء الصحافة، إذ سيحل صحفيون جياعٍ فقراء محل زملائهم مُحَدثي النعمة، فلا برء من الجرح، وسيكون أكثر فأكثر خبثاً وقحة كلما ازداد التغاضي عنه إلى أن يأتي يوم تحل فيه البلبلة في الصحف لكثرتها كما حلت ببابل، فنحن نعلم، جميعاً مادمنا موجودين أن الصحف ستكون أكثر إنكاراً للجميل من الملوك، وأكثر مضاربة وجشعاً من أقذر ممارسة تجارية سعياً لافتراس عقولنا لبيع مشروبها الكحولي المخي كل صباحٍ ولكننا سنستمر نكتب فيها كأولئك العمال الذين يستثمرون منجم زئبق، وهم يعلمون أنهم سيموتون فيه. هوذا هناك، إلى جانب كورالي، شاب.. ماإسمه؟ لوسيان! إنه وسيم، وماهو أفضل وأعلى قدراً بالنسبة له، رجل فكر، لكنه سيدخل في بعض هذه الأماكن المفسدة للفكر والمسماة صُحفاً، وسيطرح فيها أجمل أفكاره. وسيجفُّ مخه فيها وستفسد روحه، وسيرتكب تلك الدنايا المفضلة التي تحلُّ في حرب الآراء محلّ المكائد، والسلب والنهب، والحرائق، وتغيير وجهة المراكب في حرب **المرتزقة**، وعندما سيستنفد، كالآلاف غيره، عصارة نبوغه لصالح المساهمين، سيتركه تجار السموم هؤلاء يموت من الجوع إن كان عطشاناً، ومن العطش إن كان جائعاً.

– قال فينو: شكراً.

– قال كلود فينيون: ولكن، ياإلهي، إنني أعرف هذا، فأنا في سجن الأشغال الشاقة ويسرني وصول محكوم جديد، وأنا وبلونده أقوى من هؤلاء السادة الذين يضاربون على مواهبنا، ومع ذلك سنبقى دائماً مستغلين من قبلهم، إذ إننا نملك إلى جانب عقلنا قلباً وتنقصنا صفات المستغلّ الشرسة، ونحن نركن إلى الكسلِ وننصرف إلى التأمل ونسرح مع الخيال ونتسرع في إصدار الأحكام: وستُحتَسى عصارةُ مخنا، وستُتهَم بسوء السلوك.

– هتفت فلورين: اعتقدت أنكم ستغدون أكثر فكاهة.

قال بلوندة: فلورين على حق. لنترك معالجة الأمراض العامة لهؤلاء

المشعوذين من رجال الدولة، وكما صور شارله[1]: أنكون كذلك المتذمر الذي يبصق على عنب القطاف؟ أبداً!

- قال لوستو وهو يشير إلى لوسيان: أتعلمون بما يذكّرني فينيون؟ بإحدى تلك المومسات البدينات في شارع بليكان أشفقت على طالب كلية وقالت له: ياصغيري ماتزال فتياً على المجيء إلى هنا...

أضحكت هذه الإشراقة الحضور، وأعجبت كورالي، بينما كان التجار يستمعون، وهم منصرفون إلى الطعام والشراب.

- قال الوزير للدوق دي رتوره: «أية زفة هذه التي يصادف فيها مثل هذا الخير ومثل هذا الشر. أيها السادة أنتم من الكرماء الذين لن يدمرهم سخاؤهم[2]»

(١) - شارله، نيكولا (١٧٩٢ - ١٨٤٥): رسام وطباع حجر، صور المشاهد العسكرية النابوليونية، وطبع رسوماً كاريكاتورية ناقدة للمتذمرين. لكن الرسم الذي يلمح له بلزاك غير محفوظ في متحف الصور المطبوعة في المكتبة الوطنية، كما أن السيد لاكومب الذي أعد فهرساً عن أعمال شارله اللتيوغرافية لم يُشر إلى مثل هذا الرسم.

(٢) - يمارس بلزاك بتقويله أشخاصه هذه المرافعة ضد الصحيفة ماسبق أن سخر منه أحياناً: التوقع الخاص بالماضي. لكنه توقع يتمُّ هنا بطريقة حاذقة في مهاجمة مواجهة لخصومه في العام ١٨٣٩ عبر مؤلف تركيبي يعود في أحداثه إلى عهد ملكية لويس الثامن عشر. بالرغم من تعذر التطابق الصحيح مع المرحلة التاريخية. وقد نشرت صحيفة جيراردين **«لابريس»** هذا المشهد في افتتاحية، ولايدهشنا أن يعترف جيراردين بأنه وراء بعض الأفكار فيها. ويبدو أن بلزاك كجيراردين يقدر أن إجراءات القمع ضد الصحافة تخلق احتكار «الخبر» بالصحف الأكثر ثراء. ولكن من الخطأ أن نحمل بلزاك بشكل آلي، وفق الطريقة المعروفة بالملغمة آراء شخصياته. ولنلاحظ أولا أن فينيون يناقض نفسه، إذ يبدو أنه يلوم الحكومة لأنها كافحت شراً، وجب عليها أن تستغله، ثم يحكم بصواب إجراءات نابوليون في لجم الصحافة، وبمقدار مايسترسل فينيون في الكلام ونشوة الشراب، يبدو في حدته، ينفث حقده وضيق خلقه كإنسان فاشل، وهكذا طغت الشخصية على مبدعها، فجيراردين لم يكن ليوافق على عبارات فينيون المرّة ضد الشعب، ولاعلى التهكمات الساذجة لصحيفة **«المناقشات»** القليلة الخبرة، أما بلزاك فقد قام بمهمة هذا النموذج من الصحفيين في **دراسته عن الصحافة الباريسية**، حيث تتبعه شخصياته • على الأرجح - عندما يشجب تزايد تقييد الرأي برؤوس أموال شركات الصحافة - ماذا فكر جيراردين؟ - بهؤلاء العطارين الذين يملكون المال لشراء الأقلام، أو عندما يدين قلة وجدان الصحفيين وجبنهم (وأعطى بلزاك مثالاً طيباً عن استقلالية الصحيفة ورزانتها وهو على رأس محليات باريس). ويجب عدم النسيان أخيراً، أن هذا العزف الجماعي «التوتي» خلال سهرة فلورين، يلعب في بنية الرواية ذات الدور الذي لعبه «مونولوج» لوستو المؤثّر في حديقة اللوكسمبورغ، إنه الهجوم الثاني لباريس ضد أوهام المقاطعات، والمرحلة الحاسمة في تدريب لوسيان. فلهذه الصفحة، بالنتيجة وظيفة فنية جمالية، بقدر وظيفتها الإيديولوجية.

وهكذا بمصادفة مباركة لم يعد ينقص لوسيان أية معلومة عن منحدر الهاوية التي سيسقط فيها، فدارتز قد وضع الشاعر على درب العمل النبيل بإيقاظ العاطفة التي تختفي تحتها جميع العقبات، وجرّب لوستو نفسه أن يبعده بتفكير أناني يصور له الصحافة والأدب في موقعهما الحقيقي، ولم يُرد لوسيان الاقتناع بهذا القدر الكبير من المفاسد المخفية، لكنه سمع أخيراً صحفيين يشكون همهم، ورآهم في شغلهم يبقرون بطن مرضعتهم ليستشفوا المستقبل، ورأى في تلك الأمسية الأشياء كما هي في الواقع، وبدلاً من أن ينتابه الذعر من مظهر صميم هذا الفساد الباريسي، الناخر كالداء الوبيل الذي أشار إليه بلوشر، أنس بنشوة إلى هذه الشلة المرحة، ووجد هؤلاء الرجال الغريبين تحت الشكَّة المرصعة بفجورهم والخوذة اللماعة لتحليلهم البارد أسمى من رجال المنتدى الرزينين الجادين. ثم إنّه تذوق أول ملذات الغنى ووقع تحت سحر الترف وسلطان الأطعمة الفاخرة، واستيقظت غرائزه النزوية وهو يشرب لأول مرة الخمور المعتقة ويتعرف على أطباق المآكل التي يتفنن بها المطبخ الرفيع، ويجتمع مع وزير، ودوق وخليلته الراقصة، ويعيش في جو الصحفيين مندهشاً من قدرتهم المريعة. وأحس برغبة ملحة رهيبة في السيطرة على عالم هؤلاء السلاطين، وشعر في نفسه القوة على قهرهم، أخيراً تأمل كورالي هذه التي أسعدها ببعض العبارات، فبدت له على ضوء شموع الوليمة، وعبر أبخرة الأطباق، وضباب نشوة السكر، في منتهى الروعة، بعد أن زادها الحب فتنة، وهي الفتاة الأكثر ملاحة، والممثلة الأكثر جمالاً في باريس، وأمام كل هذه المغريات بمنتهى الكمال وجب على المنتدى هذا السماء من الفكر النبيل أن ينهار، عدا عن أن الزهو الخاص بالمؤلفين قد دُغدغ لدى لوسيان من قبل أهل الخبرة، إذ أطنب منافسوه المستقبليون في مدحه، ونجاح مقاله وافتتان كورالي به انتصاران يفتلان رؤوساً أقل شباباً من رأسه. وخلال هذا النقاش كان جميع الحضور يتلذذون بشكل ملحوظ بالأكل ويظهرون تفوقهم في الشرب، وصب لوستو، جار كاموزو على المائدة مرتين أوثلاث مرات بعض الكيرش في كأس نبيذ كاموزو دون أن يلاحظ أحد فعلته وحثّ غروره على التورط في مزيد من الشراب، وخفيت الخدعة بحسن

تدبيرها على التاجر الذي يعتقد أنه في هذا المجال يمثل مكر الصحفيين. وبدأت الممازحات الماجنة في اللحظة التي دارت بها أطايب الحلويات والفواكه والخمور تدور، وأشار الدبلوماسي، السريع البديهة، إلى الدوق والراقصة، عند سماعه أول جعجعة الحماقات التي تعلن لدى هؤلاء الظرفاء المشاهد المضحكة التي تنتهي بها حفلات السكر، واختفى الأشخاص الثلاثة. وما أن غاب كاموزو عن وعيه حتى تسلّل لوسيان وكورالي عبر سلم النجاة وهربا في عربة بعد أن قضيا السهرة كعاشقين في الخامسة عشر من العمر. ولما كان كاموزو تحت المائدة، خيل لماتيفا أنّه ذهب بصحبة الممثلة، وترك ضيوفه يدخنون ويشربون، ويضحكون، ويتجادلون، وتبع فلورين عندما انسحبت إلى غرفة نومها. وفاجأ نور الصباح المناضلين، أو بالأحرى، بلونده الشريب الجسور الصامد، وهو الوحيد الذي استطاع الكلام، واقترح على النيام نخباً على شرف الفجر المطل بأصابع من ورد[1].

لم يكن لوسيان معتاداً على حفلات السكر الباريسية، وكان مايزال متمتعاً بوعيه عندما نزل السلالم، لكن نسيم الليل كشف سكرته وأظهر شناعتها، واضطرت كورالي ووصيفتها أن تحملا الشاعر إلى الطابق الأول من المنزل الجميل الذي تسكنه الممثلة في شارع فندوم، وشعر لوسيان بالضعف المخزي وهو مريض لايقوى على السير.

- صاحت كورالي: «هيا يابرنيس، أعدّي الشاي!

- قال لوسيان: هذا لاشيء، إنها برودة الليل، ثم لم يسبق لي أن أسرفت في تناول الخمر.

- قالت برنيس وهي نورماندية بدينة تتصف بالدمامة بقدر ماتتمتع كورالي بالجمال:

«يالفتى المسكين! إنّه وديع كحمل».

أخيراً وضع لوسيان وهو لايعرف مكان وجوده، في سرير كورالي، بعد أن

---

(١) - صورة هوميرية ساحرة مقترنة بتذكّر الصفحات الأخيرة من حوار الوليمة لأفلاطون.

قامت الممثلة تساعدها برنيس بتجريده من ثيابه بعناية الأم وحنانها نحو طفلها الصغير، والشاعر يردّد: «هذا لاشيء، إنّها برودة الليل، شكراً ماما.

هتفت كورالي وهي تقبل شعره: ما ألطفه وهو يقول ماما!

قالت برنيس: أيّة متعة في عشق مثل هذا الملاك، ياآنسة، أين اصطدته؟ لم يُخيل لي أن بالإمكان وجود رجل وسيم بقدر جماله.

أراد لوسيان النوم وهو لايعرف أين هو، ولايرى شيئاً، وسقته كورالي عدة كؤوس شاي، ثم تركته في إغفاءه عميقة.

قالت كورالي: أعتقد أنّ البوابة لم ترنا، ولم يرنا أحد آخر.

- كلا، كنت أنتظرك.

- وفيكتوار لايعرف شيئاً.

- ردّت برنيس: على الأغلب.

عند الظهر، وبعد نحو عشر ساعات نوم، استيقظ لوسيان وعينا كورالي تشعان عليه دفئاً وحناناً، وأدرك الشاعر كل شيء، فالممثلة ماتزال في ثوبها الجميل المبقع بشكل كريه، ثوب ستجعل منه ذخيرة للذكرى، وتعرف لوسيان على تفاني الحب الحقيقي ورهافته، وهو ينتظر مكافأته، ونظر إلى كورالي التي تعرّت في لحظة، وانزلقت كأفعى قرب لوسيان، وحتى الساعة الخامسة بقي الشاعر في السرير تهدهده اللذات الفائقة، واستشف مرقد الممثلة الرائع المترف الأبيض والوردي، غرفة نوم هي عالم من العجائب والتأنقات المنشورة التي تجاوزت ما أثار دهشة لوسيان سابقاً لدى فلورين. وكانت كورالي واقفة لتتهيأ للعب دور الأندلسية، إذ يجب أن تكون عند الساعة السابعة في المسرح، ورنت مرة أخرى إلى شاعرها بعد أن عاد إلى النوم مبتهجاً، كانت منتشية دون أن تستطيع الارتواء من هذا الحب النبيل الذي يضم قلباً يتفجّر عواطف وأحاسيس شهوة، قلباً ينبض بالمشاعر وحواسّ تسعى إلى المتع تستثار معاً. وأيّ كائن لايجد لنفسه العذر في

الافتتان بجمال لوسيان الذي فاق وسامة البشر؟ وجثت الممثلة قرب هذا السرير، سعيدة بالحب لذاته، وأحست بالطهر والقدسية، تلك القدسية، التي تتيح كينونة اثنين في هذه الدنيا، والشعور بأنهما واحد في السماء ليتحابا[1]، كانت غفراناً لها. لكن استمتاعها تعكَّر بصوت برنيس تصيح: هوذا كاموزو، إنّه يعلم بوجودك هنا.

هب لوسيان واقفاً تدفعه شهامة فطرية لدرء الأذى عن كورالي، ورفعت برنيس ستارة، ودخل لوسيان إلى حجرة حمام رائعة حملت إليها خليلته ووصيفتها بسرعة خارقة ثيابه. وعندما دخل التاجر لاحظت كورالي أن جزمة الشاعر ماتزال في الغرفة حيث وضعتها برنيس بعد أن نظفتها ولمعتها ليلة أمس قرب المدفأة لتجف، وهكذا سهت الخادمة ومعلمتها عن هذه الجزمة المتهمة، وتبادلت برنيس مع سيدتها نظرة قلق وهي تغادر الغرْفة. وغرقت كورالي في كنبتها، وطلبت من كاموزو أن يجلس على كرسي غوندولي الشكل قبالتها، ونظر الرجل الخدوم إلى الجزمة، ولم يجرؤ، أن يرفع عينيه إلى خليلته.

تساءل في نفسه: «هل يجب أن أغضب بسبب هذه الجزمة وأتخلى عن كورالي؟ هذا يعني أنني اغتظت لأمر تافه. فالجزَم موجودة في كل مكان، وهذه جديرة بواجهة متجر أحذية أو للتنزه في الجادات وهي في ساقي رجل، غير أنها دون ساقين تنطق بأشياء كثيرة معاكسة للوفاء. إنني في الخمسين من العمر، هذا صحيح: ويجب أن أكون أعمى كالحب».

هذه المفاجأة الجبانة لم تجد عذراً، فهذه الجزمة ليست حذاء كهذه الأحذية السائدة اليوم، والتي يمكن لرجل غافل ألا يراها أو يتظاهر بعدم رؤيتها، لكنها جزمة ذات ساق طويلة على طراز العصر، جزمة كاملة أنيقة جداً، ذات زينة كشمرتي بلوط يمكن أن تلتمعا على سروال ضيق فاتح اللون، وهي تبرق فتعكس ماحولها كأنها مرآة.

---

(١) - هذا هو المعتقد السويدنبرجي الذي عبّر عنه بلزاك في رواية «سرافيتا».

وهكذا فهي تفقأ عيني تاجر الأقمشة الحريرية الأمين، بل لنقل إنها تفجر قلبه.

سألته كورالي: مابك؟

- ردّ مرتبكاً: لاشيء.

ابتسمت كورالي من جبن كاموزو. وطلبت منه أن يقرع الجرس، وما أن أطلت الخادمة النورماندية حتى قالت لها، برنيس، هيئي لي كلابين لأتمكن من انتعال هذه الجزمة اللعينة، ولاتنسي موافاتي بها إلى مقصورتي في المسرح هذا المساء.

قال كاموزو وقد بدا عليه الارتياح: ماذا؟ هذه الجزمة لك؟

ردّت متعالية: ايه! ماذا تظن إذن أيّها البليد السمج، لا أخالك تظنّ. . .

ثم التفتت إلى برنيس قائلة: أوه! انتابته الظنون! واستأنفت: إنني أقوم بدور رجل في مسرحية شوز، ولم يسبق لي أن مثلت دور رجل، وحمل إليّ حذاء المسرح هذه الجزمة للتدريب على السير فيها بانتظار جزمة يعدها لي على قياس قدمي وساعدني على انتعالها لكنني تألمت منها فاقتلعتها، إنما يجب أن ألبسها ثانية.

- قال كاموزو قول خبير عانى من متاعب الجزم: لاتؤذي قدميك بها إن كانت تضايقك.

- قالت برنيس الأفضل للآنسة بدلاً من أن تعذب نفسها، كما فعلت لتوّها، والتفتت إلى كاموزو: «كانت تبكي متألمة ياسيدي! ولو أنني رجل، لما سمحت أبداً ببكاء امرأة أحبها. والأفضل لها ياسيدي لبس جزمة من جلد الماعز الرقيق جداً. لكن إدارة المسرح شحيحة جداً، وعليك أن توصي لها . . .

- قاطعها التاجر قائلاً لكورالي: نعم، نعم، متى استيقظت؟

- في هذه اللحظة، فأنا لم أغادر إلا في الساعة السادسة بعد أن فتشت عنك

في كل مكان، وقد احتفظت بعربتي مدة سبع ساعات، يالعنايتك! أنستك إياي زجاجات الخمور. يجب أن أهتم الآن بنفسي، إذ يجب أن أمثل الآن كل مساء، مادامت مسرحية القاضي تدرّ المال، وأنا لا أرغب في تكذيب مقال ذلك الشاب.

- قال كاموزو: إنّه فتى وسيم.

- أتجده كذلك؟ لا أحب هؤلاء الرجال أشباه النساء، ثم إنهم لايعرفون كيف يحبّون مثلكم يابهائم التجارة الكهول الذين تستبدُّ بكم الأشواق!

- سألت برنيس: هل سيبقى سيدي لتناول العشاء مع سيّدتي.

- كلا، أحسّ كأن عجينة تملأ فمي.

- أخذ السكر منك مأخذه البارحة. آه! بابا كاموزو. ليكن معلوماً لك، إنني لا أحبّ الرجال الذين يشربون.

- قال التاجر: فكّري بتقديم هدية لهذا الشاب.

- آه! نعم، أفضل مكافأته هكذا على أن أفعل كما تفعل فلورين، هيا أيها الصنف السيئ من المحبين، ارحل، أو قدّم لي عربة كي لا أضيع وقتي.

- ستكون لك غداً لتتناولي العشاء مع مدير مسرحك في مطعم صخرة كانكال فالمسرحية الجديدة لن تعرض مساء الأحد.

- تعال معي، أريد أن أتعشى خارجاً، وتأبطت ذراع كاموزو وقادته خارج المنزل. بعد ساعة كان لوسيان قد تحرر من مكان احتجازه بفضل برنيس رفيقة صبا كورالي، والمخلوقة ذات الفكر الثاقب والرأي الصائب، على قدر بدانتها.

- قالت برنيس للوسيان: ابق هنا، ستعود كورالي بمفردها، وهي تريد أن تطرد كاموزو عند تضايقك منه، ولكن أيها الفتى الأثير إلى قلبها، إنك ملاك ولاتريد تدميرها: وقد قالت لي إنها قررت أن تتخلى عن كل شيء هنا وأن تهجر هذا الفردوس لتذهب للعيش في سقيفتك. أوه! لقد قال لها الحساد والغيّار إنك

لاتملك شروى نقير وإنك تعيش في الحي اللاتيني، سأتبعكما لأقوم على خدمتكما، لكنني استدركت مطمئنة هذه الإبنة المسكينة، ألست ذا عقل كبير لايرتضي التهور في مثل هذه الحماقة؟

آه! سترى ياسيدي، أن الآخر المترهل ليس له إلا الجثة، وأنت الأثير، المحبوب، والمعبود الذي تركن إليه الروح. لو تعلم مدى لطف كورالي وأنا أراجع لها أدوارها! إنها حب الطفولة! وهي تستحق جيداً أن يرسل لها الله أحد ملائكته فقد كانت متبرمة من الحياة، في عيش بائس مع أمها التي ضربتها ثم باعتها! نعم ياسيدي، أم تبيع ابنتها! لو أن لي ابنة لخدمتها كما أخدم كورالي العزيزة التي جعلتها ابنة لي. وها أنا أشهد بداية الظروف المناسبة والطيبة، فللمرّة الأولى يتم التصفيق بحرارة لها، ويبدو، نظراً لما كتبته، اجراء الاستعدادات للقيام بحملة تصفيق كبيرة خلال العرض الثاني فقد حضر برولار بينما كنت نائماً لترتيب الأمر معها.

سأل لوسيان متذكراً أنه سمع سابقاً هذا الاسم: من؟ برولار؟

- إنه زعيم المصفقين المأجورين، وقد جاء للاتفاق معها على المقاطع من الدور التي يجب أن يعقبها التصفيق، ففلورين رغم ادعائها الإخلاص في صداقتها يمكن أن تدبر لها مقلباً وتحتكم إلى التهليل لصالحها بعد أن شُغلت الجادة بعد نشر مقالك بالشائعات. ثم انصرفت إلى ترتيب السرير فوضعت فوقه غطاء من الدانتيل وهي تتمتم: أي سرير يليق بغراميات أمير!...

أوقدت برنيس الشموع، وخيل للوسيان على ضوئها أنه في قصر من قصور الجن فقد اختار كاموزو أغلى أقمشة متجر الشرنقة الذهبية لستائر النوافذ وتلبيس الجدران وكان الشاعر يسير على سجادة ملكية، وباليساندر* الأثاث يحتجز في

(*) - باليساندر: خشب زكي الرائحة لونه ضارب إلى البنفسجي مدرج بالأسود والأصفر يستعمل في صناعة الأثاث الفاخر. (المترجم)

نقوش منحوتاته ارتعاشات النور المرفرفة وعلى حافة مرمر المدفأة الأبيض تتألق أغلى الصمديات، وموطىء السرير من زغب طيور التمّ المحاط بفرو السمور، وأخفاف من مخمل أسود مبطنة بحرير أرجواني تنبىء بالمتع التي تنتظر شاعر ديوان **أزهار المرغريت** وثريا رائعة تتدلى من السقف الملبس بالحرير[1]، وانتشرت في كل مكان أصص أزهار مدهشة، تحتوي على أجمل جنيبات الخلنج الأبيض، وكاميليا الزينة عديمة الرائحة، كان كل شيء يعبر عن صور البراءة الطاهرة، فكيف يمكن التصور أن ممثلة وطبائع مسرح تعيش هنا؟ ولاحظت برنيس ذهول لوسيان، فسألته بصوت متملق: أليس المكان لطيفاً؟ ألن تكونا في وضع أفضل هنا لممارسة الحب منكما في سقيفة؟ وأتت بمائدة صغيرة ذات قائمة واحدة متحركة وضعت عليها الأطباق الشهية المعدّة لعشاء سيدتها، دون علم الطاهية كي لاتشتبه بوجود عشيق في المنزل، واستأنفت الكلام قائلة: لاتدعها ترتكب حماقة طائشة.

تناول لوسيان عشاءه بشهية مستخدماً الفضيات المنقوشة والصحون المذهبة، بينما كانت برنيس تقوم على خدمته، وكان لهذا الترف تأثير على روحه يماثل تأثير جسد ابنة الشارع العارية بجواربها البيضاء المشدودة على تلميذ كلية.

صاح: «كم هو سعيد هذا الكاموزو!».

ردت برنيس مستنكرة: سعيد؟ آه! إنه يضحي بثروته ليحل مكانك ويستبدل بشعره الشائب خصلات شعرك الشقراء.

وبعد أن قدمت للوسيان أفضل خمور بوردو المخصصة لأغنى نبلاء الانكليز، دعته إلى النوم مجدداً ليأخذ غفوة احتياطية بانتظار عودة كورالي. والواقع أن لوسيان كان تواقاً إلى النوم في هذا السرير الذي كان يتأمله بإعجاب، وقرأت برنيس هذه الرغبة في عيني الشاعر وكانت سعيدة من أجل سيدتها. في الساعة العاشرة والنصف استيقظ لوسيان تحت نظرات تفيض حباً، فكورالي هنا في

---

(١) - لاحظ ب. بربريس أن في هذه الصفحة تذكرات عديدة من الجنية الأخيرة إحدى روايات أيام شباب بلزاك.

أبهى حلة ليلٍ مثيرة للشهوات، ولوسيان قد شبع نوماً، ولوسيان غير ثمل الآن إلا بنشوة الحب. وانسحبت برنيس بعد أن سألت سيدتها: ما ترتيباتك ليوم غد؟

- ستحملين إلينا طعام الإفطار إلى السرير في الساعة الحادية عشر، ولن أتكلم أو أقابل أحداً قبل الساعة الثانية بعد الظهر.

في الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم التالي، كانت الممثلة وعشيقها في تمام أناقتهما. وكأن الشاعر قد حضر لتوه في زيارة كصديق حامٍ للممثلة الناشئة .وكانت كورالي قد حممت لوسيان بنفسها، وسرحت له شعره، وألبسته ثيابه، بعد أن أرسلت من يحضر له اثني عشر قميصاً، واثنتي عشرة ربطة عنق، واثني عشر منديلاً من متجر كوليو[1]، واثني عشر زوج قفازات في علبة من خشب الأرز. وعندما سمعت ضجة عجلات عربة على باب منزلها أسرعت نحو النافذة مع لوسيان ليريا كاموزو ينزل من عربة فاخرة.

قالت: لم أكن أعتقد بإمكاني كره رجل وتَرَفه إلى هذا الحد...

قال لوسيان معلناً استعداده لقبول الخزي والعار: إن فقري المدقع يمنعني عن الموافقة على مايسبب دمارك.

قالت وهي تضم لوسيان إلى صدرها: ياصغيري العزيز المسكين، أتحبني إلى هذا الحدّ؟

بوصول كاموزو، قالت له وهي تشير إلى لوسيان: طلبت من السيد أن يأتي لرؤيتي في هذا الوقت لاعتقادي أننا سنذهب إلى جادة الشانزليزيه لتجربة العربة الجديدة.

قال كاموزوحزيناً اذهبا لوحدكما، فلن أتناول العشاء معك هذا اليوم، فقد نسيت أنه يصادف عيد زوجتي.

---

(١) - كوليو: متجر بياضات فاخرة، كان يقع في الرقم (١) من شارع نوف - دي بتي - شامب. Neuve des petits- champs.

- قالت وهي تضم التاجر معانقة يالموزو المسكين! كم ستتضجر.

انتشت حبوراً وهي تفكر بأنها ستدشن هذه العربة الجميلة بصحبة لوسيان فقط، وسيذهبان معاً إلى غابة بولونيا، وفي فيض فرحتها بدت بمظهر المحبة لكاموزو عبر عديد من الملاطفات.

قال لها الرجل المسكين: «وددْتُ لو أستطيع تقديم عربة لك كل يوم».

قالت الممثلة للوسيان، الذي بدا عليه الخجل، مشجعة بحركة محببة: «هيّا، ياسيّد، فالساعة تشير إلى الثانية».

اندفعت كورالي تهبط السلالم مسرعة يرافقها لوسيان، الذي كان يسمع لهاث التاجر خلفه، كحيوان فقمة، محاولا عبثاً اللحاق بهما، وأحسّ الشاعر بالمتعة الأكثر إثارة، فكورالي، والسعادة تسمو بها، تبدي للأعين تزيناً يتألق ذوقاً وأناقة، والمجتمع الباريسي في الشانزليزه يتأمل العاشقين بإعجاب، وفي أحد ممرات غابة بولونيا التقت عربتهما الفخمة بعربة تقلُ السيدتين دسبار ودي بارجتون اللتين نظرتا إلى لوسيان بدهشة، لكنه رماهما بنظرة ازدراء الشاعر الذي يتوقع مجداً يكسبه قدرة يتمكن من استخدامها، وكانت اللحظة التي استطاع فيها أن يتبادل بنظرة خاطفة مع هاتين المرأتين بعض أفكار الانتقام التي صبتاها في قلبه لتنخر فيه، إحدى أعذب لحظات حياته، وربما حدّدت مصيره، فقد تملكه سعار الغطرسة، وأراد أن يظهر مجدّداً في المجتمع، وأن يكون ثأره مشهوراً فيه، وعادت إلى روحه جميع الصغائر الاجتماعية التي أبعدتها منذ زمن قريب قدما الإنسان المجدّ، صديق المنتدى، وأدرك عندها مدى انتقاد لوستو اللاذع: فلوستو أدّى خدمة لأهوائه، بينما بدا المنتدى، هذا المرشد الجماعي، بمظهر من يكبحها لمصلحة فضائل مملّة وأعمال بدأ لوسيان يجدها عديمة الجدوى. أليس العمل هلاكاً للنفوس المتلهفة للملذات؟ ويا لسهولة انزلاق الكتاب إلى البطالة الهانئة، والمآكل الشهية، ومتع الحياة المترفة بين الممثلات والنساء السهلة المنال! وأحس لوسيان برغبة لا تقاوم في مواصلة حياة هذين اليومين الجنونيين، وكان العشاء في مطعم صخرة كانكال

التقى خلاله لوسيان بمدعوي فلورين، عدا الوزير والدوق والراقصة وكاموزو، الذين حلّ محلهم ممثلان شهيران، وهكتور مرلن وخليلته وهي امرأة فاتنة تُنادى باسم السيدة دو ڤال - نوبل[1]، وهي الأجمل والأكثر أناقة بين النساء اللواتي شكلت آنذاك في باريس المجتمع الاستثنائي لأولئك الفتيات الملقبات حالياً، احتشاماً، لوريت[2]. وعرف لوسيان الذي كان يعيش منذ ثمان وأربعين ساعة في فردوس مدى نجاح مقاله، فهو المحتفى به والمغبوط، مما وطد ثقته بنفسه: فهو لوسيان دو روبمبره صاحب الفكر المتألق الذي سطع نجمه منذ عدة أشهر في دنيا الأدب والعالم الفني، وفينو، ذلك الرجل الذي لا يُشكُّ ببراعته في تخمين الموهبة وتتبعها كالغول الذي يشم رائحة اللحم الطازج، يلاطف لوسيان لجذبه إلى زمرة الصحفيين المنصاعين لإمرته، وخُدِع لوسيان بهذه الإطراءات، ولاحظت كورالي مناورة هذا المستهلك للفكر، وجربت تحذير لوسيان منه هامسة على مائدة العشاء: «لا ترتبط به يا عزيزي، فهو وجماعته يريدون استغلالك، وسنتداول في الأمر هذه الليلة، أجاب لوسيان: إنني أشعر في نفسي بالقوة لأقابلهم بمثل خبثهم وبالقدر الذي يمكرون به.

أجرى فينو التعارف بين لوسيان وهكتور مرلن، ولم يكن دون شك، قد اختلف مع هذا الأخير في حساب الفراغ في أعمدة الصحيفة، وتآخت كورالي مع السيدة دو ڤال - نوبل وتبادلتا المجاملات وعبارات المودة، ودعت السيدة دو ڤال - نوبل لوسيان وكورالي إلى عشاء. ويُعَد هكتور مرلن أخطر الصحفيين المدعوين إلى

---

(١) - تجمعت جميع طموحات أبناء وبنات الأقاليم في باريس ومنهم سوزان ابنة غسالة آلنسون التي انتصرت على طريقتها وبلونده الذي دخل في صحيفة **المناقشات** ولوسيان في الصحيفة الصغيرة، ويبدو أن بلزاك بتطرقه إلى سوزان يستذكر أولمب پليسيه.

(٢) - يحدد بلزاك في قصة **رجل أعمال** هذا التعبير: «لوريت: كلمة محتشمة ابتكرت لتعبر عن وضع فتاة، أو عن فتاة في وضع يصعب تسميته، وأهملت الأكاديمية الفرنسية تعريفها، حياءً منها نظراً لأعمار أعضائها الأربعين» وهو اكتشاف موفق لنستور روكبلان (١٨٠٤ - ١٨٧٠) رئيس تحرير **الفيغارو**، وقد قُصِد به أولئك الفتيات الماجنات اللواتي يسببن ضياع أو انحراف أبناء العائلات، وقد أبعدن عن «الأحياء الرصينة» فلجأن إلى نوع من مدينة جديدة تنطلق من شارع لافيت حتى شارع بلانش وتشمل الشوارع الجانبية المطلة على الشارع الرئيس نوتردام دي لوريت ومنه استمد الاسم.

هذا العشاء، وهو رجل نحيل، قصير القامة، ذو شفتين مزمومتين، يبطن طموحاً مفرطاً، وحسداً لاحدود له، تسعده الشرور التي تتم في محيطه، ويستغل «الانقسامات التي يحرض عليها، وهو رجل حاد الذكاء، لكنه ضعيف الإرادة وقد استبدل بالعزيمة الغريزة التي تقود الوصوليين نحو الأماكن المنورة بالمال والسلطة.
بدا بعد تعارفه مع لوسيان أن الرجلين لم يستلطف أحدهما الآخر، وليس من الصعب تفسير ذلك، فقد شاء سوء حظ مرلن أن ينطق صراحة بما يفكر به لوسيان شراً. وخلال تقديم الفواكه والحلوى بَدَت أواصر الصداقة المؤثرة توحد بين هؤلاء الرجال الذين يعتقد كل منهم أنه متفوق على الآخر، وكان لوسيان، وهو الوافد الجديد هدفاً، لمداعباتهم، والمسامرات تجري بانشراح وضحك عدا هكتور مرلن الذي لم يشارك في الضحك، فسأله لوسيان عن سبب تعقله، فأجاب:
«إنني أراك تدخل عالم الأدب والصحافة في جو من الأوهام، فأنت تؤمن بالصداقة، نحن جميعاً أصدقاء أو أعداء حسب الظروف، وسنكون أولّ من يتضارب بالسلاح الذي يجب أن نستخدمه لضرب الآخرين، وستدرك خلال وقت قريب أنك لن تنال شيئاً بالعواطف الصادقة، وإن كنت طيباً تصرف بشكل سيئ، وكن مشاكساً عن قصد، وإذا لم ينطق أحد أمامك بهذا القانون السامي، فإنني أبوح لك به فلا تستهن بهذه المسارة، لأجل أن تبقى محبوباً لاتبتعد أبداً عن خليلتك دون أن تبكيها قليلاً، ولأجل أن تنجح في الأدب جرِّح دائماً جميع الناس، حتى أصدقاءك، اقهر كبرياءهم، تجدهم جميعاً يتقربون منك ويتوددون إليك».
بدا هكتور مرلن سعيداً وهو يرى كلماته تؤثر في لوسيان المستجد كنصل خنجر في القلب، وبدأت المقامرة فخسر لوسيان كل ما في جيبه من مال، وأبعدته كورالي عن مائدة اللعب، وجعلته ينسى في ملذات الحب انفعالات القمار الرهيبة التي ستجعله فيما بعد أحد ضحاياها. وعند خروجه في اليوم التالي من شقتها، وعودته إلى الحي اللاتيني، وجد في محفظته النقود التي خسرها في المقامرة، وأحس بالأسى أولاً لهذه الالتفاتة الكريمة وأراد العودةمن حيث أتى ليرد للممثلة هبة تذله، لكنه كان قد وصل إلى شارع لاهارب، وتابع طريقه نحو نُزل كلوني وهو يفكر بهذه العناية التي تحيطه كورالي بها، ورأى فيها برهان حنان الأم الذي يمتزج لدى هذه الفئات من النساء بأهوائهن. فالهوى لديهن يتضمن جميع العواطف، ومن فكرة إلى فكرة انتهى لوسيان إلى سبب يدفعه للقبول قائلا في

نفسه: «إنني أحبها، وسنعيش معاً كزوج وزوجة، ولن أتركها أبداً!». باستثناء أمثال ديو جينوس[1] من لايدرك آنذاك أحاسيس لوسيان، وهو يصعد هذا السلّم الموحل المنتن في فندقه، ويسمع صرير قفل باب غرفته، ويرى بلاطها القذر، ومدفأتها الزرية ومظهرها الرهيب الناطق بالبؤس والعري؟. ووجد عند وصوله على منضدته مخطوطة روايته، وهذه الرسالة الصغيرة من دانييل دارتز.

«أصدقاؤنا مسرورون تقريباً من مؤلفك، ياعزيزي الشاعر، وهم يقولون، إن بإمكانك عرضه بمزيد من الثقة، على أصدقائك وأعدائك. قرأنا مقالك الممتع عن البانوراما دراماتيك، ويجب أن تكون قد أثرت من الغيرة في الأدب قدر ما أثرت من التأسّفات لدينا. **«دانييل»**

صاح لوسيان مندهشاً من لهجة التأدّب المتجلية في تلك البطاقة: «التأسّفات! ماذا يعني بهذا القول؟ هل غدا إذن غريباً في المنتدى؟ فهو رغم ماالتهمه من الثمار اللذيذة التي قدمتها له حواء الدهاليز، لايزال حريصاً على تقدير أصدقائه في شارع الرياح الأربعة ومودتهم. وبقي بضع لحظات مستغرقاً في التفكير يقارن بين حاضره في هذه الغرفة ومستقبله في منزل كورالي، وجلس وهو فريسة حيرة تتناوب بين سمو الاستقامة وانحطاط الفساد، يتأمل الوضع الذي غدا مؤلفه فيه بعد مراجعة أصدقائه له. وكم كانت دهشته كبيرة! فمن فصل إلى فصل، بدلت الريشة الماهرة والمخلصة لهؤلاء الرجال الكبار الذين مازالوا مجهولين، بتفاهاته الضحلة قيماً ثرية، وحل حوار ممتلىء، ورصين وموجز ومتحمس محل محادثاته التي أدرك آنذاك أنها لم تكن إلا ثرثرات بمقارنتها مع الآراء التي تعبر عن روح العصر. وصوره الباهتة الظلال تجلت الآن قوية مفعمة بالألوان، وكل شيء يرتبط بالمظاهر المثيرة للفضول في الحياة البشرية بفضل ملاحظات فيزيولوجية معبر عنها بدقة أحياها دون شك بيانشون، وأوصافه الكثيرة الحشو غدت غنية وحية. لقد أعطى مخلوقة سقيمة التكوين، مهلهلة الثوب، فأعيدت إليه صبية ناعمة في ثوب

---

(١) - ديوجينوس الكلبي (٤١٣ - ٣٢٧ ق.م) فيلسوف إغريقي. احتقر الغنى والتقاليد والناس. قضى حياته في برميل. اشتهر برده على الاسكندر الكبير عندما سأله عما يمكنه أن يفعله له فأجاب: أريد أن تبتعد من أمامي فظلك يحجب أشعة الشمس التي تدفئني. المترجم

أبيض وزنار ووشاح ورديين، هي تكوين ابداعي رائع. وفاجأه الليل، وعيناه تدمعان، وقد انحط من عليائه، بعد أن أحس بقيمة هذا الدرس، وتأمل بإعجاب هذه التصحيحات التي فاقت ماكسبه من المقارنات والدراسات في الأدب والفن خلال أربع سنوات. فمراجعة محتوى صندوق سيّئ الصياغة والإعداد وضربات معلم في النقاط الحساسة تقول دائماً مايفوق النظريات والملاحظات.

هتف وهو يضم المخطوطة «ياللأصدقاء! ياللقلوب الكبيرة! ويالسعادتي بهم!» هرع إلى دانييل مدفوعاً بالحمية الفطرية في الطبائع الشعرية والمتقلبة، لكنه أحسّ عند صعوده بأنه غير جدير بهذه القلوب المستعصية عن كل مايحرفها عن درب الشرف، وبصوت في داخله يقول إن دانييل لو أحب كورالي لما ارتضى بقاءها خليلة ينفق عليها كاموزو. وهو يعلم أيضاً نفور المنتدى العميق من الصحفيين، . وهو يعد نفسه الآن، إلى حد ما، صحفياً، ووجد أصدقاءه، عدا ميرو الذي غادر منذ قليل، ولمح في جميع الوجوه علائم القنوط فسألهم: «مابكم ياأصدقائي؟».

- علمنا لتونا بكارثة مفجعة: فأكبر عقول عصرنا، صديقنا الأثير، من كان خلال سنتين هادياً لنا ومنارة...

- هتف لوسيان: لويس لامبر[1]؟*

---

(١) - اسم بطل الرواية التي تحمل ذات الاسم، وظهرت طبعتها الأولى في العام ١٨٣٢ فهي سابقة لابتكار - أو وصف المنتدى. ولكن إذا كان للمنتدى وجود حقيقي كما يعتقد أحياناً، فحري بنا التفتيش عن نموذج لامبر في هذه الجمعيات المسارية تقريباً التي ازدهرت في عهد الملكية الثانية وبداية ملكية تموز منذ أوائل اجتماعاتها وحتى تشتت حركة السان سيمونيين. وقيل أن جزَع المنتدى عند إعلامهم بالحالة الصحية الميئوس منها للامبر تذكر بانفعال أصدقاء بوشر (١٧٩٦ - ١٨٦٥) فيلسوف الاشتراكية المسيحية) عند انتشار خبر موت الدكتور ب روبير. والأكثر إثارة للدهشة أيضاً الشبه بين لامبر وعالم فيلسوف شاب قريب لبيير لرو الاشتراكي السان سيموني: الكسندر برتران (المولود في رين العام ١٧٩٥) ومؤلف رسائل عن اضطرابات الكرة الأرضية والمتوفي قبل الأوان في ١٨٣١. وقد ذكرته رموزا في مذكراتها لكن لرو يخصص له النبذة الأكثر أهمية في موسوعته ويرسم صورة ملأى بالتأثير عن هذا الباحث عن المطلق الذي أقعده مرض مؤلم، مما يدفع إلى التفكير ببطل بلزاك، فهو مثل برتران قضى حياته يجمع المعلومات ويوثق الوقائع الغامضة عن المغناطيسية والسير في النوم (وقد ألف دراستين متميزتين عن هذين الموضوعين) كما استهوته ظاهرة الوجد أو الانخطاف Extase

(*) - رواية لويس لامبر: مترجمة ومنشورة في سلسلة روايات بلزاك - وزارة الثقافة السورية رقم ١٣ للعام ١٩٩٤.

– قال بيانشون: إنه في حالة آخذة(*) أو تخشب لا يرجى فيها شفاؤه.

– أضاف ميشيل كرستيان بمهابة: سيموت وجسمه فاقد الحسّ ورأسه في السموات.

– قال دارتز: سيموت كما عاش.

– وقال ليون جيرو: إن الحب الذي تأجج كالنار في ميدان مخه الواسع قد أحرقه.

– وقال جوزيف بريدو: أو أنه أثاره إلى حدّ غاب فيه عن نظرنا.

– وقال فولجنس ريدال: إنما نحن بخسارتنا له، نستحق الشفقة.

– هتف لوسيان: ولكن قد يُشفى.

– أجاب بيانشون: وفقاً لما قاله لنا ميرو، يتعذر العلاج، فرأسه مسرح ظواهر يقف أمامها الطبّ عاجزاً.

– قال دارتز: ومع ذلك توجد عوامل مؤثرة.

– رد بيانشون: نعم ولكنه متخشب ويمكن أن نحوله إلى كائن بليد مخبول.

– صاح ميشيل كرستيان: ألا يمكن أن نقدّم لجنية الشر رأساً بديلاً عن رأسه. إنني مستعد لافتدائه برأسي.

– قال دارتز: وماذا سيحلّ بالإتحاد الأوروبي.

–استأنف ميشيل كرسيتان: آه! هذا صحيح، إننا ننتمي إلى الإنسانية قبل انتمائنا لإنسان فرد.

– قال لوسيان: جئت إلى هنا وقلبي مفعم بعواطف الشكر لكم جميعاً، فقد حولتم درهمي إلى لويسيات ذهبية.

(*) – التخشب أو الآخذة Catalepsie: ضياع القلوصية الإرادية من العضلات ضياعاً مؤقتاً، مع استعداد العضلات والجسم والجذع للاحتفاظ بالأوضاع التي تعطاها. (المترجم عن معجم العلوم الطبية للدكتورين خاطر وخياط)

- قال بيانشون: عواطف الشكر! من تحسبنا؟

- استأنف فولجنس: كانت مراجعة مخطوطتك مصدر سرور لنا.

- وقال ليون جيرو: وبعد، ها أنت صحفي، فالضجة التي أحدثتها بدايتك وصلت حتى الحيّ اللاتيني.

- أجاب لوسيان: لم أقرر حتى الآن.

- قال ميشيل كرستيان: آه! نعمَ الخبر!

- استأنف دارتز: أكدت لكم هذا، فلوسيان أحد هذه القلوب التي تقدر قيمة الضمير الحي، أليس سنداً مقوياً أن يستطيع المرء وضع رأسه عند المساء على وسادة نومه وهو يقول في نفسه لم أدن أعمال الآخر، ولم أسبب الأسى لأي كان، وفكري النافذ كالخنجر لم ينبش دخيلة أي بريء، ومُزاجي لم يقض على أية سعادة، بل لم يعكر أية حماقة راضية بحمقها، حتى أنه لم يتعب دون حق النبوغ، فأنا ازدري انتصارات التهكم السهلة، أخيراً أنا لم أخالف أبداً قناعاتي؟

- قال لوسيان: ولكن يمكن على ما أعتقد، الالتزام بكل ماذكرت والعمل في صحيفة، وإذا لم تتيسر لي إلا هذه الوسيلة للعيش، فسألجأ إليها.

- ردد فولجنس آهات استغراب متزايدة في شدتها: آه! آه! اه! إننا نستسلم قال ليون جيرو برزانة: سيغدو صحفياً، إذا أردت يالوسيان أن تكون واحداً منا، نحن الساعين إلى إصدار صحيفة لن تخالف أبداًالحقيقة أو العدالة، وسندعو فيها إلى المبادىء المفيدة للبشرية جمعاء، وربما...

- قاطع لوسيان ليون جيرو بطريقة مكياڤلية: لن يكون لديكم مشترك واحد.

- أجاب ميشيل كرستيان: سيكون لديهم خمسمئة وهم يعادلون خمسمئة ألف.

- واستأنف لوسيان : وسيلزمكم رأسمال كبير .

- ردّ دارتز : كلا ، إنما يلزمنا الإخلاص[1] .

- تقدم ميشيل كرستيان من لوسيان وشمّ رأسه بحركة هزلية وقال : كأن أنفي في متجر عطور . شوهدت يالوسيان في عربة ملمعة بشكل فائق ، تجري بها خيول غندور مع كورالي الخليلة التي تليق بأمير .

- قال لوسيان : وما الضرر من ذلك؟

- صاح به بيانشون : تجيب وكأن الحدث قد وقع وسيتكرّر .

- قال دارتز : كنت أود للوسيان امرأة نبيلة تدعمه في الحياة على مثال بياتريس . . .

- قال الشاعر : ولكن ، أليس الحبّ مماثلاً لذاته أينما وجد يادانييل .

- ردّ الجمهوري : آه! إنني في هذا ارستقراطي ، ولا أستطيع أن أحبّ امرأة يقبلها ممثل على وجنتها أمام الجمهور ، ولا امرأة تخاطب دون كلفة في الكواليس ، وتنحني أمام المشاهدين وهي تنثر الابتسامات ، وترقص بخطوات ترتفع فيها أذيال ثوبها لتكشف عما أريد أن أراه وحدي فقط . أو إن أحببت مثل هذه المرأة ، فعليها أن تترك المسرح وسأطهرها بحبي .

- وإذا لم تستطع أن تترك المسرح؟

- سأموت حزناً وغيرة ، وسأصاب بعلل أخرى لاتحصى ، إذ لايمكن اقتلاع الحبُ من القلب كما يُقلع أحد الأسنان .

اكفهر وجه لوسيان وأطرق مفكراً ، وهو يقول في نفسه : كم سيحتقرونني عندما يعلمون إنني أتحمل كاموزو .

(١) - المبادىء المفيدة للبشرية والإخلاص كلمات تتردد دون انقطاع - في مراعاة نوعية ، وتقنية إن صح التعبير - في جميع كتابات بوشز Buchez فيلسوف الاشتراكية المسيحية وأنصاره ، وخاصة في مقالات مسلسلة الصحف السياسية التي تصدر عن هذه المجموعة .

قال له الجمهوري الشرس ببساطة مريعة: أقدّر أن بإمكانك أن تغدو كاتباً كبيراً، ولكنك ستبقى دائماً مهرجاً صغيراً.

وتناول قبعته وخرج.

- علق الشاعر بقوله: كم هو قاس ميشيل كرستيان.

- قال بيانشون: إنه قاس ومخلّص من الألم ككلابة طبيب الأسنان، فميشيل يرى مستقبلك، وربما يبكي أسفاً عليك الآن في الشارع.

كان دارتز ناعماً ومواسياً، وحاول أن يقوي عزيمة لوسيان، وبعد نحو ساعة غادر الشاعر المنتدى وضميره يعذبه ويصرخ به: «ستكون صحفياً!» كما تصرخ العرافة بماكبث: «ستكون ملكاً». ومن الشارع نظر إلى نوافذ غرفة دارتز الصبور التي ينبعث منها نور خافت، واتجه إلى فندقه بقلب منفطر وروح قلقة، وإحساس داخلي يقول له: إن أصدقاءه الحقيقيين قد عانقوه لآخر مرة. وعند دخوله شارع كلوني بعد اجتيازه ساحة السوربون لمح عربة كورالي. كانت الممثلة قد قطعت جادة التامبل إلى السوربون لترى شاعرها للحظة وتلقي عليه تحية مساء عابرة، ووجد عشيقته تذرف الدموع لمظهر غرفته الحقيرة، وأرادت أن تكون بائسة كعشيقها، وبكت وهي ترتب له القمصان، والقفازات، وربطات العنق والمناديل في خزانة الفندق البشعة. وكان هذا القنوط من الصحة والكبر معبراً عن مزيد من الحب، حتى أن لوسيان الذي وجه إليه اللوم لتعلقه بممثلة، رأى في كورالي قديسة مستعدة لتحمل مسوح البؤس، واتخذت هذه المخلوقة الرائعة من أجل رؤية صديقها ذريعة إعلامه أن الثلاثي كاموزو - كورالي - لوسيان سيقابل وليمة الثلاثي ماتيفا - فلورين لوستو بوليمة مماثلة وأنها حضرت لتطلب منه توجيه الدعوة لمن يراه ذا نفع له. أجابها لوسيان إنه سيشاور لوستو، وغادرت الممثلة بعد برهة غرفته دون أن تنبئه أن كاموزو ينتظرها في العربة أمام الفندق. وفي اليوم التالي ذهب لوسيان منذ الساعة الثامنة صباحاً إلى غرفة إيتيين، ولما لم يجده توجه إلى منزل فلورين حيث استقبل الصحفي والممثلة صديقهما في غرفة النوم الجميلة حيث كانا يرفلان كزوج وزوجة، وتناول الثلاثة فطوراً شهياً.

- قال له لوستو وهم على مائدة الإفطار عندما ذكر له لوسيان الوليمة الليلية التي تزمع كورالي إقامتها: «أنصحك ياصديقي، بالذهاب معي لدعوة فليسيان ڤرنو والعمل على عقد أواصر الود معه، فقد يفسح هذا الماكر المجال لك للكتابة في الصحيفة السياسية التي «يطبخ» مسلسله فيها، وعندها تستطيع أن تسترسل على هواك وتستفيض في مقالات بارزة في الصفحة الأولى. وهذه الصحيفة على مثال صحيفتنا، تؤيد الحزب الليبرالي، وعليك بدورك أن تفعل ذلك فهو الحزب الشعبي، زد على أنك، إن تُرد التحول إلى الاتجاه الحكومي فسيرحب بك مهابة لك. وبالمناسبة ألم يوجه لك ولكورالي هكتور مرلن وسيدته دو ڤال - نوبل، وصالتهما ملتقى بعض كبار النبلاء وأصحاب الملايين والمتأنقين الشباب، الدعوة إلى العشاء؟

- أجاب لوسيان: نعم، وأنت مع فلورين من المدعوين.

كان لوسيان ولوستو خلال سكرة مساء الجمعة وعشاء الأحد قد رفعا الكلفة بينهما في التخاطب، واستأنف إيتيين حديثه الناصح.

- «سنقابل مرلن في الصحيفة، وهو شخص يتعقب فينو عن كثب، ومن مصلحتك أن تتملقه، ادعه إلى وليمتك الليلية مع خليلته، فقد يغدو مفيداً لك في وقت قريب، فالأشخاص الحاقدون يحتاجون لجميع الناس، وسيقدم لك خدمة، لتدعمه بقلمك عند الحاجة.

- وقالت فلورين للوسيان: كان لبدايتك وقع كبير يزيح كل عقبة، فعجل باستغلال ذلك وإلا طواك النسيان.

- استأنف لوستو: تمَّ إنجاز المشروع، المشروع الكبير، وغدا هذا الرجل الذي لا يملك أية موهبة، فينو، مديراً ورئيس تحرير مجلة دوريا الاسبوعية، ومالكاً لسدسها دون أن يتكلف فلساً، وهو يتقاضى ستمئة فرنك راتباً شهرياً، وأنا منذ هذا

الصباح رئيس تحرير صحيفتنا الصغيرة. وتم كل شيء، كما توقعته في مساءٍ ماضٍ، وكانت فلورين ماهرة في الإقناع[1]، إنها تتفوق على الأمير دي تاليران في هذا المجال.

- قالت فلورين: إننا نسيّر الرجال بمتعهم، بينما لايتمكن الدبلوماسيون منهم إلا بإثارة غرورهم، وهكذا يراهم الدبلوماسيون يظهرون التكلف، أما نحن فنراهم يرتكبون الحماقات، فنحن إذن الأكثر قوة.

- قال لوستو: باختصار، بدرت عن ماتيفا الطرفة الوحيدة التي نطق بها تاجر عقاقير في حياته، فقد قال: المشروع لن يخرج عن تجارتي.

- هتف لوسيان: أرجح أن تكون فلورين همست له بهذه العبارة.

- استأنف لوستو: هكذا ياحبي العزيز، أنت على درب النجاح.

- قالت فلورين: أقبلَ حظك، فكم نرى في باريس شباناً ينتظرون سنوات دون أن يتمكنوا من نشر مقال في صحيفة! فهل ستكون مثل إميل بلوندة، ثم أضافت مستخدمة عبارة من مفرداتها السوقية وعلى شفتيها ابتسامة ساخرة: «وتتعالى متغطرساً شامخاً برأسك خلال ستة أشهر».

قال لوستو: ألست في باريس منذ ثلاث سنوات، والبارحة فقط حدّد لي فينو راتب ثلاثمئة فرنك شهرياً رئيساً لتحرير صحيفته الصغيرة، على أن يدفع لي أيضاً خمسة فرنكات عن كتابة عمود ومئة فرنك عن انشاء صفحة كاملة في مجلته الأسبوعية.

- هتفت فلورين وهي تنظر إلى لوسيان: مالك لاتنطق بكلمة؟

- قال لوسيان: سنرى.

(١) - هذا يعني أنها أقنعت ماتيفا بشراء ١/٦ صحيفة دوريا الأسبوعية من فينو بالمبلغ الذي دفعه هذا الأخير لقاء الثلث وبالتالي كسب فينو ١/٦ الصحيفة، وغدا لوستو رئيس تحرير «الصحيفة الصغيرة».

ردّ لوستو وقد ظهر عليه الامتعاض: ياعزيزي، رتبتُ كل شيء لمصلحتك كأنك أخي، لكنني لن أضمن لك فينو، إذ أن أكثر من ستين ماكراً سيراجعونه خلال هذين اليومين وسيعرضون عليه قبولهم أجوراً مخفضة. تعهدت عنك أمامه، ولكن بإمكانك أن تقول له لا إن رغبت. ثم تابع الصحفي بعد توقف: لايخامرك شكٌ بحظك الطيب، فأنت واحد من زمرة يهاجم الأصدقاء فيها أعداءهم في صحف عديدة تتبادل معهم الخدمات.

قال لوسيان المستعجل للارتباط بهذه الطيور الجوارح الرهيبة: هيا أولا لنرى فليسيان ڤرنو.

أرسل لوستو من يأتي له بعربة، وذهب الصديقان معاً إلى شارع ماندار حيث يسكن فرنو في منزل ذي ممر، وهو يشغل شقة في الطابق الثاني. ذهل لوسيان وهو يجد هذا الناقد اللاذع، المزدري والمترصن، في غرفة طعام شديدة القبح، كسيت جدرانها بورق صغير الأبعاد توزعت الطحالب بين فواصله المتساوية، وزينت برسوم ألوان مائية في أُطُر مذهّبة، وقد جلس إلى مائدة مع امرأة دميمة جداً لا يمكن أن تكون إلا زوجته وإلى جانبهما طفلان في أوائل العمر يجثمان على كرسيين مرتفعي القوائم مسيجين بحواجز حماية. وقد فوجىء فليسيان وهو في مبذل صنع من بقايا قماش قطني هندي وبدا عليه الامتعاض.

قال وهو يقدّم كرسياً للوسيان: هل تناولت فطورك يالوستو؟

قال إيتيين: إننا آتيان من منزل فلورين حيث تناولت الطعام معها.

لم يستطع لوسيان إلا أن يطيل النظر إلى السيدة فرنو الشبيهة بخادمة أو طاهية بدينة، بيضاء البشرة تقريباً، إنما ذات مظهر مبتذل للغاية. كانت تلف رأسها بمنديل فوق طاقية نوم ذات شريطين تحيطان بوجهها ويطفح عبرهما خدّاها. وكان مبذلها دون زنّار يضمه زر عند ياقته ويتهدل بثنيات كبيرة عاجزاً عن أن يحيط بكامل جسمها حتى ليخيَّل لمن يراها أنها إحدى صوى الطريق. كانت في صحة مقنطة، فوجنتاها شبه بنفسجيتين، وأصابع يديها متورمتان كالنقانق.

كان منظر هذه المرأة كافياً ليدرك لوسيان فجأة سبب ارتباك ڤرنو في المجتمع، فهي مريضة منذ زواجها، وهو لايقوى على أن يهجر امرأة وأولاداً، وقد امتلك حسّ الشاعر الذي يعصر الألم قلبه، ودفعه ألمه إلى النقمة على كل شخص يحظى بالنجاح، فهو مستاء من كل شيء لأنه مستاء على الدوام من نفسه، وفهم لوسيان المظهر الجاف الذي يغلف كالصقيع هذا الوجه الحسود، وفظاظة الردود النزقة التي ينثرها هذا الصحفي في حديثه، ولذع عبارته الحادة دائماً، إنما المتقنة كسيف في يد معلم سلاح.

قال فليسيان وهو ينهض: لننتقل إلى مكتبي فأنتما آتيان على الأرجح لبحث قضايا أدبية.

- أجاب لوستو: نعم ولا، فالأمر يتعلق بوليمة ليلية.

- قال لوسيان: جئت لأنقل إليك دعوة من كورالي. . .

عند سماع هذا الاسم رفعت السيدة ڤرنو رأسها. واستأنف لوسيان.

«. . . إلى وليمة ليلية بعد ثمانية أيام، وستلقى عندها الاشخاص الذين اجتمعوا لدى فلورين إضافة إلى السيدة دو ڤال - نوبل، ومرلن، وأشخاصاً آخرين وسنقوم بجولة مقامرة.

قالت الزوجة لزوجها: لكننا وعدنا السيدة ماهودو بزيارتها في ذلك اليوم.

ردّ ڤرنو: وما تأثير ذلك؟

- ستستاء إذا لم نذهب، وأنت تترقب ملاقاتها لحسم سندات المكتبة.

- ياعزيزي، هي ذي امرأة لاتدرك أن وليمة ليلية، تبدأ في منتصف الليل، لا تحول دون الذهاب إلى سهرة تنتهي في الساعة الحادية عشرة، ثم أضاف: رغم ذلك فأنا أعمل هنا.

أجاب لوسيان: «إنك صاحب خيال كبير!» ولم يدرك أنه غدا بهذه العبارة عدواً لدوداً لڤرنو.

استأنف لوستو: حَسَنٌ، ستأتي، لكن ليس هذا كلّ شيء، فالسيد دي روبمبره أمسى واحداً منا، وأرجو أن تفسح له المجال في صحيفتك، قدّمه كفتى قادر على إنشاء الأدب الرفيع ليستطيع نشر مقالين، على الأقل، فيها كل شهر.

أجاب ڤرنو: نعم، إن أراد أن يكون منا فعليه أن يهاجم أعداءنا كما نهاجم أعداءه، ويدافع عن أصدقائنا. سأبحث موضوعه هذا المساء في الأوبرا.

قال لوستو وهو يشد على يد فرنو مصافحاً بحرارة الصديق الحميم: إلى الغد، ياصديقي، متى سيظهر كتابك؟

قال رب العائلة: انتهيت من إعداده، أما نشره فيعود إلى دوريا.

- هل أنت مسرور؟ . . .

- نعم ولا . . .

قال لوستو وهو ينهض محيياً زوجة زميله: سنعجل في المسعى إلى النجاح.

كانت هذه المغادرة المفاجئة ضرورية بعد أن ارتفع صراخ الولدين المتكرر وهما يتشاجران ويتضاربان بالملاعق، ويلطخ كل منهما وجه الآخر ببقايا الطعام.

قال ايتيين للوسيان: رأيت ياعزيزي مايمكن لامرأة أن تحدثه من دمار في الأدب، فڤرنو المسكين لن يغفر لنا مصيبته بامرأته، وكان من الواجب تخليصه منها خدمة للمصلحة العامة طبعاً، وتجنباً لطوفان من المقالات البغيضة والتهكمات اللاذعة على كل النجاحات، وضد كل الحظوظ. ما قدره مع هذه المرأة وهذين الولدين الرهيبين؟ رأيت ريغودن في مسرحية بيكار بيت الياناصيب[1]، فڤرنو كريغودن لايصارع لكنه يدفع الآخرين للتصارع، وهو قادر أن يسمل عينه مقابل أن يفقأ عيني أحسن صديق له، وستراه يدوس على جميع الجثث، ويبتسم لكل المصائب ويهاجم الأمراء، والأدواق، والنبلاء، لأنه وضيع النسب، ويحمل على

(١) - بيكار، لويس (١٧٦٩ - ١٨٢٨): ممثل ومؤلف مسرحي، اشتهر بمسرحياته الهزلية، مُثلت مسرحيته **بيت الياناصيب** في الأوديون بتاريخ ٨ كانون أول ١٨١٧، وبطلها ريغودن، الراهب الأحدب كثير المزاح الذي يثير الناس ويحرض كلاً منهم على الآخر.

العزاب المشهورين بسبب زوجته، ويشيد دائماً بالأخلاق ويتغنى بالمسرات المنزلية، ويحث كل مواطن على القيام بواجبه. أخيراً فإن نقده وتشدده الأخلاقي لايستثني أحداً ويتناول حتى الأولاد، فهو يعيش في شارع مندار بين زوجة أشبه بما موشي في مسرحية **النبيل البورجوازي**، وولدين دميمين كأقرعين، وهو يريد أن يسخر من ضاحية سان جرمان حيث لن يضع القدم، وينطق الدوقات بلهجة وعبارات زوجته. هذا هو الرجل الذي يهزُّ المنافقين، ويشتم البلاط، ويتهمه بأنه ينوي إعادة نظام الإقطاع، وحق البكورة، ويبشر بحملة صليبية لتحقيق المساواة وهو الذي يعتقد أن مامن إنسان يساويه، ولو أنه عازب، وأمكنه الانطلاق في المجتمع، وحظي بمعاملة الشعراء مناصري الملكية وذوي الرواتب، المنعم عليهم بوسام جوقة الشرف لكان منشرحاً متفائلاً، وفي الصحافة العديد ممن ينسجون على هذا المنوال، إنها منجنيق كبير تحركه أحقاد صغيرة، ألا يدفعك هذا إلى العزوف عن الزواج؟ خاصة بعد أن رأيت ڤرنو وقد تحجر قلبه وطغت الضغينة على كيانه، ولذلك فهو الصحفي الأمثل، نمرٌ يمزق كل شيء باليدين، فكأن السعار مداد ريشته.

- قال لوسيان: إنه الرجل الناقم على المجتمع نتيجة زواج غير موفق، ولكن هل هو صاحب موهبة.

- إنه فطن، **منشيء مقالات**، يأتي بالمقالات، ويعدُّ دائماً المقالات، ولاشيء غير المقالات، وهو في عمله المتواصل لن يستطيع أبداً أن يخرج بكتاب، ففليسيان أعجز من أن يتصور مؤلفاً، ويعدَّ مخططاً إجمالياً، ويجمع بشكل منسق شخصيات ضمن سياق ذي بداية وحبكة يتدرج نحو حَدَث رئيس، إن لديه أفكاراً، لكنه لايعرف الوقائع، ولن يتعدى أبطاله الأخيلة الفلسفية أو الليبرالية. أخيراً، يتصف بأسلوب متكلف، وعبارته منتفخة تتهاوى تحت النقد كالبالون المنفوخ إن وُخزَ بدبوس، وهكذا فهو يخشى كثيراً الصحف كمعظم أولئك الذين يحتاجون إلى فواشات وتلفيقات المديح ليصمدوا فوق الماء.

- هتف لوسيان : أيّ مقالٍ تُعده الآن!

- هذه الكلمات ياصديقي للقول لالتسجل كتابة .

قال لوسيان : إنك تستحق رئاسة التحرير .

سأله لوستو بعد لحظة صمت : إلى أين تريد أن أوصلك؟

- إلى منزل كورالي .

قال لوستو : آه! إننا عاشقان، للخطأ! استخدم كورالي كاستخدامي لفلورين، مدبرة منزل، وحافظ على الحرية في أعلى الجبل!

ردّ عليه لوسيان ضاحكاً : إنك تسيء إلى القديسين .

أجاب لوستو : لايمكن الإساءة إلى الشياطين .

أثرت لهجة الصديق الجديد الخفيفة والبراقة، وطريقة نظرته إلى الحياة، وتناقضاته المختلفة بحكم الميكافيلية الباريسية الحقيقية على لوسيان دون أن يدري، فالشاعر كان يحسّ نظرياً بخطر هذه الأفكار لكنه يجدها مفيدة للتطبيق . واتفقا عند وصولهما إلى جادة التامبل على أن يلتقيا مجدداً بين الرابعة والخامسة مساءً في مكتب الصحيفة حيث سيحضر هكتور مرلن على الأرجح، وكان لوسيان في الواقع مأخوذاً بملذات حبّ العاهرات الحقيقي اللواتي يتسلطن على أرق أحاسيس الروح بالاستجابة بمرونة لاتُصدق لجميع الرغبات، والانقياد للعادات الرخية مدد قوتهن . كان متعطشاً للمسرات الباريسية، وقد طاب له يسر الحياة المترفة والرائعةالتي استمتع بها لدى الممثلة، ووجد كورالي وكاموزو ثملين فرحاً، فقد عرض الجيمناز[1] ٢٣٠ لموسم عيد الفصح القريب عقداً على كورالي بشروط مغرية صريحة تجاوزت ما أملته .

(١) - الجيمناز - دراماتيك : مسرح افتتح حديثاً في رقم ٨ جادة بون نوڤل مثلت عليه خاصة المسرحيات الخفيفة المرحة (ڤودڤيل) وكان المؤلف سكريب (١٧٩١ - ١٨٦١) المغذي الرئيس بالمسرحيات له .

قال كاموزو : إننا ندين لك بهذا الانتصار .

هتفت كورالي : بكل تأكيد، فلولاه لسقطت مسرحية القاضي فما من أحد غيره قرظها بمقال، وكان عليّ أن استمر في الجادة لست سنوات قادمة[١] .

وقفزت تعانق لوسيان أمام كاموزو وكان في انبثاق عاطفتها مالا أدريه[*] من عذوبة في تجليها، وطلاوة في حرارة اندفاعها، إنّه الحب! وكجميع الرجال عند تعرضهم للآلام الكبيرة، أطرق كاموزو رأسه وأرخى عينيه تنظران إلى الأرض، وتعرَّف في درزة جزمة لوسيان على لون الخيط الذي يستخدمه الحذّاؤون الشهيرون يرتسم بلونه الأصفر الغامق على طول ساق الجزمة. وكان لون هذا الخيط المبتكر قد شغله منذ مونولوجه عن الوجود الغامض لتلك الجزمة أمام مدفأة كورالي، وقرأ حينها بأحرف سوداء مطبوعة على البطانة الناعمة البيضاء عنوان الحذاء الشهير في ذلك العصر، في - شارع لاميشوديير .

قال للوسيان : «جزمتك جميلة جداً ياسيدي» .

أجابت كورالي : كل شيء فيه جميل .

استأنف كاموزو : أودُّ أن أوصي على جزمة مماثلة لدى حذّائك .

ردّت كورالي ساخرة : كأنَّ شارع بوردوني يتطلب ذلك، هل ستنتعل جزمة تليق بشاب في مقتبل العمر، وهل ستعيد إليك رونق الشباب؟ احتفظ بجزمتك ذات الطية الملائمة لرجل رب عائلة، ذي زوجة وأولاد وخليلة .

دفع العناد كاموزو إلى القول : إنّ السيد يؤدي لي خدمة جليلة إن خلع إحدى فردتي جزمته .

ردّ لوسيان وقد خضب وجهه الاحمرار : لن أستطيع انتعالها مجدّداً دون مشابك .

---

(١) - كان الانتقال من جادة التامبل إلى أحد مسارح «الفودفيل» ترقية للممثل والصحفي .

(*) - مالاأدريه : عبارة شاعت بين أغلب نقاد الأدب الأوروبيين الغرض منها إبداء الإعجاب الفائق ومحاولة إيجاد صلة بين الذوق السليم ومفهوم الجمال الجذاب الفاتن . (ملاحظة المترجم)

قال التاجر بلهجة تفيض سخرية : ليس لدينا الكثير منها هنا ، لكن برنيس ستذهب لإحضار مايلزمك منها .

قالت كورالي وهي ترميه بنظرة ملؤها الإزدراء : بابا كاموزو ، كن جريئاً وأفصح عن خستك ! هيا عبر عن شكوكك أتجدُ جزمة السيد مماثلة للجزمة التي رأيتها في غرفة نومي ؟ والتفتت إلى لوسيان قائلة : إنني أمنعك من خلع جزمتك . نعم ياسيد كاموزو ، نعم ، هذه الجزمة هي ذاتها التي رأيتها تصالب ساقيها أمام مدفأتي ذلك اليوم ، وكان السيد مختبئاً في غرفة حمامي ينتظر بعد أن قضى الليل في سريري ، هوذا ماتشك به ؟ وأريد أن تكون واثقاً منه الآن ، فهو الحقيقة خالصة ، وأنا أخونك ، وماذا بعد ؟ هذا مايعجبني !

جلست دون أن تظهر عليها بادرة غضب ، وبالمظهر الأكثر انطلاقاً في العالم وهي تتأمل كاموزو ولوسيان اللذين لم يجسرا على تبادل نظرة بينهما .

قال كاموزو : لن أعتقد إلا ماتريدين أن أعتقده ، فلا تمزحي ، أنا مخطىء .

قالت وقد بدرت منها حركة جازمة سحقت التاجر : إمَّا أن أكون متهتكة فاجرة أغرمت في لحظة بالسيد ، أو إنني مخلوقة بائسة مسكينة أحست لأول مرة بالحب الحقيقي الذي تجري وراءه جميع النساء ؟ وفي الحالين يجب أن تهجرني أو أن ترضي بي كما أنا .

قال كاموزو الذي بدا وكأنه يستجدي كلمة تنفي مارأى على ملامح لوسيان من تأكيد لقول كورالي : هل هذا صحيح ؟

أجاب لوسيان : إنني أحب الآنسة .

عند سماع هذه الكلمة المقالة بصوت يتهدج تأثراً قفزت كورالي تضمَّ شاعرها معانقة وحولت رأسها نحو تاجر الحرائر وهي تطوق عنق لوسيان بذراعيها كأنها تعرض أمامه لوحة الحب المدهش التي يمثلانها ، وقالت :

موزو، أيها التعس، خذ كلّ ما أعطيتني إياه، فأنا لا أريد منك شيئاً، إنني متيمة بهذا الشاب، لا لنباهته، بل لجماله، وأنا أفضل البؤس معه، على الملايين معك.

تهالك كاموزو على كنبة، ووضع رأسه بين يديه، وأطرق صامتا.

قالت له بضراوة لاتُصدق: «أتريد أن نرحل ونترك لك هذا المنزل؟

أحسّ لوسيان بقشعريرة وهو يرى نفسه مسؤولاً عن امرأة ممثلة وماترتب عليه من أعباء.

أجاب التاجر بصوت ضعيف متألم ينطلق من صميم روحه: ابقي هنا، واحتفظي بكل مالديك ياكورالي، لاأريد أن استرد شيئاً مع أن في هذا المكان أثاثاً بستين ألف فرنك، فأنا لاأعرف ماذا سأفعل إن خطر ببالي أن عزيزتي كورالي في بؤس مع أن البؤس سيحل بك قريباً، ومهما كانت مواهب هذا السيد كبيرة فإنها لن تستطيع أن تؤمن لك الرزق. هوذا ماينتظرنا نحن الذين تقدّم بنا العمر! لكن اسمحي لي ياكورالي بالحضور أحيانا لرؤيتك، فقد أكون مفيداً لك، عدا عن أنني لا أتمكن من العيش دونك.

غلب التأثر على لوسيان أمام حنان هذا الرجل المسكين الذي فقد كلّ سعادته في اللحظة التي أحسّ فيها أنه الأكثر سعادة، أما كورالي فقالت بكل هدوء «تعال ياعزيزي كاموزو، تعال متى شئت، فسيكون ودي لك أكبر عندما لا يتخلله شعور بالخيانة».

ظهر كاموزو مسروراً لأنه لم يُطرَد من جنته الأرضية، حيث سيتألم دون شك، لكنه يأمل أن يسترد جميع حقوقه معتمداً على مفاجآت الحياة الباريسية والإغراءات التي ستحيط بلوسيان، وفكر التاجر العريق المكار أن هذا الشاب الوسيم سيبيح لنفسه عدم الأمانة، وأراد ليتمكن من التجسس عليه وإزاحته من نفس كورالي، أن يبقى صديقاً لهما. وقد ارتاع لوسيان من خنوع هذا الهوى الذليل بينما رجاهما كاموزو أن يقبلا دعوته للعشاء في مطعم فيري في حي الباليه رويال.

هتفت كورالي بعد أن انصرف كاموزو: «ياللسعادة، لن أعيش في سقيفة في الحيّ اللاتيني، وستبقى هنا، ولن نفترق أبداً، إنما ستستأجر حفظاً للمظاهر، شقة صغيرة في شارع شارلو، ولندع الأمور تجري في أعنتها!».

وراحت ترقص بخطواتها الإسبانية بمرح يعبّر عن هوى لايكبح جماحه.

قال لوسيان: «بعمل شاق يمكنني أن أكسب خمسمئة فرنك في الشهر».

وقالت كورالي: سأحصل على مثل ذلك من المسرح، عدا عن المخصصات الإضافية، وسيستمر كاموزو في دفع نفقات ملابسي فهو يحبني، وبألف وخمسمئة فرنك سنعيش كأكاسرة الفرس.

قالت برنيس: ونفقات الخيل والحوذي والخادم؟

صاحت كورالي: سأستدين.

وراحت تراقص لوسيان رقصة هوجاء سريعة الحركات.

صاح لوسيان: «يجب الآن قبول عرض فينو».

قالت كورالي: هيّا، سأرتدي ثيابي، وأصحبك إلى صحيفتك، وسأنتظرك في العربة على الجادة».

جلس لوسيان على ديوان يتأمل الممثلة وهي تقوم بزينتها غارقاً في تفكير عميق، فقد كان يفضل أن يترك كورالي حرّة بدلاً من أن ترمي به في التزامات شبه زواج، لكنه رآها بمنتهى الجمال، وحسن التكوين، والجاذبية، وأخذ بمظاهر هذه الحياة البوهيمية الرائعة، فرمى بقفاز التحدي في وجه الحظ، وتلقت برنيس الأمر بالاهتمام في نقل أغراض لوسيان من الفندق وترتيب إقامته في الشقة، وصحبت كورالي السعيدة عاشقها المحبوب، شاعرها، مخترقين بالعربة كل شوارع باريس للذهاب إلى شارع سان فياكر، وقفز لوسيان بخفة على درجات السلم ودخل بخطوة السيد إلى مكاتب الصحيفة وكان كولوكينت غارقاً في أوراقه المدموغة، وجيرودو العجوز يردد مرائياً كعادته مايفيد عدم وجود أي موظف في الإدارة.

قال لوسيان: «لكن على المحررين أن يتقابلوا في مكان ما للاتفاق على ترتيب الصحيفة.

قال نقيب الحرس الامبراطوري السابق: ربما، لكن لاعلاقة لي بالتحرير وانصرف في تلك اللحظة، وبمصادفة يمكن اعتبارها حسنة أو سيئة؟ حضر فينو ليعلن لجيرودو عن تنازله المزيف وليوصيه بالسهر على مصالحه.

قال فينو لخاله وهو يصافح لوسيان بحرارة: «لامراوغة مع السيد فهو من أركان الصحيفة».

هتف جيرودو مندهشاً من حركة ابن أخته: آه! السيد من الصحيفة، لِمَ كلفت نفسك عناء المجيء ياسيدي، لإعلامنا.

قال فينو وهو ينظر إلى لوسيان بمكر: أريد أن أرتب وضعك هنا كي لايخدعك إيتيين، وخاطب جيرودو: سيكون للسيد ثلاثة فرنكات عن كل عمود يحرره، بما في ذلك تقاريره عن المسرح.

قال جيرودو وهو ينظر إلى لوسيان بدهشة: ولكنك لم تعط مثل هذه الشروط لأي كان.

- سيكون مسؤولا عن مسارح الجادة الأربعة[1]، ستنتبه كي لايسطو أحد على مقصوراته، وأن تسلم له شخصياً بطاقات العروض، والتفت إلى لوسيان قائلاً: «مع ذلك أنصحك بأن يوجه المسرح هذه البطاقات إلى عنوانك المنزلي».

ثم استأنف، وقد تعهد السيد عدا تقاريره النقدية بإجراء عشر مقالات متنوعة بمعدل عمودين لقاء خمسين فرنكاً شهرياً لمدة سنة، هل يناسبك ذلك؟

أجاب لوسيان وهو يرى الظروف ملزمة له: نعم.

قال فينو لأمين الصندوق: هيء لنا ياخالي العقد الذي سنوقعه عند نزولنا.

سأل جيرودو وهو ينهض ويرفع طاقية الحرير السوداء عن رأسه: من هو هذا السيد؟

---

(١) - هي الغيته وبانوراما وآمبيغو في جادة التامبل وباب سان مارتن في جادة سان مارتان.

قال فينو: إنّه السّيد لوسيان دي روبمبره، كاتب المقال عن مسرحية القاضي هتف العسكري السابق وهو يربت على جبين لوسيان: ايها الشاب، إن لديك هنا مناجم من ذهب، لست خبيراً بالأدب، لكنني قرأت مقالك فأدخل السرور إلى نفسي، فأزدنا من هذا القبيل! إنّه بشائر الفرح. وقلت في نفسي: سيزيد هذا المقال من عدد المشتركين، وحدث ماتوقعت وبعنا خمسين عدداً[1].

قال فينو لخاله: هل أُعدِّت نسختان من عقد اتفاقي مع لوستو لتوقيعها؟

- نعم

- ضع على العقد الذي سأوقعه مع السيد تاريخ البارحة كي يكون لوستو ملزماً بشروطه. ثم أخذ بذراع المحرر الجديد في صحيفته بمودة استهوت الشاعر وصعد برفقته السلم وهو يقول: بذلك تكون قد باشرت مهمام وظيفتك وسأقدمك بنفسي إلى محرريّ، ثم يقدمك لوستو هذا المساء، إلى مدراء المسارح. يمكنك أن تكسب مئة وخمسين فرنكاً شهرياً من صحيفتنا المحدودة التي سيرأس تحريرها لوستو، فاحرص على حسن علاقتك معه، فهذا الماكر يلومني لأنني انحزت إلى طرفك، ولكنك صاحب موهبة ولا أريد أن تكون عرضة لنزوات رئيس تحرير، وفيما بيننا يمكنك أن تحمل إلي ملزمتين لمجلتي الأسبوعية شهرياً لقاء مئتي فرنك، فلا تحدّث أحداً عن هذا الترتيب، إذ سأكون هدفاً لانتقام كل أولئك المغرورين بأنفسهم المستائين من إفساح هذا المجال الرحب لوافد جديد. هيِّء أربع مقالات للزمتيك وقع على اثنتين منهما باسمك الصريح، وعلى الاثنتين الأخريَين باسم مستعار حتى لاتظهر كمن يزاحم الآخرين على مصدر رزقهم. إنك مدين بهذه الحظوة لبلونده وڤينيون اللذين استشرفا بك قلماً واعداً، فكن عند حسن الظن بك،

(١) - هذا التفصيل يهم تاريخ الصحافة فالموضوع لايتعلق بالاشتراكات فقط، انما بالأعداد ففي ذلك العصر لم يكن البيع بالعدد موجوداً في فرنسة - بعكس ماهو متبع في انكلترة، وكان على القارىء أن يشترك (لثلاثة أشهر، أوسته أشهر، أوسنة) أو أن يذهب لقراءة صحيفته في المقهى أو في صالة قراءة. وتشير كتب أدلة ذلك العصر على أن بإمكان الأجنبي لقاء دفع مبلغ اضافي بسيط الحصول على أعداد متفرقة، وهكذا كان بإمكان وسطاء غير نظاميين تقريباً أن يتزودوا بأعداد يومياً من إدارة تحرير الصحيفة.

واحترس خاصة من أصدقائك، وعلينا نحن الاثنان أن نتعاون على الدوام، اخدمني لأخدمك، ستحصل على أربعين فرنكاً من بيع بطاقات المسرح المقدمة لك ومن تأجير المقصورات، وعلى ستين فرنكاً من تقريظ الكتب المهداة وبيعها وهكذا سيكون مجموع ماتتقاضاه شهرياً من عملك محرراً أربعمئة وخمسين فرنكاً وببعض الفطنة يمكنك أن تحصل على مئتي فرنك من دور النشر لقاء مقالات ونشرات دعائية، إنما ستكون دائماً إلى جانبي، أليس كذلك؟ إنني أعتمد عليك.

صافح لوسيان فينو بنشوة فرح لامثيل لها.

همس فينو بأذنه وهو يدفع باب سقيفة في الطابق الخامس من المبنى في طرف دهليز طويل: «لنخفِ عن الأعين اتفاقنا».

أبصر لوسيان في السقيفة آنذاك لوستو وفليسيان وڤرنو وهكتور مرلن ومحررين آخرين لايعرفهما، وكانوا متحلقين حول منضدة ذات غطاء أخضر أمام نار متوهجة على كراس أو كنبات يدخنون ويضحكون، والمنضدة مثقلة بالأوراق، وعليها محبرة ممتلئة بالحبر وريش سيئة تقريباً، لكن المحررين يستخدمون بعضها، وتبين للصحفي الجديد أن العمل الرئيس يتم في هذا المكان.

قال فينو: «أيها السادة، إن الهدف من الاجتماع هو تولية عزيزنا لوستو منصبي وحلوله مكاني رئيس تحرير الصحيفة التي اضطررت إلى تركها، ولكن وبالرغم من أن آرائي ستتعرض لتحول ضروري لأتمكن من القيام برئاسة تحرير المجلة التي تعرفون دورها، فإن قناعاتي لم تتغير، وسنبقى أصدقاء. وأنا معكم كلية، وستبقون أنتم معي، فالظروف تتغير، لكن المبادىء ثابتة. والمبادىء هي المحور الذي تحرك عليه عقارب البارومتر السياسي».

صدرت عن جميع المحررين قهقهة عالية.

- سأله لوستو: «من أعد لك هذه العبارات؟»

- أجاب فينو: بلونده.

- وقال مرلن: رياح، أمطار، عاصفة، طقس جميل ثابت، أيا كان الوضع سنبقى في الحلبة معاً.

استأنف فينو: أخيراً لاحاجة لتتشوش في الاستعارات، وعلى كل من سيكون لديه مقالات ليحملها لي سيجدني. ثم قال وهو يقدم لوسيان: إن هذا السيد واحد منكم الآن، وقد تعاقدت معه يالوستو.

أثنى كل من الحاضرين على فينو وقدّم له التهاني على ترقيته وعلى المهام الجديدة التي سيطلع بها.

قال له أحد المحررين اللذين لايعرفهما لوسيان: هاأنت تمتطي حصان قيادةٍ، فتديرنا وتدير الآخرين، غدوت جانوس(*).

قال فرنو: شريطة ألا يغدو جانو(**).

- ستترك لنا المجال لمهاجمة وحوشنا السوداء؟

قال فينو: قدر ماتشاؤون.

قال لوستو: آه! لكن الصحيفة لايمكنها أن تتراجع، والسيد شاتليه مغتاظ، لكننا لن نتركه خلال أسبوع كامل.

قال لوسيان: مالذي حدث؟

قال ڤرنو: جاء إلى الصحيفة يطلب اعتذاراً، ووجد غندور الامبراطورية السابق الأب جيرودو، الذي أشار بمنتهى البرود إلى فيليب برودو كاتباً للمقال، وطلب فيليب من البارون تحديد ساعة وسلاح المبارزة، فذهب البارون ولم يَعد، ونحن منشغلون الآن بتهيئة مقال اعتذار للبارون، كلّ عبارة فيه طعنة خنجر[1].

(*) - جانوس: أحد أرباب روما، ويمثل بوجهين متقابلين، ويعد رب الأبواب لأنها ذات وجهين على مثاله. (المترجم)

(**) - جانو: نموذج الممثل الهزلي في القرن الثامن عشر، وهو يمثل الحماقة المثيرة للضحك. (المترجم)

(١) - تعددت مثل هذه الأحداث وأدى بعضها إلى مبارزات، كلفت إحداها أرمان كاريل حياته، زمن ملكية تموز، في ٢٨ شباط ١٨٣٠ حضر مارتنفيل إلى صحيفة السارق Voleur ومعه شهوده ليغسل الإهانة التي لحقت به من جراء رباعية شعرية تسيء إليه ووجب على الصحيفة أن تقدم اعتذاراً له (إنما ليس كاعتذار الصحيفة الصغيرة المشهر للخناجر) كما أن صحفاً آخرى، وخاصة القرصان تجنبت بصعوبة مبارزات طالب بها رجال تهجمت عليهم الصحيفة.

قال فينو: تناولوه بضراوة، وسيأتي لمقابلتي، وسأتظاهر بخدمته والعمل على تهدئتكم فهو موال للوزارة، وسنحصل عندها على شيء ما، وظيفة لأستاذ بديل، أو مكتب تبغ.

إننا سعداء لأنه شعر باللسعة في هذه اللعبة، من منكم يريد تحضير مقال افتتاحي عن ناتان في مجلتي الجديدة.

قال لوستو: أعطه للوسيان، وسيقوم هكتور وڤرنو بإعداد مقالين في صحيفتيهما الخاصتين.

قال فينو ضاحكاً: وداعاً أيها السادة، سنتلاقى مجدداً وجهاً لوجه لدى بارين[1].

تلقى لوسيان بعض التهاني لانخراطه ضمن هيئة الصحفيين الرهيبة، وقدمه لوستو رجلا يمكن الاعتماد عليه وقال:

«لوسيان يدعوكم جميعاً، أيها السادة إلى وليمة ليلية لدى الفاتنة كورالي، خليلته».

- قال لوسيان لإيتيين: ستتعاقد كورالي مع الجيمناز.

- حسن أيها السادة، ليكن مفهوماً أننا نريد أن ندعم كورالي، اليس كذلك؟ ضعوا جميعاً في صحفكم بضعة أسطر عن تعاقدها وأشيروا إلى موهبتها، وستصفون إرادة الجيمناز باللباقة والمهارة، ولكن هل يمكن أن نعطيها الفطنة؟

- أجاب مرلن: سنعطيها الفطنة ففريدريك[2] يعد مسرحية مع سكريب.

---

(١) - عبارة من الفصل الثالث، المشهد الثالث من مسرحية موليير «النساء المتحذلقات».

(٢) - ورد الاسم أولاً جول، وذكرت المخطوطة أن هذا المحرر غدا شهيراً مما يدفع الجمهور إلى التفكير بالأديب والناقد جانين (١٨٠٤ - ١٨٧٤)، لكن هذا التحديد لايقدم أية فائدة، ويبدو أن بلزاك أراد تجنب سوء الفهم أو بالأحرى تشويش الأثر فوضع اسم فردريك بدلا من جول، ووجدت السيدة مينينجه بتحريها الوثائق وجود شخصين من مؤلفي مسرحيات الفودفيل يحملان هذا الاسم وهما فردريك دوبتي - ميره (١٧٨٥ - ١٨٢٧) والثاني فردريك دي كوريس (١٧٩٥ - ١٨٦٢) وهذا الأخير تعاون أكثر من مرة مع سكريب (١٧٩١ - ١٨٦١) وخاصة في مسرحيات قُدمت للجيمناز فهل كان بلزاك يعني بهذا الاسم كائنا وهمياً أم شخصاً حقيقياً. إن السيدة مينينجه تميل إلى الرأي الأول.

- قال ڤرنو: سيغدو مدير الجيمناز عندئذ الأكثر تبصراً وبُعدَ نظر بين المضاربين.

- قال لوستو: لاتعدوا مقالاتكم عن كتاب ناتان قبل أن نتداول في الأمر، وستعرفون السبب، إذ يجب أن نقدم خدمة لصديقنا الجديد، ولدى لوسيان كتابان يريد نشرهما أحدهما ديوان شعر والآخر رواية، وبفضل المقالات القصيرة في الصحف. يجب أن يغدو شاعراً كبيراً خلال ثلاثة أشهر. سنستخدم سونيتاته **أزهار المرغريت** للحط من قيمة القصائد الغنائية، والموشحات، والتأملات، وكلّ الشعر الرومنطيقي.

- قال فرنو: سيكون الأمر مضحكاً، إن ظهرت السونيتات غير ذات قيمة، كيف تجد سونيتاتك يالوسيان؟

- قال أحد المحررين المجهولين: هذا هو السؤال، كيف تجدها؟

- قال لوستو: أؤكد لكم أيها السادة أنها جيدة.

- قال فرنو: هذا مايسعدني، سأرميها في وجه شعراء السكريستي الذين يتبعونني.

- إذا لم يقرر دوريا، هذا المساء، نشر ديوان **أزهار المرغريت**، فسنرميه بالمقال تلو المقال ضد ناتان.

- صاح لوسيان: ولكن ماذا سيقول ناتان؟

أطلق المحررون الخمسة ضحكات عالية، وقال فرنو: سيكون مغتبطاً، وسترى كيف سنسوي الأمور.

- قال أحد المحررين اللذين لايعرفهما لوسيان: هكذا غدا السيد واحداً منا؟

- قال إيتيين لوستو: نعم، نعم، يافردريك، بلا مقالب. ثم التفت إلى لوسيان معلقاً: أترى كيف نتصرف معك فلا تتراجع أمام هذه الفرصة. إننا نحبّ جميعاً ناتان، وسنقوم بمهاجمته. والآن لنتقاسم مملكة الاسكندر. أترغب يافردريك بمسرحي الفرنسيين والأوديون.

- قال فردريك: إذا وافق هؤلاء السادة.

أحنى الجميع رؤوسهم بإيماءة الموافقة لكن لوسيان لمح في أعينهم نظرات حاسدة.

قال فرنو: سأحتفظ بالأوبرا، ومسرح الايطاليين والأوبرا - كوميك(١).

- قال لوستو: وسيأخذ هكتور مسارح الڤودڤيل(٢).

- هتف المحرر المجهول الآخر: وأنا، هل أبقى دون مسارح؟

- قال ايتين: سيتخلى لك هكتور عن «المنوعات» ولوسيان عن باب سان مارتن.

ثم التفت إلى لوسيان قائلاً: اترك له باب سان مارتن فهو مغرم بفاني بوپرة(٣)، وخذ بدلا عنه السيرك الاولمبي. أما أنا فسيكون لي بوبينو، والبهلوانات، والسيدة ساكي(٤) ماذا لدينا للصحيفة في عددها غداً.

---

(١) - كانت الأكاديمية الملكية للموسيقى، المعروفة لدى العامة باسم الاوبرا، تقع في شارع رقم ١٠ لبلتيه، أما الأوبرا القديمة في شارع ريشليو فقد أغلقت ثم هُدِمت بعد مقتل الدوق دي بري (١٣ شباط ١٨٢٠) وحلّ محلها قاعة في شارع لابلتيه بنيت في أيار ١٨٢١ وافتتحت في آب أي بعد عدة أشهر من وصول لوسيان إلى باريس (إن أُخذ تاريخ الرواية بحرفيته فالحفلة التي شهدها الشاعر عند وصوله كانت في قاعة شارع فاڤار) والمسرح الملكي الايطالي المطل على جادة الايطاليين وشارع فاڤار اختص بالاوبرات الإيطالية. أما الأوبرا - كوميك فكانت تشغل قاعة كبرى في شارع فيدو.

(٢) - كان مسرح الفودفيل في شارع شارتر، ومسرح المنوعات في جادة مونمارتر، والجيمناز في جادة بون - نوڤيل.

(٣) - حتى العام ١٨٣٩، كان هذا اسم ممثلة حقيقية جيني فيربرهٌ، وكانت تمثل في مسرح باب سان مارتن حتى نيسان ١٨٢١ ثم انتقلت إلى مسرح المنوعات، وإلى الجيمناز، وأشار إليها بلزاك في رسالة إلى بيريه بتاريخ ١١ كانون أول ١٨٣٨.

(٤) - احتفظ لوستو، وهو المصمم على استغلال معاونيه، بالمسارح الشعبية التي لاتشغل أعمدة الصحف، فبوبينو وهو مسرح جوال في اللوكسمبورغ - رقم ١٧ شارع مدام يقدم عروضاً للأولاد والخادمات تشمل راقصين على الحبل، ولاعبي خفة، وممثلين إيمائيين، واحيانا كوميديين، بأسعار ٧٥، ٥٠، ٣٠ سنتيماً (في العام ١٨٢٧) وكان مسرح البهلوانات في ٦٤ جادة التامبل، يتقاضى الأسعار ذاتها وقد يخفضها إلى ٢٠ سنتيماً (في العام ١٨٢٧) وإلى جانبه مسرح السيدة ساكي=

أجاب كل بدوره: لاشيء.

- قال لوستو: أيها السادة عبروا عن براعتكم من أجل أول عدد يصدر تحت رئاستي. فالبارون شاتليه وعظم حباره لايدومان ثمانية أيام، ومؤلف **الناسك** قد استهلك.

- قال فرنو: كما أن سوستين - ديموستين لم يَعُد مضحكاً بعد أن تناوله الجميع.

قال فردريك: يلزمنا ضحايا جديدة.

- صاح لوستو: أيها السادة، مارأيكم بتركيز سخرياتنا على الرجال الأفاضل في حزب اليمين؟ فنقول عن بونالد[1] مثلا إن رائحة كريهة تفوح من قدميه.

- قال هكتور مرلن: أو لنبدأ في سلسلة من الوصف التصويري للخطباء الموالين للوزارة؟

- قال لوستو: افعل هذا، ياعزيزي، فأنت تعرفهم، وهم من حزبك، ويمكنك بذلك أن تشفي غُلّة بعض الأحقاد الداخلية، تناول بونيو، وسيريس دي مايرينهاك[1] وغيرهما. وستكون المقالات معدّة سلفاً فلا نرتبك عند ملء أعمدة الصحيفة.

= منافسته الشهيرة في رقم ٦٢، التي اشتهرت في العالم أجمع، وشوهدت لآخر مرة ترقص على الحبل في باريس العام ١٨٦١ وهي في الثمانين من العمر. أما السيرك الأولمبي للأخوين فرنكوني في ضاحية التامبل فقد اشتهر باستعراضات ترويض الوحوش، ومثلت فيه أيضاً المسرحيات الايمائية بنجاح كبير، وكان أحد المسارح الشعبية التي بدأ بها فردريك ليتر، لذلك فمن المنطقي أن يعهد به للوسيان.

(١) - بونالد: (١٧٥٤ - ١٨٤٠): كاتب سياسي فرنسي دافع عن المبادىء الملكية والكاثوليكية.

(١) - جاك كلود بونيو (١٧٦١ - ١٨٣٥): رجل سياسة تميز بسهولة تكيفه مع جميع الأنظمة بدءاً من المؤتمر الوطني في عهد الثورة حتى الملكية الثانية، وشغل وظائف مختلفة وتميز في مختلف العهود. أما سيرييس دي مايرينهاك فهو في رأي بلزاك المسجل في دراسة موضوعية عن الصحافة الباريسية «إداري جيد جداً، ورجل فكر»، لكن صحيفة فيغارو ركزت على السخرية منه كما أن الصحفيين المكلّفين بتقديم تقارير عن جلسات المجلس التشريعي هاجموه بضراوة وتمكنوا من إقناع فرنسة الليبرالية أن رجل الفكر هذا شخص بليد أحمق.

- استأنف هكتور: أو أن نبتكر بعض أحداث الامتناع عن إجراء مراسم الجنازة والدفن، وفق الظروف الأكثر أو الأقل خطورة؟

- ردّ فرنو: يجب ألا ننحو منحى الصحف الدستورية الكبيرة، إذ لايمكننا منافستها في هذا المجال، فلديها كراتين كهنتها الليبراليين الممتلئة بالبطيّات.

سأل لوسيان مستغرباً: البطيات؟

أجابه هكتور: نسمي بطيّة أو طير بط خبراً مختلقاً يبدو كأنه حقيقي وقد ابتكر ليبرز أحداث باريس عندما يعتورها الشحوب[1]، والبطيّة لقطة من إبداع فرانكلين[2] الذي اخترع واقية الصواعق، والبطيّة والجمهورية وخدع هذا الصحفي الموسوعيين ببطيّاته المرويّة عن بلدان ماوراء البحار، حتى أن رينال عَدَّ في مؤلفه التاريخ الفلسفي للبلدان الهندية اثنتين من بطيّاته حَدَثين حقيقيين صحيحين.

قال فرنو: لاعلم لي بهذا، ما هما هاتان البطيّتان؟

- القصة المتعلقة بالانكليزي الذي باع محررته، الزنجية، بعد أن أنجبت منه

(١) - أتم بلزاك تعريف البطية في الدراسة الموضوعية للصحافة الباريسية: «الرجل الذي يصيح في شوارع باريس معلناً توقيف المجرم الذي سينفذ فيه حكم الإعدام، أو علاقات لحظاته الأخيرة! أو بيان الانتصار... ويبيع بفلسٍ الورقة المطبوعة التي يعلن عنها والمسماة بطيّة في لغة المطبعة، مهنة هذا المنادي قد زالت لأن الصحيفة قتلتها وحلت محلها فبطيّة الصحافة: «حدث مستحيل وصحيح، ممكن ومزيف» وهو يستحق اسمه «فهو لايتكون دون ريش، ويتلاءم مع جميع الصلصات». وأعطى بعد بضعة أسطر في الدراسة توضيحات تلقي مزيداً من الضوء على هذه الصفحة من **أوهام ضائعة**: «جعلت صحيفة الدستور في عهد الملكية الثانية من البطية سلاحاً سياسياً، فكان لها صندوق الكهنة الشهير الذي يحوي أحداث رفض مراسم الجنازات والدفن، وقصصاً عن مضايقات جرت للكهنة الليبراليين الذين لم يكن لهم وجود مطلقاً، فالكاهن الليبرالي من ابتكار الخيال.

(٢) - بنجامين فرانكلين (١٧٠٦ - ١٧٩٠): رجل دولة، وفيزيائي، وفيلسوف، وصحفي أمريكي. جاء إلى فرنسة في العام ١٧٧٨ ليفاوض لويس السادس عشر للتحالف مع الجمهورية الجديدة القائمة في أمريكة، وهو مخترع واقية الصواعق.

ليقبض مزيداً من المال، ثمَ المرافعة البارعة للفتاة الحامل التي كسبت قضيتها [1]، وعندما حضر فرانكلين إلى باريس، اعترف أمام نيكر ببطيّاته، مما سبب ارتباكاً كبيراً للفلاسفة الفرنسيين، وهكذا أفسد العالمُ الجديد مرتين العالمَ القديم.

- قال لوستو: إننا ننطلق من أن الصحيفة تُعدُّ كلَّ ماهو محتمل حقيقةً.

- قال فرنو: هذا هو منطلق القضاء الجزائي أيضاً.

- قال مرلن: حسن، عودة إلى الإجتماع هنا، في الساعة التاسعة من هذا المساء.

قال إيتيين للوسيان وهما يهبطان السلم: ماذا فعلت لفينو لعقد صفقة معك؟ إنه الوحيد الذي أظهر دعمه لك.

- لم أفعل له شيئاً وهو الذي عرض عليّ صفقته.

- أخيراً سيكون بينه وبينك تنسيق، وهذا مايسعدني، إذ سنكون كلانا أكثر قوة.

التقى إيتيين ولوستو في الطابق الأرضي بفينو الذي انفرد بلوستو ودخل معه إلى المكتب الظاهري للتحرير.

---

(١) - يقص علينا ل. ف هوفمان الأستاذ في جامعة برنيستون حقيقة هذه التلميحات الغامضة والخاطئة جزئياً.

فحكاية الانكيزي إينكل الذي أراد في جزيزة باربادوس أن يبيع خليلته الحامل الهندية ياريكو بسعر جيد، رواهاالأول مرة المسافر لينغون في كتاب صدر العام ١٦٥٧ في لندن ونقل إلى فرنسة في العام ١٦٧٤. لم يكن فرانكلين إذن مخترع هذه السالفة التي استعيدت بعد ذلك أكثر من مرة، وخاصة من قبل رينال في مؤلفه تاريخ الهندين. وقد سخر فولتير في معجمه الفلسفي تحت باب مجموعة **فكاهات وسوالف** من سذاجة رينال وأخذ عليه نسخه في «المشاهد» حكاية إينكل، وهي فكاهة نسبها فولتير خطأً إلى سيتل كما أنه ذكر حكاية أخرى مختلقة من فرانكلين: «خطاب فتاة من بوسطن إلى قضاتها الذين حكموا بتأديبها للمرة الخامسة لأنها أنجبت ولداً للمرة الخامسة». اعترف ب. فرانكلين نفسه أن «خطبة بولي باكر» ثمرة مخيلته. وسالفة ياريكو حكاية وطرفة بولي باكر حكاية أخرى، ويفسر خلط بلزاك بين القصتين بقراءة متسرعة لمعجم فولتير الفلسفي.

- قال جيرودو وهو يقدّم للوسيان ورقتين مدموغتين: وقّع عقدك لإيهام رئيس التحرير الجديد أنه تمّ بالأمس.

سمع لوسيان وهو يقرأ نصّ هذا العقد جدلاً حاداً تقريباً بين فينو وايتيين يدور حول الدخل العيني للصحيفة[1]، فقد طالب إيتيين بحصته من هذه الضرائب التي يفرضها جيرودو، وتمت دون شك تسوية بين الصديقين إذ أنهما خرجا متفقين كلية.

- قال إيتيين للوسيان «إلى اللقاء في الثامنة مساء في رواق الخشب لدى دوريا».

لاحظ لوسيان شاباً يراجع ليعمل محرراً بالمظهر الخجل القلق الذي بدا عليه الشاعر عندما زار هذا المكان لأول مرة، وأحسّ لوسيان بسرور خفيّ وهو يرى جيرودو يمارس على الوافد الجديد ذات السخريات التي أفرط العسكري القديم في تطبيقها عليه، وأدرك وهو صاحب مصلحة الآن، ضرورة هذه المناورة التي تقيم حواجز يتعذر تذليلها تقريباً بين المبتدئين والسقيفة حيث يجتمع المحررون.

- قال لجيرودو: «لايوجد كثير من المال للمحررين».

- قال النقيب السابق: بازدياد عددكم يقلّ نصيب كلّ منكم!

أدار العسكري السابق عصاه المرصعة، وخرج وهو يتمتم وذهل وهو يرى عربة فخمة تنتظر لوسيان في الجادة وقال له: «ها أنتم الآن العسكريون ونحن المدنيون».

قال لوسيان لكورالي وهو يجلس إلى جانبها في العربة: أقسم لك أن هؤلاء الشباب يبدون لي من أطيب الأشخاص في العالم. ها أنا صحفي مع اليقين على إمكان بلوغ مكاسبي ستمئة فرنك في الشهر إن عملت كحصان الجرّ، لكنني

---

(١) - سنتعرض لتعرفة اشتراكات الصحف كما نشرت في الألبوم (شهر أيار ١٨٢٢) وذلك في دراستنا للرواية.

سأنشر مؤلفيَّ، وسأكتب غيرهما لأن أصدقائي سيعدّون لي ترتيبات إنجاحي، وهكذا سأتمكن أن أقول كما قلت ياكورالي: لندع الأمور تجري في أعنتها.

- ستنجح ياحبيبي، ولكن لاتكن طيّباً على قدر وسامتك فتضيع. كن شريراً مع الناس، فهذا هو حسن التصرف.

ذهب لوسيان وكورالي يتنزهان في غابة بولونيا، وصادفا فيها مرة أخرى المركيزة دسبار، والسيدة دي بارجتون، والبارون شاتليه، ونظرت السيدة دي بارجتون إلى لوسيان بشكل مغر يمكن أن يُعدَّ تحيةً. وكان كاموزو قد أوصى على عشاء فاخر، وأبدت كورالي بعد أن اطمأنت إلى خلاصها من تاجر الحرائر المسكين مزيداً من اللطف له، لايذكر، خلال الأربعة عشر شهراً من علاقتهما، رؤيته لها بمثل هذه الرقة والجاذبية.

قال في نفسه: هيّا، لأبقَ معها، رغم كل شيء!

اقترح كاموزو سراً على كورالي اشتراكا في السجل الكبير بدخل ستة آلاف فرنك سنوياً لاتدري به زوجته، إن وافقت على بقائها خليلة له مع سكوته عن علاقتها بلوسيان ورضاه عن حبها له.

أجابت وهي تشير إلى الشاعر الثمل قليلاً بمزيد الشراب الذي حاول كاموزو أن يُسكره به: أأخون مثل هذا الملاك؟... ولكن انظر إليه أيها القبيح المسكين، وانظر إلى نفسك. قرّر كاموزو أن ينتظر ليعيد البؤس إليه المرأة التي سبق للبؤس أن سلمها له، فقال وهو يقبل جبينها: «لن أكون إذن إلا صديقاً لك».

ترك لوسيان كورالي وكاموزو ليذهب إلى رواق الخشب، إنما بأي تحوّل أحدثه في نفسه اطلاعه على أسرار العمل الصحفي، واختلط دون خوف بالجماهير التي تتموّج في الأروقة وصعر خده صلفاً فله خليلة جميلة الآن، ودخل طلق المحيا إلى مكتب دوريا حيث وجد فيه المجموعة الرئيسة، وصافح بلونده وناتان وفينو، ومجموعة الأدباء الذين ألفهم خلال أسبوع، وتوهم نفسه شخصية قادرة على

تجاوز رفقائه، وأثارت حماسه لذعة الخمر وشغلت مخه بشكل عجيب فبدأ فكهاً ظريفاً وبيّن أن بإمكانه أن يعوي مع الذئاب. غير أن لوسيان لم يحظ بمظاهر الاستحسان المقدّر الصامتة أو الناطقة التي يتوقعها، بل لاحظ أول حركة حسد في هذا الجمع الأقل قلقاً، وربما الأكثر فضولاً لمعرفة المركز الذي يحتله هذا المتفوق الجديد، وماذا سيلتهم من القسمة العامة لمنتجات الصحافة. ولم يبسم للشاعر إلا فينو الذي وجد فيه منجماً قابلاً للاستثمار، ولوستو الذي اعتقد أن له عليه حقوقاً. وبدا على لوستو مظهر تعالي رئيس التحرير فقرع بشدة على زجاج باب مكتب دوريا، وأجابه الكتبي بعد أن رفع رأسه فوق الستائر الخضراء وعرف الطارق: «انتظر لحظة ياصديقي».

لكن للحظة دامت ساعة دخل بعدها لوستو ولوسيان إلى حرم الكتبي

- قال رئيس التحرير الجديد: وبعد هل فكرت بمشروع صديقنا؟

قال دوريا وهو يستند بتعاظم على ظهر كنبته: بكل تأكيد، تصفحت الديوان وطلبت من رجل ذوّاقة، حكم جيد أن يقرأه، لأنني لا أدعي الخبرة في موضوعه. فأنا ياصديقي أشتري المجد جاهزاً كما يشتري ذلك الإنكليزي الحب. إنك شاعر كبير بقدر ما أنت شاب وسيم ياصغيري. أؤكد لك كرجل شريف، لا ككتبي، ألاتلاحظ فرق النظرة؟ أن سونيتاتك رائعة لايُشعر فيها بالتكلف والجهد، وهذه هي ندرة الاستيحاء وجودة القريحة. أخيراً فأنت تجيد النظم وهو أحد مزايا المدرسة الحديثة. وديوان **أزهار المرغريت** كتاب جميل، لكنه ليس مشروعاً كبيراً، وأنا لاأتمكن من الاهتمام إلا بالمشاريع الواسعة. وتقيداً بمبادئي وإرضاءً لضميري لاأريد أن آخذ سونيتاتك، فمن المتعذر عليَّ تسويقها ونفقات توطيد النجاح لاتحقق أرباحاً، كما أنك لن تستمر في الشعر، وديوانك مؤلف منفرد. إنك شاب! وأنت تحمل لي المجموعة الخالدة من بواكير الأبيات التي يقوم بها جميع رجال الأدب عند تخرجهم من الكلية ويفخرون بها أولا، ولكنهم يسخرون منها فيما بعد. ولا شك

أن لصديقك لوستو شعراً مخبوءاً في جواربه العتيقة. والتفت دوريا إلى إيتيين يسأله بعد أن ألقى عليه نظرة تواطؤ ماكرة: أليس لديك قصيدة كنت تعتز بها يالوستو؟

أجاب لوستو: طبعاً، وإلا كيف أمكنني أن أكتب نثراً؟

استأنف دوريا: أترى؟ إنه لم يذكر لي هذا أبداً، ولكن صديقنا يعرف موضوع النشر والمشاريع، وأضاف ملاطفاً لوسيان: ليس الموضوع بالنسبة لي معرفة ما إذا كنت شاعراً كبيراً، فلديك الكثير، الكثير من المقدرة، ولو كنت مبتدئاً في عالم الكتب لارتكبت خطأ نشر ديوانك، ولعجّل الآن شركائي الأوصياء وممولي لقطع أسباب رزقي، يكفي أنني خسرت عشرين ألف فرنك في العام الفائت حتى لايريدون سماع أية قصيدة، وهم معلميّ. غير أن الموضوع ليس هنا. فأنا أقبل كونك شاعراً كبيراً. ولكن هل ستكون مثمراً، هل ستنتج بشكل نظامي سونيتات؟ هل ستنظم عشرة دواوين؟ هل ستشكل مشروعاً تجارياً هاماً؟ الواقع كلا، بل ستغدو ناثراً ممتعاً، ولك من الذكاء مايدفعك إلى عدم إضاعة الوقت في حشو غير مجد، وبينما يمكنك أن تكسب ثلاثين ألف فرنك سنوياً من العمل الصحفي فلن تبادل بها ثلاثة آلاف فرنك ستصل إليها بصعوبة عن طريق تشطير أبياتك الشعرية، ومقاطع قصائدك، وغيرها من ترضيات بسيطة.

قال لوستو: هل تعلم يادوريا أن السيد سيكون من محرري صحيفتنا؟

- أجاب دوريا: نعم، قرأت مقاله، ومن مصلحته، بالطبع، أن أرفض له نشر ديوانه **أزهار المرغريت**! نعم، أيها السيد، سأعطيك من الآن وحتى ستة أشهر لقاء المقالات التي سأطلبها منك مبالغ تفوق ماتتوقع الحصول عليه من نشر ديوانك غير المتوقع تسويقه.

- صاح لوسيان: والمجد؟

انطلق دوريا ولوستو ضاحكين.

- وقال لوستو: يقيناً! هذا يحفظ الأوهام.

- أجاب دوريا: المجد، هو الثبات مدة عشر سنوات، وخيار الكتبي بين ربح مئة ألف فرنك أو خسارتها. إذا وجدت مجانين يطبعون قصائدك خلال سنة من الآن، فسأكنّ لك كل التقدير عند معرفة نتائج عمليتهم.

- قال لوسيان ببرود: هل لديك مخطوطتي الآن؟

- أجاب دوريا ملطفاً بشكل خاص من لهجة كلامه: ها هي ياصديقي.

تناول لوسيان اللفافة دون أن ينظر إلى حالة الخيط الذي رُبطت به مادام دوريا يبدو بمظهر المطلع على القصائد، وخرج مع لوستو دون أن يبدو واجماً أو متكدراً، ورافق دوريا ضيفيه إلى القاعة وهو يتحدث عن مجلته وصحيفة لوستو، بينما لوسيان يلعب بلا مبالاة بمخطوطة ديوانه.

همس إيتيين في أذنه: «هل تعتقد أن دوريا قد قرأ سونيتاتك أو أقرأها غيره؟

قال لوسيان: نعم.

- انظر إلى مصطلح الأختام.

لاحظ لوسيان أن الحبر على الخيط وغلاف المخطوطة في تناسق تام، فالتفت إلى الكتبي يسأله وقد شحب لونه غضباً وغيظاً: «أيّة سونيتة لفتت نظرك بشكل خاص».

أجاب دوريا: كلها متميزة ياصديقي ولكن تلك المتعلقة بزهرة المرغريت ممتعة جداً، وهي تنتهي بفكرة دقيقة وحساسة، ومن هنا أقدّر ماسيلقى نثرك من نجاح، ولذلك نصحت في الحال فينو بالاعتماد عليك، فاكتب مقالات لمجلتنا وسنجزل لك العطاء، أترى، فكر بالمجد، فهذا جميل، ولكن لاتنس الارتكاز الصلب، وخذ مايتوفر لك، وعندما تغدو غنياً ستنظم الأشعار.

خرج الشاعر فجأة إلى الأروقة كي لايتفجر غيظه بعد أن استشاط غضباً. وقال له لوستو بعد أن لحق به: كن هادئاً يابني، اعتبر الرجال كما يجب أن يعاملوا، وسأل. هل تريد أن تأخذ بثأرك؟

قال الشاعر: مهما كلّف الأمر.

- هاهي نسخة عن كتاب ناتان أعطاني إياها الآن دوريا، وستظهر الطبعة الثانية منه غداً. اقرأ هذا المؤلف، واكتب عنه بسرعة مقالاً يحطمه. إن فليسيان ڤرنو لايطيق ناتان لأنه يعتقد أن نجاحه سيضر بما يتوقعه من نجاح لمؤلفه المعد للنشر. وهذا هوس العقول الصغيرة التي تعتقد أن ليس تحت الشمس مكان لنجاحين، وهكذا فڤرنو مستعد لنشر مقالك في الصحيفة الكبيرة التي يعمل بها.

- صاح لوسيان: ولكن ماذا يمكن أن تقول ضد هذا الكتاب الذي أجده قيماً جداً.

- رد لوستو ضاحكاً: ياعزيزي تعلم كيف تتقن مهنتك، فإن كان الكتاب تحفة منقطعة النظير يجب أن يتحوّل تحت ريشتك إلى حماقة خرقاء، ومؤلف خطر وفاسد.

- ولكن كيف؟

- تحوّل محاسنه إلى عيوب.

- لست قادراً على هذه اللعبة الصعبة.

- ياعزيزي، إن الصحفي بهلوان؟ ويجب أن تعتاد على طوارىء الظروف. إليك مايمكن أن يجري. إنني إنسان طيّب! وهي ذي الطريقة التي أستخدمها في ظروف مماثلة. انتبه ياصغيري! ستبدأ بأن تجد المؤلف شيقاً، ويمكنك أن تستمتع بأن تكتب عنه عندئذ ماتفكر به. وسيقول الجمهور. هذا ناقد غير حسود، وسيكون دون شك غير محابٍ، وآنئذ سيعدُّ الجمهور نقدك متقناً صادراً عن ضمير حيّ، وبعد أن تكسب ثقة القارىء تبدي أسفك لأن عليك أن توجّه اللوم لنظام يسمح لمثل هذه الكتب أن تدخل الأدب الفرنسي، وستقول: أليست فرنسة هي موجهة

الفكر في العالم كله؟ وحتى الآن، ومن قرن إلى قرن، كان الكتاب الفرنسيون يصفون أوروبة على دروب التحليل والاستقصاء الفلسفي بقوة أسلوبهم، والشكل المبتكر الذي يخلعونه على أرائهم. وهنا تضع لإرضاء البورجوازيين تقريظاً لفولتير، وروسو، وديدرو، ومونتسكيو، وبوفون، وتشرح كيف أن اللغة في فرنسة لاترحم، وتبرهن أنها برنيق طلاء الفكر، وتطلق بعض الحكم مثل: الكاتب الكبير في فرنسة، رجل كبير على الدوام، ولغته تفرض عليه أن يفكر باستمرار خلافاً للبلدان الأخرى، الخ... وتقيم الدليل على صحة رأيك بمقارنة الكاتب الأخلاقي الألماني الهجاء رابنير[1] مع لابروبير[2]. ما من شيء يرسخ كا لكلام عن مؤلف أجنبي مجهول. وكانط هو مرقى كوزين[3]، وما أن تغدو في هذه الحلبة حتى تطلق كلمة تلخص للأغبياء وتشرح لهم منهج عباقرتنا في القرن الأخير، مسمياً أدبهم **الأدب المكون للفكرة**، وبتسلحك بهذه الكلمة تلقي جميع الأموات المشهورين على رأس المؤلّفين الأحياء، وتشرح حينئذ إنتاج أدب جديد في ألمانيا مغالٍ في استخدام الحوار (وهو أسهل الأشكال الأدبية)، والأوصاف التي تغني عن التفكير، وتعارض روايات فولتير، وديدرو، وستيرن، ولزاج على أهميتها ولذعها، بالرواية الحديثة التي يترجم فيها كل شيء بالصور، والتي ضخمها والتر سكوت وأضفى عليها طابع المأساة، وفي مثل هذا النوع لا وجود إلا للمبتكر، وستقول إن الرواية على طراز والتر سكوت هي نوع وليست منهجاً، وستصعق هذا النوع المنكود الذي تُحمل فيه الآراء، وتمرر على التصفيح، النوع الملائم لكل

---

(١) - رابنير، ويلهلم (١٧١٧ - ١٧٧١): كاتب الماني نُقلت أهجياته إلى فرنسة من قبل بوابريو العام ١٧٥٤.

(٢) - لابروبير (١٦٤٥ - ١٦٩٦): كاتب فرنسي صاحب كتاب السمات.

(٣) - كانط، امانويل (١٧٢٤ ، ١٨٠٤): فيلسوف ألماني، وكوزين، فيكتور (١٧٩٢ - ١٨٦٧): فيلسوف فرنسي.

العقول، النوع الذي يمكن لكل امرىء أن يغدو فيه مؤلفاً رخيصاً، النوع الذي ستسميه أخيراً **الأدب المزوّق**[1]. ستسقط هذه المحاجة على ناتان، وتبين أنه مقلد، وليس له من الموهبة إلا المظهر، وأن أسلوب القرن الثامن عشر الوجيز المتميز بنقص كتابه، وتبين أن المؤلف أحل الأحداث محلّ العواطف. فالحركة ليست الحياة، واللوحة ليست الفكرة، ويجبن الجمهور أمام هذه الحكم فيرددها. ورغم استحقاق هذا المولف يبدو لك مشؤوماً وخطراً، فهو يفتح أبواب معبد المجد أمام الجمهور، وستعمل على أن تظهر على البعد جيشاً من صغار المؤلفين يهرعون لتقليد هذا الشكل البسيط. وهنا يمكنك أن تنصرف إلى تفجع مدوٍ على انحطاط الذوق، وتزلق مديح السادة إيتيين، وجوي، وتيسو، وغوس، ودوڤال، وجاي، وبنجامن كونستان، وإينيان، وباور - لورميان، وڤيلمن[2] وزعماء الحزب الليبرالي النابوليوني الذي توجد صحيفة ڤرنو تحت حمايته. وتشير إلى هذا الفيلق الظافر المقاوم لغزو الرومنطيقيين، التمسك بالفكر والأسلوب المضادين للصورة والثرثرة، المتابع للمدرسة الفولتيرية، والمعارض للمدرستين الانلكيزية والألمانية، وكذلك إلى السبعة عشر خطيباً المكافحين مع الأمة ضد متطرفي اليمين، ويمكنك، وأنت محمي بهذه الأسماء المحترمة من قبل الأكثرية الواسعة من الفرنسيين المؤيدة لمعارضة اليسار أن تسحق ناتان، وكتابه الذي يعطي رغم ما فيه من أشياء جميلة عالية، للبورجوازية، الحق بأدب دون أفكار، وعندها لن يعود الأمر متعلقاً بناتان

---

(١) - كان بلزاك شديد الاهتمام في إظهار التعارض بين **الأدب المكوّن للفكرة والأدب المزوق**، وقد ورد هذان التعبيران في رسالة له إلى كوستين (١٠ شباط ١٨٣٩) وهي معاصرة لمدّة كتابته لهذه الرواية، وعاد إلى ذات الموضوع في دراسات عن السيد بويل الذي نشر في العام التالي في المجلة الباريسية. ويلاحظ أن بلزاك لم يخش المجازفة برأي يؤمن به ويُضمنه في خطاب ميكافلي لشخصية سيدينها بعد ذلك.

(٢) - لاتعود شهرة هؤلاء العاملين في حقل الأدب إلى نتاجهم المتواضع، وإنما إلى مراكزهم القوية في صحفهم وخاصة صحف: منيرفا الفرنسية، والبريد الفرنسي، والدستوري، والمرشد، وعطارد، والمرآة، والبندور، أما ڤيلمن الاستاذ المعزول من منصبه الجامعي من قبل الوزير ڤيليل فيعد ضحية النظام.

أو كتابه، وإنما بمجد فرنسة. هل تدرك ذلك؟ وواجب الأقلام الشريفة والجريئة أن تعارض بشدة هذه المستوردات الأجنبية. وهنا تصانع المشترك، ففرنسة بالنسبة لك ثرثارة يقظة يصعب خداعها، وإذا كان الناشر لأسباب لاتريد التطرّق إليها قد اقتضى نجاحاً، فإن الجمهور الحقيقي سيعاقب على الأخطاء التي سببها خمسمئة أبله يشكلون طليعته، وتقول إن الناشر بعد أن حظي ببيع الطبعة الأولى من هذا الكتاب، تملكته الجرأة على أن يصدر طبعة ثانية، وإنك تأسف لأن هذا الناشر، على مهارته، لايعلم مافُطرت عليه البلاد. هي ذي جملة الأفكار، وما عليك إلاأن توشي هذه المحاكمات بظرافة التعبير، وتطيّبها برشّة توابل، وسيتقلب دوريا على جمر المقالات. ولكن لاتنس أن تنهي المقال بالتظاهر بالإشفاق على ناتان، والأسف لخطئه في اتباع طريق لو يتخلى عنه لقدّم للأدب المعاصر مؤلفات قيمة.

تملكت لوسيان الدهشة وهو يستمع إلى لوستو، وأزالت كلمات الصحفي عن عينيه غشاوات، وكشفت له حقائق أدبية لم يكن يتوقعها.

صاح: ماتقوله لي مفعم بحسن المحاكمة وسداد الرأي.

قال لوستو: هل كان بإمكانك دون هذا أن تهاجم ناتان. هوذا ياعزيزي القالب الأول لمقال يُستخدم لتهديم مؤلف. إنه قمة النقد. لكن توجد قوالب أخرى! وستكتشفها تربيتك، عندما تضطر قطعاً للتكلم عن كتاب رجل لاتحبه، إذ قد يُرغم مالكو الصحيفة أو رؤساء التحرير على ذلك، فإنك تبسط علامات النفي على مايسمى المقال الرئيس، ويوضع في رأس المقال عنوان الكتاب الذي يراد منك الاهتمام به، ويُبدأ باعتبارات عامة يمكن التطرق فيها إلى الإغريق والرومان ثم يقال في الخاتمة: هذه الاعتبارات تقودنا إلى كتاب السيّد فلان الذي سيكون موضوعاً للمقال الثاني، لكن هذا المقال الثاني لايظهر أبداً، وهكذا يُخنق الكتاب بين وعدين. وهنا لايكون المقال ضد ناتان، ولكن ضد دوريا. ومايلزم هو نقرة معول،

وهذه النقرة لاتؤثر على المؤلف الجيد، لكنها تطعن الكتاب السّيء في الصميم: في الحالة الأولى لاتضر إلا الناشر، وفي الحالة الثانية تقدّم خدمة للجمهور، وهذه الأشكال من النقد الأدبي تُستخدم أيضاً في النقد السياسي.

فتح درس إيتيين القاسي مجالات فسيحة لخيال لوسيان الذي استوعب بشكل يدعو إلى الإعجاب هذه المهنة.

قال لوستو: هيّا إلى الصحيفة حيث سنجد أصدقاءنا وسنتفق على شحنة مناسبة للمباشرة بنقد ناتان، وسيستمتعون بذلك كما سترى.

ببلوغهما شارع سان فياكر، صعدا معاً إلى السقيفة التي تُعَدُّ الصحيفة فيها، وكانت دهشة لوسيان لاتقلّ عن سروره لرؤية الفرحة التي استقبل بها أصدقاؤه فكرة تقويض كتاب ناتان، وسرعان ماتناول هكتور مرلن قصاصة مربعة من ورق وكتب عليها هذه الأسطر التي سيحملها إلى صحيفته:

أعلن عن طبعة ثانية لكتاب السيد ناتان، وكنا ننوي التزام الصمت حيال هذا المؤلف، لكن هذا المظهر من النجاح يضطرنا إلى نشر مقال لن يتعرض إلا قليلاً للكتاب بل سيتناول اتجاه الأدب الناشىء.

وفي رأس فكاهات عدد الصحيفة الصغيرة لليوم التالي وضع لوستو هذه العبارة:

ينشر الكتبي دوريا طبعة ثانية من كتاب السيد ناتان؟ يبدو من هذا إذن، أنه لايعرف القاعدة الفقهية التي تنص على عدم جواز الحكم على ذنب مرتين. هنيئاً له هذه الجرأة التعيسة!

بدت كلمات إيتيين مشعلاً للوسيان بعد أن حلَّت رغبته في الانتقام من دوريا محلّ الضمير والإلهام، فاعتزل في غرفة كورالي ثلاثة أيام لم يخرج فيها، وهو يعمل في ركن دافىء تقوم فيه برنيس على خدمته، وتداعبه في فترات استراحته كورالي اليقظة الصامتة، وأعد لوسيان خلال ذلك مقالا نقدياً في ثلاثة أعمدة تقريباً، سما فيه إلى مقام مدهش. وهرع إلى الصحيفة وكانت الساعة التاسعة

مساءً، ووجدَ المحررين مجتمعين فقرأ عليهم مقاله، وهم يستمعون إليه بكل اهتمام. ولم ينطق فيلسيان بكلمة، بل تناول نسخة المقال وغادر الاجتماع وهو يهبط السلّم مسرعاً.

- صاح لوسيان: ماذا دهاه؟

- قال هكتور مرلن: إنّه يحمل مقالك إلى المطبعة، فهو تحفة رائعة ولا حاجة لحذف كلمة منه أو إضافة أية عبارة.

- قال لوستو: لم تكن بحاجة إلا لمن يدلك على الطريق.

- وقال محرر آخر وقد أبرقت أساريره بعلائم الرضى: أودُّ أن أرى سحنة ناتان وهو يقرأ هذا المقال غداً.

- وقال هكتور مرلن: وجب أن يكون صديقك.

- سأل لوسيان بحرارة: إذن، فهو مقال جيد.

- قال لوستو: سيستاء بلونده وڤينيون منه.

- استأنف لوسيان: هوذا مقال صغير أعددته بسرعة لكم، ويمكن في حال نجاحه إعداد سلسلة متتابعة من المواضيع المماثلة.

- قال لوستو: اقرأه لنا.

قرأ لوسيان عندئذ أحد هذه المقالات الشيقة التي أثرت تلك الصحيفة الصغيرة، إذ راح يصور في عمودين، كل مرة بتفصيل دقيق عن الحياة الباريسية، مظهراً أو نموذجاً أو حدثاً عادياً، أو بعض التفردات. وكان عنوان العينة التي قرأها: **مارّة باريس**[1]، وقد كتبت بتلك الطريقة الجديدة المبتكرة حيث الكلام الطنان يثير

---

(١) - يلاحظ ب. كولي أن مقطعاً من نظام الزينة (١٨٢٨) التي يحتمل أن بلزاك شارك في تأليفه، هو بعنوان المارة. ومن بين الدراسات العديدة عن الطبائع الباريسية التي ازدهرت في الصحافة الصغيرة في ظل **الملكية الثانية النظارة** لبواتفن وهي دراسة تستحق اهتماماً خاصاً. **وطالب الحقوق** (٢٥ نيسان ١٨٢٤) لم يتغير موقعه في **أوهام ضائعة**: وصف لسقيفة المبتدىء، في فندق البانتيون، في الحي اللاتيني (وهو يتضمن القداحة الفوسفورية ووجبة العشاء بسعر ٢٢ فلساً)، وبائعة الحليب (أول كانون أول ١٨٢٥) وهو موقع ج. ج (أهو جانين؟ ولكن **النظارة** المحاربة لبريد المسارح) تصف بشكل جميل جداً استيقاظ باريس الخ...

الانتباه بتعدد الصفات والجمل الظرفية والحالية فيه. وكان هذا المقال مختلفاً عن المقال القوي والعميق عن ناتان اختلاف الرسائل الفارسية(*) عن روح الشرائع(**).

- قال له لوستو: إنك صحفي بالفطرة، سيدرج هذا المقال في عدد الغد، أنشىء على مثاله قدر ماتشاء.

- قال مرلن: إنني آت من دار نشر دوريا، وهو مغتاظ جداً من القذيفتين اللتين أطلقناهما على مكتبته، وهو يتفرقع لعنات ويلوم فينو الذي قال له: إنه باعك صحيفته، وانتحيت به جانباً وهمست في أذنه قائلاً: إن رفضك ديوان **أزهار المرغريت** سيكلفك غالياً! يقابلك رجل موهوب فتصرفه عنك بينما نحن نستقبله بالترحاب.

- قال لوستو للوسيان: سيصعق دوريا بالمقال الذي سمعناه لتوّنا. هل أدركت الآن ياولدي أهمية الصحيفة؟ انتقامك يأخذ طريقه! وقد جاء البارون شاتليه يطلب هذا الصباح عنوانك، وكان في عدد هذا الصباح مقال جارح ضده، ورأس الغندور السابق ضعيف ينتابه القنوط، ألم تقرأ الصحيفة؟ ألا ترى مدى السخرية فيه؟ موكب مالك الحزين الذي أبكاه الحبّار، فالسيدة دي بارجتون غدت تُلقّب قطعاً في المجتمع عظم الحبّار وشاتليه لم يعد يُنادى إلا البارون مالك الحزين.

تناول لوسيان الصحيفة، ولم يستطع الامتناع عن الضحك وهو يقرأ هذه التحفة الفكاهية الصغيرة المعزوة إلى فرنو.

قال هكتور مرلن: «سيستسلمون».

(*) - الرسائل الفارسية: مؤلف لمونتسيكو (١٦٨٩ - ١٧٥٥): صدر في العام ١٧٢١ وهو مراسلات بين فارسيين ريكا وأوزبك الآتيين من أوروبة وفيه نقد للعادات الباريسية والسياسية والدين في المجتمع الباريسي.

(**) - روح الشرائع: كتاب آخر لمونتسيكو (١٧٤٨): يبين فيه أن شرائع بلاد تحدّد بالشروط السياسية والضرورات السياسية كالمناخ وتتأثر بالأسباب الاجتماعية والأخلاقية وكذلك بالدين، وحدّد فيه ثلاثة أنواع من الحكومات: الملكية والارستقراطية والديمقراطية، مفضلاً نظام الملكية الدستورية مع فصل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية. (المترجم)

ساهم لوسيان ببعض الطرائف والنوادر التي أنهى بها المحررون عدد الصحيفة وهم يتسامرون ويدخنون ويقُصون مغامرات اليوم، أو سخافات رفاقهم، أو بعض التفاصيل الجديدة عن طبائعهم، وأطلعت هذه المسامرة، وهي في منتهى السخرية، والفكاهة والخبث لوسيان على تقاليد الجوّ الأدبي والعاملين فيه.

قال له لوستو: ريثما تُعد الصحيفة، سأصحبك في جولة على رقابة المسارح ودهاليزها التي لك حقّ الدخول مجاناً إليها، وسنذهب بعدها للقاء فلورين وكورالي في البانوراما - دراماتيك حيث سنمرح وإياهما في مقصورتيهما.

تأبط كل منهما ذراع الآخر وانطلقا من مسرح إلى آخر حيث نُصّب لوسيان محرّراً، ليقابل بالمديح من المدراء، وبنظرات التملق من الممثلات، بعد أن عرف الجميع أهمية مقال واحد منه يسر لكورالي وفلورين عقوداً لإحداهما في الجيمناز باثني عشر ألف فرنك سنوياً. وللأخرى في بانوراما بثمانية آلاف فرنك، وزادت هذه الحفاوات، على صغرها، من ثقة لوسيان بنفسه، وأظهرت له مدى مقدرته. وفي الساعة الحادية عشرة وصل الصديقان إلى البانوراما - دراماتيك، والمرح يبدو على لوسيان بشكل يثير الإعجاب، والتقيا في المسرح بناتان الذي مدّيده مصافحاً لوسيان، ثم قال وهو ينظر إلى الصحفيين: «ماهذا، يا أستاذي، أتريدان دفني؟».

- قال لوستو: انتظر إلى الغد ياعزيزي، وسترى كيف تناولك لوسيان! أقسم لك أنك ستكون مسروراً، فنقد بمثل هذه الرصانة يُعد ترويجاً للكتاب».

- احمر لوسيان خجلاً، وسأل ناتان: «هل هو شديد القسوة».

- أجاب لوستو: إنّه جديّ.

- استأنف ناتان: ليس فيه إذن مايؤذيني؟ بعكس ما قال عنه هكتور مرلن في مسرح الڤودڤيل بأنه سيكون قاصمة الظهر.

هتف لوسيان: دعه يَقُل مايشاء وانتظر، وأسرع بالهرب إلى مقصورة كورالي في اللحظة التي رأى فيها الممثلة تغادر الخشبة بهندامها الجذاب.

في اليوم التالي، وبينما كان لوسيان يتناول الغذاء مع كورالي، سمع ضجة

عربة في شارعهما الهادىء، وبينت وقفة الحصان السريعة، بعد انطلاقته، عن أصالته وأناقة المركبة، ولمح لوسيان من نافذته دوريا يسلم حوذيه مقود الحصان الانكليزي الرائع وينزل من العربة.

هتف لوسيان لخليلته: إنّه الكتبي.

قالت كورالي لبرنيس: دعيه ينتظر.

ابتسم لوسيان لثبات هذه الفتاة التي تبنت بشكل مدهش مصالحه، وأسرع يقبلها بفيض حب حقيقي عرفانا لسرعة بديهتها. كانت عجلة الكتبي الصلف، وخزي أمير الشعوذة تعود إلى ظروف يكاد النسيان يطمسها لشدّة التحوّل في سوق الكتب خلال خمسة عشر عاماً. فمن ١٨١٦ إلى ١٨٢٧ وهي المدّة التي عمدت فيها قاعات المطالعة، التي أنشئت في البدء لقراءة الصحف، إلى تقديم الكتب الجديدة للقراءة لقاء تعويض أو رسم بسيط. وخلقت الزيادة الضريبية على الصحف الدورية الإعلان، ولم يبق أمام دور النشر من وسائل دعاية إلا المقالات المدرجة في ملاحق أو في صلب الصحف[1]. وكانت الصحف الفرنسية تظهر في أوراق ضعيفة المجال، حتى أن الصحف الكبيرة لم تكن تتجاوز مقاييس الصحف الصغيرة الحالية. وكان دوريا ولا دفوغا، في مقاومة تسلط الصحفيين أوّل من ابتكر هذه الملصقات التي تجذب انتباه باريس، باستعمالها أحرفاً مبهرجة، وتلوينات غريبة وزخارف صغيرة، وبالطباعة الحجرية فيما بعد، التي جعلت من الملصق بهجة

(١) - يبدو أن معلومات بلزاك في هذا المجال كانت متسرعة أو مترددة، فتاريخ ١٨٢٧ الذي استبدله بتاريخ ١٨٢٥ في الطبعة الأصلية ليس بداية لهذا التطور الحاصل في النشر والتلميح إلى قاعات المطالعة ملتبس. بل إن بلزاك نفسه كان يذهب لمطالعة الكتب في قاعة بلوس في العام ١٨٢١، وقد وجدت هذه القاعات منذ العام ١٧٨٨ في التويلري والباليه - رويال حيث تقدم الصحف والكتب للقراء، كما أن الإعلان يعود إلى ماقبل ١٨٢٧، فالمسلسلة الأدبية التي تعاون معها بلزاك أعطت في العام ١٨٢٤ تعرفة اعلاناتها (٢٥ سنتيماً عن السطر) وفي السنة نفسها، والصحيفة نفسها قامت حرب دعائية صغيرة عند نشر مؤلفات بوتيه، إنما مايتلاءم مع المعلومة هو زيادة تعرفة الاعلان في آذار ١٨٢٧ نتيجة لزيادة كلفة نقل الصحف وزيادة قيمة الاشتراكات.

شاعرية للأعين، إنما على الأغلب خيبة أمل للهواة ونكبة على جيوبهم ومحافظهم وغدت الملصقات من الطرافة حتى أن أحد هولاء المهووسين الملقبين **بهواة الجمع** امتلك مجموعة كاملة من الملصقات الباريسية. اقتصرت هذه الوسيلة في الإعلان، بادىء ذي بدء على واجهات المتاجر، ومعروضات الجادات، ثم انتشرت في أرجاء فرنسة كلها، ثم خف الاعتماد عليها بالعودة إلى الإعلان، غير أن الملصق الذي يستلفت الأنظار عندما يُنسى الإعلان الصحفي والمؤلف، استمر في الظهور بل ازداد انتشاراً عندما ابتكرت الوسائل لرسمه لوحات على الجدران، فالإعلان المتيسّر للجميع مقابل المال، والذي حوّل الصفحة الرابعة من الصحف إلى حقل خصب للضريبة، وكذلك للمضاربين، ولد تحت تشدّد الطابع والبريد والضمانات. وهذه القيود المبتكرة في زمن وزارة السيد فيليل الذي كان بإمكانه أن يقتل الصحف بتعميمها، خلقت بالعكس نوعاً من الحظوة، بعد شبه استحالة تأسيس صحيفة. وفي العام ١٨٢١ كان للصحف إذن حق الحياة أو الموت على مفاهيم الفكر. وعلى مشاريع دور النشر، وإعلان من بضعة أسطر يُدرج في أحداث - باريس يُكلف غالياً جداً. والدسائس متعددة جداً في قلب مكاتب التحرير، وفي المساء وفي حلبة صراع المطابع، كانت ساعة **إخراج الصحيفة** تقرر قبول أو رفض هذا المقال أو ذاك، حتى أنّ دور النشر القوية كانت تعتمد أحد الأدباء لإنشاء هذه المقالات الصغيرة التي يجب أن يُدرج فيها كثير من الأفكار في قليل من الكلمات. ويبقى هؤلاء الصحفيون الغامضون، الذين لاتُسدد أجورهم إلا بعد نشر المقال، في المطابع طيلة الليل ليروا تحت الطبع المقالات الكبيرة الحاصلة، بطريقة لايعلمها إلا الله! أو هذه الأسطر القليلة التي اتخذت اسم **فُرَص سانحة**[1].

وقد تغيرت كثيراً في الوقت الحاضر، تقاليد الأدب والنشر حتى أنّ العديد من الأشخاص يُعدون من الأساطير هذه الجهود الواسعة، والاغراءات، والتخاذلات،

(١) - غالباً ماكان المؤلف نفسه يكتب هذه «**الفرصة السانحة**» ليعلنها الناشر في صحيفة أو أكثر ترويجاً للكتاب وفي ١٤ آب ١٨٢٢ كتب بلزاك لأخته لور «بأنه يقوم في باريس بمهنة إبدال حصان عربة البريد بالنسبة لمقالات الصحف ونقرأ في صحيفة **المسلسلة الأدبية** إن بعض دور النشر لها على مثال «المصنعين» الحقيقيين جهاز تحرير خاص بالترويج لكتبها.

والدسائس، التي توحي بها ضرورة الحصول على هذه الفُرص السانحة للكتبيين، والمؤلفين، وشهداء المجد، وجميع الذين يُحكم عليهم بالأشغال الشاقة لضمان النجاح إلى الأبد: حفلات عشاء، وممالقات، وهدايا، وكل مايُعدُّ للتقرب من الصحفيين. ورواية الطرفة التالية أفضل من جميع الأقوال لبيان التحالف الوثيق بين النقد ودار النشر. شاب ظريف متأنق ذو أسلوب رفيع، يعمل محرراً في صحيفة كبيرة، وهو يتطلع إلى أن يكون رجل دولة، غدا الصديق الأثير لدار نشر مشهورة. وفي أحد أيام الآحاد أقام الكتبي الثري وليمة في بيته الريفي لمحرري الصحف الرئيسين. وصحبت ربة البيت الشابة الجميلة الكاتب الشهير في جولة في حديقة منزلها، وكان المستخدم الأول في المكتبة، وهو الماني بارد، رصين ومنهجي، يتنزه بدوره مع أحد كتبة المقالات وهو يستشيره حول أحد مشاريع الدار وساقهما الحديث إلى الغابة المجاورة للمنزل وفي ركن أجمة ملتفة الغصون أبصر الألماني شيئاً يشبه زوجة سيده وأمعن النظر بعد أن ثبت نظارته جيّداً على عينيه، ثم طلب من مرافقه أن يصمت، وأن يعودا بكل هدوء أدراجهما، ولما سأله صاحبه: «ماذا رأيت؟ أجاب الألماني: لاشيء تقريباً، لكنني واثق أن مقالنا الكبير سينشر وسنراه غداً في ثلاثة أعمدة على الأقل في صحيفة **المناقشات**.

طرفة أخرى تبين أهمية هذه المقالات: كان كتاب **«آخر آل ستيوارت[1]»** للسيد دي شاتوبريان يقبع بين الكتب الكاسدة على رفوف المكتبات إلى أن قام أحد المحررين الشباب بنشر مقال تقريظ له في صحيفة المناقشات فبيعت جميع نسخ هذا الكتاب خلال أسبوع واحد. وفي زمن لم تكن تؤجر فيه الكتب[2]، ويجب شراء الكتاب لقراءته، كما أن التزييف البلجيكي لم يكن موجوداً، لذلك فإن بعض الكتب الليبرالية كانت تصدر في عشرة آلاف نسخة، وتشيد بها جميع الصحف الليبرالية والمعارضة. سبّبت الانتقادات التمهيدية لكتاب ناتان ثم مقال لوسيان عنه

---

(١) - الواقع أنه مؤلف بعنوان «آل ستيورات الأربعة» وقد نشره لادفوغا في الجزء الثاني والعشرين من مؤلفات شاتوبريان، العام ١٨٢٨.

(٢) - هذه الملاحظة المتعلقة بتأجير الكتب خاطئة. غير أن قاعات المطالعة مراقبة من قبل الشرطة ويخشى القائمون عليها اقتناء أو عرض الكتب الخطرة التي تهاجم الحكومة أو عهد الملكية الثانية.

إيقاف بيعه وكان ألم ناتان معنوياً فقط، فهو لايخسر شيئاً فدوريا اشترى منه حقوق نشر الكتاب وسدّد ثمنها[1]، وتوقف المبيع قد يعرضه لخسارة ثلاثين ألف فرنك.

والواقع أن مشاريع نشر المؤلفات التي أطلق عليها لقب الكتب الحديثة كانت تخضع للنظرية التجارية التالية «إن ثمن ماعون الورق الأبيض خمسة عشر فرنكاً، وهو يباع حسب نجاح الكتاب وتسويقه بثلاثمئة فرنك عند رواجه أو بخمسة فرنكات عند كساده[2]». ومقال جيد، ضد الكتاب أو معه، عند صدوره يؤثر غالباً على هذه القضية المالية، لذلك أسرع دوريا الذي طبع كتاب ناتان في خمسمئة ماعون ليعلن استسلامه للوسيان، فالكتبي السلطان تحوّل إلى عبد. وبعد أن انتظر بعض الوقت وهو يهمهم ويحدث أكبر قدر من الضجيج الذي يشعر بوجوده، ويفاوض برنيس على إعلام أرباب المنزل بوجوده، حصل على إذن بالدخول إلى قاعة الطعام حيث لوسيان وكورالي، واتخذ هذا الكتبي المتغطرس مظهر المتملق المتردد إنما المغلّف بالطيبة والمهابة.

قال: «لاتنزعجا ياحبيبيّ العزيزين، كم أنتما لطيفان مثل فرخي يمام يتغازلان! ماذا تقول الآنسة عن هذا الشاب، الذي يبدو كفتاة عذراء، إن علمت أنه نمرٌ ببراثن من فولاذ يمزق بها شهرة مرموقة، وكأنه يمزق الغلالة التي تحجب مفاتنك إن تأخرت في التعري منها». وابتسم لهذا التعبير الماجن، ثم جلس قرب لوسيان وهو يناديه «ياصغيري» والتفت إلى كورالي يعُرِّف عن نفسه: «آنستي إنني دوريا».

رأى الكتبي أن من الضروري أن يهتف معرفاً باسمه بدويٍّ كطلقة مسدس عندما لاحظ أن كورالي لم تبد اهتماماً به.

- قالت الممثلة: هل تناولت غذاءك أيّها السيد؟ ألا تتفضل وتشاركنا طعامنا؟

---

(١) - كان تعويض الكاتب يحسب ويُسدَّد وفق عدد النسخ المطبوعة، لاعدد النسخ المباعة.

(٢) - سبق لبلزاك أن عرض هذا المبدأ في نشر الكتب وتجارتها في دراسة واسعة بعنوان **«الوضع الحالي لنشر الكتب»** وقد نشرت في مسلسلة الصحف السياسية (عددي ٣ و ١٠ آذار ١٨٣٠).

- أجاب دوريا: بكل سرور، فالحديث يطيب على المائدة. كما يحقُّ لي، وقد تناولت غداءً في منزلك أن أدعوك إلى عشاء مع صديقي لوسيان، إذ يجب الآن أن نغدو صديقين مؤتلفين بإلفة القفاز واليد.

- نادت كورالي: برنيس! آتنا بالمحار، والليمون، والزبدة الطازجة، وزجاجة من خمر شامبانية.

- قال دوريا وهو ينظر إلى لوسيان: إنك رجل لك من الذكاء مايحول دون تجاهلك سبب مجيئي.

- أتيت لتشتري ديوان سونيتاتي؟

- أجاب دوريا بالضبط قبل كل شيء، فليلق كل منا سلاحه.

وتناول من جيبه محفظة أنيقة، وسحب منها ثلاثة أوراق من ذات الألف فرنك وضعها على طبق قدمه للوسيان متودداً وهو يقول: «هل يكفي هذا ياسيدي؟».

أجاب الشاعر وهو يحسّ أنه يغوص في نعيم مجهول لمرأى هذا المبلغ غير المتوقع: «نعم» سيطر لوسيان على انفعالاته، رغم الرغبة التي تملكته في أن يقفز ويغني، وانتابه إيمانٌ بوجود المصباح السحري والسحرة، الإيمان أخيراً بعبقريته.

قال الكتبي: «هكذا **فأزهار المرغريت** لي؟ كما أنك لن تهاجم أبداً أيّاً من المؤلفات التي أنشرها.

- **أزهار المرغريت** لك، لكنني لا أستطيع أن أرهن قلمي فهو في خدمة أصدقائي كما أن أقلامهم في خدمتي.

- لكنك أخيراً ستكون أحد المؤلّفين المتعاملين معي، وجميع مؤلفي أصدقائي، وهكذا فإنك لن تسيء إلى مشاريعي دون أن تعلمني بما سأتعرض له من هجمات لأتمكن من توقيها.

- أوافق على هذا الشرط.

رفع دوريا كأسه قائلاً: أشرب نخب أمجادك.

قال لوسيان: ألا حظ من هذا أنك قرأت ديوان «**أزهار المرغريت**».

لم يرتبك دوريا وأجاب: «ياصغيري شراء الديوان دون الاطلاع عليه هو أكبر إطراء يمكن أن يقدمه ناشر لشاعر. خلال ستة أشهر ستغدو شاعراً كبيراً، وسيكون لك مقالات، وسيخشى جانبك، ولا أحتاج لأي إجراء لتسويق كتابك. إنني ذات التاجر الذي خدمك منذ أربعة أيام، ولست أنا الذي تغير إنما أنت: في الأسبوع الماضي كانت سونيتاتك بالنسبة لي كأوراق الملفوف، أما الآن فوضعك الحالي قد جعلها في مرتبة المسينيات[1].

قال لوسيان وقد حولّته متعة العشق السلطانية ويقين النجاح، إلى متهكم ذي قحّة مستلطفة: إن كنت لم تقرأ سونيتاتي، فلا شكّ أنك قرأت مقالي.

أجاب دوريا بطيبة تخفي إحساس المرارة العميق: نعم ياصديقي، وإلا لما كنت أتيت بمثل هذه السرعة؟ إن هذا المقال الرهيب جميل جداً للأسف. آه! إنك ياصغيري ذو موهبة كبيرة، صدقني، فاستفد من حظوتك، ولكن هل وصلتك الصحيفة؟ وهل قرأتها؟

- قال لوسيان: أعتقد أن هكتور أرسلها إلى عنواني في شارع شارلو، لكنني لم أستلمها حتى الآن. مع ذلك، فهذه هي المرة الأولى التي أكتب فيها مقالة نثرية طويلة.

قال دوريا وهو يناوله الصحيفة مقلداً تالما في مسرحية مانليوس[2]: خذ

---

(١) - المسينيات Messéniennes: مراث وطنية للشاعر كازيمير دلافنيي (١٧٩٣ - ١٨٤٣).

(٢) - تالما (١٧٦٣ - ١٨٢٦): ممثل مسرحي اشتهر بأدواره التاريخية وكان محط إعجاب نابوليون و«مانليوس كابتولينوس» للافوس مأساة مثلت لأول مرة على المسرح الفرنسي في العام ١٦٩٨ وهي تحريف روماني «لفينيسية المحررة» لأوتوي التي يكن لها بلزاك إعجاباً كبيراً وسنرى أن الراهب هريرا سيدعو لوسيان لمشاهدتها بعد أن حقق تالما في دور مانليوس مجداً جديداً سُجّل إلى مجموعة أدواره السابقة.

واقرأ، تناول لوسيان الصحيفة لكن كورالي انتزعتها من يده قائلة وهي تضحك: «إن بواكير قلمك لي أولاً، كما تعرف».

كان دوريا متملقاً ومطرياً بشكل غريب، فهو يخشى لوسيان، وقد دعاه مع كورالي إلى حفل عشاء مترف سيقيمه للصحفيين في نهاية الأسبوع، وحمل مخطوطة **أزهار المرغريت** وهو يرجو من شاعره أن يمرَّ على رواق الخشب عندما يرغب لتوقيع العقد الذي سيجده جاهزاً. وكعادته حافظ على طرائقه الملكية التي يحاول فيها أن يفرض هيبته على الأشخاص السطحيين، وأن يبدو نصيراً للأدب لاكتبياً، وترك على المائدة الثلاثة آلاف فرنك دون أن يأخذ إيصالاً، رافضاً الإشعار بالاستلام الذي قدمه إليه لوسيان بحركة لامبالاة، وخرج بعد أن قبل يد كورالي.

قالت كورالي، مشيرة إلى الأوراق المالية، للوسيان الذي سبق أن سرد لها أحداث حياته السابقة: «وبعد، ياحبي، هل كنت ستشاهد كثيراً من هذه الرقع، لو بقيت في جحر شارع كلوني تنقب في مراجع مكتبة سانت - جنفييف. يُخيل إليّ أن أصدقاءك الخلص في شارع الرياح الأربعة سذج مغفلون.

سمع لوسيان هذا القرار ضاحكاً: أخوته في المنتدى سذج مغفلون! وانصرف يقرأ مقاله المطبوع، وأحس بتلك الفرحة الفائقة الوصف التي تغمر المؤلفين وبتلك النشوة الأولى التي لا تدغدغ النفس إلا مرّة واحدة. وبقراءة مقاله أكثر من مرة استوعب جيداً مداه وتأثيره، فالطباعة بالنسبة للمخطوطات كما المسرح بالنسبة للنساء، يسلط الضوء على المحاسن والعيوب، كذلك الكلمة المطبوعة تُحبط وتُنعش فالخطأ فيها يبرز أمام الأعين كما تتألق الأفكار الرائعة. ولم يَعُد لوسيان الثمل بفكر بناتان، فناتان مرقاته، وهو يسبح في سرور غامر، ويرى نفسه ثرياً. فبالنسبة لفتى كان بالأمس القريب ينزل بتواضع منحدر بوليو إلى انغوليم، ويعود إلى سقيفة بوستيل في هومو، حيث تعيش كل عائلة بألف ومئتي فرنك سنوياً يُعد المبلغ الذي قدمه دوريا له مناجم البوتوز(*). وقادته ذكرى ماتزال حيّة في وجدانه بعد أن محت بعض معالمها متع الحياة الباريسية المتواصلة، إلى

(*) - البوتوز: منجم فضة شهير آنذاك في جبال بوليفيا. (المترجم)

ساحة موريه فتذكر أخته الجميلة النبيلة إيڤ، وصهره دافيد، وأمه المسكينة. وفي الحال أرسل برنيس تصرف له ورقة ألف فرنك، وجلس يكتب رسالة إلى عائلته إلى أن عادت فكلفها أن تودع رسالته مكتب النقليات مع مبلغ خمسمئة فرنك أرسلها إلى أمه. وبدت هذه البادرة له ولكورالي تصرفاً طيباً خشي أن تفوته إن تأخر بها. وقبلت الممثلة لوسيان ووجدته النموذج البار للأبناء وللأخوة، وغمرته بمداعباتها، لأن مثل هذه البوادر تفتن هؤلاء الفتيات الطيبات اللواتي يحملن قلوبهن على أكفهن.

قالت له: سيكون لنا حفلة عشاء كل يوم ولمدة أسبوع سنعدُّه احتفالات مرافع فقد عملت جيداً خلال الأيّام الماضية.

أرادت كورالي أن تبتهج مزهوّة بهذا الرجل الذي تحسدها عليه جميع النساء، فصحبته إلى متجر ستوب لتوصي له على ملابس أنيقة تليق به، ومن هناك ذهب العاشقان يتنزهان في غابة بولونيا وعادا مساء ليشاركا في وليمة عشاء دعت إليها السيدة دو ڤال - نوبل حيث وجدا راستينياك وبيكسيو. وآل لوبول، وفينو، وبلونده وڤينيون، والبارون دي نوسنجن، وبودنور، وفيليب بريدو، وكوستي الموسيقار الكبير. وكل عالم الفنانين والمضاربين، والأشخاص الذين يريدون مقابلة الانفعالات الكبيرة مع الأعمال الكبيرة، واستقبل الجميع لوسيان بحفاوة، وكان لوسيان حاضر البديهة، سريع الخاطر لايتكلف حسن المعشر، فعُدَّ **رجلاً قوياً** وهو مديح دارج آنذاك بين أولئك المعارف.

- قال تيودور غايار لأحد الشعراء المقربين إلى القصر، الذي يفكر أن يؤسس صحيفة ملكية صغيرة، سميت فيما بعد اليقظة[1]: «يجب أن نرى ماذا يخبىء».

بعد العشاء صحب الصحفيان خليلتيهما إلى الأوبرا، برفقة بقية الضيوف، وكان لمرلن مقصورة فيها، وهكذا بدا لوسيان مزهواً منتصراً في المكان الذي سقط

(١) - كشفت السيدة آ. م مينينجة (في مقال نشر في السنة البلزاكية ١٩٧٩) عن أن اليقظة كانت مشروعاً لابل هوغو، وقدرت أن الشاعر المقرب إلى القصر هو فيكتور هوغو.

فيه خائباً منذ عدة أشهر. كان يتبختر بين مرلن وبلونده ينظر بازدراء إلى هؤلاء المتأنقين الذين تنكروا له وسخروا منه منذ مدّة وجيزة. إنه يدوس على شاتليه بقدميه الآن! وتبادل دي مارسي، وڤاندنس، ومنرفيل، وهم أسود ذلك العصر، معه بعض نظرات متطاولة. كما أن من المؤكد تحوّل الحديث في مقصورة السيدة دسبار، حيث أجرى دي راستينياك زيارة طويلة، إلى تقصي أخبار لوسيان الوسيم الأنيق، فالمركيزة والسيدة دي بارجتون صوّبتا منظاريهما إلى كورالي. هل خامر فؤاد السيدة دي بارجتون الأسف على هجرها للوسيان؟

شغلت هذه الفكرة ذهن الشاعر: وهزت مشاعره رغبة الانتقام وهو يرى كورين آنغوليم، واستذكر اليوم الذي تحمل فيه ازدراء تلك المرأة ونسيبتها في الشانزليزه.

- قال بلونده للوسيان وقد جاءه زائراً بعد الساعة الحادية عشرة فوجده مايزال في السرير: هل جئت من مقاطعتك وأنت تحمل إحدى التمائم؟ ثم أشار إلى لوسيان وهو يقبل كورالي على جبينها: لقد أحدثت بلبلة من الأقبية حتى السقائف صعوداً ونزولاً.

وصافح الشاعر وهو يقول: جئت أصادرك، ياعزيزي، فالبارحة رأتك الكونتيسة دي مونكورنه في مسرح الإيطاليين، وطلبت مني إحضارك إليها. إنك لن ترفض زيارة امرأة شابة جذابة ستلقى في صالتها نخبة المجتمع؟

- ردت كورالي: إن كان لوسيان لطيفاً فإنه لن يذهب لزيارة كونتيستك فما حاجته ليتعلق بأذيال النخبة؟ سينتابه الضجر.

- قال بلونده: أتريدين احتجازه تعسفاً؟ هل تغارين من سيّدات المجتمع الارستقراطي؟

- صاحت كورالي: نعم، إنهن أكثر سوءاً منا.

- قال بلونده: وما أدراك ياقطتي الصغيرة؟

- أجابت: بالتعرّف على أزواجهن، لاتنس أنني صحبت دي مارسي ستة أشهر.

- قال بلونده: هل تعتقدين ياعزيزتي أنني أهتم كثيراً بإدخال رجل بمثل وسامة رجلك إلى منزل السيدة دي مونكورنه؟ إن كنت تعارضين فلننس كل ماقلته، لكن الموضوع على ما أعتقد لايتعلق بالمرأة بل بالحصول على مسامحة لوسيان وغفرانه لرجل حلّ به البؤس بعد أن غدا أضحوكة الصحيفة، إذ تملكت البارون دي شاتليه حماقة النظر إلى مقالات الصحيفة جدياً، والمركيزة دسبار والسيدة دي بارجتون وروّاد صالة الكونتيسة دي مونكورنه يهمهم هذا المالك الحزين، ووعدت بمصالحة لور وبترارك*، أعني السيدة دي بارجتون ولوسيان.

- صاح لوسيان وقد تدفق الدم حاراً في عروقه وأثملته نشوة الانتقام المشبع: آه! إذن أحسّوا برفسة قدمي في بطونهم! إنك تجعلني أعبدُ ريشتي، وأعبد أصدقائي، وأعبد قدرة الصحافة الحاسمة. لم أكتب حتى الآن أية مقالة عن عظم الحبار ومالك الحزين. ثم أحاط خصر بلونده بذراعه وهو يقول: ولكن سأفعل ياعزيزي، سأفعل ذلك عندما يدرك هذا الثنائي ثقل هذه الريشة الخفيفة!

وهزّ بيده الريشة التي كتب بها مقال نقده لناتان، واستأنف: «غداً سأصب على رأسهما عمودين صغيرين، وسنرى فيما بعد، لاتقلقي ياكورالي فالأمر لايتعلق بالحب بل بالانتقام، وأنا أريده كاملاً.

قال بلونده: يالك من رجل، لو تعلم يالوسيان كم هو نادر أن نجد مثل هذا التفجر في عالم باريس اللامبالي، ويمكنك أن تعتز بنفسك. ثم استأنف مستخدماً تعبيراً أكثر حزماً: ستتحول إلى وغد مهاب، وأنت في طريقك إلى السلطة.

قالت كورالي: وسيصل.

- ولكنه قطع شوطاً بعيداً خلال ستة أسابيع.

(*) - بترارك (١٣٠٤ - ١٣٧٤): شاعر إيطالي اشتهر بقصائده الغنائية الموجهة إلى لور دي نوفس (١٣٠٨ - ١٣٤٨) والتي لم تنشر إلا في العام ١٤٧٠. (المترجم)

- استأنفت كورالي: وعندما لايعوقه عن قبض الصولجان إلا تقدمة ضحية، يمكنه إن يستخدم جسد كورالي مرقاة.

قال بلونده: إنكما متحابان كما في العصر الذهبي. ثم التفت إلى لوسيان قائلاً: أهنئك على مقالك الرائع، إنه عامر بأفكار جديدة. ها أنت قد غدوت معلماً.

دخل آنذاك لوستو وهكتور مرلن وڤرنو لرؤية لوسيان، فازدهى لكونه موضع اهتمامهم، وقد حمل إليه فليسيان مئة فرنك أجر مقاله، فالصحيفة رأت ضرورة سرعة تسديد المكافأة عن مثل هذا العمل الجيد لتشجيع الكاتب وتوطيد صلته بها. وعندما رأت كورالي هذا المجلس من الصحفيين أرسلت تطلب غداءً من الكادران - بلو[1] المطعم المجاور لمنزلها، ودعت الجميع إلى الانتقال إلى قاعة الطعام الجميلة عندما أنبأتها برنيس أن المائدة جاهزة وعندما دارت خمور الشامبانية بالرؤوس كشف أصدقاء لوسيان عن سبب زيارتهم له.

قال له لوستو: ألا تريد أن تتجنب عداوة ناتان لك؟ فناتان صحفي وله أصدقاء، وسيكون متحفزاً لرد الصاع صاعين لك عند أوّل مؤلف تطرحه للنشر، ألا ترغب في بيع رواية **نبال شارل التاسع**؟ رأينا ناتان هذا الصباح، وكان في غاية القنوط، ومن المناسب أن تعد مقالاً تطري فيه ببعض المديح وجهه.

- سأل لوسيان: كيف! أبعد مقالي الناقد لكتابه؟ تطلب مني . . .

- قاطع إميل بلونده، وهكتور مرلن، وإيتيين لوستو، وفلسيان فرنو لوسيان بقهقهة عالية.

- قال له بلونده: ألم تدعه إلى مأدبة ليلية بعد غد؟

- وقال له لوستو: إن مقالك غير موقع، ففيلسيان الأقدم منك في دخول عالم الصحافة لم يفته أن يضع حرف «س» في خاتمة المقال، وبالتالي يمكنك من

(١) - كان مطعم الكادران - بلو cadran - bkeu في الرقم ٢٧ من جادة التامبل قريباً من شارع ڤندوم حيث تسكن كورالي.

الآن وصاعداً أن تذيل مقالاتك بهذا الحرف في صحيفته، وهي يسارية صرفة، فنحن جميعاً من المعارضة، وحرص فليسيان، لباقة منه، ألا يقيد آراءك المستقبلية، ففي دكان هكتور، وصحيفته من يمين الوسط يمكنك أن توقع بحرف «ل» فالتكتم مطلوب عند الطعن، والتوقيع الصريح مرغوب عند التقريظ.

- قال لوسيان: إن التواقيع لاتقلقني، ولكنني لا أرى ما أقوله في تقريظ الكتاب.

قال هكتور: أنت مقتنع إذن بما كتبته؟

- نعم.

- قال بلونده: آه! ياعزيزي، ظننتك أشد مراساً! بل أقسم بشرفي، إني رأيت في جبينك الوضاء القدرة الكلية المماثلة لقدرة كبار العباقرة الذين وهبوا رؤية أي شيء من جميع وجوهه. ياعزيزي، في الأدب، لكل فكرة وجه وقفا، وما من أحد يمكنه أن يؤكد ما هو القفا. فكل شيء في مجال الفكر ثنائي الجانبين، والآراء ثنائية الحدين، فجانوس هو اسطورة النقد، ورمز العبقرية[1]. الله وحده ثلاثي! أليست الموهبة الفذة لدى موليير وكورني هي في قدرة كل منهما على إنطاق ألسست وأوكتاف «نعم» وتقويل فيلينت وسينا[*] «لا»؟ ألم يكتب روسو في هلويز الجديدة رسالتين إحداهما مع المبارزة والأخرى ضدها! هل تجرؤ أنت على تحديد رأيه الحقيقي؟ من منا يستطيع أن ينحاز إلى كلاريس أو لوفلاس، إلى هكتور أو آخيل؟ من هو بطل هوميروس؟ وماهي نية ريكاردسون؟ على الناقد أن ينعم النظر في كل مظاهر النتائج. أخيراً نحن نُعدُّ من كبار المقررين.

---

(١) - سبق أن أشير إلى جانوس وهو أحد أرباب روما ويمثل برأس ذي وجهين. إنما التلميح هنا إلى جول جانين (١٨٠٤ - ١٨٤٧) أحد أقطاب الأدب في القرن التاسع عشر وكان يُلقب بجانوس وبلزاك من المعجبين به وقد أعطى بعض ملامحه للوسيان.

(*) - السست وفيلينت من شخصيات مسرحية «كاره البشر» لموليير، وأوكتاف وسينا من شخصيات مسرحية «**عفو القيصر**» لكورني. (المترجم)

- وقال ڤرنو ساخراً: هل تتمسّك بما تكتبه؟ ولكننا تجار كلمات، ونحن نعيش من تجارتنا. عندما تصمم على إنشاء مؤلف كبير قيم، كتاب ذي أهمية أخيراً، يمكنك أن تطرح فيه أفكارك، وتسكب روحك، وتتعلق به، وتدافع عنه أما المقالات التي تقرأ اليوم وتنسى غداً، فهي لاتساوي في نظري إلا ما يُدفع لقاءها، فإذا علقت أهمية على مثل هذه الحماقات، فعليك أن ترسم إشارة الصليب، وتبتهل إلى الروح القدس لتتمكن من كتابة نشرة دعائية.

بدا الجميع مندهشين من تحرجات لوسيان، وانتهوا إلى تمزيق ثوب تعلته، ليخلعوا عليه ثوب رجولة الصحفيين.

- قال لوستو: «هل تعلم بأية كلمة تواسي ناتان بعد أن قرأ مقالك؟

- كيف لي أن أعرف؟

- لقد هتف ناتان «المقالات الصغيرة تمرُّ، أما المؤلفات الكبيرة فتبقى». إن هذا الرجل سيكون على مائدتك بعد يومين، ويجب أن يجثو عند قدميك، ويقبل أذيال ثوبك ويقول لك إنك رجل كبير.

- قال لوسيان: سيكون هذا غريباً.

- استأنف بلونده: غريب، إنه ضروري.

- قال لوسيان وقد انتابه الدوار: ياأصدقائي، إنني أرغب في ذلك، ولكن ما العمل؟

- قال لوستو: حَسَنٌ، اكتب لصحيفة مرلن ثلاثة أعمدة متقنة تدحض فيها نفسك، وبعد أن نَعِمنا بإغاظة ناتان، قلنا له إن عليه أن يشكرنا قريباً، لإننا سنفصل خلال ثمانية أيام في هذا الجدل الحامي الوطيس الذي تعرض له كتابه. إنك في نظره الآن جاسوس ونذل وماكر، وبعد غدٍ ستغدو رجلاً كبيراً، ورأساً قوياً، ومن حواريي بلوتارك! سيعانقك ناتان كأفضل صديق له. جاء إليك دوريا، وحصلت منه على ثلاثة آلاف فرنك، فاللعبة أثمرت أكلها، والآن يلزمك كسب تقدير ناتان

وصداقته، فالشرك قد نصب للكتبي فقط، ويجب ألا نلاحق إلا أعداءنا ولانضحي إلا بهم، ولو تعلق الأمر برجل حاز على شهرة دون الاستعانة بنا، وهو ذو موهبة مزعجة، ويجب إيقافه عند حده، فإننا لا نلجأ إلى مثل هذا الإجراء، ولكن ناتان هو أحد أصدقائنا، وقد هاجمه بلونده في مجلة **عطارد** ليستمتع بعد ذلك في الردّ على نفسه في صحيفة **المناقشات**[1]، وهكذا تم الترويج للطبعة الأولى وبيعت بكاملها.

صاح لوسيان: أقسم بشرفي ياأصدقائي على أنني عاجز عن كتابة كلمتين في تقريظ هذا الكتاب.

قال مرلن: ستحصل لقاء المقال على مئة فرنك وبذلك يكون ناتان قد أكسبك عشر لويسيات[*]، كما يمكنك أن تكتب مقالة عنه لمجلة فينو تتلقى عنها من إدارة المجلة مئة فرنك، ومن دوريا مئة أخرى، وهكذا تكسب عشرين لويسية ذهبية.

- سأل لوسيان: ولكن ماذا سأقول.

- أجاب بلونده وهو يستجمع أفكاره: إليك ياعزيزي، كيف يمكنك أن تتناول هذا الموضوع ستقول: جرّب الحسد، الذي ينكبُّ على المؤلفات الجميلة كما تنكبُّ الدودة على الثمار الطيبة، أن يلسع هذا الكتاب، واضطر الناقد في تحريه لعيوب يلصقها فيه أن يبتكر نظريات تتعلّق به ويميّز بين نوعين من الأدب: نوع ينصرف إلى الأفكار وآخر يتناول الصُور. وهنا ستقول ياصغيري إنّ الدرجة الأخيرة من الفن الأدبي هو طبع الفكرة في الصورة، وستحاول البرهان إن الصورة هي كل القصيدة، وستتحسّر على قلّة الشاعرية المتضمنة في لغتنا، وستتحدث عن المآخذ التي يلومنا عليها الأجانب حول وضعية أسلوبنا وتشيد بالسيد كاناليس[2] وبناتان على الخدمات التي قدماها لفرنسة بتخليص لغتها من الابتذال. دعِّم

(١) - وهكذا يكرر لوسيان العملية بالنسبة للطبعة الثانية فبعد أن يطعن في الكتاب يساراً (في صحيفة فرنو الليبرالية) يقرظه يميناً في صحيفة مرلن المناصرة للوزارة.

(*) - اللويسية Louis: عملة ذهبية فرنسية قديمة كانت تساوي عشرين فرنكاً. (المترجم)

(٢) - حل كانا ليس هنا محل فيكتور هوغو، بينما يدفع في أماكن أخرى إلى التفكير بلا مارتين.

حججك السابقة بإظهار ماحققناه من تقدم نسبة إلى القرن الثامن عشر، ابتكر التقدم (وهو خدعة ظريفة تلعب بها على البورجوازيين)! فأدبنا الحديث يجري وفق لوحات تتركز فيها جميع الأصناف، الملهاة والمأساة، الأوصاف والخاصيات والحوارات المرصعة بعقد براقة ذات حبكة هامة. والرواية التي تضمُّ العاصفة والأسلوب والصورة هي الابتكار الحديث الأكثر شمولاً، وهي تخلف الكوميديا التي لم تعد ممكنة مع التقاليد الحديثة وقوانينها القديمة، وهي تحيط بالحدث والفكرة في ابتكاراتهما التي تستلزم عقل لابروبير ومبدأه الأخلاقي الحازم، والطبائع كما يفهمها موليير، وطرائق شكسبير الكبيرة المؤثرة، ورسم الدقائق الأكثر رهافة في الهوى، الكنز الوحيد الذي تركه لنا أسلافنا. وهكذا فالرواية أسمى من مناقشة القرن الثامن عشر الباردة والحسابية، ومن تحليله الجاف. وستقول بحكمة إن الرواية ملحمة مسلية، استشهد بكورين، وعزز موقفك بالسيدة دي ستيل. فالقرن الثامن عشر طرح كلّ القضايا على بساط البحث، واهتم القرن الثامن عشر بالاستخلاص، وهكذا فقد استخلص حقائق، لكنها حقائق تحيا وتستمر، أخيراً أدخل الهوى في اللعبة، وهو عنصر جهله فولتير، ومأخذ ينقد بموجبه فولتير بإسهاب! أما روسو فاقتصر على اكساء المحاكمات والمناهج، فجولي وكلير هما كمالات أولى (*) لا لحم فيها ولاعظم، ويمكنك أن تلعب على مثل هذه الأوتار فتقول إننا ندين للسلام وللبوربونيين بأدب حديث مبتكر، لأنك تكتب في صحيفة يمين الوسط. واسخر من مفتعلي المناهج. أخيراً يمكنك أن تهتف صارخاً: هي ذي الأكاذيب والأخطاء في مقال زميلنا! وما الغرض منها؟ الحطُّ من قيمة مؤلف جميل، وخداع الجمهور للوصول إلى هذه النتيجة: كتاب رائج يكسد. **ياللعار! أطلق ياللعار** فهذه الشتيمة المتحفظة تحمس القارىء. أخيراً أعلن انحطاط النقد!

(*) - جولي وكلير: شخصيتان روائيتان لروسو، والمقصود بالكمالات الأولى Entéléchies: مصطلحات أرسطية يراد بها: ماتم في مقابل مالم يتم والكمال الذي يتحقق بهذا التمام، أو الصورة التي تخرج ما هو بالقوة إلى ما هو بالفعل وتطلق على النفس التي يقال عنها هي كمال الجسم. (المترجم)

واستخلص : لايوجد إلا أدب واحد، أدب الكتب المسلية، وقد سارناتان في طريق جديد، وفهم عصره واستجاب لحاجاته، وحاجة العصر للدراما. فالدراما أمنية قرن، أضحت السياسة فيه دراما إيمائية مستمرة. وستقول: ألم نشهد في عشرين سنة أربعة أحداث درامية: الثورة، وحكومة المديرين، والامبراطورية، والملكية الثانية؟ ومن ذلك تنتقل إلى قصيدة غنائية حماسية من التقريظ تروج لبيع نسخ الطبعة الثانية، وإليك الطريقة: في يوم السبت القادم تعدّ مقالة في مجلتنا وتوقعها باسمك الصريح دي روبمبره، تقول فيها: إن خاصة المؤلفات القيمة إثارة مجالات واسعة، ففي هذا الأسبوع قالت إحدى الصحف شيئاً ما عن كتاب ناتان نقضته بشدة صحيفة أخرى، ثم توجه اللوم إلى «س» و «ل» وتوجه لي كلمة لبقة بمناسبة مقالي الأول في صحيفة المناقشات، وتختتم المقالة مؤكداً على أن مؤلف ناتان أجمل كتب العصر، وكأنك لم تقل شيئاً، فهذا ما يقال عن جميع الكتب. وستربح بذلك أربعمئة فرنك في أسبوعك، عدا عن متعة كتابة الحقيقة في ناحية ما، فالعقلاء سيحكمون إما لـ «س» أو لـ (ل) أو لروبمبرة، وربما حكموا للثلاثة معاً، فالميتولوجية التي تُعدُّ بحقٍ أحد أكبر الابتكارات البشرية وضعت الحقيقة في قعر بئر عميقة. ألاتلزم بالتالي دلاء لسحبها منها؟ ولقد أعطيت للجمهور ثلاثة دلاءٍ بدلا من واحد! فهيا، ياولدي، سر!

بدا لوسيان منذهلاً، فقبله بلونده على وجنتيه وهو يقول: إنني ذاهب إلى دكاني. ذهب كل واحد إلى دكانه. فالصحيفة بالنسبة لهؤلاء الرجال الأشداء ليست إلا دكاناً، وكان عليهم أن يلتقوا مساء في أروقة الخشب حيث سيذهب لوسيان ليوقع عقده في مكتب دوريا، وتناول لوستو وفلورين، ولوسيان وكورالي، وبلونده وفينو عشاءهم في حي الباليه رويال بينما كان دوبرويل يتفاوض مع مدير البانوراما - دراماتيك.

هتف لوسيان عندما بقي وحده مع كورالي، إنهم على حق، على الرجال أن يكونوا وسائل بين يدي الأقوياء. أربعمئة فرنك لقاء ثلاثة مقالات! بينما تردّد دروغيرو في منحي مثل هذا المبلغ لقاء كتاب كلفني عناء العمل مدة سنتين.

- قالت كورالي: مارس النقد، وتسلَّ به. ألم أظهر على خشبة المسرح هذا المساء أندلسية وغدا سأكون بوهيمية، وفي يوم آخر رجلا؟ فكن على شاكلتي، قطب وجهك تجاههم مقابل دراهمهم. ولنعش سعداء.

فتن لوسيان بالتناقض، فامتطى بعقله على هذا النغل النزوي سليل الحصان بيغاز وأتان بلعام(*)، وراح يجري في حقول الفكر خلال نزهته في الغابة مكتشفاً جمالات مبتكرة في أطروحة بلونده، وتناول عشاءً شهياً، ووقع عقداً مع دوريا يتنازل له فيه عن حقوقه في ديوان **أزهار المرغريت** تنازلاً كلياً(1)، ثم ذهب إلى الصحيفة حيث أنشأ عمودين بسرعة، وعاد إلى شارع ڤندوم. وفي صباح اليوم التالي وجد أن أفكار العشيّة قد تخمرت في رأسه كما يحصل لجميع القرائح الممتلئة بالنسغ التي لم تستغل إلا القليل من قدراتها. ووجد لوسيان متعة في أن ينصرف إلى كتابة مقاله الجديد، فباشر في إنشائه بحماس، وتزاحمت تحت ريشته روائع ولّدها التناقض، فكان فكهاً وساخراً، بل سما إلى خواطر جديدة عن العاطفة والفكرة والصورة في الأدب. وكان حاذقاً وماكراً، فاستعاد من أجل مديح ناتان أول انطباعاته عن قراءة الكتاب في الصالة الأدبية للمحكمة التجارية. ومن الناقد الجارح اللاذع، والساخر الفكاهي تحول إلى شاعر يصوغ عبارات نهائية تترجَّح بجلال كمجمرة بخور مثقلة بالعطور أمام المذبح.

قال وهو يلوح بثماني أوراق مكتوبة بينما كانت كورالي ترتدي ثيابها: «مئة فرنك، ياكورالي!» وفي جودة قريحته أنشأ بخطفات سريعة من ريشته المقال

(*) - الحصان بيغاز: حصان مجنح كون من دم مدوزا في الميتولوجية الإغريقية ويُعدُّ رمز الإلهام الشعري.
وأتان بلعام: أتان عراف في أسطورة من التوراة أرسله ملك موآب ليلعن أنبياء اليهود، فبارك ولم يلعن بعد أن كلمته الأتان. (المترجم)

(1) - وفقاً لقانون الملكية الأدبية الصادر بتاريخ ١٩ تموز ١٧٩٣ يعود للمؤلف وحده حق استثمار مؤلفه وله الخيار إن لم يقم بنشره بنفسه بين التنازل عنه وعن كامل الفوائد المادية المترتبة عن نشره ببيع حقوق النشر للغير Cession، أو بتلزيم هذ النشر وفق شروط ما تحدد ما يناله من ريع عن كل نسخة وكل طبعة Concession.

الرهيب الذي وعد بلونده به ضد شاتليه والسيدة دي بارجتون، وتنعم خلال تلك الأصبوحة بإحدى متُع الصحفيين الخفية الأكثر كبراً، متعة شحذ سلاح المتهكم اللاذع، وصقل حدّه البارد ليجد غمده في قلب الضحية وزخرفة قبضته الظاهرة للقراء[1]، زخرفة ينظر الجمهور بإعجاب إلى براعة حفرها، دون أن يفكر بما تبطنه من مكر، فهو يجهل أن نصل الطرفة الفولاذي المتعطش للانتقام ينغرز في اعتزاز بالنفس ينقب بمهارة لردّ الطعنة ألف طعنة. هذه المتعة الرهيبة، القائمة والمنفردة، المستطابة دون شهود، هي كمبارزة يتغيب الخصم فيها، فهو قتيل عن بُعدٍ بقبضة الريشة، وكأن للصحفي قدرة خارقة مُنحت وفق رغبات أولئك الذين يملكون الطلاسم في الحكايات العربية[2]. فالتهكم هو روح الحقد، الحقد الذي يرث جميع أهواء الإنسان، كما يركز الحب جميع صفاته الطيبة، وهكذا فليس إنساناً من لايظهر مرحه عند الانتقام، بدليل أن مامن شخص إلا وتتجلى متعته في الحب. ورغم بساطة وابتذال هذه الروح في فرنسة فإنها تلقى قبولاً حسناً. وبالتالي فلا بدّ لمقال لوسيان من أن يزيد، وقد زاد بالفعل، من شهرة الصحيفة في المكر والخبث. فأصاب في الصميم قلب حبيبته السابقة لور، السيدة دي بارجتون، ومنافسه البارون شاتليه.

- قالت له كورالي: «هيا نقم بنزهة في غابة بولونيا فالخيل قد ربطت إلى العربة وهي تقرع الأرض بحوافرها، وكفاك عملاً وجهداً».

قال لوسيان وهو يصحح بعض العبارات: لنحمل المقال عن ناتان إلى هكتور، إن الصحيفة بالفعل تشفي جميع الجروح التي سببتها.

---

(١) - انبثاق لبعض كلمات رسالة ساخطة من بلزاك إلى لاتوش في ٣ كانون ١٨٢٩ قال فيها: كتبت على ظهر الرسالة التي استلمتها منك عبارات تهكم جارحة لأقنع نفسي بأن من السهل شحذ خنجر مع زخرفة قبضته.

(٢) - تعبير مشابه لأسطورة مستشار حكومة الصين الواردة في رواية الأب غوريو عندما يقول راستينياك لبيانشون إن بإمكانه بقوة إرادته وحدها أن يقتل مستشار (ماندرن) الصين ويرث ثروته دون أن يتحرك من باريس.

انطلق العاشقان يتبختران متألقين في شوارع باريس التي أنكرت منذ فترة قريبة لوسيان وبدأت الآن تهتم به، هذا الاهتمام الذي غمر لوسيان بنشوة عارمة أسكرته بعد أن عرف مدى سعة هذه المدينة، وصعوبة توصل المرء إلى مقام ذي شأن فيها.

قالت الممثلة: أرى ياعزيزي أن نمر في طريقنا على خياطك نستعجله في إعداد ثيابك أو لتجرب ما أعد منها، فأنا أريد، إن رغبت في مقابلة أولئك السيدات أن تطغى بظهورك على هذا الغول دي مارسي، وعلى راستينياك الشاب، وأمثال أجودا بنتو، ومكسيم دي تراي، وفاندنس أخيراً جميع من اشتهروا بأناقتهم. فكر بأن خليلتك كورالي! ولكنك لن تخونني، أليس كذلك؟

بعد ذلك بيومين، وعشية موعد الحفلة الليلية التي دعا إليها لوسيان وكورالي أصدقاءهما، بدأ الأمبيغو بعرض مسرحية جديدة، وجب على لوسيان أن يكتب تقريراً عنها، وبعد العشاء ذهب لوسيان وكورالي سيراً على الأقدام من شارع ڤاندوم إلى البانوراما - دراماتيك مروراً بجادة التامبل من جهة المقهى التركي، الذي كان في ذلك الوقت مكان النزهة المفضل[1] وسمع لوسيان من يغبطه على سعادته ويتغنى بجمال خليلته. بعضهم عدّ كورالي أجمل امرأة في باريس، وآخرون وجدوا لوسيان جديراً بها. وأحس الشاعر أنه في الجو الملائم له، فهذه هي الحياة التي يرغب بها. وهو يكاد الآن لايرى أحداً من المنتدى، وغدا يتساءل إن لم يكن أصحاب هذه العقول الكبيرة الذين خصهم بإعجاب فائق منذ شهرين ساذجين فعلاً بأفكارهم وتزمتهم، فصفة المغفلين التي أطلقتها كورالي بلا مبالاة عليهم أينعت في نفسه وأثمرت. وبعد أن أوصل كورالي إلى مقصورتها راح يتجول في الدهاليز سلطاناً، فجميع الممثلات يقابلنه بنظرات الإعجاب وعبارات الإطراء.

---

(١) - كان المقهى يطل على الرقم ٢٩ في جادة التامبل (بينما المسارح تقع من جهة الأرقام الزوجية، وهو يقع بين الجادة وشارع ڤندوم حيث تقيم كورالي. وكتب عنه في دليل ذلك الزمن: زخرفة شرقية تزينّه، وقد كلفت ٢٠٠,٠٠٠ فرنك وحديقة جذابة تطل مصطبتها في أمسيات الصيف على المنتزه الأكثر رواداً في باريس.

قال في نفسه: «يجب أن أذهب إلى الأمبيغو لأقوم بالعمل الموكول إلي».

لم يجد لوسيان مكاناً في قاعة الآمبيغو الغاصة بالمشاهدين، فذهب إلى الدهاليز واشتكى بمرارة لعدم تأمين مكان له، ولم يكن وكيل المسرح يعرفه، فلم يهتم للأمر، وأظهر اللامبالاه مكتفياً بالقول إنه أرسل بطاقتي مقصورة للصحيفة.

قال لوسيان منزعجاً: سأتحدث عن المسرحية وفق ما أسمعه.

- قالت الممثلة الأولى للوكيل: هل أنت غبي؟ إنه عشيق كورالي.

عاد الوكيل مسرعاً إلى لوسيان قائلاً: سيدي، سأذهب لإعلام المدير.

وهكذا كانت أتفه التفاصيل تبرهن للوسيان عن قدرة الصحيفة الواسعة وتدغدغ زهوه.

جاء المدير، وحصل من الدوق دي رتوره وتوليا وهما يشغلان مقصورة أمامية على إفساح مكان للصحفي في مقصورتهما، وكان الدوق يعرف لوسيان فرحب برفقته.

- قال الدوق الشاب متحدثاً عن البارون شاتليه والسيدة دي بارجتون: «إنك قدت هذين الشخصين إلى القنوط».

رد لوسيان: ماذا سيحل بهما غداً إذن؟ فأصدقائي تعرضوا لهما حتى الآن بشكل عابر، أما هذا الليل فسأقذفهما بكرة نارية في مقال بعنوان «من بوتليه ١٨١١ إلى بوتليه ١٨٢١» وسترى لماذا نسخر من بوتليه. فشاتليه سيكون رمزاً للأشخاص الذين تنكروا للمحسن إليهم بتحالفهم مع البوربونيين. وبعد أن أعبر عن كل ما أستطيعه سأذهب إلى السيدة دي مونكورنه.

جرت بين لوسيان والدوق الشاب محادثة تتألق ذكاء إذ حرص الشاعر على أن يبين لهذا النبيل الكبير مدى خطأ السيدتين دسبار ودي بارجتون بإظهار ازدرائهما له بشكل فظ، لكنه لم يُقم أي دليل على إثبات حقه في حمل اسم دي روبمبره، عندما ناداه الدوق مكراً منه، باسم شاردون.

- قال له الدوق: «عليك أن تكون ملكياً، لقد أثبت أنك رجل ذكي، فأثبت الآن أنك ذو محاكمة سليمة. فالوسيلة الوحيدة للحصول على براءة ملكية تعيد لك لقب نبالة واسم أجدادك من ناحية أمك هي أن تقدّم خدمات للقصر تطلب عليها هذه المكافأة. فالليبراليون لن يتمكنوا أبداً من تسميتك كونتاً! وسترى أن الملكية الثانية ستتمكن من التغلب على الصحافة، وهي القوة الوحيدة التي يخشى بأسها. ولكن للصبر حدوداً ويجب على الصحافة أن تكم فمها، فاغتنم أيام حريتها الأخيرة لتعزز مركزك. وبعد عدة سنوات سيكون الاسم واللقب في فرنسة مصدر ثروة أكثر ضماناً من الموهبة، وهكذا تكون قد وُهبت كل المزايا: الذكاء والنبل والوسامة، وبذلك تحصل على كل ماترغب. فحافظ الآن على ليبراليتك لتتمكن في المستقبل من أن تساوم على انحيازك للملكية».

طلب الدوق بعد ذلك من لوسيان قبول الدعوة إلى العشاء التي سيرسلها له الوزير الألماني الذي التقى به في أمسية فلورين. وكان لوسيان في تلك اللحظة قد أخذ بأفكار الرجل النبيل وبُهر لرؤية أبواب الصالونات التي ظن أنه أبعد عنها نهائياً، منذ عدة أشهر سابقة، تنفتح أمامه الآن على مصراعيها. فالصحافة والذكاء هما إذن وسيلة المجتمع الحالي، وأدرك لوسيان أن لوستو قد يكون نادماً لأنه فتح أمامه أبواب الهيكل، إذ أنه يشعر الآن أن مصلحته الخاصة تقتضي منه أن يقيم حواجز، يصعب اجتيازها، و أمام طموحات أولئك الذين ينطلقون من المقاطعات إلى باريس، وهو لايدري كيف سيتصرف إن جاءه شاعر يطلب عونه كما طلب هو عون لوستو. إنه لايجرؤ على طرح السؤال عن موقفه على نفسه. ولاحظ الدوق الشاب آثار التأمل العميق على لوسيان، ولم ينخدع أبداً في تخمين السبب. فقد كشف لهذا الطماع، الذي تنقصه الإرادة الصلبة ولكن لاتنقصه الرغبة، كل الجو السياسي، كما بين له الصحفيون من أعلى الهيكل كل عالم الأدب وغناه، على نسق ما أظهر الشيطان ليسوع المسيح. كان لوسيان يجهل المؤامرة الخفية التي يحوكها ضده الأشخاص الذين جرحتهم الصحيفة في تلك المدّة، والتي يشارك

فيها الدوق دي رتوره. وروّع الدوق الشاب مجتمع السيدة دسبار عندما حدّثهم عن ذكاء لوسيان، وكلفته السيدة دي بارجتون أن يسبر غور الصحفي، وأمل في أن يلقاه في مسرح الأمبيغو - كوميك. فأفراد مجتمع النخبة والصحفيون ينقصهم العمق، ولايحسنون حياكة المؤامرات، فلا هؤلاء ولا أولئك يضعون الخطط المنظمة بل تسير مكيافيليتهم، إن صحّ القول، من يوم إلى يوم، وتقوم دائماً على حضورهم في المكان، مستعدين لكل شيء، متهيئين للاستفادة من الشرّ ومن الخير، وترصد الفرص التي يُوقع لهم فيها الهوى إنساناً. وخلال مأدبة فلورين الليلية، لاحظ الدوق الشاب خُلق لوسيان، وعرف الآن كيف يأخذه من أطراف غروره، وجرب أن يختبر عليه قدرته على التصرف الدبلوماسي. أما لوسيان فما أن انتهت المسرحية حتى هرع إلى شارع سان فياكر ليُعد مقاله عنها في الحال[1].
وكان نقده لها عن قصد لاذعاً جارحاً، فقد راقه أن يختبر قدرته، وكانت الميلودراما أفضل من تلك الجارية في البانوراما - دراماتيك، لكنه أراد أن يعرف إن كان بإمكانه، كما قيل له، تفشيل مسرحية جيدة وإنجاح أخرى سيئة، وفي اليوم التالي فتح صحيفته، وهو على مائدة الغذاء مع كورالي، بعد أن قيل له إنها تتضمن نقده اللاذع للأمبيغو - كوميك. ولم تكن دهشته قليلة عندما قرأ، بعد مقاله عن السيدة دي بارجتون وشاتليه، تقريراً عن الأمبيغو ملطفاً بشكل جيد خلال الليل، حتى أنه مع احتفاظه بتحليله الذكي، خرج بخلاصة ملائمة للمسرحية التي يتوقع أن تدرّ ربحاً كبيراً لصندوق المسرح. وهذا ماأثار غيظه بشدة ودفعه إلى أن يقول كلمتين بهذا الخصوص للوستو، واقتنع بضرورة ذلك، ووعد نفسه ألا يستكين للهيمنة

---

(١) - كانت الصحف الصغيرة المحدودة ومعظمها تغطي برامج المسارح مع تقرير عن العروض الأولى، لذلك وجب على معد التقرير أن ينهيه بعد العرض ليظهر مع برنامج اليوم في عدد الصحيفة الذي يوزع صباحاً. وقد عرف بلزاك دون شك في المسلسلة الأدبية هذه اللحظات المحمومة التي يعد فيها التقرير بسرعة والصحيفة قيد الطبع، ونقرأ مثلا، في عدد ٧ تموز ١٨٢٤: إن الراحة هي التي تنشط الذاكرة أما وسيلة تسجيل الذكريات فشيء آخر؟ فالوقت منتصف الليل، والطابع هنا يستحثنا لأنه يريد ألا تتأخر المسلسلة عن موعدها علينا إذن أن نروي مايتيسر بالسرعة الكلية.

عليه، واستغلاله كمغفل. ومن أجل توطيد قدرته بشكل نهائي كتب المقالة التي تلخص جميع الآراء المتعلقة بكتاب ناتان وتوازن بينها وفق ما أشار به بلونده لمجلة دوريا وفينو. وعند الانتهاء منها انصرف يكتب بسرعة أحد مقالاته التي خص بها الصحيفة الصغيرة ومنحها عنوان منوعات، فالصحفيون الشباب في أول فورانهم يدبجون مقالات بحب ويقدمون بتهور كل بواكير أزهارهم. وكان مدير البانوراما دراماتيك قد حدّد أول عرض لمسرحية خفيفة «فودڤيل» قبل موعد الوجبة الليلية ليتيح لكورالي وفلورين فرصة قضاء السهرة، وجاء لوستو ليطلب مقال لوسيان المعد عن تلك المسرحية مُسبقاً بعد أن شاهد تدريباتها العامة وأعدّ التقرير عنها كي لايسبب أيّ تأخير يتعلق بطباعة وإصدار عدد الصحيفة ولما قرأ له لوسيان إحدى هذه المقالات الجذابة الصغيرة التي تتناول الصفات الباريسية المتميزة، قبله إتيين على العينين وسمّاه العناية الإلهية للصحف.

قال لوسيان وقد أحسّ أن مقاله المتألق يعطي مزيداً من القوة لاعتراضاته: «لماذا تعبث إذن بتغيير روح مقالاتي؟».

صاح لوستو: أنا!

- من إذن غيّر مقالي عن مسرحية الأمبيغو؟

أجاب ايتيين ضاحكاً: ماتزال غير مطلع على سير الأعمال، فالامبيغو يسدّد لنا قيمة عشرين اشتراكاً يستخدم تسعة منها فقط للمدير ورئيس الاوركسترا ووكيل المسرح وخليلاتهم وثلاثة شركاء، وهكذا كل مسرح من مسارح الجادة يدفع ثمانمئة فرنك للصحيفة، وتقدم مثل هذه المبالغ بطاقات مقصورات قابلة للبيع تمنح لفينو، عدا عن اشتراكات الممثلين والمؤلفين، فهذا الماكر يجمع ثمانية آلاف فرنك من المسارح الصغيرة في الجادات، ولك أن تقدّر ما يناله من المسارح الكبرى! هل تدرك المغزى من ذلك؟ إننا ملزمون على أن نبدي كثيراً من التسامح.

- أدرك أنني لست حرّاً في أن أكتب ما أفكر به...

صاح لوستو يقاطعه: إيه! وماذا يهمك إن كنت تؤمن مكاسبك، ثم أي اعتراض لك على المسرح؟ هل من سبب لشن هجوم ليلة البارحة؟ فالقدح حباً بالقدح يورط الصحيفة، أما عندما تهاجم الصحيفة بحق، فما من لومٍ، هل قصر المدير في واجبه نحوك؟

- لم يحجز لي مكاناً.

- حسن، سأعرض عليه مقالك، وأخبره إنني لطفت من حنقك، وستجد أن هذا أفضل من نشره بصيغته الفظة. اطلب منه غداً بطاقات أماكن محجوزة، يوقع لك على أربعين منها كل شهر، وسأصحبك إلى من يشتريها منك مسبقاً بحسم خمسين بالمئة على ثمن كل بطاقة[1] إذ يتم على بطاقات المسارح ذات المتاجرة الجارية على الكتب المهداة، وستلقى باربه آخر، إنه رئيس المصفقين، ومنزله غير بعيد من هنا، ولدينا متسع من الوقت، فهل نذهب إليه؟

- ولكن، ياعزيزي، يبدو لي أن فينو يقوم بعمل مشين جراء هذه الضرائب غير المباشرة التي يفرضها هكذا على حقول الفكر.

- آه! من أين أنت آت؟ من تحسب فينو؟ إن تحت طيبته المزيفة، وتحت هذا المظهر الشبيه بتوركاره[*]، وجهله وحماقته كل مكر تاجر القبعات المتحدّر منه. ألم تشاهد في مكتب الصحيفة ضمن قفص المحاسبة عسكري الامبراطورية العجوز، نسيب فينو؟ هذا النسيب ليس رجلاً شهماً فقط، بل يسعده أن يُعد عبيطاً. وهو الرجل الذي توجه إليه الشبهات في جميع الصفقات المالية. وفي باريس يُعد الطماع محظوظاً عندما يلقى إلى جانبه مخلوقاً يرتضي أن يكون موضع شبهة. وفي السياسة كما في الصحافة حالات عديدة يجب ألا يُقحم الرؤساء فيها بأية قضية. وإذا غدا فينو شخصية سياسية فسيعين نسيبه سكرتيراً له يتلقى لحسابه جميع

(١) - كان بورشر يحسم أيضاً بطاقات إكراميات المؤلفين بمعدل ٥٠٪ كما تبين رسالة من بلزاك إلى لوران جان بتاريخ ٢١ كانون الثاني ١٨٤٩، جاء فيها هذه العبارة الصريحة: لديّ مايعادل ٦٠ فرنكاً نقداً أي بطاقات بقيمة ١٢٠ ف. كما أثبت ذات الحساب المتعلق بجورج صاند في مقال نشرته السيدة فلكاي عن بورشر في السنة البلزاكية ١٩٧٢.

(*) - توركاره Turcaret: بطل مسرحية تحمل ذات الاسم لليزاج (١٧٠٩).

الرشاوى التي تدفع في المكاتب لقاء المشاريع الكبرى. وجيرودو الذي يبدو للوهلة الأولى مغفلاً، يتمتع بقدر من المكر يؤهله ليكون المتواطىء الغامض. فهو الخبير المبرز الذي يحول دون مضايقتنا بالصياح والضجيج ومراجعة المبتدئين واحتجاج المعترضين، ولا أعتقد أن له مثيلاً في أية صحيفة أخرى.

قال لوسيان: إنه يقوم بدوره بمهارة، فقد رأيته في تطبيق عملي.

توجه ايتيين ولوسيان إلى شارع فوبور دوتامبل حيث توقف رئيس التحرير أمام منزل جميل المظهر، وسأل البواب:

«هل السيد برولار في منزله؟»

همس لوسيان: كيف؟ أتعدُّ رئيس المصفقين سيداً؟

- ياعزيزي، إن برولار ذو دخل عشرين ألف فرنك سنوياً، ولديه ختم مؤلفي الجادة المسرحيين الذين فتحوا كلهم حسابات جارية عنده وكأنه صاحب مصرف. وبطاقات المؤلف، وبطاقات الإكراميات تباع وبرولار متعهد هذه التجارة[1]، وإذا استخدمت قليلاً من الإحصاء وهو العلم المعبر عن بعض الفوائد عند عدم المغالاة فيه. فإن خمسين بطاقة إكرامية في الأمسية لكل عرض في مسارح الجادة الخمسة تعني مئتين وخمسين بطاقة في اليوم، فإذا كان مايدفعه وسطياً عن كل بطاقة نصف فرنك فإنه يسدد ١٢٥ ف يومياً[2] للمؤلفين ويربح مثل هذا المبلغ

---

(١) - في دار المحفوظات الوطنية الفرنسية ملف هام عن تجارة بطاقات الإكرامية الموزعة من قبل الأكاديمية الملكية للموسيقى في العام ١٨٢٨، وكان الباعة الثانويون لها يتخذون أمكنتهم تحت أروقة الأوبرا، وحاولت الحكومة مع مدير الأوبرا لوبر مكافحة هذه الظاهرة بالتعاميم والتهديدات، وتبين رسالة من لوبر إلى الفيكونت دي لاروشفوكو أن جميع الإدارات المسرحية كانت تتعرض لذات المشكلة: «وقد بقيت تدابيرهم غير فعالة تجاه هذا الداء المزمن والعام.

(٢) - يعطي بورشر الذي تعامل معه بلزاك كثيراً من ملامحه لبرولار، وكان يسكن عندما عرفه بلزاك في البناء رقم ٤١ من شارع ضاحية سان مارتن. لكن بدايته التجارية كانت قبل بضع سنوات من العام ١٨٣٠ في شارع فولي - مريكور حيث عمل حلاقاً. والحال أن لوستو صحب لوسيان إلى شارع ضاحية التامبل غير بعيد عن الجادة مما يتناسب تماماً مع عنوان الحلاق. وقد ترك بورشر عند وفاته عقارات هامة وديوناً مستحقة بنحو ٥٠٠,٠٠٠ ف. وقد روت السيدة مينينجة سيرة بورشر المهنية (في السنة البلزاكية ١٩٦٨) وأكملت السيدة فلكاي معلومات (في السنة البلزاكية ١٩٧٢) لكن الكاتبتين لم تذكرا أيّ تعاقد بين بورشر والصحفيين.

أي مـايقـرب من أربعـة آلاف فـرنك شـهـرياً أو ثـمـانيـة وأربعين ألف فـرنك سنوياً ولنفترض نصف هذا المبلغ فقط لأنه لايتمكن دائماً من تصريف كامل البطاقات.

- لماذا؟

- آه! لأن الأشـخـاص الذين يدفعـون ثمن بطاقـاتهـم في المكتب يحـجـزون أمكنتهم بينما لا تحجز أمكنة لبطاقات الإكرامية، كما أن المكتب يتحفظ بحقوقه في الحجز وهناك أيام الطقس الجميل، والمسرحيات السيئة. وهكذا قـد يصل ربح برولار من هذه البطاقـات إلى ثلاثين ألف فـرنك. ثـم إن لديه مـصـفـقـيـه، وهم يشكلون مـصـدر ربح آخـر، وفلورين وكـورالي من دافـعي الضـرائب له، وإذا لم تسددا مايفرضه عليهما فإنهما لن تحظيا بالتصفيق عند دخولهما وخروجهما.

قدّم لوستو هذا الشرح بصوت منخفض وهما يصعدان السلّم.

- قال لـوسيان وهـو يجد السعي نحو المكاسب كـامنةً في جميع الزوايا: «كم هي فريدة باريس».

استقبلت خادمة شديدة النظافة الصحفيين وصحبتهما إلى مكتب السيد برولار، وكـان تاجـر البطاقات يجلس على كنبة عريضة خلف طاولة ذات أدراج، ونهض عندما رأى لوستو، وكـان متشـحاً بمعطف من قمـاش صوفي ناعم رمادي اللون، وبنطـال يغطي قدميه وخف أحـمـر وهو أشبه بطبيب أو محـام. ورأى فيه لوسيان رجلاً من عامة الشعب حظي بالثروة: وجه شائع، وعينان رماديتان تشعان مكراً، ويدا مصفق، وبشـرة حـولتـهـا حـفـلات السكر إلى لون المطر على سطوح القرميد، وشعر يخطه الشيب، وصوت مختنق تقريباً.

بادر لـوسـتـو بالقـول: «إنك آت، دون شك من أجل الآنسـة فلورين، ثم التفت إلى لوسيان: وأنت أيها السيد من أجل الآنسة كورالي، فأنا أعرفك جيداً، كن مطمئناً، سأشتري زبائن الجيمناز، وسأعنى بخليلتك وسأنبهها إلى المقالب التي تُعدُّ لها.

قال لوستو: نقبل هذا بطيبة خاطر ياعزيزي برولار، لكننا آتيان من أجل بطاقات الصحيفة التي نتلقاها من جميع مسارح الجادات، وهي ترسل لي بصفتي رئيس تحرير الصحيفة وللسيد باعتباره محرّر كل مسرح.

- آه! نعم، لقد سلّمك فينو صحيفته، اطلعت على الموضوع، فينو يحسن التصرف وسأقيم له مأدبة عشاء في نهاية الأسبوع، ويشرفني، ويسرّني حضوركما، ويمكنكما أن تأتيا بامرأتيكما وستكون هناك أعراس ومآدب يحضرها دوكانج، وأديل دوبوي، ودوبتي - ميره، والآنسة ميلو[1] خليلتي، وسنضحك كثيراً ونشرب أكثر.

- يجب أن يكون دوكانج منزعجاً بعد أن خسر قضيته[2].

- أقرضته عشرة آلاف فرنك سيسدّدها لي عقب نجاح مسرحية غالاس[3] التي دعمتها!

دوكانج رجل ذكي، ولديه الوسائل. . . خيّل للوسيان أنه يحلم وهو يسمع هذا الرجل يقيّم مواهب المؤلفين. ثم التفت برولار إليه بمظهر الحكم الكفء وقال:

حظيت كورالي بالنجاح، وهي فتاة طيّبة وسأدعمها سراً ضد المتآمرين في بداية عملها في الجيمناز، ألا تستمع إليّ؟ إنني أعددت من أجلها رجالاً في الأروقة سيبتسمون وسيقومون بهمهمات استحسان تحفّز على التصفيق. هي ذي مناورة تزيد من تقدير امرأة. إنها تعجبني، ويجب أن تكون مسروراً منها فهي فتاة عاطفية. آه! يمكنني أن أُفشِّل من أشاء. . .

---

(١) - ورَدَ في «**السيرة المسرحية الجديدة**(١٨٢٦) أن أديل دوبوي تُعَدُّ «معجزة جادة كريم» ومفخرة مسرح غيته الذي كانت تبلله بدموعها منذ العام ١٨١٧. وكانت الآنسة ميلو، خليلة برولار، تمثل على خشبة المسرح نفسه، أو بالأحرى كانت تظهر على الخشبة لأن جمالها كان يفوق بلا جدل موهبتها.

(٢) - قدّم دوكانج إلى محكمة الجنايات لانتهاك حرمة الأخلاق والدين، والتحريض على الحرب الأهلية، عقب نشره روايته **ڤالتين** وحكم عليه في ٢٦ حزيران ١٨٢١ بخمسة أشهر سجن وغرامة ٥٠٠ ف.

(٣) - غالاس: ميلودراما (مشجاة) لدوكانج وفاريز مثلت في العام ١٨١٩ على خشبة مسرح الامبيغو - كوميك وحظيت بشهرة واسعة، وفي العام ١٨٢٦ ذكر قاموس العناوين لبريسمونتيه إن **غالاس**، و**نُزُل السفوح المشمسة** هما المسرحيتان الأكثر تمثيلاً للرصيد الميلودرامي.

- قال لوستو مقاطعاً: ولكن، ألا نرتب أمر البطاقات؟

- حسنٌ، سأذهب لاستلامها من السيد في الأيام الأولى من كل شهر. إن السيد صديقك وسأعامله كمعاملتك. ستُعطى ثلاثين تذكرة عن المسارح الخمسة، مما يعود عليك بنحو خمسة وسبعين فرنك شهرياً. ثم استأنف تاجر البطاقات وهو يفتح أحد الأدراج الممتلىء بالنقود أتريد سلفة؟

- قال لوستو: كلا، كلا، سنحتفظ بهذا المورد لأيام الضيق.

- قال برولار موجها كلامه للوسيان، سأذهب في الأيام القريبة القادمة للعمل مع كورالي فنحن متفاهمان جيداً.

تأمل لوسيان بدهشة عميقة مكتب برولار حيث رأى خزانة مكتبه، وصوراً، وأثاثا ملائماً، وعند مروره في الصالة لاحظ الأثاث المتميز بالترف، لكن قاعة الطعام بدت له المكان الأكثر عناية وأبرقت أساريره بابتسامة سخرية علق عليها لوستو بقوله: «إن برولار ذوّاقة وولائمه تذكر في الأدب المسرحي، وهي منسجمة مع صندوقه».

أجاب برولار بتواضع: لديّ خمور جيدة. ثم هتف عند سماعه أصواتاً مبحوحة ووقع خطوات غريبة على السلم: هاهم أتباعي مثيرو حماس رواد المسرح، وداعاً وإلى اللقاء.

أبصر لوسيان عند خروجه رهطاً شنيعاً من المصفقين، وباعة البطاقات، يعتمرون الكاسكيتات، ويرتدون السراويل الرثة، والمعاطف البالية، بوجوه قمينة بالشنق، مزرقة ومخضرة، قذرة ومعروقة، وقد طالت لحاهم، وأبرقت عيونهم قسوة وتدليسا في آن معاً: إنه رهط رهيب يعيش وينتشر في جادات باريس، يبيع في الصباح سلاسل الأمان، والحلي المزيفة ذات الخمسة وعشرين فلساً، ويصفق في المساء تحت أضواء المسارح، وينصاع أخيراً لجميع ضروريات باريس الكريهة.

- قال لوستو وهو يضحك: «هاهم الرومان[1]، وهوذا مجد الممثلات والمؤلفين المسرحيين، وبرؤيته عن قرب تجد أنه ليس أكثر بهاء من أمجادنا.

- قال لوسيان عند عودته إلى منزله: من الصعب أن يتصور الإنسان مدى الأوهام المحيطة بأي شيء في باريس. فالضرائب تُفرض على كل شيء، وكل شيء فيها يُعرض للبيع، أو يمكن تزييفه، حتى النجاح يزُيف.

ضمّت مأدبة لوسيان دوريا، ومدير البانوراما، وماتيفا وفلورين، وكاموزو، ولوستو، وفينو، وناتان، وهكتور مرلن، والسيدة دي ڤال نوبل، وفليسيان ڤرنو، وبلونده، وڤينيون، وفيليب بريدو، وماريبت جيرودو، وكاردو وفلورنتين، وبيكسيو، كما دعا أصدقاءه أعضاء المنتدى، والراقصة توليا التي لم تكن قاسية على دو برويل، إنما دون دوقها.

كما دعا إليها أصحاب الصحف التي يعمل بها ناتان ومرلن وفينيون وفرنو. وشكّل المدعوون رهطاً من ثلاثين شخصاً كادت قاعة طعام كورالي تضيق بهم. ونحو الساعة الثانية، وعلى أنوار الثريات المضاءة، أخذ أثاث هذا المسكن والسجف والأزهار مظهر العيد الذي يمنح الترف الباريسي جوّ الحلم. وعبَّر لوسيان بحركة فائقة الوصف عن منتهى السعادة والزهو المطمئن والرجاء المتحقق، وهو يرى نفسه سيّد هذه الأمكنة، ولم يستطع أن يجد تفسيراً لتحقيق هذه الأعجوبة التي تمت كأنها ضربة عصا سحرية. وبدت فلورين وكورالي بأبهى زينة الممثلات وروعة فنهن تبتسمان لشاعر الأقاليم كملاكين مكلفين بفتح أبواب قصر الأحلام. وخيل للوسيان أنه يرتع فيه، فقد انقلبت حياته خلال بضعة أشهر بسرعة خاطفة من أقصى البؤس إلى أقصى الرخاء، وانتابته الوساوس كمن يغرق في حلم ويدرك أنه نائم. غير أن عينه عبرت عند رؤية هذه الحقيقة الجميلة عن ثقة يطلق عليها الحُساد اسم

---

(١) - منذ تمثيل مسرحية جرمانيكوس لآرنو Arnault وتذكراً لجنود نيرون المكلفين بإجبار الجماهير على التصفيق أطلقت كلمة «رومان» على كل تظاهرة تنظم للهتاف عند نقاط معينة من الخطب المسرحية، والتنبيه إلى الكلمات ذات التأثير. انظر معجم **السِّير والنوادر** لألوا (١٨٢٦).

الخيلاء. فهو نفسه قد تغير، فبتمتّعه بالسعادة كل يوم شحب لونه، وتخضّبت نظرته بمظاهز سقام كسول، أخيراً بدا عليه وفقاً لتعبير السيدة دسبار، أنه مُغرم، لكن وسامته غالبة، والإحساس بقدرته وقوته يتجلى في هيئته المتألقة بالحب والإختبار، وهو يتأمل أخيراً العالم الأدبي والمجتمع وجهاً لوجه مؤمناً بقدرته على التجوال فيه سيداً مهيمناً. فحاضر هذا الشاعر الذي لم يكن يفكر إلا تحت وطأة الشقاء صاف لا يعتوره كدَر، وأشرعة زورقه تسيرها ريح النجاح رهواً، فتحت إمرته كلّ الوسائل الضرورية لمشاريعه: بيت مؤثث، وخليلة تحسده عليها باريس كلها، وعربة فخمة وأخيراً مبالغ لاتحصى في محبرته وأدوات كتابته، فروحه وقلبه ونفسه تحولّت بدورها فهو لايفكر أبداً في مناقشة الوسائل أمام مثل هذه النتائج الطيبة. وأسلوب نفقات معيشته يبدو موضع شبهة، وخاصة بالنسبة للاقتصاديين الذين خبروا الحياة الباريسية حتى ليبدو مفيداً بيان القاعدة التي يستند إليها الرفاه المادي للممثلة وشاعرها أيّاً كان تخلخل هذه القاعدة، فقد أوعز كاموزو إلى ممونى كورالي دون مجازفة كبيرة أن يؤمنوا جميع طلباتها خلال ثلاثة أشهر، فالخيل والخدم تحت تصرّف هذين العاشقين كمثل السحر وهما غارقان في فرحتهما يستمتعان بكل شيء بمنتهى البهجة. وجذبت كورالي لوسيان من يده لتطلعه مُسبقاً على هذه الاستعدادات المفاجئة في قاعة الطعام التي ازدانت بأدوات المائدة الرائعة، وشمعداناتها المثقلة بأربعين شمعة وفواكهها، وقائمة الطعام المعدّة من شيفه. وقبل لوسيان كورالي على جبينها وهو يضمها إلى صدره قائلاً:

- سأصل ياحبيبتي، وسأكافئك بمزيد من الحب ومزيد من التضحيات.

- قالت له: هل أنت مسرور؟.

- يصعب علي كثيراً ألا أكون كذلك.

- حسن، هذه الابتسامة تسدّد كل حساب، والتفّت بحركة أفعوانية لتطبق شفتيها على شفتيه.

وجدا فلورين، ولوستو، وماتيفا، وكاموزو يهيئون موائد اللعب. ووصل أصدقاء لوسيان لأن جميع هؤلاء الأشخاص يُعدّون أنفسهم أصدقاء لوسيان. وبدأت المقامرة من الساعة التاسعة واستمرت حتى منتصف الليل. ولحسن حظ لوسيان لم يكن يعرف أية لعبة، لكن لوستو خسر ألف فرنك اقترضها من لوسيان الذي لم يستطع أن يعفي نفسه من إقراضها له، فلوستو طلبها منه وهو صديقه. وفي الساعة العاشرة تقريباً حضر ميشيل وفولجنس وجوزيف، ووجد لوسيان، عندما توجه لمحادثتهم في إحدى الزوايا وجوههم باردة ورصينة، إن لم نقل متجهمة، ولم يستطع دارتز الحضور فهو منصرف إلى إنهاء كتابه، كما لم يحضر ليون جيرو فهو مشغول بإصدار العدد الأول من مجلته، وقد أرسل المنتدى هؤلاء الفنانين الثلاثة اعتقاداً منه بأنهم سيكونون أقل غربة بين الآخرين وسط حفلة سُكر.

قال لوسيان بلهجة فيها بعض التعالي: «وبعد، ياأصدقائي، ها أنتم تجدون أن بإمكان المهرّج الصغير أن يغدو شخصية لبقة كبيرة».

- قال ميشيل: كم أود أن أكون مُخطئاً.

سأله فولجنس: أتعيش مع كورالي بانتظار الأفضل؟

أجاب لوسيان بلهجة أراد أن تكون ساذجة: نعم، فقد كان لكورالي خليلٌ تاجر هرم مسكين يعبدها أقصته عنها. ثم التفت إلى جوزيف بريدو قائلاً: إنني أسعد حظاً من أخيك فيليب الذي لم يعرف كيف يسوس مارييت.

- قال فولجنس: أخيراً، ها أنت الآن رجل كالآخرين تشق طريقك.

- أجاب لوسيان: رجل يبقى بالنسبة لكم كعهده السابق، مهما علت مرتبته.

تبادل ميشيل وفولجنس نظرات تشوبها ابتسامة ساخرة، رآها لوسيان وأدرك من خلالها سخف عبارته.

- هتف جوزيف بريدو: إن كورالي رائعة الجمال. ياللوحة الجميلة التي يمكن رسمها لها!

أجاب لوسيان: وطيبة، أقسم على أنها ملائكية، ولكن بإمكانك أن ترسمها. اجعل منها موديلاً للفاتنة الفينيسية التي تأتي بها العجوز لعضو مجلس الشيوخ(١).

قال ميشيل كريستيان: إن جميع العاشقات ملائكيات.

في تلك اللحظة دخل راوول ناتان وأقبل نحو لوسيان في تهلّل صداقة حميمة وشدَّ على يديه مصافحاً وهو يقول:

«ياصديقي الطيّب، أنت لست رجلاً كبيراً فقط، وإنما صاحب قلب كبير أيضاً، وهذا في وقتنا الحاضر أكثر ندرة من العبقرية، وأنت مخلص متفان لأصدقائك، إنني مدين لك في الحياة وحتى الممات ولن أنسى مافعلته لأجلي هذا الأسبوع».

بممالقة هذا الأديب الذي تتحدث عنه الألسن بلغت فرحة لوسيان ذروتها، ونظر إلى زملائه في المنتدى بنوع من التعالي. وكان تصرف ناتان ناتجاً عن إطلاع مرلن له على مسوّدة المقال المقرّظ لكتابه والذي سيظهر في عدد الصحيفة الذي سيصدر في صباح اليوم التالي.

همس لوسيان في أذن ناتان: «لم أوافق على كتابة هذا الهجوم المضاد إلابشرط أن أرد بنفسي على مجمل ماقيل. فأنا أحدكم».

---

(١) - ذكرت لوحة بريدو هذه في رواية **المتصيدة** واتخذ الرسام من السيدة دكوان موديلاً للعجوز وتعدُّ هذه اللوحة إحدى التحف الفنية للرسم الحديث التي يعدّها غرو من أعمال تيتيان وهي تهيئ بشكل فائق الفنانين الناشئين للاعتراف بتفوق جوزيف بريدو في صالون ١٨٢٣ كما كتب بلزاك. وقد رأى ج أدهمار في ذلك العمل لوحة حقيقية مشهورة في العام ١٨٢٢ هي: لوحة **العاهرة الشابة** لسيغالون. ولاحظ ب سيترون أن لوحة سيغالون تحوي أربعة أشخاص لا ثلاثة، وأن العاهرة ليست ڤينيسية وأن الرجل ليس عضو مجلس شيوخ كما أن المرأة التي تقود العاهرة الشابة ليست عجوزاً...

وعاد إلى أصدقائه الثلاثة أعضاء الندوة وهو مغتبط لهذا الظرف الذي يبرر العبارة التي سخر منها فولجنس.

- «فليأت كتاب دارتز، فأنا في وضع أفيده فيه. وهذه الفرصة السانحة وحدها تلزمني على استمرار العمل في الصحف».

- قال ميشيل: وهل أنت حُرٌّ فيها.

- أجاب لوسيان بتواضع مزيف: بقدر حاجتها لي.

عند منتصف الليل جلس المدعوون إلى المائدة وبدأت حفلة السكر، وكانت أحاديث لوسيان أكثر انطلاقاً من حديث ماتيفا، فما من أحد اشتبه من تباين العواطف بين مندوبي المنتدى الثلاثة وممثلي الصحف. ووصلت هذه النفوس الفتية التي أفسدتها عادة مناقشة ما للأمر وما عليه إلى حد الملاسنة فتبادلوا أرهب مسلّمات الاجتهادات التي ابتكرتها الصحافة آنذاك.

واعترض كلود فينيون، وهو من يريد للنقد أن يحتفظ بطابعه المهيب، على ميل الصحف الصغيرة إلى التعرض للأمور الشخصية، خشية أن يصل الكتاب فيما بعد إلى أن يفقدوا اعتبارهم. وتبنى لوستو ومرلن صراحة عندئذ الدفاع عن هذا النظام المسمى وفقاً للغة الصحافة الدارجة **المزحة المسلية** معتبرين أنه كإزميل النحات وسيلة للتعبير عن الموهبة.

- قال لوستو: إن جميع أولئك الذين يصمدون أمام هذا الاختبار يُعدُّون من الرجال الأقوياء فعلاً.

- هتف مرلن: غير أن من الواجب، خلال التهليلات للرجال الكبار أن يتلقوا أيضاً كما كان يتلقى المنتصرون الرومان وابلاً من الشتائم.

- قال لوسيان: إيه! إن جميع أولئك الذين يُسخر منهم يعتقدون بانتصاراتهم.

- هتف فينو: ألا يقال إن هذا يعنيك؟

وقال ميشيل كريستيان: وسونيتاتنا! ألا تستحق انتصار بترارك؟

- قال دوريا مثيراً التهليل العام بتلاعبه الجناسي بالألفاظ: أرى لعسى جَدّ (عسجد)(*) علاقة بالأمر.

- ابتسم لوسيان وأجاب بعبارة لاتينية: لنجر التجربة على كائن دون قيمة.

- قال ڤرنو: ايه! يالتعاسة أولئك الذين لاتجادلهم الصحافة. بل تغمرهم بالأكاليل منذ بداياتهم، فهؤلاء سينحون كذخائر القديسين في مشكاتهم ومامن أحد يعيرهم أي انتباه.

- قال بلونده: سيقال لهم كما قال شامبسنتز للمركيز دي جنليس الذي كان ينظر نظرة المستهام إلى امرأته:

«امضِ، أيها الساذج، فقد أعطيت الكثير(١)».

- قال فينو: النجاح قتال في فرنسة، فالحسد منتشر بيننا حتى أننا لانريد أن ننسى أو نُنسي انتصارات الآخرين.

- قال كلود فينيون: الواقع أن التناقض هو الذي يُدبُّ الحياة في الأدب.

- وهتف فوجلنس: كما في الطبيعة حيث تنتج الحياة عن مبدأين يتصارعان، وانتصار أحدهما على الآخر هو الموت.

- وأضاف ميشيل كرستيان: وكما في السياسة.

(*) - ورد هذا الجناس المتكلف في الأصل الفرنسي بين l, or الذهب، أو العسجد ولور laure. ورأينا المحافظة على الجناس اللفظي.

(!) - هذه الطرفة تذكر - غير دقيق لقراءة كتاب أفكار ونوادر وأقوال مأثورة لشامفور (١٧٤٠ - ١٧٩٤) ووردت في الكتاب على الشكل التالي: «كان المركيز شاستلوكس عاشقاً كما في عمر العشرين، ورأى امرأته تهتم في حفل عشاء بغريب شاب وسيم فاعترضه عند النهوض عن المائدة ووجه إليه لوماً وعتاباً، وقال له المركيز دي جنليس بدوره «امضِ، امضِ، أيها الساذج، فقد أعطيت الكثير» (عن مقال پ. سيترون: بلزاك قارىء شمفور ١٩٦٩).

- قال لوستو: وقد برهنا على ذلك. فدوريا سيبيع هذا الأسبوع ألفي نسخة من كتاب ناتان. لماذا؟ فخير دفاع عن كتاب يَردُ بمهاجمته.

- قال مرلن وهو يلوح بمسودة صحيفة اليوم التالي: كيف لايتمكن مثل هذا المقال من ترويج طبعة؟

- قال دوريا: ألا تقرأ لي المقال؟ فأنا كُتُبي في كل مكان، حتى على مائدة ليلية؟

قرأ مرلن مقال لوسيان المظفر الذي قوبل بالتصفيق من جميع الحاضرين. وسأل لوستو: «هل كان لهذا المقال أن يكتب لو لم يكن رداً على المقال الأول المهاجم لكتاب ناتان؟»

أخرج دوريا من جيبه مسوّدة المقال الثالث وقرأه، وتابع فينو بكل انتباه فقرات هذا البحث المسهب المعدّ للعدد الثاني من مجلته، وبصفته رئيس التحرير بالغ في التعبير عن إعجابه قائلاً: ياسادتي، لو أن بوسويه(*) عاش في أيامنا هذه لما كتب خلاف ذلك.

- قال مرلن: أعتقد ذلك، فبوسويه اليوم صحفي.

- قال كلود فينيون وهو يرفع كأسه محيياً لوسيان بشكل ساخر: نخب بوسويه الثاني.

- أجاب لوسيان وهو يقرع كأسه بكأس دوريا: نخب مكتشفي مثيل كريستوف كولومب.

- صاح ناتان: أحسنت!

- سأل مرلن وهو ينقل نظره بين فينو ولوسيان متخابثاً: أتتبادلان الألقاب كالأنخاب؟

(*) - بوسويه (١٦٢٧ - ١٧٠٤) رجل دين، وكاتب، وخطيب مشهور، كان مقرّباً للويس الرابع عشر، ومربياً لولي العهد. (المترجم)

- قال دوريا: إن استمررتم على هذا المنوال فلن نتمكن من متابعتكم. ثم أشار إلى ماتيفا وكاموزو وأضاف: وهذان السيدان لن يفهماكم مطلقاً فالمزاح كالطقس، إن غزل ناعماً جداً تقطع، وفقاً لقول بونابرت[1].

- قال لوستو: أيها السادة، نحن شهود على حَدَث هام، فائق التصور، ولامثيل له، وهو مدهش فعلاً، ألا تعجبون من السرعة التي تحوّل بموجبها من ريفي إلى صحفي؟

- قال دوريا: هو صحفي بالفطرة.

نهض فينو آنئذ وتناول زجاجة شمبانية وقال: ياأبنائي، تعهدنا وشجعنا جميعاً بدايات مضيفنا في ميدان الصحافة، فتجاوز جميع التوقعات، وبرهن خلال شهرين عن كفاءته بالمقالات الجميلة التي نعرفها: أقترح تثبيته صحفياً أصيلاً.

- صاح بيكسيو وهو ينظر إلى كورالي: هيئوا إكليلاً من الورود لتسجيل انتصاره المضاعف. أو مأت كورالي لبرنيس التي أسرعت لإحضار مجموعة من الأزهار الإصطناعية القديمة المحفوظة في علُب الممثلة جدَل منها الضيوف الأكثر سكراً إكليلاً من ورد تباهوا في وضعه بشكل مضحك على هامة لوسيان، وقام فينو كاهنا أكبر، وصب بضع قطرات من الشمبانية على لمّته الشقراء ورفع يده مباركاً وهو ينطق بكل رصانة عذبة بهذه الكلمات الطقسية: باسم الطابع والكفالة والغرامة، أثبتك صحفياً، فلتكن مقالاتك الآن، وكل أوان خفيفة معفياً عنها!

- وأضاف مرلن: «وأن يُدفع عنها دون حساب الفراغات في الأسطر!»

في تلك اللحظة لاحظ لوسيان الحزن متجلياً على وجوه ميشيل كرستيان، وجوزيف بريدو، وفولجنس ريدال، الذين تناولوا قبعاتهم وخرجوا وسط همهمات الاستهجان.

- قال مرلن: «أيكونون من المسيحيين الغربيين؟»

---

(١) - أثبت بلزاك هذا القول المأثور عن نابليون في ألبومه عن التاريخ والنوادر (ص ٩١) بالشكل التالي «بعد مناقشة طويلة فوجىء خلالها نابليون عدة مرات بردود سريعة من م. دي ت. . . فقال الأمبراطور «أيها السيّد، سرعة البديهة تكون أحياناً كخيوط الغزل الرفيعة جداً لاتنفع لشيء».

- أجاب لوستو: فولجنس عنصر طيب، لكنهم أفسدوه بتزمت أخلاقي.

سأل كلود فينيون: من؟

- أجاب بلونده: شباب رصينون يجتمعون في موزيكو[1] فلسفي وديني في شارع الرياح الأربعة ليتداولوا في الاتجاه العام للإنسانية. . .

بدرت من الجمع قهقهات: أوه! أوه! أوه!

- وتابع بلونده: إنهم يريدون أن يعرفوا فيما إذا كانت الإنسانية تدور حول نفسها، أو هي في تقدم[2]، وهم محتارون بين المسار المستقيم والمسار المنحني، ولايجدون معنى للمثلث التوراتي، ولا أعلم من تنبأ لهم بالمسار الحلزوني.

- هتف لوسيان معبراً عن رغبته في الدفاع عن المنتدى: يمكن لرجال يجتمعون في أماكن أخرى أن يستنبطوا حماقات أكثر خطراً.

- قال فليسيان ڤرنو: إنك ترى هذه النظريات مجرّد أقوال لاطائل تحتها ولكن قد يأتي يوم نتحول فيه إلى طلقات بنادق أو إعداد مقاصل.

- قال بيكسيو: إنهم لم يتعدّوا حتى الآن حدّ البحث في التفكير بالعناية الالهية بخمور شمبانية، والمغزى الإنساني، وهما ساقا البنطال[3]، والبهيمة الدقيقة

---

(١) - موزيكو Musico: كلمة مهملة وفقاً لقاموس الاكاديمية ١٨٣٥ وهي تعني أساساً في هولنده: مكاناً عاماً يجتمع فيه الناس ليشربوا، ويدخنوا، ويستمعوا للموسيقى، ويرفهوا عن أنفسهم بصحبة نساء خفيفات.

(٢) - هذه التلميحات تقصد لرو Leroux (١٧٩٧ - ١٨٧١) السياسي السان سيموني، وأتباع بوشيز (١٧٩٦ - ١٨٦٥) أحد أهم روّاد الإشتراكية المسيحية، وخاصة المؤمنين بمبادىء بوشيز الذين يعرفهم بلزاك منذ مدة طويلة وهم من أنصار سان سيمون و ج. ب. فيكو ويتبنون وجهات نظرهما المشكوك فيها حول تطور الإنسانية (العودة الدورية والتقدّم)، لكن بلزاك يحترم آراء أتباع بوشيز، وسخريات بلونده لاتعني اقتناع المؤلف بها.

(٣) - كما أن سخرية بلونده تتعلق ببلونده ولاتعبر عن رأي بلزاك، كذلك مزحات بيكسيو ويرجح أن هذه الشخصية الروائية البلزاكية تمثل هنري مونيه (١٧٩٩ - ١٨٧٧) الرسام الكاريكاتوري والممثل والكاتب وهذه الأسطر تدعم صحة هذا التمثيل فبيكسيو يعدّ فكر العناية الالهية والمغزى الإنساني (كاريكاتوريا) كساقي بنطال، وهذا مماثل للنقد اللاذع الموجه إليهما (في العام ١٨٣٠) وإسفاف أنصار «العلم الجديد» المشربين بآراء فيكو، والمراعين في ذات الوقت لتوفيقية تضم آراء سان سيمون وكوندورسه، وديميتر، وبالانش، وغيرهم.

التي تسير العالم، وهم يضمون رجالا كباراً محبطين مثل ڤيكو، وسان سيمون، وفوريه(*) وأنا أخشى أن يفتنوا صديقي المسكين جوزيف بريدو.

- قال لوستو: إنهم السبب في معاملة بيانشون لي ببرود وهو ابن بلدي وزميلي في الكلية.

- سأل مرلن: هل يعلمون في نظرياتهم الرياضة البدنية للأفكار وتقويم عظامها.

- أجاب فينو: يُحتمل فبيانشون من مبدعي أحلام يقظتهم.

- قال لوستو: ومع ذلك سيغدو طبيباً شهيراً.

- قال ناتان: أليس زعيمهم البارز دارتز، ذلك الشاب القصير القامة الذي نخشى أن يبتلعنا كلّنا.

- هتف لوسيان: إنه رجل عبقري.

قال كلود فينيون مبتسماً: إنني أفضل كأساً من خمر جريز (**).

في تلك اللحظة راح كل من الحاضرين يتحدث عن طبعه لجاره، وعندما وصل الدور إلى رجال الفكر ليكشفوا عما في أنفسهم، وليسلموا مفاتيح قلوبهم بدا واضحاً أن السكر قد جرفهم في تياره. وما أن انقضت ساعة من الزمن حتى انعقدت أواصر الود بين جميع المدعوين، فغدوا أفضل أصدقاء العالم، يصف بعضهم بعضهم الآخر بالرجال الكبار، والرجال الأقوياء، والأشخاص الواعدين

(*) - فيكو Vico: (١٦٦٨ - ١٧٤٤) فيلسوف ومؤرخ إيطالي ميز في كتابه «المبادىء الفلسفية للتاريخ» (١٧٢٥) ثلاث مراحل في تاريخ كل شعب: المرحلة الالهية، والمرحلة البطولية، والمرحلة الإنسانية.

سان سيمون، كونت كلود (١٧٦٠ - ١٨٢٥) زعيم المدرسة السياسية والاجتماعية المعروفة بالسان سيمونية.

فوريه، شارل (١٧٧٢ - ١٨٣٧) صاحب مبدأ الفوريرية وهو السعي إلى انتماء أفراد إلى تجمعات إنسانية لتحقيق رفاههم. (المترجم)

(**) - جريز دي لافرونترا: مدينة في مقاطعة قادش الاسبانية ذات شهرة عالمية بجودة خمورها. (المترجم)

مستقبلاً. وحافظ لوسيان، بصفته ربّ المنزل على صفائه الذهني: فاستمع إلى بعض سفسطات أثرت به وأتمت إفساد أخلاقه.

- قال فينو: ياأبنائي، إن الحزب الليبرالي مضطر أن يؤجّج جدله، إذ ليس لديه مايقوله في هذه الآونة ضد الحكومة، وأنتم تدركون مدى ارتباك المعارضة الآن. فمن منكم يريد كتابة كرّاس يطالب فيه بإعادة حق البكورية، ليثير النقمة ضد أهداف البلاط الخفية؟ إن هذا الكُرّاس سيكافأ بسخاءٍ.

- أجاب هكتور مرلن: أنا، فهذه المطالبة إحدى قناعاتي.

- عقب فينو: لكن حزبك لايريد أن تورطه، وأرى أن نعهد إلى فليسيان بهذا الكراس، وسيقوم دوريا بنشره، وسنحافظ على السرية.

- قال فرنو: وما هي مكافأته؟

- ستمئة فرنك! وستوقع الكونت ك. . .

- أجاب ڤرنو: موافق.

- قال لوستو: سترمي بالإشاعة إلى المستوى السياسي إذن؟

- استأنف فينو: هذا ما يماثل قضية شابو(١) المنقولة إلى عالم الآراء. ستُنسب إلى الحكومة بعض الآراء ليثارَ الرأي العام ضدها(٢).

(١) - شابو، فرنسوا (١٧٥٩ - ١٧٩٤): عضو منتخب عن مقاطعة لوار - وشير إلى الجمعية التشريعية زمن الثورة الفرنسة، اشتهر بنقده العنيف للسلطة التنفيذية واللجنة النمساوية، (بذات الطريقة التي أراد فينو إطلاق الإشاعات ضد الحكومة) وكان شابو راهباً كبوشياً، عين مطراناً لبلوا، وأعدم في عهد الإرهاب.

(٢) - يتطرق بلزاك هنا إلى ذكرى شخصية فقد قام هو شخصياً في بداياته بذات التحريض السياسي الذي كلّف به فليسيان فرنو، إذ تتضمن بيبلوغرافية فرنسة بتاريخ ٧ شباط ١٨٢٤ كرّاساً بعنوان حق البكورية بتوقيع م. د (في الرواية الكونت ك) وعهد الناشر دلونشاپ بطباعة هذا الكراس لإغرون - وهو الملكي المناصر لدوق أنغوليم الذي طبع منه ٥٠٠ نسخة بيعت النسخة منها بسعر ١,٢٥ ف، وبعكس فرنو كان بلزاك في كرّاسه في حالة عدم استقرار سياسي فهو مؤيد للأفكار التي عبّر عنها حول ضرورة حفظ الإرث وعدم تشتيته كما كتب في حق البكورية، وهو في ذات الوقت مرتبط مع صحيفة **المسلسلة الأدبية** الليبرالية، ويرجح أن صديقه ريسون الذي كان يعمل في صحيفة **الدستوري** كان الوسيط لتكليفه بهذا العمل بذات الطريقة التي قام بها فينو بتكليف فرنو في الرواية.

- قال كلود فينيون: سأبقى دائماً في دهشة عميقة لرؤية الحكومة تترك إدارة الآراء بين أيدي عابثين مثلنا.

- استأنف فينو: إذا ارتكبت الوزارة حماقة النزول إلى الحلبة فسننقدها بخشونة، فإن اغتاظت سنسمّم القضية وننفّر الجماهير منها، فالصحيفة لاتخشى شيئاً في الوقت الذي تتعرض فيه السلطة لخسارة كلية.

- تابع كلود فينيون: ستبقى فرنسة ملغاة حتى اليوم الذي تعلن فيه أن الصحافة ستكون خارجة عن القانون، ثم خاطب فينو قائلاً: إنكم تحققون نجاحاً ساعة بعد ساعة، ستكونون الجزويتيين إنما دون الإيمان، والفكرة المتسلطة، والانضباط، والاتحاد.

عاد الجميع إلى موائد اللعب بينما لاحت أضواء الفجر لتشجب نور الشموع.

- قالت كورالي لعشيقها: «بدا أصدقاؤك أعضاء منتدى شارع الرياح الأربعة حزينين كالمحكوم عليهم بالإعدام».

أجاب الشاعر: إنهم القضاة.

ردّت كورالي: حتى القضاة يبدون أكثر انشراحاً.

عاش لوسيان طيلة الشهر وهو منشغل بالمآدب الليلية وولائم العشاء والغداء، والحفلات الساهرة، وانقاد بتيار لايقهر في دوامة من الملذات والأعمال السهلة، دون أي تخطيط، فقدرة التخطيط وسط تعقيدات الحياة هي سمة الإرادات القوية، وهي سمة لاتظهر لدى الشعراء، أو الأشخاص الضعفاء، أو المنصرفين إلى الفكاهة كلياً. وغدا لوسيان كمعظم الصحفيين يعيش ليومه دون أن يفكر بغده، ينفق ما يكسبه من مال دون أن يفكر بتكاليف الحياة الباريسية الدورية التي تثقل كاهل هؤلاء البوهيميين، وهو في هندامه ومظهره ينافس أشهر غندور، فكورالي مثل جميع المتزمتات، تحب أن تجمل معبودها، فهي تنفق كل مالديها لتؤمن

لشاعرها العزيز هذا المتاع النفيس المميز للمتأنقين الذي نظر إليه بإعجاب واشتهاء خلال نزهتهما الأولى في التويلري، وهكذا حصل لوسيان على عصي رائعة، ومنظار خلاب، وأزرار من ألماس، وحلقات لربطات عنقه صباحاً، وخواتم ذات فصوص منقوشة، وأخيراً صداري مدهشة عديدة لاختيار اللون المناسب منها لهندامه في كل مرّة. وهكذا بدا غندوراً في يوم تلبيته لدعوة الدبلوماسي الألماني، وأثار تحوله نوعاً من الغيرة المكبوتة لدى الشباب المدعوين للمأدبة، والذين يحتلون مركز الصدارة في مملكة الأزياء، مثل دي مارسي، وفاندنس، وأجودا - بانتو، ومكسيم دي تراي، وراستينياك. والدوق دي موفرينيوز، وبودنور، ومنرڤيل الخ، فرجال الطبقة الاجتماعية العليا ينتابهم الحسد مثل النساء، ورتّب مكان لوسيان على المائدة بين ضيفتي الشرف الكونتيسة دي مونكورنه والمركيزة دسبار اللتين غمرتاه بتودداتهما.

سألته المركيزة: «لماذا ابتعدت عن العالم الراقي، وكان مستعداً لاستقبالك والاحتفال بك. من حقي أن أخاصمك، إذ توقعت أن تزورني، ومازلت انتظر زيارتك. ولاحظت وجودك منذ مدة قريبة في الأوبرا، ولم تكلف نفسك الحضور لرؤيتي بل لم توجه لي التحية.

أجاب: إن نسيبتك ياسيدتي قصدت تماماً صرفي . . .

قاطعته السيدة دسبار سريعاً بقولها: أنت لاتعرف طبع النساء، فقد جرحت القلب الأكثر ملائكية وأنبل نفس عرفتها. أنت تجهل كل ما أرادت لويز أن تفعله لأجلك، ومدى الدقة في مخططها. وأردفت بعد أن لاحظت إنكاراً صامتاً من لوسيان، وقد نجحت فزوجها قد تُوفي الآن، كما كان متوقعاً من عسر الهضم. ألم تكن هي تنتظر عاجلاً أو آجلاً ذلك لتستعيد حريتها؟ أتعتقد أنّها رغبت في أن تكون السيدة شاردون؟ ألا ترى أن لقب الكونتيسة دي روبمبره يستحق عناء الحصول عليه؟ فالحب تفاخر يجب أن ينسجم - وخاصة في الزواج - مع جميع التفاخرات الأخرى. إذ كنت أحبك حتى الجنون أي بما يكفي لأتزوجك، فإن من الصعب جداً

أن أسمّى السيدة شاردون، ألا توافقني على ذلك؟ إنك تعرف الآن صعوبات الحياة في باريس، وتعرف مدى الوسائل غير المباشرة التي يجب اللجوء إليها للوصول إلى الهدف. وبعد أعترف أن لويز طمحت إلى حظوة شبه مستحيلة بالنسبة لمجهول دون ثروة. لذلك وجب عليها ألا تهمل شيئاً. إنك رجل صاحب موهبة وذكاء، ولكن عندما نحب نريد للرجل المحبوب غير الذكاء، وأرادت نسيبتي أن تستغل شاتليه، هذا المثير للسخرية. . . وتوقفت للحظة ثم أردفت:

«إنني مدينة لك بالمسرات فمقالاتك ضده متعتني وأضحكتني كثيراً».

تاه لوسيان في تفكيره فهو ملم بخيانات وخدع الصحافة لكنه يجهل تلك العائدة للطبقة النبيلة، وهكذا وجب عليه، رغم فطنته أن يتلقى منها دروساً قاسية.

- قال وقد أُثير فضوله: عجباً ياسيدتي، ألا يتمتع مالك الحزين بحمايتكم؟

- ولكننا في وسطنا ملزمون بمجاملة ألد أعدائنا، وإبداء ارتياحنا لأكثر الناس إزعاجاً لنا، وغالباً مايُضحّي أحدنا بالابتعاد عن أصدقائه ليتمكن من تقديم الخدمات لهم. يبدو إذن أنك ماتزال جديداً؟ فكيف تجهل، وأنت الذي يريد الكتابة، خُدع المجتمع الجارية؟ لئن تبدو نسيبتي مضحية بك لمالك الحزين، ألايجب أن تدرك أنها تفعل ذلك من أجل استغلال تأثيره وهو رجل مرموق المكانة في الوزارة الحالية، كذلك بينا له أن تهجماتك عليه تفيده إلى حدّ ما، كعذر لنتمكن من إصلاح ذات البين بينكما، وكتعويض لشاتليه عن اضطهاداتك. وكما قال لوبو للوزارء: بينما تتناول الصحف شاتليه بالسخرية فإنها تضرب صفحاً عن الوزارة.

عندما أنهت المركيزة كلامها انصرف لوسيان إلى التفكير، لكن الكونتيسة دي مونكورنه بادرته من ناحيتها بالقول: «أملني السيد بلونده بأنك ستشرفني بزيارتك وستلقى في منزلي بعض الفنانين، والكتاب، وامرأة يمتلكها شوق شديد للتعرف اليك هي الآنسة دي توش، إحدى هذه المواهب النادرة بين بنات جنسنا التي ستدعوك لزيارتها وستلبي الدعوة دون شك. فالآنسة دي توش، أو كميل

موبن إن أردت صاحبة الصالون الأكثر تميزاً في باريس، وهي الأكثر ثراءً وقيل لها إنك الأكثر وسامة وذكاء مما زادها رغبة للقائك.

لم يستطع لوسيان إلا أن يكثر من عبارات الشكر، وألقى على بلونده نظرة حسد، فالفرق مابين امرأة من نوع الكونتيسه دي مونكورنه وميزاتها وبين كورالي مثل الفرق بين كورالي وفتاة رصيف. فهذه الكونتيسة شابة ذكية، وجمالها خاص فقد ورثت بياض نساء الشمال عن أمها الأميرة شربلوف، وهكذا أسرف الوزير بتوجيه أقصى رعايته المكرمة لها قبل الجلوس إلى المائدة.

كانت المركيزة دسبار تمص باستخفاف جناح فروج أثناء حديث الكونتيسة دي مونكورنه مع لوسيان، واستأنفت المركيزة كلامها السابق معه قائلة:

«إن نسيبتي المسكينة لويز تكن لك كثيراً من المودة! وهي تسرُّ لي بما ترجو من مستقبل زاهر لك، وبما تحملته من أجلك، لكنها أحست بالإهانة لإعادتك رسائلها لها! إننا نغفر القساوة، فإيلامنا يشعرنا باستمرار الاهتمام بنا، أمّا اللامبالاة!... اللامبالاة مثل جليد القطبين تخنق كلّ شيء. هيّا ألا توافقني؟ إنك خسرت كنزاً ثميناً خطأً منك، لماذا فصمت علاقتك بها؟ حتى لو أبدي لك بعض الاستخفاف ألاتؤمّل بثروة تريد جنيها، وشهرة تعمل لاكتسابها؟ كانت لويز تفكر بكل ذلك.

- أجاب لوسيان: لماذا لم تذكر لي ذلك؟

- إيه! ياالهي، أنا من نصحها بعدم إفشاء سرّها لك. وبيني وبينك، توجست منك وأنا أرى عدم اختلاطك بالمجتمع: خشيت أن يعيق حماسك الطائش وعدم خبرتك حساباتنا ومخططاتنا أو أن يدمراها. هل يمكنك أن تتذكر الآن كيف كنت من قبل؟

ألا توافقني الرأي إن نظرت إلى «ليمك»(*)؟ لم تعد تشبهه أبداً، وهذا هو خطؤنا الوحيد ولكن هل يمكن أن نصادف رجلاً من ألفٍ يجمع إلى جانب الذكاء

(*) - الليم: شبه الرجل في شكله وقدّه وخلقه، يقال «هوليمه» أي شبهه في ماتقدم. (عن المنجد)

الفائق مثل هذه القابلية الرائعة على التوافق؟ لم أكن أعتقد أنك تملك هذا الاستثناء المدهش، تحولت بسرعة فائقة. وتوصلت بسهولة كبيرة إلى إدراك مبادىء السلوك الباريسي والتصرف وفقها حتى أنني لم أعرفك في غابة بولونية منذ نحو شهر.

كان لوسيان يصغي إلى كلام هذه السيدة الكبيرة بمتعة يتعذر وصفها. فقد جمعت إلى كلمات إطرائها مظهراً ملؤه الطمأنينة والكياسة، والسذاجة، حتى أنها بدت مهتمة به إلى درجة اعتقد فيها أنه حظي بمثل تلك المعجزة التي حدثت له ليلة أمسيته الأولى في البانورامار - دراماتيك فكل العالم يبتسم له منذ تلك الليلة السعيدة، ونسب إلى شبابه قدرة سحرية، وأراد عندئذ أن يختبر المركيزة وهو يعد نفسه بألا يؤخذ على حين غرة.

- سألها: ماهي إذن، ياسيدتي مخططاتكم التي تبدو لي الآن كالأوهام؟

- أرادت لويز أن تحصل لك على براءة ملكية تجيز لك حمل اسم ولقب دي روبمبرة وهي تريد أن تدفن شاردون، وكان تحقيق هذا الإجراء سهلاً في البدء، وهو بمثابة ثروة بالنسبة لك، لكنه غدا الآن شبه مستحيل بسبب آرائك. قد تحكم على أفكارنا بأنها رؤى وترهات، ولكننا على معرفة بالحياة وندرك مدى أهمية لقب كونت يحمله شاب أنيق، ذو وسامة رائعة. فإذا أعلن هنا أمام بعض الشابات الإنكليزيات المليونيرات، أو ممن ينتظرهن ميراث واسع الثراء، اسم السيد شاردون، أو اسم السيد الكونت دي روبمبرة، ألا تتوقع أن تكون ردة فعلهن مختلفة جداً؟ وفي حال الاضطرار إلى الاستدانة ألا يجد الكونت القلوب مفتوحة له، ووسامته مثل جوهرة في إطار نفيس، بينما لايلتفت أحد إلى السيد شاردون، نحن لم نخلق هذه الأفكار لكننا نجدها سائدة في كل مكان حتى بين البورجوازيين. إنك تدير الآن ظهرك للثروة. انظر إلى هذا الشاب الوسيم، الفيكونت فليكس دي فاندنس، أنه أحد أميني السرّ الخاصين للملك، والملك يحب الشباب الموهوبين، وعندما وصل هذا الشاب من مقاطعته إلى باريس، لم يكن متاعه أكثر ثقلاً من متاعك، بينما أنت تفوقه ألف مرة ذكاءً، ولكن هل تنتمي إلى عائلة كبيرة؟

هل تحمل اسماً نبيلاً؟ أنت تعرف دي لوبو، إن له اسماً مشابهاً لاسمك، شاردن لكنه لايبيع بمليون أرض مزرعته لوبو، إذ سيغدو يوماً كونت دي لوبو، وسيغدو حفيده على الأرجح نبيلاً كبيراً. إن تابعت سيرك على الدرب الخاطىء الذي تسلك فيه فستضيع. ترى أن السيد إميل بلونده أكثر تعقلاً منك؟ إنه في صحيفة تدعم السلطة، وهو حائز على رضى جميع القوى الحالية، ويستطيع أن يختلط بالليبراليين دون خطر، إنه يحسب حساباً لكل شيء، وهكذا سيصل عاجلاً أو آجلاً، وقد عرف كيف يختار رأيه وحماته، وهذه الحسناء المجاورة لك آنسة من آل تروافيل، من آنسبائها نائبان وعينان من أعيان فرنسة، وقد تزوجها أحد كبار الأثرياء تقرباً من عائلتها، وهي تستقبل نخبة القوم وذات نفوذ كبير، وتهز الوسط السياسي من أجل هذا الشاب السيد إميل بلوندة. إلى أين تسير بك كورالي؟ إلى الضياع، والإغراق في الديون والإرهاق من الملذات خلال بضع سنوات من الآن؟ إنك وضعت حبك في المكان غير المناسب، وأسأت ترتيب حياتك. هذا ماقالته لي المرأة التي تستمتع بإيلامها، عندما رأيناك لآخر مرة في الأوبرا. كانت تأسف لإفراطك في الإساءة لموهبتك ولشبابك الغض. لم تكن مهتمة بنفسها بل بما ينتظرك.

- هتف لوسيان آه! لو أن ماتقولينه صحيح ياسيدتي.

قالت المركيزة وهي تلقي على لوسيان نظرة باردة متعالية أربكته مجدداً: وأية مصلحة تراها لي في الأكاذيب؟ وتحولت عنه مغتاظة.

وعقلت الدهشة لسان لوسيان فلم يحر جواباً وأحس بخطئه فعزم على تداركه. والتفت إلى السيدة دي مونكورنه يحدثها عن بلونده مشيداً بمقدرة هذا الكاتب الشاب، ودهشت الكونتيسة لالتفاتته، ودعته بناءً على إشارة من السيدة دسبار إلى أمسيتها القادمة، وأنبأته أن السيدة دي بارجتون ستكون حاضرة رغم حدادها، فالسهرة ليست احتفالاً كبيراً بل هي لقاء يقتصر على الأصدقاء الخلص وسألته عن مدى ترحيبه باللقاء مع لويز.

- قال لوسيان: «إن السيدة المركيزة تزعم أن جميع الأخطاء قد بدرت من طرفي، ألم يكن من واجب نسيبتها حسنُ التصرف تجاهي.

- أوقف هذه الهجمات السخيفة الموجهة ضدها، والتي تثير الشبهات حول علاقتها برجل تسخر منه وبذلك تهيىء لتوقيع صلح معها. قيل لي إنك تعتقد أنها خدعتك، بينما أراها حزينة لهجرك إياها، أحقاً تركت مقاطعتها معك ومن أجلك؟»

استقبل لوسيان سؤال الكونتيسة بابتسامة، ولم يجرؤ على الجواب.

استأنفت الكونتيسة كلامها وهي تنظر إلى إميل بلونده خلسة: «كيف يمكنك إساءة الظن بامرأة تقوم بمثل هذه التضحيات من أجلك؟ فضلا عن أن امرأة بمثل جمالها وذكائها يجب أن تلقى عاطفة متجاوبة مع تقدير تضحيتها، وقد أحبت السيدة دي بارجتون مواهبك أكثر من حبها لشخصك. إذ أن النساء تحب ذكاء الرجل قبل حبهن لوسامته، ثق بذلك».

أدرك لوسيان وهو في قصر الوزير الفروق الموجودة بين مجتمع النخبة والمجتمع الاستثنائي الذي يعيش فيه منذ بعض الوقت، ولاحظ عدم وجود أي تشابه أو أية نقطة تماس بين المجتمعين على روعة كل منهما، فعلو الغرف وتوزعها في هذا القصر، وهو أحد الأكثر غنى في ضاحية سان جرمان، والزخرفات المذهبة القديمة في الصالونات، ووفرة الزينات والثراء الظاهر في كمالياته، وكل مافيه بدا له جديداً وغريباً، لكن الاعتياد السريع على مظاهر الترف التي ألفها منعته من إظهار دهشته، فرباطة جاشه كانت بعيدة عن الاعتداد بالنفس والغطرسة قدر بعدها عن المحاباة والمذلة. وكان تصرف الشاعر لبقاً أعجب أولئك الذين ما من سبب يدعو لمعاكستهم له، بينما زاد من حسد الشباب الذين فوجئوا ببروزه في مجتمع النخبة، وبنجاحاته، ووسامته. وعند قيام المدعوين عن المائدة قدّم ذراعه للمركيزه دسبار فتأبطتها مرحبة، وعندما رأى راستينياك تودد المركيزة له تقدّم منه مستشهداً بانتمائهما إلى منطقة واحدة، ومذكراً له بأول مقابلة لهما لدى السيدة دوڤال نوبل،

وبدا النبيل الشاب راغباً في التقرب من رجل مقاطعته الكبير بدعوته للغذاء في منزله في أحد الأيام، عارضاً تعريفه على شباب النخبة المتأنقين، وقبل لوسيان الدعوة والعرض.

قال راستينياك: سيكون العزيز بلونده معنا.

جاء الوزير لينضم إلى الزمرة المشكلة من المركيز دي رونكرول، والدوق دي رتوره، ومارسي والجنرال مونريفو، وراستينياك ولوسيان، وقال لهذا الأخير بطيبته الالمانية التي يخفي تحتها مكره الرهيب: «أقمت الصلح مع السيدة دسبار، وهذا أمر جيد جداً، وهي مسرورة منك، وأردف وهو ينظر إلى الرجال المتحلقين حوله، ونحن جميعاً نعلم كم من الصعب الحصول على رضاها.

- قال راستينياك: هذا صحيح، لكنها تعبد الذكاء ومواطني الشهير في طليعة المتميزين به.

قال بلونده بحماس: لن يتأخر كثيراً عن الاعتراف بخطأ الاتجاه السيىء الداعم له، وسيأتي إلينا ليكون عما قريب واحداً منا.

تشكلت حول لوسيان جوقة ممن يدعمون هذا الرأي، وأطلق الرجال الرصينون بعض العبارات العميقة المغزى بلهجة مستبدة، بينما راح الشباب يسخرون من الحزب الليبرالي.

- استأنف بلونده كلامه: إنني متيقن أنه لعب الطرة والنقش بين الانحياز إلى اليسار أو إلى اليمين، أما الآن فإنه سيشغل عقله في الاختيار».

انطلق لوسيان ضاحكاً وهو يتذكر المشهد بينه وبين لوستو في حديقة اللوكسمبورغ.

تابع بلونده: «اتخذ مرشداً له إيتيين لوستو وهو مُعارِك في الصحيفة الصغيرة يتقاضى خمسة فرنكات على العمود، وتقوم سياسته على الإيمان بعودة نابوليون،

وعلى شيءٍ ما يبدو لي أكثر حمقاً وهو الاعتراف بوطنية السادة أصحاب المبادىء اليسارية. لكن ميول لوسيان يجب أن تكون ارستقراطية على نهج سلفه روبمبرة، وكصحفي يجب أن يدعم السلطة وإلا لن يسمى روبمبرة ولن يوظف أميناً عاماً».

أثار لوسيان دهشة كبيرة عندما قدّم له الدبلوماسي ورق لعب، واقترح عليه الجلوس إلى طاولة لعب الوست فأعلن أنه لايعرف هذه اللعبة.

همس راستينياك في أذنه: «ياصديقي، تعال إلى منزلي في ساعة مبكرة من اليوم الذي سنتناول غداءنا الرديء معاً، وسأعلمك لعبة الوست التي تسيء إلى مدينتنا الملكية آنغوليم بجهلك إياها، وسأردد عليك قولاً ينسب إلى السيدة تاليران: أتوقع لمن لايعرف هذه اللعبة شيخوخة تعيسة جداً».

أعلن عن وصول دي لوبو، وهو مدير مكتب عرائض يقدّم خدمات سرية للوزارة، واشتهر بمكره وطموحه واندساسه في كل مكان، وحيا لوسيان بمظهر الصديق الودود وكان قد تعرف عليه لدى السيدة دوڤال نوبل، وتقرب متملقاً إلى الصحفي الشاب وهو يلقاه مجدداً في هذا الحفل، فالرجل في مجال السياسة يظهر تقربه لجميع الناس حتى لايؤخذ على حين غرة من أي شخص، وأدرك أن لوسيان سيحظى في المجتمع على مثل نجاحه في الأدب، ورأى في هذا الشاعر شاباً طموحاً فأحاطه بكل مظاهر الصداقة وتأكيداتها. وكل دلائل الاهتمام بطريقة يوطد فيها معرفتهما ويخدع لوسيان بأهمية وعوده وكلماته فمبدأ دي لوبو يقوم على توطيد صلته بأولئك الذين يريد التخلص منهم عندما يرى فيهم منافسين له[1]. هكذا استقبل لوسيان جيداً من قبل المجتمع الراقي، وفهم كل مايترتب عليه تجاه الدوق

(١) - يبدو أن نموذج دي لوبو الشخصية الروائية، كما كشفت السيدة مينينجه (في السنة البلزاكية ١٩٦١) هو لينجة الشخصية الحقيقية المقرفة، فأمين سر رئاسة الوزارة المكلف بإدارة العلاقات مع الصحافة بدأ عمله في العام ١٨١٥ وتحول سريعاً إلى عميل مضاعف في كل الوزارات، وكان تارة على رأس صحيفة معارضة، وتارة مراقباً أو محركاً لصحيفة «مدعومة» لقبض الإعانات من الأموال السرية وستلعب شخصية دي لوبو بسهولة دورها في تآمر النخبة ضد لوسيان، وظهر هنا في نبذة أضافها بلزاك إلى المخطوطة ليقيم جسراً بين رواية **أوهام ضائعة** ورواية **المستخدمين**.

دي رتوره، والوزير، والسيدة دسبار، والسيدة دي مونكورنه، وانطلق يتحدث مع كل من هاتين المرأتين لبضع لحظات قبل مغادرة المكان وبسط أمامهما كل ظرف روحه.

- قال دي لوبو للمركيزة بعد أن ودعها لوسيان: أي زهو!

- وقال دي مارسي للمركيزة مبتسماً: سيتلف قبل أن ينضج، يجب أن يكون لديك أسباب خفية لتدويخه هكذا.

وجد لوسيان كورالي في صدر عربتها وهي تنتظره في فناء القصر، وتأثر لهذه الرعاية وقص عليها أحداث أمسيته، ولاحظ مندهشاً أن الممثلة تؤيد الأفكار الجديدة التي تدور في رأسه، وشجعته بشدة على الانضواء تحت الراية الوزارية.

- قالت له: «لاتتوقع إلا تلقي الضربات بتأييدك لليبراليين، إنهم يتآمرون. وقد قتلوا الدوق دي برّي، لكن هل سيتمكنون من إسقاط الحكومة؟ أبداً! لن تكسب شيئاً معهم، بينما ستغدو الكونت دي روبمبره بانحيازك للطرف الآخر، وتستطيع تقديم خدمات، وتسمى عيناً من أعيان فرنسة، وتتزوج امرأة ثرية. كن من الملكيين المتطرفين. ثم أضافت وهي تطلق الكلمة التي تراها فصل الخطاب: إنهم النوع الملائم. فالسيدة ڤال - نوبل التي تناولت العشاء لديها منذ مدّة قريبة، أخبرتني أن السيد تيودور غايار أسس بالفعل صحيفته الصغيرة الملكية المسماة **اليقظة** للرد على سخريات صحيفتكم وسخريات صحيفة المرآة، وبناءً على مايرد في اليقظة فإن السيد فيليل وحزبه سيرأسان الوزارة خلال سنة من الآن[1]، فحاول أن تستغل هذا التغير بالانضمام إليهما وهما خارج الحكم، ولكن لاتقل شيئاً لإيتيين أو لأصدقائك ممن يمكنهم أن يعدوا لك مقلباً.

بعد ثمانية أيام قام لوسيان بزيارة السيدة دي مونكورنه، وأحسّ بانفعال يهز كيانه وهو يرى مجدّداً المرأة التي أغرم بها منذ البدء، والتي أدمى قلبها بسخريته.

---

(١) - استقال ريشليو في ١٢ كانون أول ١٨٢١، وشكل فيليل الوزارة في الشهر نفسه، فالمشهد يقع إذن في النصف الأول من كانون أول على وجه التقريب.

وقد تحولت لويز بدورها أيضاً! فغدت ماقُدر لها أن تكون بعد إقامتها في المقاطعة، سيدة جليلة. بدا في حدادها ظرف وتأنق ينبئان بحياة أرملة سعيدة، وخيل للوسيان أنه المقصود بتكلف بعض هذا التأنق، ولم يكن مخطئاً، لكنه كان مثل الغول الذي تذوق طعم اللحم الغض الطازج، وبقي طوال السهرة متحيّراً بين كورالي الفاتنة، العاشقة، والشهوانية، وبين لويز القاسية، الجافة، والمتعالية، لايعرف إلى أي طرف ينحاز، وهل يضحي بالممثلة من أجل السيدة النبيلة. وأحست السيدة دي بارجتون مجدداً بحب لوسيان وهي تراه بمثل هذا الظرف والوسامة وانتظرت قيامه بهذه التضحية، وتكبدت من أجلها الجهود، والكلمات المخادعة، ومظاهر المغناج اللعوب، لكنها عبثاً حاولت وخرجت برغبة انتقام لارجعة عنها.

- قالت بطيبة مفعمة بالنبل والظرف الباريسي: «وبعد ياعزيزي لوسيان، وجب عليك أن تكون مفخرتي، لكنك جعلتني أولى ضحاياك، لكنني غفرت لك، ياعزيزي، وأنا أعتقد أن في مثل هذا الانتقام بقية حُب».

استعادت السيدة دي بارجتون مكانتها بهذه العبارة المصحوبة بمظهر ملكي. وأحس لوسيان، بعد إيمانه بأنه محق ألف مرة، بالشعور بالذنب. وضَرَبْ صفح عن رسالة الوداع الرهيبة التي قطع علاقته مع السيدة النبيلة بموجبها، وكذلك عن أسباب قطع هذه العلاقة فالنساء النبيلات يمتلكن موهبة رائعة في تصغير أخطائهن وهن يتفكهن بها. ويمكنهن مسح كلّ مايتعلق بها بابتسامة، أو بسؤال مبطن بالدهشة ويجدن هذا الدور. وهن لايتذكرّن شيئاً، ويعللن كل شيء، ويستغربن، ويسألن، ويعلقن، ويبالغن، ويناوشن، وينتهين إلى مسح ذنوبهن كما تمسح لطخة وسخة بقليل من الصابون، ويعد ظهورها أمامكم ذنوباً يصعب غفرانها تغدو في لحظة مزاحاً، وكذبات بيضاء بريئة، أما أنتم فستكونون سعداء جداً لأنهن لم يلصقن بكم إحدى هذه الجرائم التي لايمكن الصفح عنها، وفي لحظة استعاد لوسيان ولويز أوهامهما الذاتية، وراحا يتكلمان بلغة الود، لكن لوسيان، الثمل بزهوه المشبع، المنتشي بحب كورالي، ولنعترف بأنها يسّرت له سبُل الحياة، لم

يستطع أن يجيب على هذا السؤال من لويز الذي أرفقته بتنهدة تردد: هل أنت سعيد؟ لو أجاب بكلمة لا الكئيبة لكان هو المحظوظ لكنه فضل أن يظهر ذكاءه ويعلّل حبّ كورالي له إعجاباً بشخصه، ويسترسل في سرد كل حماقات الرجل العاشق. وعضت السيدة دي بارجتون على شفتيها. لقد قيل كلّ شيء. وانضمت السيدة دسبار إلى نسيبتها مع السيدة دي مونكورنه، ورأى لوسيان نفسه، إن صحّ التعبير، بطل الأمسية، فالنسوة الثلاث يتوددن إليه، ويلاطفنه، ويحتفين به، ويخادعنه بفن لامتناه، فنجاحه في هذا المجتمع البراق الفاتن إذن لم يقلّ عنه في عالم الصحافة. وقامت السيدتان دسبار ودي بارجتون بتقديمه للحسناء الآنسة دي توش المعروفة باسم كميل موبن التي دعته إلى وليمة عشاء اعتادت أن تقيمها كل أربعاء، وبدت متأثرة بهذه الوسامة الشهيرة حقاً. وجرب لوسيان أن يبرهن عن ذكاء لايقل عن وسامته، وعبّرت الآنسة دي توش عن إعجابها بتلك السذاجة المرحة، وتلك النشوة الجميلة من الصداقة السطحية التي تستهوي جميع من لايعرفون الحياة الباريسية معرفة حقيقية حيث التعود على الملذات واستمراريتها يزيدان من التهالك على الجدّة.

– قال لوسيان لراستينياك ودي مارسي: إن أعجبتها بقدر ماتعجبني فسنختصر الرواية.

– أجاب راستينياك: كل منكم يجيد كتابة روايات لايحتاج فيها لبذل جهد، لكن هل يمكن نشوء حب بين مؤلفين؟ تمر على الدوام لحظة ما يتبادلان فيها الكلمات القارصة[1].

– قال له دي مارسي ضاحكاً: ليس حلمك سيئاً، صحيح أن هذه الفتاة الجذابة في الثلاثين من العمر، لكنها ذات دخل ثمانين ألف فرنك سنوياً، ويتميز

---

(١) – تمثل فليسيته دي توش، وفقاً لاعتراف المؤلف نفسه – إنما في **بياتريس** – جورج صاند، وقد بينا مايدين به لوسيان – على الأقل في قصة **الشاعرين** لصاندو. وطاب لبلزاك هنا أن يقابل بين العاشقين في وضع خيالي، لكنه يهيء بهذا الوضع مناخاً لقراء رواية **بياتريس** كما سبق له أن فعل بالنسبة **للمستخدمين**، **والمتصيدة**، **ولويس لامبر** الخ...

جمالها بطابع الديمومة وهي مستظرفة في نزواتها، وكورالي ياعزيزي حمقاء صغيرة، جيدة لتقدير مكانتك، إذ لايجوز لشاب وسيم مثلك أن يبقى دون خليلة، لكن الممثلة ستعود بالضرر، مع الزمن، عليك إن لم تقم بغزوة ظافرة لقلب إحدى فاتنات المجتمع. فهيا ياعزيزي، اقتلع كونتي الذي سيغني مع كميل موبن لتحلّ محله. فالشعر أسبق من الموسيقى في كل زمن.

تلاشت آمال لوسيان عندما استمع إلى الآنسة دي توش وكونتي، وقال لدي لوبو: «إن كونتي يجيد الغناء».

عاد لوسيان إلى السيدة دي بارجتون التي صحبته إلى الصالة التي تجلس فيها السيدة دسبار، وقالت لها: «وبعد ألا تريدين الاهتمام بشأنه؟».

ردت المركيزة بلهجة يمتزج فيها اللطف بالقحّة: لكن على السيّد شاردون أن يكون في وضع يمكن فيه لحماته رعايته دون محذور، فإن أراد الحصول على البراءة الملكية التي تتيح له أن يتخلى عن كنية والده البائسة لينتسب إلى كنية أمه النبيلة: ألايجب عليه أن يكون واحداً منا؟

- قال لوسيان: خلال شهرين سأرتّب كل شيء.

- قالت المركيزة: حسن سأكلّم والدي وعمي العاملين تحت الإدارة الملكية، ليراجعا رئيس الديوان الملكي بشأنك.

خمّن الدبلوماسي وهاتان المرأتان النقطة الحساسة لدى لوسيان فهذا الشاعر المفتتن بالأبهات الإرستقراطية كان يعاني قهراً لايوصف من مناداته باسم شاردون، بينما لا يرى في الصالونات التي يرتادها إلا رجالاً يحملون أسماء رنانة ترصعها ألقاب النبالة، كما شعر أيضاً بإحساس مزعج دون عودة إلى ممارسة شؤون مهنته بعد أن قضى السهرة مختلطاً بنخبة المجتمع حيث ظهر بالشكل اللائق مصحوباً بخدم كورالي في عربتها الفخمة، كما أنه تعلم أصول الفروسية وركوب الخيل ليتمكن من الجري بحصانه مرافقاً عربات السيدة دسبار والآنسة دي توش

والكونتسة دي مونكورنه، وهي حظوة طالما رغب بها عند وصوله إلى باريس، وكان فينو مغتبطاً لأنه استطاع أن يؤمن لمحرّره الرئيس دخولاً مجانياً دائماً إلى الأوبرا حيث أضاع أمسيات عديدة لكنه عُدّ منذ ذلك الحين منتمياً إلى العالم الخاص الذي يرتع فيه أنيقو ذلك العصر. وإذا كان الشاعر قد أراد تكريم راستينياك وأصدقائه بدعوتهم إلى حفل غداء عامر فقد ارتكب خطأ جسيماً بإقامته لدى كورالي فهو في مطلع الشباب وزهو الشاعرية وملء الثقة بحيث غابت عنه بعض دقائق السلوك فهل يمكن لممثلة، على كونها فتاة فائقة الطيبة، إنّما دون ثقافة، أن تعلمه الحياة؟ وبرهن الريفي، بالطريقة الأكثر جلاء، لهؤلاء الشباب ذوي النوايا السيئة تجاهه، على توافق مصالح بين الممثلة وبينه يحسده عليه سراً كلّ شاب ويشهّر به علناً، وكان راستينياك الأكثر قسوة في السخرية منه في أمسية اليوم ذاته، رغم أن مكانته في المجتمع تعتمد على وسائل مماثلة[1]، إنما مع المحافظة جيداً على المظاهر التي تمكنه من معالجة الغيبة والنميمة. وتعلّم لوسيان بسرعة لعبة الوست، فغدت هواية لديه. ولتتجنب كورالي كل منافسة، وهي أبعد من أن تستهجن تصرّف لوسيان، قامت بمحاباة تبذيراته بالعمى الخاص بالعواطف الكلية التي لا ترى إلا الحاضر، وتضحّي بكل شيء حتى بالمستقبل لمتعة اللحظة الآنية، فسمَة الحب الحقيقي تبدي تشابهات ثابتة مع الطفولة؛ ففيه عدم التفكير، وعدم الاحتراس، والتبذير، والضحك، والبكاء.

في تلك الحقبة ازدهرت جمعية الشباب الأغنياء والفقراء، البطّالين، يُسمون العيّاشين وهم في الواقع يعيشون بلا مبالاة لا تُصدق، أكولين شرهين، وشرّيبين سكّيرين، وكلهم من مبذري المال الذين يجمعون بين أمرّ أنواع السخريات وهذا العيش غير الأحمق، إنّما الأهوج، وهم لا يعرفون المستحيل ولا يتراجعون أمام أيّة عقبة، ويفخرون بالمضرة، لكنهم يقفون عند بعض الحدود: فالظروف الأكثر أصالة تبرّر مغامرتهم حتى ليغدو من المستحيل عدم الصفح عنها، وكلّ حدَث يشير صراحة بأصابع الاتهام إلى الملكية الثانية التي أدانت الشباب. فالأشخاص في

(١) من المعروف، وخاصة في **رواية الأب غوريو** أن راستينياك هو عشيق البارونة دي نوسنجن.

مقتبل العمر الذين لايعرفون كيف يستخدمون قواهم لم يقتصروا على الصحافة فقط، وعلى المؤامرات، ومحاولات الأدب والفن، بل راحوا يبذرونها في شطط غريب مادام يتوفر النُّسُغ والقُدُرات الممرعة في فرنسة الفتيَّة. وهذه الشبيبة الجميلة أرادت في العمل السلطة والمتعة، وفي الفن الكنوز، وفي البطالة إحياء العواطف؛ وتريد مكاناً بأية طريقة، والسياسة لن تهيِّيء لهم أيّ مكان، والعياشون أشخاص يتمتع معظمهم بقدرات مرموقة، وقد أضاعها بعض منهم في هذه الحياة الموتّرة للأعصاب، بينما صمد بعضهم الآخر فيها. وأشهر هؤلاء العياشين، وأذكاهم، راستينياك، وقد انتهى بمسعى من دي مارسي إلى تقلّد وظيفة هامة وتميّز بحسن إدارته لشؤونها[1]؛ وغدت الفكاهات التي تداولها هؤلاء الشباب شهيرة حتى أن عدة تمثيليات مرحة اعتمدت عليها. وانخرط لوسيان في جمعية المبذرين هذه بتشجيع من بلونده، وتفوّق فيها إلى جانب بيكسيو أحد الشخصيات الأكثر مشاكسة، وساخر هذا الزمن الذي لايملُّ. وهكذا كانت حياة لوسيان طوال الشتاء نشوة طويلة لاتقطعها إلا بعض أعمال سهلة في دنيا الصحافة، إذ استمر في سلسلة مقالاته الصغيرة وقام بجهود كبيرة بين فينة وأخرى لتدبيج بعض الصفحات الشيّقة في نقد معمّق. لكن الدراسة كانت استثناء عنده، ولم ينصرف إليها إلا عند الضرورة، فولائم الغداء، ودعوات العشاء وحفلات المتعة، وسهرات المجتمع، وموائد اللعب كانت تشغل معظم وقته، وكورالي تلتهم الباقي. وامتنع لوسيان عن التفكير بالغد، إذ رأى أن أصدقاءه المزعومين يتصرفون مثل تصرّفه؛ ويسعون للحصول على تكليف بكتابة النشرات الدعائية لدور النشر التي تدفع لهم أجوراً عالية، ويتتبّعون المكافآت التي تمنح لقاء بعض المقالات الضرورية للمضاربات المتهورة، وهم يأكلون مباشرة منها، ولايهتمون بالمستقبل. وما أن قُبل في ميدان الصحافة وعالم الأدب على قدم المساواة مع الآخرين حتى استشف الصعوبات

---

(١) يذكر من هؤلاء العيّاشين في عهد الملكية الثانية روكبلان، ولوتور - مزراري، وكان بلزاك يكّن للأخير إعجاباً كبيراً، ، قد عيِّن لوتور محافظاً لمدينة الجزائر، يمكن التساؤل عما إذا كان بلزاك بمنح اسم راستينياك لشخصية مُغفلَة قد أراد توقي تحديداً خاطئاً لشخصيته الروائية.

الهائلة التي يجب التغلب عليها إن أراد التفوّق؛ فكل واحد يرضى أن يكون مساوياً له، ومامن أحد يريده متفوقاً عليه؛ وهكذا تخلّى تدريجياً عن المجد الأدبي ظناً منه أن الحصول على الثروة السياسية أكثر سهولة ويُسراً.

قال له يوماً دو شاتليه بعد أن تصالح معه: «إن الدسائس أقل إثارة للأهواء المعاكسة من المواهب، فمناوراتها الصماء لا تنبّه أحداً. والدسيسة متفوّقة على الموهبة: فهي تكوّن شيئاً من لاشيء؛ بينما لا تؤدي الموارد الواسعة للموهبة، في معظم الأوقات إلا إلى تعاسة صاحبها.»

عبر هذه الحياة التي يتوالى فيها الغدُ دائماً على أعقاب العشيّة، وسط حفلة عربدة وسكر ولا يُنجَز فيه أبداً العمل الموعود به. تابع لوسيان إذن فكرته الرئيسة: المثابرة على ارتياد مجتمع النخبة، حيث يتودّد إلى السيّدة دي بارجتون، والمركيزة دسبار، والكونتيسة دي مونكورنه ولاتفوته سهرة من سهرات الآنسة دي توش، يصل إلى هذا المجتمع قبل بدء حفل المباهج، وبعد حفل عشاء ما يقيمه المؤلفون أو الناشرون، ويغادر الصالونات لوليمة ليلية، هي ثمرة إحدى المراهنات، وهكذا كانت ثمرة جهود السمر الباريسي والمقامرة تمتص البقيّة القليلة من الأفكار والقوى التي تركتها له تهتكاته؛ ولم يعد الشاعر يمتلك ذلك الصفاء الذهني ولا تلك الحصافة الضروريين لملاحظة ماحوله، وللتصرّف باللباقة المرهفة التي يجب أن يستخدمها محدثو النعمة في كل لحظة، وغدا من المتعذر عليه أن يعرف الأوقات التي تتودّد إليه فيها السيّدة دي بارجتون راضية؛ أو تبتعد عنه متكدّرة، ولا تلك التي تشمله فيها بصفحها أو تجدد إدانتها له. ولاحظ شاتليه الاحتمالات المتبقيّة لمنافسه، وغدا صديقاً له ليبقيه في الغفلة التي يبدّد فيها طاقته. ووجد راستينياك الحاسد لابن بلدته في البارون حليفاً موثوقاً وأكثر نفعاً من لوسيان فتبنى قضيته، وهكذا فبعد بضعة أيام من اجتماع مثيل بترارك مع لور آنغوليم أصلح راستينياك ذات البين بين الشاعر وغندور الامبراطورية السابق خلال وليمة ليلية في مطعم صخرة كانكال، وكان لوسيان الذي يعود من سهرته مع الفجر، ويستيقظ من نومه عند الظهر، قد استطاب هذا الحب الجاهز في المنزل، الملبي على الدوام لكل رغباته. وهكذا فإنّ نابض إرادته الذي أخذ يتراخى دون انقطاع بتأثير كسل يجعله

لامبالياً بالقرارات الجيدة المتخذة في اللحظات التي يستشف فيها الواقع الحقيقي لوضعه. هذا النابض تعطل تماماً ولم يَعُد يتجاوب مع ضغوط البؤس الأكثر شدّة.

وبعد أن كانت كورالي سعيدة جداً لرؤية لوسيان يلهو ويمرح وبعد أن شجعته على ذلك وهي ترى في مجونه ضمانات لاستمرار تعلّقه بها وللروابط التي تخلقها الضرورات، وتجرّأت وهي الناعمة الحنون، على أن تنبّه عشيقها إلى عدم نسيان عمله، واضطرت أن تذكره عدة مرات بأن دخله الشهري تضاءل كثيراً. وتراكمت الديون على العاشق وخليلته بسرعة مروّعة؛ فالألف وخمسمئة فرنك الباقية من ثمن ديوان **أزهار المرغريت**، والخمسمئة فرنك الأولى التي كسبها لوسيان أنفقت سريعاً. ولم يتعد دخل مقالاته خلال ثلاثة أشهر أكثر من ألف فرنك. رغم اعتقاده أنه أجهد نفسه بالعمل. لكن لوسيان يتبنّى الآن الاجتهاد القضائي الطريف المتعلّق بالديون، الذي يقول به العيّاشون؛ فهم يرون الديون حلوة لدى الشاب في سن الخامسة والعشرين، أما بعد ذلك فلن يسامحهم أحد عليها. والجدير بالملاحظة أن بعض النفوس الشاعرية حقاً، إنما الضعيفة إرادياً، تنشغل بشعور ضرورة التعبير عن أحاسيسها بالصور، ولكن ينقصها بشكل رئيس الوجدان الخُلُقي الذي يجب أن يرافق كل ملاحظة. والشعراء يفضلون أن يتلقوا بذاتهم الانطباعات بدلاً من أن يتحرّوا عنها لدى الغير ويدرسوا آلية العواطف المرافقة لها. وهكذا لم يسأل لوسيان العياشين عن تلك الفئة منهم التي غابت ولم ير مستقبل هؤلاء الأصدقاء المزعومين الذين حصل بعضهم على مواريث، ويؤمل بعضهم الآخر بمستقبل واعد؛ لهؤلاء مواهب معترف بها، ولأولئك الإيمان الذي لا يتزعزع بقدرهم والعزم العمد على تغيير القوانين. وآمن لوسيان بمستقبله معتمداً على أقوال بلونده المأثورة، كل شيء ينتهي إلى تسوية – من ليس لديه شيء لايفقد شيئاً – لايمكننا أن نخسر إلا الثروة التي نسعى إليها – بالسير مع التيار يمكن الوصول إلى مكان ما – الرجل الذكي وله موطئ قدم في المجتمع، يجمع ثروة متى أراد.»

كان ذلك الشتاء العامر بالمسرّات ضرورياً لتيودور غايار وهكتور مرلن لتأمين رأس المال اللازم لتأسيس صحيفة **اليقظة**، التي لم يظهر العدد الأول منها إلا في

آذار ١٨٢٢[١]، وبُحث هذا المشروع لدى السيدة دي ڤال - نوبل. وكانت هذه العاهرة الأنيقة الذكية التي قالت وهي تشير إلى غُرف شقتها الرائعة الفخمة: «هاهي حسابات ألف ليلة وليلة[٢]!» تمارس بعض النفوذ على المصرفيين، وكبار النبلاء، وكُتاب الحزب الملكي، وكلهم ممن اعتادوا الاجتماع في صالونها لمعالجة بعض القضايا التي لايمكن معالجتها إلا في صالونها. وكان هكتور مرلن الموعود برئاسة تحرير صحيفة **اليقظة** يرغب في الاعتماد على لوسيان معاوناً رئيساً له، بعد أن غدا صديقه الحميم، وكان لوسيان موعوداً أيضاً بتحرير إحدى الصحف الوزارية، وتهيأ هذا التغيّر الجبهي في موقف لوسيان خفية عبر ملذّات حياته؛ وظن هذا الفتى بإخفائه هذا الانقلاب المفاجئ أنه سياسي كبير، وعلّق أهمية كبيرة على النِعَم الوزاريّة لتسوية حساباته وديونه، ولتبديد هموم كورالي المكتومة التي كانت تحجب ضيقها خلف ابتسامة دائمة. لكن برنيس الأكثر جرأة كشفت حقيقة الوضع للوسيان، ومثل جميع الشعراء غير الناضجين تحرّكت مشاعر الشاعر للحظة أمام الفاجعة، ووعد بالعمل الجاد، لكنه نسي وعده، وأغرق همومه العابرة في تهتكه. وفي اليوم الذي لاحظت كورالي تقطيباً على جبين عشيقها أنبت برنيس، وذكرت لشاعرها أن كل شيء سيسوى. وكانت السيّدة دسبار والسيّدة بارجتون تنتظران تحوّل لوسيان إلى المبادئ اليمينية ليطلبا من الوزير بواسطة شاتليه، وفقاً لقولهما، إصدار البراءة المرغوبة حول تغيير الاسم. ووعد لوسيان أن يهدي ديوان **أزهار المرغريت** إلى المركيزة دسبار التي ازدهرت بتقدير نَدَر لدى المؤلفين بعد أن غدوا قدرة مرموقة. وعندما ذهب لوسيان إلى دوريا مساءً، وسأله إلى أين وصل نشر ديوانه أبدى المكتبي أعذاراً وجيهة لتأخير طبعه، فهو مشغول طوال الوقت بهذه

---

(١) اليقظة: مجلة علوم، وأدب، وتقاليد، ومسارح، وفنون جميلة، ظهر أولّ عدد منها في الواقع بتاريخ أول آب واستمرت حتى ٣٠آذار، وكانت كما قال عنها بلزاك مجلة صغيرة ملكية على نسق المجلات الأدبية الليبرالية.

(٢) أشار آ. آدم إلى ذات العبارة ولكنها تعود إلى زمن لاحق، وقد وردت في «الدبابير» لألفونس كار (كانون ثاني ١٨٤٠) وهي منسوبة إلى آنسة«***».

العملية أو تلك، كما أنه يطبع ديواناً جديداً لكاناليس ومن مصلحة لوسيان ألايحاول منافسة هذا الشاعر، وعدا عن أن **التأملات الجديدة**[1] للامارتين تحت الطبع، وديوانا شعر بمثل هذه الأهمية لايمكن مجابهتهما، وعلى المؤلف أن يثق بمهارة ناشره. ودفعت الحاجة الملحة لوسيان إلى اللجوء لفينو الذي أعطاه بعض المال سلفة على مقالاته، ولما شرح الصحفي الشاعر الوضع لأصدقائه العيّاشين مساء، وهم على مائدة منتصف الليل أغرق في دفقات من خمور الشمبانيا المثلجة بالنوادر والفكاهات همومه. الديون! مامن شخص قوي دون ديون! الديون تمثل حاجات مشبعة؛ وعيوب موجبة. وما من رجل يصل إلى النجاح إلا مدفوعاً بقبضة الحاجة الحديدية.

- هتف بلونده: بيت الرهونات يقدّم شكره للرجال الكبار!
- وقال بيكسيو: من أراد شيئاً وجبت عليه أشياء.
- ورد عليه دى لوبو: كلا من وجب عليه شيءٌ، تملّك أشياء.

عرف العيّاشون أن يبرهنوا لهذا الفتى أن ديونه ستكون المهماز الذهبي الذي ينخس فيه الخيول المشدودة إلى عربة الثروة المرجوّة. ثم ألم تبلغ ديون قيصر أربعين مليوناً، وفردريك الثاني ألم يكن يتلقى من والده دوقيّة واحدة كل شهر؟! ثم أن الأمثلة الشهيرة والمحرّفة عن كبار الرجال تظهرهم في عيوبهم، وليس في القدرة الكليّة لشجاعتهم أو لمفاهيمهم! أخيراً وضعت إشارة الرهن على خيول كورالي وأثاث بيتها من قبل عدة دائنين بلغت ديونهم أربعة آلاف فرنك. وعندما هرع لوسيان إلى لوستو ليطالبه مجدّداً بالألف فرنك التي استدانها منه أطلعه صديقه على أوراق مدفوعة تبين أن فلورين تعاني من ذات المشكلة، لكن لوستو المعترف بجميله عرض عليه أن يقوم بالمساعي الضرورية لنشر رواية **نبّال شارل التاسع**.

---

(١) ظهرت التأملات الجديدة للامارتين في أيلول ١٨٢٣ وهنا أيضاً، ودون التعرض إلى مفارقة تاريخية لم تفت على بلزاك قطعاً، يرد الخيّال ليفرض نفسه على الحقيقة، فكاناليس يشير في طبعة فورن المصحّحة إلى فيكتور هوغو وهذا التحول يبعد كل محاولة تحديد للشخصية أو للنموذج الحقيقي لكاناليس الروائي فهو أقرب إلى لامارتين تارة وإلى فيكتور هوغو أخرى الخ . . .

- سأله لوسيان: «ولكن كيف وصلت فلورين إلى هذا الوضع».

- أجاب لوستو: ارتعب ماتيفا فخسرنا موارده، ولو شاءت فلورين لدفع غالياً ثمن خيانته! سأقص عليك مجريات هذه القضية .

بعد ثلاثة أيام من مساعي لوسيان غير المجدية مع لوستو، جلس العاشق مع خليلته حزيناً قرب المدفأة في غرفة نومها الجميلة لتناول طعام الغداء، وقدّمت لهمابرنيس طبقاً من البيض المقلي أعدته على نار المدفأة، لأن الطباخ والحوذي والخدم تخلوا عن العمل لدى كورالي، ويتعذّر استخدام الأثاث المرهون، وليس لدى العاشقين أيّة حلية ذهبية أو فضية، أو أيه قيمة حقيقية. وكلّ شيء مبيّن لدى مكتب الرهونات بكشوف في كراس صغير من قطع الثمن يزيد كثيراً من ثقافة المدنيين. وقد أنقذت برنيس من الرهن أدوات مائدة لشخصين، وقدّمت الصحيفة الصغيرة للوسيان وكورالي خدَمات كبيرة بإسكات الخياطة وتاجرة القبعات عن مطالبتهما خشية أن يزعجوا الصحفي القادر على توجيه النقد لمتاجرهم وذمٍّ مصنوعاتهم. وحضر لوستو وهما على مائدة الغداء وهو يصرخ مهللاً: «ياللفرحة! يحيا **نبال شارل التاسع**، بيضت سمعة بعض الكتب، ياصديقي، مقابل مئة فرنك ألا نتقاسمها؟». وقدم لكورالي خمسين فرنكاً، وأرسل برنيس لتحضر غداء مغذياً؛ ثم استأنف حديثه قائلاً: «تداولت وهكتور مرلن مع بعض الناشرين، ومهّدنا السبيل لبيع روايتك بتلميحات بارعة. إنّك تتعامل مع دوريا، لكنه مقتّر شحيح، فهو لا يريد أن يدفع أكثر من أربعة آلاف فرنك من أجل ألفي نسخة، وأنت تريد ستة آلاف. وجعلنا منك روائياً أعظم مرتين من والتر سكوت. وأنت تعد الآن روايات لامثيل لها! وأنت لاتقدم كتاباً بل مشروعاً؛ أنت لست مؤلف رواية مبتكرة تقريباً، إنما ستكون مجمّعاً، وقد أحدثت كلمة مجمع تأثيرها؛ فلا تنس دورك إذن؛ ففي حقيبتك: **الأنسة الكبرى أو فرنسة في عهد لويس الرابع عشر - كوتيون الأول** أو **الأيام الأولى للويس الخامس عشر - الملكة والكردينال** أو **لوحة**

باريس أثناء حرب المقلاع - ابن كونسيني أو مؤامرة ريشيلو ! . . . وسيُعلن عن هذه الروايات على الغلاف[1] . إننا نسمي هذه المناورة تطويح النجاحات ونحن نلوح بكتابتها على الغلاف إلى أن تغدو معروفة، ويشتهر اسم المؤلف بالكتب التي لم يضعها أكثر من شهرته بالكتب التي أعدها . فعبارة **تحت الطبع** هذا الرهان الأدبي! هيّا ألا نضحك قليلاً؟ هوذا خمر شمبانية . أتدري يا لوسيان أن رجالنا قد فتحوا أعينهم مدوّرة كصحون فناجينك . . . أما تزال لديك هذه الصحون؟

- قالت كورالي : إنّها مرهونة .

- استأنف لوستو : أعلم ذلك وسأتابع : سيصدّق الناشرون بوجود مخطوطاتك إن عُرض عليهم واحد منها . ففي دور النشر تطلب رؤية المخطوطة، ويُدّعى بقراءتها . فلنترك للناشرين غطرستهم . فهم لا يقرؤون أبداً الكتب، ولو فعلوا لامتنعوا عن نشر كثير منها[2]؛ وقد أشعرناهم أنك تقبل بخمسة آلاف فرنك لقاء ثلاثة آلاف نسخة في طبعتين . أعطني مخطوطة **النبّال** فبعد غدٍ سنتغدى لدى الكتبيين، وسنتفوّق عليهم .

- قال لوسيان : من هم؟

- شريكان، شابان طيّبان، صريحان في أعمالهما، هما فندان وكاڤاليه، أحدهما هو المستخدم الأول سابقاً في دار نشر ڤيدال وبورشون، والثاني هو المندوب الجوّال الأكثر مهارة على رصيف ضفة الأوغسطينين، أسسا دارهما منذ

---

(١) سبق أن ذكرنا المشروع البلزاكي الكبير : تاريخ فرنسة الرائعة، وكانت المشاريع من هذا النوع متعدّدة منذ العام ١٨٢٣ وهنا يقوم الروائي بعمل المؤرخ ففي ٢٣ آذار١٨٢٣ مثلاً أعلن الطبّاع غوفيه عن رغبته في طباعة ١٥٠٠ نسخة لحساب تيولون دي لامبر من النشرة الدعائية فرنسة الرومنطيقية أو رواية تاريخية لملكية كل من ملوك فرنسة وهي تعد من قبل مجموعة من الأدباء . ويشبه هذا المشروع ماكان يفكر به بلزاك، بل ويمكن أن يكون بلزاك أحد مدعويه .

(٢) قبل ثورة ١٧٨٩ ، كانت ممارسة النشر مهنة تتطلّب كفاءات، ووفقاً لقول بلزاك لم تعد حالياً إلا حظوة، ومن هذا الوضع برزت أقوال غريبة منها، ليس ضرورياً أن يقرأ الناشر مخطوطة الكتاب الذي يشتريه .

سنة : وبعد أن خسرا قليلاً من رأسمالهما في نشر روايات مترجمة عن الإنكليزية، يريد هذان الجسوران الآن استثمار الروايات المحلية، وتسري إشاعة تفيد أن تاجري الأوراق السود هذين يجازفان بأموال الآخرين[1] فقط، لكنني أعتقد أنك لاتكترث بمعرفة مصدر الأموال التي ستعطى لك.

بعد يومين دعي الصحفيان للغداء في شارع سربنت الواقع ضمن الحي الذي كان يسكن فيه لوسيان سابقاً، كما أن لوستو يحتفظ دائماً بغرفته الواقعة في شارع القيثارة العائد للحيّ ذاته. وعندما حضر لوسيان ليصحب صديقه، رأى غرفته في ذات الحالة التي كانت فيها مساء ولوجه دنيا الأدب، لكنه لم يدهش لذلك. فقد كشفت له تربيته تقلّبات حياة الصحفيين. وقد أدرك كل شيء، وتلقى رجل المقاطعات الكبير ثمن أكثر من مقال، وتلاعب به، وفقده لفقدانه الرغبة في إعداده، وكتب أكثر من عمود وفقاً للطرائق الحاذقة التي وصفها له لوستو عندما هبطا من شارع القيثارة نحو الباليه - رويال. ثم وقع تحت تبعية باربيه وبرولار. فتاجَرَ بالكتب المقدمة للنقد والكتابة عنها في الصحيفة وبطاقات اكراميات المسارح، أخيراً لم يتراجع أمام أي مديح أو أمام أي تجريح؛ بل شعر في هذه اللحظة بنوع من السرور في أن يستجرّ من لوستو كل فائدة ممكنة قبل أن يدير ظهره لليبراليين ويتخلّى عن مبادئهم، واضعاً نصب عينيه مهاجمتهم بعد أن خبرهم وتعمق في دراستهم. كما تلقى لوستو من جهته على حساب لوسيان مبلغ خمسمئة فرنك نقداً من فندان وكاڤاليه عمولة لأنه جلب مثيل والتر سكوت لهذين الناشرين اللذين يسعيان إلى أديب فرنسي مماثل لسكوت. كانت دار نشر فندان وكاڤاليه إحدى هذه الدور التي تأسست دون أي رأسمال، كما تأسّس غيرها من قبل، وكما سيتأسس أمثالها مستقبلاً مادام الطبّاعون وتجار الورق يقدمون لأصحابها تسهيلات في الدفع والتقسيط خلال لعبة الورق هذه المؤلفة من سبع إلى ثماني جولات تسمى نشر كتاب. وهكذا وكما في وقتنا الحاضر، كانت المؤلفّات تُشترى من الكتّاب بموجب سندات تستحق التسديد بعد ستة أو تسعة أو اثني عشر شهراً وهو تسديد يعتمد على

(١) سيتم التعرّض لدور النشر وأنواعها عند دراسة الرواية.

طبيعة البيع بين دار النشر والمكتبات التجارية بموجب سندات لآجال أطول أيضاً. ودور النشر تدفع بدورها للمطابع ومتاجر الورق بذات الطريقة، وهكذاكانت تتراكم في دار النشر أحياناً خلال سنة، دزينة أو عشرين كتاباً يُمكِّن رواجُ اثنين أو ثلاثة منها صاحبَ الدار من دفع مستحقاته عن الكتب الرائج منها والكاسد ودعم داره بتطعيم كتاب على آخر. أما إذا كانت جميع العمليات مشكوكاً بها، أو شاء سوء حظّ بعض أصحاب الدور إصدار كتب جيّدة لكنها لاتباع إلا بعد أن تتذوّق وتُقدّر من قبل الجمهور الواعي، أو إذا كان حسم سنداتهم مكلفاً جداً، أو تعرضوا هم بالذات للإفلاس، فإنهم يتوقفون بكل هدوء عن الدفع خليي البال، متهيئين مسبقاً لهذه النتيجة، وهكذا فكل الاحتمالات لمصلحتهم، فهم يضاربون على المائدة الخضراء الواسعة بأموال الآخرين لا بأموالهم. وكان فندان وكافاليه في هذا الوضع. وجاء كاڤاليه معتمداً على مهارته التجارية لينضمّ إلى فِنْدان صاحب الخبرة العلمية. وتشكّل رأسمال الشركة الذي يستحقّ للغاية هذا اللقب من بضعة آلاف من الفرنكات جمعتها بمشقّة خليلتاهما، وخصّ كلّ منهما نفسه برواتب معتبرة منه، وأنفقاها بتحرّج على مآدب عشاء أقيمت للصحفيين والمؤلفين، وفي المسارح حيث كانت تتم مشاريعهما حسب أقوالهما. اعتبر نصفا المحتالين هذان ماهرين، لكن فِنْدان كان أكثر مكراً من كافاليه الجدير باسمه لكثرة أسفاره، بينما استقر فندان في باريس لإدارة الأعمال. وتحولّت هذه الشركة كما يتوقّع لها دائماً بين كتبيين إلى مبارزة. وشغل الشريكان الطابق الأرضي من أحد هذه الفنادق القديمة في شارع سربنت حيث أقاما مكتبهما في نهاية صالون واسع حولّ إلى مستودع، وقاما بنشر كثير من الروايات منها برج الشمال، وتاجر بنارس، وينبوع الضريح، وتكلي، وروايات غالت، المؤلّف الأنكليزي الذي لم ينجح كثيراً في فرنسة[1] ولفتَ نجاح

---

(١) يبدو واحد فقط من هذه العنوانين حقيقياً وهو تكلي عنوان ميلودراما لبيكسركور (١٨٠٣) كما أنها عنوان رواية مجهولة المؤلف. أما تاجر بناريس فاسم هجين من البائع المتجول، تأليف لجاي (١٨١٩)، وخطيبة بنارس تأليف فيلارت شاسل (١٨٢٤)، يمكن تقريب برج الشمال إلى برج باغ لجاي أيضاً. وقد قام لكونت ودوري (وهما ناشران لاوجه للشبه بينهما وبين فندان وكافاليه) بنشر ترجمة روايتين لجون كولت. هما سير اندرة ويلي (١٨٢٣) وليردس غريبي (١٨٢٤).

والتر سكوت انتباه الكتبيين إلى نتاج انكلترة فاهتموا جميعاً كنورمانديين حقيقيين بغزو انكلترة سعياً وراء مؤلفات والتر سكوت، كسعي تجار مواد رصف الطرقات فيما بعد، وراء الأسفلت في الأراضي الوعرة، والبيتوم في المستنقعات محققين بذلك أرباحاً على حساب مشاريع السكك الحديدية؛ فمن أكبر حماقات التجارة الباريسية السعي إلى النجاح عبر المماثلات بينما العكس هو الصحيح. وفي باريس خاصة يقضي النجاح على النجاح. وهكذا فتحت عنوان **الستركيتز** أو **روسية منذ مئة عام**، أدرج فَندان وكاڤاليه بكل جرأة وبأحرف كبيرة «**على نسق والتر سكوت**». وفندان وكاڤاليه ظامئان إلى النجاح إذ ممكن لكتاب جيّد أن يساعدهما على تصريف بالات كتب سابقة متراكمة لديهما، وقد أُغريا بفكرة الحصول على مقالات في الصحف كشرط أساسي لنجاح التسويق، إذ أن من النادر أن يتّم شراء كتاب بناء على قيمته الذاتية، وغالباً ما تمّ نشره بناءً على عوامل غريبة عن استحقاقه، ورأى فِندان وكاڤاليه في لوسيان الصحفي، وفي كتابه تدبيراً تؤمن مبيعاته الأولى إغلاقَ حسابات الشهر. ووجد الصحفيان الناشرين الشريكين في مكتبهما، والعقد جاهزاً، والسندات موقّعة، وقد أدهشت هذه السرعة لوسيان، وتأمل الناشرين فرأى فِندان رجلاً قصير القامة، ضعيف البنية، ذا سحنة مريعة: وجه أحد أفراد الكالموك[1]: جبهة ضيقة منخفضة، وأنف أخمص، وفم مزموم، وعينان صغيرتان سوداوان برّاقتان، ومحيط وجه مجعّد، ولون بشرة شاحب، وصوت يشبه خنين قرع جرس مصدوع، أخيراً كل مظاهر المحتال الماهر لكنَّه يعوّض عن مساوئه بأحاديثه المداهنة المعسولة فهو يصل إلى أغراضه بالمناقشة. أما كاڤاليه فهو فتى قصير سمين يبدو مثل سائق عربة لا كُتُباً، ذو شعر أشقر غريب ووجه متورّد عابقٍ، ورقبة ثخينة، وصوت المندوب التجاري المألوف.

قال فندان موجهاً كلامه للوسيان ولوستو: لاحاجة للمناقشة، قرأت المؤلف وهو أدبي جيّد ويلائمنا حتى أنني أحلتُ المخطوطة إلى المطبعة، ونُظم العقد وفق الأسس المتفق عليها، فنحن لانخرج أبداً عن الشروط التي حدّدناها لتعاملنا،

(١) الكالموك: شعب منغولي يعيش في روسية بين الدون الفولغا، وفي سيبيرية (المترجم).

وسنداتنا لستة أو تسعة واثني عشر شهراً، ويمكن حسمها بسهولة، وسنسدّد لك قيمة الحسم لاحقاً، وقد احتفظنا بحقّ إعطاء عنوان آخر للكتاب، فنحن لانحبّ **نبّال شارل التاسع** وهو عنوان لايثير فضول القرّاء، وعديدون بين ملوك فرنسة حَمَلَةُ اسم شارل، ورماة النبال كثيرون في العصر الوسيط! آه! لو قلت جندي نابليون! لكن نبّال شارل التاسع؟ . . . سيضطر كافاليه لإعطاء درس في تاريخ فرنسة كلما عرض نسخة من الكتاب في الأقاليم.

- وهتف كافاليه: لوتعرف الأشخاص الذين نتعامل معهم.

- واستأنف فنذان: ليكن العنوان سان بارتلمي* فهو أفضل.

- اعترض كافاليه قائلا: بل **كاترين دي مديسي**** أو **فرنسة في عهد شارل التاسع** إذ أنه أكثر شبهاً بعنوان لوالتر سكوت.

- قال فنذان: أخيراً سنحدده عند طبع الكتاب.

- قال لوسيان: كما تشاءان شريطة ملائمة العنوان للرواية»

قرئ العقد، ووقعّ، وتمّ تبادل النسختين، ووضع لوسيان السندات في جيبه بسرور لامثيل له، ثم صعد الأربعة إلى شقة فنذان حيث جلسوا إلى مائدة غداء عادية تشكلت أطباقها من المحار، وشرائح اللحم، والكلي المطبوخة بنبيذ شامبانية، وجبنة بريّ مرفقة بخمور فاخرة أحضرها كافاليه الذي يعرف أحد مندوبي تجارة الخمور. وحضر الطباع الذي عهد إليه بطباعة الرواية ليفاجئ لوسيان على الغداء بالملزمتين الأوليين من كتابه.

* سان بارتلمي: اسم اطلق على المذبحة العامة التي نفذت بأمر من الملك شارل التاسع ضد البروتستانت بتحريض من أمّه كاترين دي مديسي والدوق دي غيز وأخيه الكاردنال ليلة ٢٣آب١٥٧٢ وبلغ عدد ضحاياها نحو ٣٠٠٠ بروتستانتي، وكانت بدءحرب أهلية في فرنسة.

** كاترين دي مديسي: (١٥١٩ - ١٥٨٩): ابنه لوران الثاني دي مديسي أمير فلورنسة، وزوجة هنري الثاني ملك فرنسة وأمّ ثلاثة ملوك على التتابع هم فرانسوا الثاني وشارل التاسع وهنري الثالث، عينّت وصية على العرش بعد موت ولدها الملك فرانسوا الثاني وتنصيب أخيه القاصر شارل التاسع ملكاً في العام ١٥٦٠ (المترجم).

- قال فنذان: «رأينا الإسراع في الطباعة، فنحن نعتمد على كتابك لأننا بأمسِّ الحاجة إلى تحقيق النجاح».

بدأ الغداء نحو الظهر ولم ينته قبل الساعة الخامسة مساءً.

- قال لوسيان للوستو: «أين نجد المال نقداً؟

- أجاب إيتيين: لنذهب لرؤية باربه».

سار الصديقان، يرنحهما السكرُ والحماس قليلاً، باتجاه رصيف الأوغوستينيين.

قال لوسيان للوستو: «دُهشت كورالي إلى آخر حدّ من الخسارة التي تعرّضت لها فلورين التي لم تحدّثها عن ذلك إلا البارحة، وعزَت السبب إليك، وبدت مغتاظة كثيراً حتى أنها تحدّثت عن تركك.

- أجاب لوستو دون أي اعتراض كاشفاً عن مكنونات قلبه للوسيان: هذا صحيح ياصديقي فأنت صديقي فعلاً، أقرضتني ألف فرنك ولم تطالبني بها إلا مرّة واحدة. احترس من المقامرة، لو لم أقامر لكنت سعيداً. إنني مدين لله وللشيطان، وأنا الآن ملاحق من قبل شرطة التجارة. أخيراً أنا مضطر عند ذهابي إلى الباليه رويال لإجراء دورات خطرة».

إجراء دورات في لغة العياشين يعني الانحراف عن مكتب دائن، أو تجنب المكان الذي يتوقّع مصادفته فيه، ولوسيان الذي لايمكنه السير بلا مبالاة في جميع الشوارع يعرف هذه المناورة، لكنه يجهل اسمها.

- أكثيرة ديونك إذن؟

- إلى حد الإيلام، ولن ينقذني إلا الحصول على ثلاثة آلاف فرنك. أردت أن أصلح شأني، وأترك المقامرة، ورغبة في التخلّص من هذا المأزق قمت ببعض أعمال الابتزاز.

- سأل لوسيان الذي يجهل مدلول هذه الكلمة: وما هو الابتزاز؟

- الابتزاز كلمة من ابتكار الصحافة الانكليزية، واستوردتها فرنسة حديثاً.

والمبتزون أشخاص متمركزون بطريقة يؤثرون بها على الصحف، ولكن مامن مدير صحيفة أو رئيس تحرير عُدَّ مشتركاً في الابتزاز، يوجد أشخاص من أمثال جيرودو وفيليب بريدو يعثرون على شخص لايريد أن تثار أمور يخفيها لبعض الأسباب، فضمير كثير من الأفراد مثقل ببعض هفوات مبتكرة تقريباً، وفي باريس كثير من الثروات المشبوهة المكتسبة بطريقة أكثر أو أقلّ شرعية، وغالباً بمناورات جرمية، وهي تتيح الفرصة لطرائف شيقة مثل درك فوشيه الذين أحاطوا بجواسيس محافظ الشرطة، وهم غير مطلعين على سرّ تزييف أوراق النقد الانكليزية، وقبضوا على الطبّاعين المتخفين المحميين من قبل الوزير؛ ثم قصة ألاميس الأمير غالاتيون، وقضية موبروي، وميراث بومبريتون[1] إلخ . . . ومبتز المال يتزود بورقة ماهي وثيقة هامة، ويطلب موعداً من الرجل المغتني، فإذا لم يقدّم هذا الرجل المتورّط مبلغاً ما، فإن مبتز المال بالتهديد يبين له أن الصحافة مستعدّة للنيل منه، وكشف أسراره ويخاف الرجل الغني ويدفع. ويتمُّ المقلب. إنّك تقوم بعملية خطرة، يمكن أن تستدعي سلسلة من المقالات: وينُتدب لك مبتّز بالتهديد يقترح عليك شراء المقالات. وهناك وزراء يرسل لهم مبتزّون يتفقون معهم على أن تهاجم الصحيفة تصرفاتهم السياسية، لاأشخاصهم، أو يسلمون شخصهم ويطلبون عدم النيل من خليلتهم. إن دي لوپو معلّم العرائض الماهر الذي تعرفه منشغل على الدوام بهذه الأنواع من المفاوضات مع الصحفيين وتمّكن الماكر أن ينشئ لنفسه مقاماً معتبراً في مركز السلطة نتيجة علاقاته، فهو في آن واحد مندوب الصحافة وسفير الوزراء،

---

(١) محافظ الشرطة المنافس لفوشيه هو دوبرا، والأمير غالاتيون - وكذلك الأميرة - هما من الشخصيات الثانوية في **الملهاة الإنسانية**، والمركيز دي بومبريتون الذي يفترض أنه أعاد للفارس دي ڤالوا (في رواية **العانس**) ١٢٠٠ بيستول استعيرت قبل هجرة النبلاء، ولم تكن إلا ابتكاراً من الفارس ليخفي معيشته من أرباح المقامرة الزهيدة. أما موبروي، فهو المركيز أورڤو (١٧٨٤ - ١٨٦٨) الذي كلّف من قبل تاليران في العام ١٨١٤ ليستولي على مجوهرات ملكة وستفالية، فاحتفظ هذا المغامر بقسم من الغنيمة.

وهو يتحايل على المغرورين بل يبسط هذه الحيلة لتشمل القضايا السياسية، فيحصل من الصحف على صمتها تجاه قرض ما، أو التزام مُنح دون منافسة، أو دعاية يعطى قسم منها إلى جشعي المصرف الليبرالي، إنك لجأت إلى شيء من الابتزاز مع دوريا فحصلت منه على ثلاثة آلاف فرنك ليمنعك من التنديد بناتان. وفي القرن الثامن عشر حين كانت الصحافة في مرحلة الطفولة؛ مورس الابتزاز بواسطة رسائل وقصائد هجاء لا تُتلف إلا بعد شرائها من قبل المحظيّات أو كبار النبلاء. ومبتكر الابتزاز آرتين[1]، الرجل العالي المقام في إيطالية، الذي كان يفرض إرادته على الملوك كما تفرض الصحيفة في وقتنا الحاضر رأيها على الممثلين.

- ماذا عملت ضد ماتيفا ليحرمك من ثلاثة آلاف فرنك؟

- عملت على مهاجمة فلورين في ست صحف، واشتكت فلورين لماتيفا الذي كلّف برولار في اكتشاف سبب هذه الهجمات، واحتال فينو على برولار الذي قال للعطار إنّك تندّد بفلورين لمصلحة كورالي، أما أنا فكنت أقوم بعملية ابتزاز لمصلحة فينو، جاء جيرودو بموجبها يقول سراً لماتيفا أن كل شيء يسوّى إذا أراد بيع حصته في المجلة البالغة السدس لفينو بمبلغ عشرة آلاف فرنك، ووعدني فينو بثلاثة آلاف فرنك في حال نجاح الصفقة، وكاد ماتيفا يوقّع عقد البيع وهو سعيد لاستعادة عشرة آلاف فرنك من الثلاثين ألف فرنك التي بدت مجازفة، إذ أن فلورين ردَّدت على مسامعه لعدة أيام إنَّ مجلَّة فينو سائرة إلى الفشل وبدلاً من أن يتلقى عائدات سيتعرَّض لطلب دعم لرأسمال المجلة؛ لكن مدير بانوراما -

---

(١) آرتين ARÉTIN، بيترو (١٤٩٢ - ١٥٥٦): كاتب إيطالي ولد في آريزو، مؤلف هجّاء فاجر، لكنه مليء بالحميّا. ويروى أن شارل كنت نفسه اشترى صمت هذا الكاتب الذي كان **يلقب مصدر البلاء للأمراء** والذي أشار إليه مدرسو القرن التاسع عشر: يمكن عَدُّه سيّد ومبتكر الابتزاز الأدبي، فأمكر صناع هذا النوع الإنتاجي حالياً أقزام أمام عملقته.

دراماتيك احتاج - قبل أن يعلن إفلاسه. إلى المفاوضة على بعض وثائق مجاملة، ولجأ للاستفادة من حسن توظيفها إلى ماتيفا، وأطلعه على المقلب الذي يعدُّ له فينو؛ فما كان من ماتيفا وهو التاجر الماكر، إلا أن تخلى عن خليلته، واحتفظ بسدسه، وتركني مع فينو نصيح قنوطاً. شاء سوء الحظ أن نهاجم رجلاً غير متمسك بخليلته، بائساً دون قلب أو روح، وللآسف فإن تجارة ماتيفا لا تتأثر بالصحافة، وبالتالي لايمكن مهاجمته من ناحية مصالحه، فالنقد لا يؤثر على عطّار كتأثيره على صانع قبعات أو تاجر أزياء، أو على المسارح والشؤون الفنية. ولايمكنه أن يقلل في وضع ميئوس منه، فالبانوراما ستغلق أبوابها غداً[1] وهي لاتعلم ماذا سيحلُّ بها.

قال لوسيان: عقب إغلاق المسرح، ستبدأ كورالي عملها، خلال أيام، في الجمناز، ويمكنها أن تتوسط لفلورين لتعملَ معها.

قال لوستو: أبداً فكورالي ليست حادّة الذكاء، لكن لم يبلغ بها الحمق لتُدخل إلى مكان عملها منافسة لها! لقد مُنيت مشاريعنا بفشل ذريع، لكن فينو حريص على أن يستعيد سُدسه.

- لماذا.

- لأن المجلة ناجحة ياعزيزي ومن الممكن بيعها بثلاثمئة ألف فرنك، وباستعادة السُدْس يصبح مالكاً للثلث عدا ما يناله من عمولة يخصّصها له شركاؤه ويتقاسمها مع دي لوبو، وهكذا فإني مزمع أن أقترح عليه ضربة ابتزاز.

- لكن أيكون الابتزاز كيس النقود أو الحياة؟

- قال لوستو: أفضل من ذلك، فهو كيس النقود أو الشرف. فليلة ماقبل البارحة كتبت إحدى الصحف الصغيرة، بعد أن رُفض منح اعتماد لمالكها، خبراً

---

(١) لم تغلق أبوابها إلا في ٢١ تموز١٨٢٣ بينما المشهد الوارد أعلاه قد تمَّ في بداية آذار١٨٢٢، فبلزاك كعادته لا يتقيّد بالتاريخ الدقيق في رواياته.

يفيد أن الساعة الدّقاقة المحاطة بالألاميس العائدة إلى أحد أعيان العاصمة كانت موجودة بطريقة غريبة بين يدي جندي من الحرس الملكي، ووعدت برواية هذه المغامرة الجديرة بقصص **ألف ليلة وليلة**. وهرع العين إلى دعوة رئيس تحرير الصحيفة إلى العشاء، وقدّم له بالتأكيد إكرامية لكن التاريخ المعاصر خسر حكاية الساعة(١). وفي كلّ مرة ترى فيها الصحافة جادّة في إثر بعض الشخصيات الهامة، اعلم أن الخبايا حسميات مرفوضة أو خدمات لم تُقدّم. وهذا الابتزاز المتعلق بالحياة الخاصة هو أكثر مايخشاه الأغنياء الإنكليز وهو يشكل مورداً هاماً من الموارد السرّية للصحافة البريطانية وهي أكثر فساداً بما لايقاس من صحافتنا. فنحن أطفال مبتدئون بالنسبة لها؛ ففي انكلترة تشترى رسالة مثيرة للشبهة بخمسة أو ستة آلاف فرنك لاستغلالها وإعادة بيعها.

- سأل لوسيان: وإلى أية وسيلة ستلجأ للتأثير على ماتيفا؟

- استأنف لوستو: ياعزيزي، كَتَبَ هذا العطار الخسيس أكثر الرسائل إثارة للفضول إلى فلورين، فهي المهازل متجسّدة: بأخطائها الإملائية، وأسلوبها، وأفكارها. وماتيفا يخشى كثيراً امرأته، ويمكننا دون أن نسميه، ودون أن يتمكن من الشكوى، أن ننال منه وهو داخل منزله وبين أهله وذويه حيث يعتقد أنه في غاية الأمان. لك أن تحكم على غيظه وهو يرى المقال الأول الذي ينوّه برواية صغيرة تتعلق بآداب السلوك وهي بعنوان **غراميات عطار**، وعندما سينبّه بأمانة إلى المصادفة التي أوقعت بين يدي محرري هذه الصحيفة الرسائل التي يتحدّث فيها عن كوبيدون الصغير إله الحب، وترد فيها كلمة أبداً مكتوبة «قبدن»، ويقول فيها عن فلورين إنها تعينه على عبور صحراء الحياة، ممايدفع إلى الاعتقاد بأنه يرى جملاً

---

(٢) تمكنت السيّدة، مينينيجة من الاهتداء إلى هذه الحكاية (ونشرتها في مقال - السنة البلزاكية١٩٧٩)، كان بطلها المركيز دي كوستين مع جندي شاب من الحزب الملكي في العام ١٨٢٣.

صبوراً متحمّلا. أخيراً هناك مايُثير قهقهات المشتركين خلال خمسة عشر يوماً في هذه المراسلات الهزلية للغاية، وأثيرت مخاوفه حول وجود رسالة مغفلة تطلع زوجته على واقع هذه السخرية. هل تريد فلورين أن تبدو بمظهر الملاحقة لماتيفا؟ ماتزال متمسكة بالمبادئ أي الآمال، وربّما احتفظت بالرسائل لتنال نصيبها، فهي ماكرة، إنها تلميذتي. ولكن عندما ستعلم أنّ حَرَس التجارة ليس مزاحاً، وعندما سيقدّم لها فينو هدية مناسبة، أو ينعش آمالها بتعاقد، فسيسلمني الرسائل التي سأبيعها لفينو، وهو بدوره سيضعها بين يدي خاله الخبير بإخضاع العطّار وأمثاله».

هذه المسارّة وَعَّت لوسيان وجعلته ينتبه في البدء إلى أن له أصدقاء خطرين للغاية، ثم فكّر بضرورة عدم الاختلاف معهم، إذ إنه قد يحتاج إلى تأثيرهم الرهيب في حال إخلاف السيّدة دي بارجتون والسيدة دسبار وشاتليه بوعودهم له. وكان لوسيان وإيتيين قد وصلا آنذاك إلى رصيف الضفة ودخلا إلى دكان باربيه البائس.

قال إتيين للمكتبي: «باربيه، لدينا خمسة آلاف فرنك من فندان وكافاليه سندات لستة وتسعة واثني عشر شهراً؛ ألا تريد أن تحسمها لنا؟

قال باربيه بهدوء ثابت: آخذها لقاء ثلاثة آلاف فرنك.

صاح لوسيان مستغرباً: ثلاثة آلاف!

استأنف المكتبي: لن يعطيكما أحد مثل هذا المبلغ، فهذان السيدان سيفلسان قبل ثلاثة أشهر. لكنني أعرف أن لديهما مؤلفين جيّدين يصعب بيعهما ولا يمكنهما الانتظار، وسأشتريهما منهما نقداً وأسدّد قسماً من قيمة الشراء بسنداتهما، وبهذه الطريقة استرد مبلغ الألفي فرنك.

- قال ايتيين للوسيان: هل تريد أن تخسر ألفي فرنك؟

- صاح لوسيان مذعوراً من هذه الصفقة الأولى: كلاّ.

- أجاب إيتيين: إنّك على خطأ.

قال باربيه: لاتساوما على أوراقهما في أي مكان، فكتاب السيّد هو آخر ضربة حظّ لفندان وكافاليه، ولن يتمكّنا من طبعه إلا بترك النسخ في مستودع طبّاعهما ونجاح الكتاب سيمدّ في عُمر دار نشرهما ستة أشهر فقط، إذ إنّهما سيفلسان عاجلاً أم آجلاً، فهذان السيدان يحتسيان كؤوس المشروبات الروحية الصغيرة أكثر مما يبيعان من الكتب! وبالنسبة لي، تشكّل سنداتهما صفقة للتبادل والتقاص ولذلك أعطيكما قيمة أعلى من تلك التي يعرضها عليكما الحاسمون الذين سيسألون عن قيمة كلّ توقيع. ومتاجرة الحاسم تعتمد على قيمة التواقيع على السندات في حال إفلاس الموقّعين، وإذا كانت ثلاثة تواقيع تؤمّن ثلاثين بالمئة من قيمة السند على كل توقيع، فإن توقيعين كما هو الحال في سنداتكما لا يؤمن كلّ منهما إلا عشرة بالمئة».

تبادل الصديقان النظر مندهشين لسماع هذا التحليل يخرج من فم هذا المتحذلق متضمناً بقليل من الكلمات كل مضمون الحسم.

- قال لوستو: لاتتشدَّق بالكلام الفارغ يا باربيه، إلى أي حاسم يمكننا التوجه؟

- إلى الأب شابواسو على رصيف ضفة سان ميشيل، فهو الذي أجرى حسابات الشهر الأخير لفندان كما تعلمان فاذهبا إليه إن رفضتما اقتراحي، لكن إن عُدتما إليَّ بعد مراجعته فلن أدفع آنذاك إلا ألفين وخمسمئة فرنك.

ذهب إتيين ولوسيان إلى رصيف ضفة سان ميشيل حيث يسكن شابواسو أحد حاسمي دور النشر في مسكن صغير ذي ممر، ووجداه في الطابق الثاني يشغل

شقة مفروشة بالطريقة الأكثر غرابة. فهذا المصرفي الثانوي مليونير رغم عمله المحدود وهو يحب الطراز اليوناني، فافريز الغرفة يوناني؛ والسرير المجلّل بقماش مصبوغ باللون الأرجواني، والموضوع بالطريقة اليونانية محاذياً للجدار مثل خلفيّة لوحة لدافيد، بشكل أصيل الطراز، ويعود إلى زمن الأمبراطورية الذي يُصنّع فيه كلّ شيء بأناقة، فالكنَبات، والمنضدة، والثريات، وهي تنمُّ عن ظرف ناعم دقيق يعبّر عن أناقة العصر القديم. هذا النظام الميتولوجي الخفيف يشكل تبايناً غريباً مع طبع الحاسم، ويلاحظ أن الأشخاص الغريبي الأطوار موجودون بين الأفراد المنصرفين إلى تجارة النقود، فهؤلاء الأفراد، إذا صحّ القول، من متهتكي الفكر، إذ يمكنهم أن يمتلكوا كل شيء، وهم بالتالي لا مبالون بطبعهم، ويبذلون جهوداً هائلة للخروج من لامبالاتهم. ومن يعرف كيف يدرسهم يجد دائماً عادة غريبة أو زاوية من القلب يمكن الوصول إليهم منها. فشابواسو يبدو مقتطعاً من العصر القديم مثل معسكر حصين.

- قال! إيتيين للوسيان مبتسماً: إنه دون شكّ جدير بشعاره.

كان شابواسو رجلاً صغير القامة، ذا شعر مشوب بذرور أبيض، ومعطف مخضر، وصدار بلون ثمر البندق وهو يرتدي بنطالاً أسود قصيراً ترتفع على أسفل ساقيه جوارب موشّاة وينتعل حذاء يطقطق تحت قدميه. وقد تناول السندات وفحصها ثم أعادها بكل رزانة إلى لوسيان.

وقال بصوت ناعم هادئ: السيّدان فندان وكافاليه شابان ظريفان، يشعّان ذكاءً وفطنة لكنني أعاني من نقص السيولة النقدية.

- قال إيتيين: إن صديقي متساهل في نسبة الحسم.

أجاب الرجل القصير القامة وكلماته تنزلق على اقتراح لوستو مثل شفرة المقصلة على رأس محكوم بالإعدام، لا آخذ هذه السندات مهما كان ربحها.

انسحب الصديقان وهما يعبران البهو وشابواسو يقودهما بحذر، ولاحظ لوسيان مجموعة من الكتب معرو ضة فيه فالحاسم كتبي قديم ولديه عدد من الكتب لاحظ الروائي من بينها فجأة مؤلفاً للمهندس دو سرسو عن المنازل الملكية وقصور فرنسة الشهيرة التي رسمت مخططاتها في ذلك الكتاب بدقة كبيرة.

قال لوسيان: «هل تتخلى لي عن هذا الكتاب؟

قال شابواسو وقد تحوّل من حاسم إلى كتبي: نعم.

- وما ثمنه؟

- خمسون فرنكاً.

- إنه سعر مرتفع، ولكنه يلزمني، ولا وسيلة لدي للدفع إلا التي لاتريدها.

- لديك سند بقيمة خمسمئة فرنك يستحق بعد ستة أشهر. يمكنني أخذه. قال شابواسو الذي كان مترتباً عليه، على الأرجح، لفندان وكاڤاليه رصيد حساب قائمة بمبلغ مماثل.

عاد الصديقان إلى دخول الغرفة الإغريقية حيث أُجرى شابواسو كشف حساب صغير بحساب فائدة سنوية ستة بالمئة، وعمولة ستة بالمئة، مما يوجب حسم ثلاثين فرنكاً، يضاف إليها ثمن كتاب سرسو، ثم أخرج من صندوقه الممتلئ بالنقود أربعمئة وعشرين فرنكاً أعطاها للوسيان. الذي علق على ذلك بقوله: «آه! يا سيد شابواسو، السندات كلّها جيّدة، أوكلها رديئة، فلماذا لا تحسم لنا البقية؟

- انني لاأعتبر هذا حسماً، إنما هو تسديد عملية بيع.

أثارت معاملة شابواسو ضحك إتيين ولوسيان دون أن يفهماها، وكانا مايزالان يضحكان عندما وصلا إلى مكتب دوريا، وطلب لوستو من غابوسون أن يدلّهما على حاسم، وردّ هذا قائلاً: إنه سامانون الحاسم الخاص الأكثر غرابة، وإذا

لم يأخذ سنداتكما فلن تجدا من سيحسمها لكما. وزودّهما برسالة توصية، وأرشدهما إلى عنوانه، فاستقلا للحال عربة انطلقت بهما إلى سامانون في شارع بواسونيير.

كان الرجل الغريب الأطوار يعمل ورّاقاً في الطابق الأرضي، وتاجر ملبوسات في الطابق الأول، وبائع صور محظورة في الطابق الثاني، عدا عن أنّه مراب وفق رهنيات. ما من شخصية أُدرجت في روايات هوفمان، حتى ولا أنحس بخلاء والترسكوت يمكن مقارنته بما أتاحت الطبيعة الاجتماعية والباريسيّة خلقه في هذا الرجل، هذا إذا عُدَّ سامانون رجلاً. ولم يستطع لوسيان أن يكبح حركة ذعر اعترته لمرأى هذا العجوز المعروق، القصير القامة، الذي بدا وكأن عظامه تكاد تخترق الجلد المبقّع بعديد من الصفائح الخضراء أو الصفراء كأحد رسوم تيتيان أو پول ڤيرونير مرئية عن قرب. كانت إحدى عيني سامانون جامدة بلوريّة، والأخرى متوقدة برّاقة، ويبدو أن البخيل يستخدم تلك العين الميتة عند الحسم، ويستعمل الأخرى لبيع صوره الخَلاعيّة، وهو يغطي قحف جمجمته بشعر مستعار مسطّح ضيق يضرب سواده إلى الحمرة وتنتصب من تحته شعرات متناثرة بيضا، بينما يبدو جبينه الأصفر الشاحب مقطّباً كأنه يهدّد ويتوعَّد، وقد تخدّدت وجنتاه ببروز فكيه، وهو ما يزال محتفظاً بأسنانه الأمامية البيضاء التي تنكشف عنها شفتاه مثل مشفري حصان يتثاءب. وأعطاه التباين في عينيه وتكشيرة فمه مظهراً فيه بعض شراسة زادت من حدّتها شعرات لحيته القاسية والمدبّبة التي يمكن أن تخز كالدبابيس. ويبدو أنه رغب من زمن، في التعويض عن مظهره المشؤوم ببعض التزين في اللباس وبقي له منه ردَنغوت قصيرٌ بالٍ وصل إلى حالة من الأسمال المندوفة، وربطة عنق سوداء حال لونها ورثّت من احتكاك لحيته بها وهي تكشف عن عنق مجعّد كعنق ديك رومي. وجد الصحفيان هذا الرجل جالساً إلى منضدة وسخة بشكل رهيب،

ومنشغلاً بإلصاق رُقَع على ظهر بعض الكتب القديمة، وبعد أن تبادلا نظرة كشفت عن آلاف الأسئلة التي يثيرها وجود مثل هذا الرجل، حياه لوسيان ولوستو وقدما إليه رسالة غابوسون وسندات فندان وكاڤاليه، وبينما كان سامانون يقرؤها دخل إلى ذلك الحانوت المظلم رجل فائق النباهة، يرتدي ردنغوتاً قصيراً يظهر وكأنه مُدّ من صفيحة توتياء للصلابة التي تبدو فيه من أشابات ألف مادة غريبة.

بادر الرجل سامانون بعد أن قدّم له بطاقة مرقمة: «إنني بحاجة إلى سترتي، وبنطالي الأسود، وصداري الحريري».

ما أن سحب سامانون زراً نحاسياً مرتبطاً بجرس حتى نزلت امرأة يبدو من نضارة بشرتها أنها نورماندية، فقال لها بعد أن مدّ يده مصافحاً المؤلف: «أعيري للسيد ثيابه، من الممتع العمل معكم، لكن أحد أصدقائكم جاءني بشاب يافع خَدَعني خدعة كبيرة!

التفت الفنان إلى الصحفيين وأشار إلى سامانون بحركة تثير الضحك وقال: وهل يخدع مثل هذا؟!.

أعطى هذا الرجل الكبير كما يعطي الرعاع لاستعارة ملابسهم في يوم العيد من مكتب الرهنيات، ثلاثين فلساً تناولتها يد الحاسم الصفراء المشققّة وأسقطتها في دولاب منضدته.

قال لوستو لهذا الفنان الكبير الذي بدا وكأنه مستسلم للأفيون في قصور خلابة لا يريد أو لا يمكنه أن يفعل شيئاً إزاء احتجازه فيها بأنظار تتأمله: أيّة صفقة تجريها؟

أجاب: هذا الرجل يُقرض على الأشياء القابلة للرهن أكثر من مكتب الرهنيات، إضافة إلى تميّزه بحَسنة رهيبة يسمح لك بدافع منها استئجار ثيابك المرهونة عند الحاجة لارتدائها.

سأذهب هذا المساء للعشاء عند آل كيلر مع خليلتي، ويسهل عليّ إيجاد ثلاثين فلساً بدلاً من مئتني فرنك، وجئت الآن استأجر بعض ملابسي المرهونة التي درّت منذ ستة أشهر حتى الآن على هذا المرابي المحسن مئة فرنك، بعد أن التهم مكتبتي كتاباً بعد آخر قال لوستو ضاحكاً: وفلساً إثر فلس.

قال سامانون للوسيان أعطيك الفاً وخمسمئة فرنك لقاء هذه السندات.

قفز لوسيان كأن الحاسم وجه إلى قلبه سفود حديد كاوٍ. وتأمل سامانون السندات بإمعان مدققاً تاريخها وقال: كما أحتاج لرؤية فندان الذي يجب عليه أن يسلّمني الكتب.

ثم التفت إلى لوسيان معقباً: إنك لست ذا شأن كبير، فأنت تعيش مع كورالي وأثاثكم محجوز. نظر لوستو إلى لوسيان الذي التقط سنداته وقفز من الدكان إلى الجادة وهو يقول. «أهذا هو الشيطان؟» وتأمل الشاعر للحظات هذا الدكان الصغير، الذي تفتر أمامه شفاه جميع المارّة عن ابتسامة سخرية لمظهره الزري ولشدّة قذارة صناديق الكتب القديمة المرقّمة وحقارتها وتساءل في نفسه: أيّة تجارة تمارس هنا؟.

بعد لحظات خرج الرجل الكبير الآخر المجهول، الذي شهد منذ نحو عشر سنوات قيام مؤسسة السان سيمونيين الواسعة إنّما غير المستندة إلى قاعدة. وابتسم للصحفيين مزهواً بأناقته بعد أن استردّ ثيابه المرهونة، وتوجّه معهما إلى ممر البانوراما لتعميم زينته بتلميع جزمته.

قال الفنان للكاتبين: «عندما يُرَى سامانون يدخل إلى مكتبة أو متجر ورق أو مطبعة فهذا يعني إفلاسها، فسامانون عندئذ مثل دافن الموتى الذي يأتي لقياس التابوت.

قال ايتيين للوسيان: لن تتمكن أبداً من حسم سنداتك.

قال المجهول: ما يرفضه سامانون لا يقبله أحد، فهو الملجأ الأخير! إنه أحد السائرين على خطا جيغونه، ودي بالما، ووربروست، وغوبسيك وغيرهم من التماسيح الذين يسبحون في ساحة باريس والمقدّر لكل رجل يريد أن يكوّن ثروته أو يبدّدها عاجلاً أو آجلاً أن يصادفهم.

استأنف ايتيين: إذا لم تتمكن من حسم سنداتك بخمسين بالمئة من قيمتها فيجب أن تستبدل بها نقوداً ذهبية.

- وكيف؟

- أعطها لكورالي لتقدّمها لكاموزو؛ وتابع عندما لاحظ بادرة احتجاج من لوسيان: أيغيظك ذلك؟ يا لسخافتك! هل يمكنك أن توازن مستقبلك مع هذه الترّهة؟

- قال لوسيان: سأذهب لأعطي ما حصلت عليه من دراهم لكورالي.

هتف لوستو: حماقة أخرى! إنك لا تصلح شيئاً عند تقديم أربعمئة فرنك لحلّ مشكلة تحتاج إلى أربعة آلاف فرنك. فلنذهب إلى المقامرة ولنحتفظ بمبلغ يؤمّن لنا سكرة في حال الخسارة.

قال الكبير المجهول: إنّها نصيحة جيّدة.

كان لهذه الكلمات وهما على بعد خطوات من نادي فراسكاتي[1] وقع السحر، وصرف الصديقان عربتهما وصعدا للمقامرة. وربحا أولاً ثلاثة آلاف فرنك ثم هبطا إلى خمسمئة، ثم عادا فربحا ثلاثة آلاف وسبعمئة فرنك وهبطا مجدّداً حتى مئة فلسْ ثم جدّدا ربحهما إلى ٢٠٠٠ ف، وجازفا بها كاملة ولعبا الرقم الزوجي مرة ثانية بكامل المبلغ لكن كرة الروليت الصغيرة الدوّارة وقعت على رقم فردي، وهكذا اندفعا على درج قاعة المقامرة منهارين بعد أن لم يبق معهما

١- فراسكاتي: في البناء رقم ١٠٨ من شارع ريشيليو، على زاوية الجادّة، كان النادي الأكثر شهرة والأقل شبهة بين نوادي القمار في باريس.

إلامئة فرنك احتفظا بها لحفلة سكر المساء، وبعد أن قضيا ساعتين في انفعالات مستعرة. وعلى درجات الرواق المعمّد الصغير ذي الصفين من الأعمدة التي تدعم خارجياً مظلة صغيرة من الصفيح طالما تأملتها الأعين بحب أو قنوط قال لوستو وهو يرى نظرة لوسيان الملتهبة: «يمكننا أن نغامر بخمسين فرنكاً أيضاً».

وصعد الصحفيان عائدين إلى قاعة الروليت ووصل ربحهما خلال ساعة إلى ثلاثة آلاف فرنك وضعاها بالكامل على اللون الأحمر الذي تكرّر خمس مرات واستمرا معتمدين على المصادفة التي سببت خسارتهما السابقة وفي المرّة السادسة استقرت الكرة على الأسود وخسرا المبلغ الضخم الذي ربحاه، وكانت الساعة السادسة.

قال لوسيان: «سنغامر بخمسة وعشرين فرنكاً أخرى». ولم تدُم هذه المحاولة الجديدة إلا قليلاً، وخسرا المبلغ خلال عشر ضربات. وألقى لوسيان بغضب الخمسة وعشرين فرنكاً الأخيرة التي بحوزته على الرقم المحدّد لعمره وربح: لا شيء يمكن أن يصف ارتعاش يده وهو يتناول من الملمّ اللويسيات الذهبية التي ألقى بها إليه مدير القمار واحدة بعد أخرى. وأعطى عشراً منها للوستو وقال له: «هيّا اهرب إلى مطعم ڤيري!»

فهم لوستو ما يقصد لوسيان وذهب يوصي على أطباق العشاء، وبقي لوسيان وحده في قاعة اللعب، ووضع لويسياته الثلاثين على اللون الأحمر وربح، وتشجع بالصوت الخفي، الذي يلهم أحياناً المقامرين، فترك كامل المبلغ على الأحمر وربح، وغدا بطنه مثل حجر النار، ورغم الصوت الملهم نقل المئة وعشرين لويسية إلى الأسود وخسر، وشعر عندئذ بذلك الإحساس العذب الذي يلي لدى المقامرين اضطراباتهم الرهيبة، عندما لا يبقى معهم شيء يجازفون به، فيغادرون القصر المتوهج حيث مضت أحلامهم العابرة، والتحق بلوستو لدى ڤيري، واندفع وفقا لتعبير لافونتين إلى المطبخ[1] يغرق همومه في الخمرة، وعند الساعة التاسعة،

١- من حكاية «البستاني» وسيده النبيل» (الحكايات (IV، ٤، ٢٠)

كان ثملاً تماماً حتى أنه لم يفهم لماذا طلبت منه بوّابة شارع ڤندوم أن يتوجه إلى شارع القمر عندماقالت: «تركت الآنسة كورالي شقّتها، واستقرت في المنزل ذي العنوان المسجّل على هذه الورقة».

كان السكرُ قد وصل بلوسيان إلى درجة لا يأبه فيها لشيء، فعاد إلى العربة التي أقلته وطلب من الحوذي أن يتوجّه به إلى شارع القمر. وكان يردّد في نفسه تلاعبات جناسيّة حول اسم الشارع. خلال صبيحة ذلك اليوم تفجّر إفلاس مسرح البانوراما دراماتيك وأسرعت الممثلة المذعورة إلى بيع كل أثاثها بموافقة دائنيها إلى الأب كاردو، الذي لم يرد أن يغيّر الغاية من هذه الشقّة، فنقل فلورنتين للإقامة فيها. وهكذا سدّدت كورالي ديونها، وصفّتِ حساباتها، وأرضت المالك، وخلال الوقت الذي استغرقته تلك العملية التي سمّتها الغَسْل، قامت برِنيس بشراء الأثاث اللازم، رخصة، لتأثيث شقة صغيرة من ثلاث غرف في الطابق الرابع من بناء في شارع القمر، على بعد خطوتين من الجيمناز. وكانت كورالي تنتظر لوسيان فيه وقد أنقذت حبّها من الغَرَق دون شائبة ومع محفظة تتضمّن ألفاً ومئتي فرنك. . وقصّ لوسيان والسكر يتعتعه لكورالي وبرنيس ما حل به من مصائب في يومه، وردّت الممثلة وهي تضمّه بين ذراعيها:

«أحسنت صنعاً ياملاكي، ستعرف برنيس كيف تفاوض برُولار على هذه السندات».

في صباح اليوم التالي، استيقظ لوسيان على مسرّات خلابة أسرفتِ كورالي في إحاطته بها. فقد ضاعفت الممثلة حبّها وحنانها. كأنها تريد أن تعوّض بكنوز القلب الأكثر غنى عن الفاقة التي حلت ببيتها الجديد. كانت تشع فتنة وجمالاً بنضارة بشرتها الناصعة البياض، وخصلات شعرها النافرة من تحت وشاح معقود حول عنقها، وعينيها الضاحكتين، وكلماتها العذبة كأشعة الشمس المشرقة التي

تخترق النوافذ لتُذّهب ذلك البؤس الجذّاب؛ فغرفتها ماتزال لائقة، مكسوة الجدران بورق بزرقة الماء المائلة إلى الخضرة وأطراف حمراء، وهي مزينة بقماش من القطن الأزرق، وتمكنت برنيس أن تنقذ من التصفية ساعة دقّاقة. ومزهرتين من البورسلين، وأربعة صحون من الفضة. وست ملاعق صغيرة. وغرفة الطعام الواقعة أمام غرفة النوم تشبه مثيلتها في منزل مستخدم ذي دخل ألف ومئتي فرنك سنوياً. والمطبخ يواجه صحن الدرج، وفوقه سقيفة جعلت منها برنيس غرفة لنومها. أما أجرة هذه الشقة فلا تتعدى ثلاثمئة فرنك سنوياً. ولهذا البيت الرهيب بوابة عربات مزيّفة. والبواب يسكن في أحد هذه المصاريع المُغلقة المخترقة بمصلّبة تمكنّه من مراقبة سبعة عشر مستأجراً، وتسمّى هذه الخلية بيت إيراد وفق أسلوب موثق العقود. ولاحظ لوسيان في الشقة طاولة مكتب، ومن خلفها كنبة، وحبراً وأوراقاً وريشاً.

وكان من شأن الانشراح البادي في تصرفات برنيس التي تتوقع بداية عمل سيدتها في الجيمناز ولاهتمام الممثلة التي تراجع دورها، ولدفتر ورق عقد حوله شريط أزرق أن تطرد كلها القلق والكآبة عن الشاعر بعد أن صحا من سكرته.

قال: «حسبنا ألا تعلم الطبقة الراقية شيئاً عن هذا التدهور، وسنتخلص منه، وبَعد كل حساب لدينا أربعة آلاف وخمسئة فرنك! وسأستثمر وضعي الجديد في الصحف الملكية.

غداً سندشن صحيفة اليقظة[1]. وأنا عليم الآن بالصحافة وسأحقق مكاسب منها».

لم تركورالي في هذه العبارات إلا مشاعر الحب، وقبلت الشفتين اللتين نطقتا بها. وفي هذه الأثناء وضعت برنيس المائدة قرب المدفأة وقدمت للعاشقين غداء متواضعاً من البيض المخفوق وشريحتين من اللحم وقهوة بحليب. وفجأة قُرِع

١ - ظهر أولّ عدد من اليقظة، كما سبق أن ذكرنا، وهو عدد يتعلق بالرواية! - في أولّ آذار ١٨٢٢.

الباب، وأطلّ على مدخل الغرفة دارتز، وليون جيرو، وميشيل كرستيان، الأصدقاء الثلاثة المخلصون، ودهش لوسيان لهذه الزيارة، وقابلهم بمنتهى التأثّر وطلب منهم أن يشاركوهما في غدائهما.

قال دارتز: «كلا، فقد جئنا من أجل أمور أكثر جديّة من المجاملات البسيطة، ونحن نعرف ما دُبّر لك، إذ أننا عائدون من شارع ڤندوم، وأنت تعرف آرائي يالوسيان. ففي أي ظرف آخَر، كنت سأسرُّ لرؤيتك تتبنّى قناعاتي السياسية، ولكن لا يمكنك في الموقع الذي وضعت فيه نفسك بكتابتك في الصحف الليبرالية أن تنتقل إلى صفوف اليمين المتطرف دون أن تثلم إلى الأبد طابعك المتميّز وتلطّخ وجودك. وقد جئنا نناشدك باسم صداقتنا ألا تكوّر نفسك هكذا، هاجمت بعنف الرومنطيقيين، واليمين، والحكومة، ولا يمكنك الآن أن تدافع عن الحكومة واليمين والرومنطيقيين.

قال لوسيان: استمدُّ الأسباب التي تسيّرني من مرتبة أفكار سامية، والغاية تبرّر كلّ شيء.

قال له ليون جيرو: إنّك لا تعي، على الأرجح، الوضع الذي نحن فيه؛ فالحكومة والبلاط والبوربونيون، والحزب المناصر للحكم المطلق، أو إذا أردت شمول الجميع بتعبير عام تحت اسم النظام المعارض للنظام الدستوري، والمنقسم إلى عدة فئات متباينة فيما يتعلّق بالوسائل التي يجب اتخاذها لخنق الثورة. جميعها متفقة على الأقلّ حول ضرورة لجم الصحافة وإلغاء دورها، وما تأسيس اليقظة، والصاعقة، والراية البيضاء، وجميعها صحف موجّهة للردّ على افتراءات الصحف الليبرالية[1] وشتائمها وسخرياتها، التي لا أوافقها عليها، لأن تنكرنا لكبر كهنوتنا

١- استمرت صحيفة **اليقظة** من ١ آب ١٨٢٢ إلى ٣٠ آذار ١٨٢٣ وظهرت **الصاعقة** في ١٠ آذار ١٨٢١ واستمرت إلى ٣٠ تشرين الثاني ١٨٢٣ وأُخذ عليها كما على الصحف الصغيرة الليبرالية الأدبية الاهتمام بالسياسة، وحققت شرطة الجُنَح مع ناشرها السيد بوغمن في آب ١٨٢٢ لكن السيد كوتور المحامي المدافع عن الناشر عرف كيف يستفيد بمهارة من اشتراك عدّة وزراء في الصحيفة المذكورة وبرئ الناشر أمام محكمة الجُنَح، وظهرت **الراية البيضاء** بإدراة مارتنفيل في العام ١٨١٩ ومرت بظروف مختلفة ودامت حتى ١٨٣٠، وفي العام ١٨٢٣ أشرف لامنة على إدارتها وغدت مهددة للحكومة يميناً لكن فيليل استردها شراءً ثم ألغيت في العام ١٨٢٧ وأحياها مارتنفيل مجدّداً في العام ١٨٢٩.

هو الذي دفعنا تماماً إلى إصدار صحيفة لائقة ورصينة؛ ثم قال مستطرداً: وستكون بعد قليل من الوقت محسوسة ومحترمة، مهابة وجليلة. وبعد فهذا القذف الملكي والوزاري هو أوّل مقابلة بالمثل متخذة لمجابهة الليبراليين رشقة برشقة، وإهانة بإهانة. فماذا تتوقّع أن يحصل يالوسيان؟ إن المشتركين في معظمهم منحازون إلى اليسار؛ وفي الصحافة كما في الحرب يتحقق الانتصار للكتائب الأكبر! وستغدون المرذولين، والكذّابين، وأعداء الشعب. وسيكون الآخرون حماة الوطن، ومستحقي التبجيل، والشهداء؛ رغم أنّهم قد يكونون أكثر نفاقاً وخداعاً منكم. وستزيد هذه الوسيلة من تأثير الصحافة الهدّام بتبرير مغامراتها الممقوتة وترسيخها، وستغدو الشتيمة والفردية أحد حقوقها العامة المعتمدة لمنفعة المشتركين، والمنتقلة بحكم الواقع المقضي إلى عرف مشترك، وعندما ينكشف السوء بكل خطورته، ستعود القوانين المقيّدة والمانعة، والرقابة التي فُرضت بعد مقتل الدوق دي بري، ورفعت عند افتتاح المجلسين(1). هل تعلم ماذا سيستنتج الشعب الفرنسي من هذا النقاش؟ سيسلّم بتلميحات الصحافة الليبرالية، ويعتقد أن البوربونيين يريدون القضاء على النتائج الماديّة والمكتسبة من الثورة، وسينهض في يوم ما وسيطرد البوربونيين إنك لن تدنّس حياتك فقط، ولكنك ستجد نفسك في الحزب المقهور. إنك ما تزال في ريعان الشباب، وأنت حديث العهد بالصحافة، ولا تعرف إلا القليل جداً من الدوافع الخفيّة، والأبواب الرئيسة، وقد أَثَرت فيها كثيراً من الحسد ولن تصمُد أمام صيحات الاستنكار العامة التي سترتفع ضدك في الصحف الليبرالية. لكنك ستجرُّ بفورة الأحزاب، الذين ما يزالون في ذروة الحمّى، غير أن حمّاهم قد مرّت، في الأفعال القاسية عامي ١٨١٥ و ١٨١٦، وفي الأفكار، وفي المشاحنات الشفهية داخل المجلس، وفي مناقشات الصحافة.

---

١ - افتتحت دورة ١٨٢١ بتاريخ ٥ تشرين الثاني.

قال لوسيان: لست الطائش ولا الشاعر الذي تريدون رؤيته فيَّ، وأيا كان الأمر، سأحصل على مغنم لا يمكن لانتصار الحزب الليبرالي أن يمنحني إياه، ولن تصلوا إلى الانتصار قبل أن أحقق مرادي.

- قال كرستيان ضاحكاً: سنجزُّ لك... شعرك.

- أجاب لوسيان: سيكون لي أولاد عندئذ، وقطع رأسي لا يعني قطع شيء يخصُّني.

لم يفهم الأصدقاء الثلاثة لوسيان، فقد نمت علاقاته مع مجتمع النخبة عجرفة النبلاء، والزهو الارستقراطي فيه إلى أعلى درجة. وكان الشاعر يرى، وهو على حق ثروة واسعة في وسامته وذكائه عند دعمها باسم ولقب الكونت دي روپميره. فالسيدات دسبار ودي بارجتون، ودي مونكورنه ربطنه بهذا الخيط كما يربط طفل جُعلاً، فهو لا يطير إلا ضمن دائرة محدّدة؛ وهذه الكلمات: «إنّه أحدنا، إنه يفكّر جيّداً» التي قيلت قبل ثلاثة أيام في صالون الآنسة دي توش أسكرته، وكذلك التهاني التي تلقاها من الأدواق دي لينكور، ودي نافارين، ودي غرانليو، ومن راستينياك وبلونده، والدوقة الجميلة دي موفرينيوز، والكونت إغرينيون، ومن دي لوپو، والأشخاص الأكثر نفوذاً والأحسن حظوة في البلاط الملكي.

عقب دارتز مختتماً: «هيّا بنا، لاجدوى من الكلام، سيكون من الصعب، عليك أكثر من أي فردٍ آخر أن تحافظ على نقائك، وأن تحظى بالتقدير الخاص بك، ستتألم كثيراً، فأنا أعرفك، وخاصة عندما سترى أنك محتقر من قبل أولئك الذين نذرت نفسك لهم».

انصرف الأصدقاء الثلاثة قائلين بفتور للوسيان وداعاً، ولم يمدوا له اليد مصافحين، وبقي لوسيان بضع لحظات مفكراً حزيناً.

قالت كورالي وهي تقفز إلى ركبتي لوسيان وتحيط عنقه بذراعيها الجميلين البضين: إيه! اترك هؤلاء الحمقى، إنّهم يأخذون الحياة بجد، والحياة سخرية، زد على أنك ستكون الكونت دي روبمبره. سأستخدم إن لزم الأمر، وسائل الإغراء في الديوان الملكي، فأنا أعرف من أين يؤخذ هذا الفاسق دي لوپو الذي سيوقع لك الأمر الملكي. ألم أصرح لك إن جثة كورالي يمكن أن تكون مرقاة للوصول إلى هدفك المرجو.

في اليوم التالي عرض لوسيان اسمه واحداً من الصحفيين المتعاونين مع صحيفة **اليقظة** وأعلن هذا الاسم كأنه فتح مظفر في النشرة الدعائية الموزعة باشراف الوزارة في مئة ألف نسخة. وحضر لوسيان المأدبة الاحتفالية التي دامت تسع ساعات في مطعم روبير[1] على بعد خطوتين من فراسكاتي، والتي حضرها أركان الصحافة الملكية مارتنفيل، وأوجيه ودستين[2]، ومجموعة من المؤلفين الذين مايزالون أحياء في زمن كتابة هذه الرواية، وهم يعملون لصالح الملكية والدين وفقاً لتعبير مكرّس.

قال هكتور مرلن: «سينال الليبراليون منا ضربات موجعة».

أجاب ناتان الذي انضم إلى الملكيين وحمل رايتهم بعد أن رأى أنّ من الأفضل أن تكون السلطة معه بدلاً من أن تكون ضده في استثمار المسرح الذي يفكر به: أيها السادة! إذا أردنا أن نعلن عليهم الحرب، فلتكن حرباً لا هوادة فيها، لا مجرّد بضع طلقات من فلين! ولنهاجم جميع الكتاب الكلاسيكيين والليبراليين

---

(١) - كان هذا المطعم في جادة الإيطاليين.

(٢) - لويس سيمون أوجيه L. S. AUGER (١٧٧٢ - ١٨٢٩) دخل الأكاديمية في العام ١٨١٦ معيناً من قبل الحكومة لامنتخباً من زملائه، وكان يمثل الملكيين المتطرفين، وهو الذي كلّف في ٢٤ نيسان ١٨٢٤ بإلقاء خطاب شهير أعلنت فيه الجمعية العامة موقفها المضاد للرومنسية أما دستين فهو دون شك أوجين دستين (١٧٩٣ - ١٨٣٠) مدير صحيفة **غازيت دي فرانس**.

دون تمييز في العمر أو الجنس، ولنوجه إليهم سهام السخرية دون أن نستثني أحداً منهم.

- لنكن أهلا للاحترام، ولانسمح باستمالتنا بالهدايا أو نسخ الكتب المجانية، أو نقود دور النشر، ولنقم عهد الإحياء وإعادة الملكية في الصحافة.

- قال مارتنفيل: حسن! ليكن كل منا رجلاً عادلاً وحازماً في قراره[1]، ولنكن متصلبين جارحين. سأجعل من لافاييت(*) ماهو في الواقع: جيل الأول.

- قال لوسيان: وسأتكفل أنا بأبطال صحيفة الدستوري، والرقيب مرسيه[2]، والأعمال الكاملة للسيد جوي، وخطباء اليسار المشهورين.

أعلنت حرب حتى الموت وأقرت بإجماع أصوات المحررين الذين أغرقوا كل دقائق تعابيرهم وكل أفكارهم في بنش(**) لهاب.

قال أحد الكتاب الأكثر شهرة في الأدب الرومنطيقي: «**تفانينا في سكرة شهيرة ملكية ودينية** ظهرت هذه الكلمة التاريخية في اليوم التالي في صحيفة **المرآة** بعد أن سرّبها أحد الكتبيين، لكن التسريب نُسب إلى لوسيان. وكانت هذه الردة إشارة ضجة مريعة في الصحف الليبرالية التي غدا لوسيان عدوها اللدود، فذم

---

(١) - وردت العبارة باللاتينية وهي لهوراس من ديوان (أناشيد III، ٣، ١).

(*) - لافاييت: المركيز جوزيف دي (١٧٥٧ - ١٨٣٤) جنرال فرنسي، ساهم في حرب استقلال أمريكة. ملكي ليبرالي شارك في الثورة الفرنسية الكبرى العام ١٧٨٩، وفي ثورة ١٨٣٠. وجيل نموذج المغفل في عديد من المسرحيات الهزلية.

(٢) - استبعد النائب الليبرالي مانويل من المجلس النيابي طيلة مدة الدورة في ٣ آذار ١٨٢٣ عقب خطاب ألقي في ٢٦ شباط، وكلف في ٤ آذار، الحرس الوطني بإبعاد النائب المعاند، لكن الرقيب مرسيه، بائع الشرائط والتخاريم، رفض تنفيذ الأمر، وفي تلميح بلزاك مفارقة تاريخية - ذكر حادث بتاريخ سابق لوقوعه.

(**) - بنش :punch: مشروب كحولي انكليزي يتكون من الشاي والسكر والقرفة وعصير الليمون والروم. (المترجم)

علناً، وبالشكل الأكثر قسوة، وغدت سونيتاته مصيبة كبرى، وأعلن للجمهور أن دوريا يفضل خسارة ثلاثة آلاف فرنك على طبعها، وأطلق على لوسيان لقب الشاعر دون سونيتات.

في صباح أحد الأيام، قرأ لوسيان في ذات الصحيفة التي بدأ فيها كتابته الصحفية بتألّق الأسطر التالية، التي كتبت خصيصاً له، لأن الجمهور لايمكن أن يدرك تلك السخرية الخفية فيها:

إذا أصر الناشر دوريا على عدم نشر سونيتات بترارك الفرنسي المستقبلي فسنتصرّف كأعداء أسخياء ونفتح أعمدة صحيفتنا لهذه القصائد المتوقع أن تكون لاذعة على نسق هذه القصيدة التي وافانا بها أحد أصدقاء الشاعر.

وتحت هذا الإعلان الرهيب، قرأ الشاعر هذه **السونيتة الرهيبة** التي أبكته بدموع حارة

نبتة عجفاء وبمظهر مشبوه
طلعت صباح يوم جميل في مسكبة زهور
ولو صدقت، مع ذلك، الألوان الرائعة
لشهدت يوماً على نبل أصلها.

تم احتمالها إذن! لكن كاعتراف بالجميل
شتمت بعد وقت قصير أخواتها المتألقات
اللواتي، باستنكارهن أخيراً ظواهرها الكبيرة المتبجحة
وجهن إليها التحدي لتثبت أصالة محتدها.
أزهرت حينئذ لكن ما من مهرج حقير
سبق له أن واجه صفيراً مثلما كلّ الحديقة
فضحت هذا الكؤيس المبتذل وصفرت له وتهكمت عليه

ثم مرّ المعلم، فحطمها دون رحمة
وعلى قبرها في المساء جاء حمار فقط ينهق
ذلك أنها لم تكن حقاً إلا شوكة جحاش حقيرة(١)*

تحدث ڤرنو عن ولع لوسيان بالقمار، وأشار مسبقاً إلى أنّ **النبال** مؤلف ضد مصلحة الأمة لأن المؤلف منحاز إلى القتلة الكاثوليك ضد الضحايا البروتستانت.

وخلال ثمانية أيام احتدمت المناقشة، واعتمد لوسيان على صديقه لوستو المدين له بألف فرنك، عدا عما بينهما من اتفاقات سرية، لكن لوستو انقلب إلى عدو لدود للوسيان والسبب يعود إلى أن ناتان أغرم بفلورين، منذ ثلاثة أشهر، ولم يعرف كيف ينتزعها من لوستو، الذي يُعدُّها هبةً سماوية له. وفي الضيق والقنوط الذي وُجَدت فيه الممثلة وهي ترى نفسها دون تعاقد، جاء ناتان المتعاون مع لوسيان ليرى كورالي ويرجوها أن تعرض على فلورين دوراً في مسرحية له، وأخذ على عاتقه تأمين عقد مشروط في الجيمناز للممثلة دون مسرح. ولم تتردّد الممثلة المنتشية

---

(١) - هذه السونيتة لشارل لاسايي Ch. LASSAILLY وقد ظهرت في طبعة فورن العام ١٨٤٢، مكان سونيتة الشاعرة دلفين دي جيراردن التي كانت في الطبعة الأصلية وهذا نصها

إنني بصراحة، مجرد نبتة مسكينة
لا أضوّع عطراً، ولا أظهر جمالاً
لا أفيد في شيء، وأنا مكروهة
وألعن بهاء الوردة المتعجرفة

كبرت وأزهرت في الأماكن الملوثة
على حواف الوهاد، وفي زوايا الجدران القديمة
وأنا أُعد في كل مكان كائناً غير مفيد

أنا أملك مثلها شوكة مؤذية
لكنها، للأسف! هبة عذاب، دون لذة
وليس لي إلا صديق وحيد، يقال إنه عنيد
يضرب حين ينام، وينكر صوته حين يغني.

لا تُبذل أية عناية لي، ولا أُرحم أبداً
وأُقتلع حالما يحل الخصب في الأرض
إنني أخيراً زهرة الحمير... شوكة الجحاش

* شوكة الجحاش: نبات شائك من الفصيلة المركبة، واسمه بالفرنسية شاردون CHARDON أي مماثل لاسم عائلة الشاعر لوسيان.

بالطموح، وتوفر لها الوقت لملاحظة لوستو. وكان ناتان أديباً طموحاً وسياسياً، ورجلاً يمتلك طاقة بقدر حاجاته بينما النقائص لدى لوستو تقتل الإرادة، وكانت الممثلة تريد الظهور مجدّداً محاطة بألق جديد، فسلّمت رسائل العطار لناتان الذي عمل على ردّها لماتيفا مقابل تنازله عن سدس الصحيفة الذي يطمح به فينو، وحصلت فلورين عندئذ على شقة رائعة في شارع هوتفيل واتخذت من ناتان حامياً لها على مرأى من الصحافة والعالم المسرحي. وأثر هذا الحدث بقسوة على لوستو حتى أنه بكى في نهاية حفل عشاء أقامه له أصدقاؤه لمواساته. وفي حفلة السكر هذه، وجد المدعوون أن ناتان لعب لعبته، وكان بعض الكتاب مثل فينو وڤرنو يعرفون هوى المؤلف المسرحي وشغفه بفلورين، ولكن وفقاً لقول الجميع، فإن لوسيان بتدليسه في هذه القضية قد أساء إلى أقدس أصول الصداقة، لكن الروح الحزبية، والرغبة في خدمة أصدقائه الجدد دفعته وهو الملكي الجديد، إلى تصرف لايغتفر.

صاح بيكسيو: «انقاد ناتان بمنطق الهوى، أما رجل المقاطعة الكبير، وفقاً لقول بلونده، فإنه استكان لتدبير نفعي!».

وهكذا أُمعن النظر بعمق في خسارة لوسيان، هذا الدخيل المتطفل، والماكر الصغير وأُقرَّت بالإجماع، وتعهد ڤرنو الذي يكره لوسيان بألا يدعه يفلت من قبضته، وأتهمه فينو وهو الراغب بإعفاء نفسه من دفع ثلاثة آلاف فرنك للوستو بأنه حرمه من ربح خمسين ألف فرنك بإطلاع ناتان على سر عملية ابتزاز ماتيفا، وأمن ناتان بناء على نصيحة فلورين، دعم فينو بأن باعه سدسه بخمسة عشر ألف فرنك.

ولم يغفر لوستو للوسيان هذا الضرر الجسيم الذي ألحقه بمصالحه، فجروح الاعتزاز بالنفس تغدو مستعصية عندما يتسرب إليها أوكسيد المال. وما من تعبير أو تلوين يمكن أن يصف أو يصور الغضب الذي ينتاب الكتاب عندما يحسون بجرح الكبرياء، وما من حدّ للطاقة التي يجدونها في اللحظة التي يشعرون خلالها بوخز السهام المسمومة بالسخرية. وأولئك الذين تستثار طاقتهم ومقاومتهم بالانتقاد

ينهارون سريعاً، أما الأشخاص الهادئون الذين يهيئون ردّهم بعد نسيان عميق يُحاطُ به مقالٌ مهين، فهم المتمتعون بالشجاعة الأدبية الحقة. وهكذا يبدو الضعفاء للوهلة الأولى، أقوياء، لكن مقاومتهم محدودة وتفتر بعد زمن فخلال الخمسة عشر يوماً الأولى أمطر لوسيان المغتاظ وابلا من المقالات في الصحف الملكية التي تقاسم فيها مهمة النقد مع هكتور مرلن، ودأب كل يوم يقذف على صفحات **اليقظة** كل حمم مواهبه مدعوماً من قبل مارتنفيل، وهو الوحيد الذي خدمه دون سوء نية ودون أن يطلّع على سرّ الاتفاقات الموقعة بالسخريات بعد حفلات السكر، أو في أروقة الخشب عند دوريا، أو بين دهاليز المسرح بتواطوء صحفيي الحزبين الذين تجمعهم روح الزمالة سراً، ولم يعد لوسيان يعامل أبداً كصديق عندما يذهب إلى صالة فودفيل، فأفراد حزبه وحدهم يصافحونه، بينما ناتان، وهكتور مرلن، وتيودور غايار يظهرون روح التآخي دون خجل لفينو ولوستو، وفرنو وبعض هؤلاء الصحفيين المنعم عليهم بالأوسمة والملقبين بالأولاد الطيبين. وكانت صالة فودفيل في ذلك الزمن مركز التمائم الأدبية، ومكان التقاء يؤمه أشخاص من مختلف الأحزاب، ورجال سياسة وقضاء. فبعد توبيخ يتم في إحدى غرف التداول والمشاورة، ويلوم فيه الرئيس أحد زملائه لكنسه الدهاليز بجبته الفضفاضة ناقداً، يجد الناقد والمنقود نفسيهما يتعاتبان ويتصافيان في صالة ڤودفيل، وهكذا انتهى الأمر بلوستو إلى أن يمد يده فيها مصافحاً ناتان، وكان فينو يأتي إليها كل مساء تقريباً، بينما يحضر لوسيان، عندما يتوفر له الوقت ليدرس تصرفات أعدائه، لكن هذا الفتى التعيس يلقى منهم، على الدوام بروداً متصلباً لايلين.

في ذلك الزمن، كانت الروح الحزبية تولد أحقاداً أكثر جدية منها في وقتنا الحاضر، فاليوم، ومع مرور الوقت ضعف كل شيء مع تراخي التوترات. واليوم بعد أن يحطم ناقد كتاب مؤلف، يمدُّ إليه يده مصافحاً، وعلى الضحية أن يعانق مضحيه خشية أن يتعرض لمقارع السخرية، وفي حال الرفض فإنه يُعد كاتباً صعب المعاشرة، مشاكساً، مجبولاً بالكبرياء، حقوداً لايقارب، مبغضاً لايعرف الود.

واليوم عندما يتلقى مؤلّف في الظهر طعنات خنجر الخيانة، ويتجنب الأشراك المنصوبة له بنفاق مشين، ويتحمل أسوأ المعاملات، فإنه يستمع إلى سفاحيه يوجهون له التحية، ويبدون له ادعاءات تقديره، بل وصداقته.

كل فرد يعذر نفسه ويبرر سلوكه في حقبة تحولّت فيها الفضيلة إلى رذيلة، كما رُفعت بعض الرذائل إلى مرتبة الفضائل. فالرفقة أضحت أقدس الحريات، وقادة الآراء الأكثر تعارضاً يتحادثون وهم ينتقون الكلمات المنمقة، المغلفة بالمجاملات. في هذا الزمن، على افتراض التذكر، يجد بعض الكتاب الملكيين وبعض الكتاب الليبراليين الشجاعة في أن يتقابلوا في ذات المسرح. وتُسمع الاستفزازات الأكثر حقداً، وتلاحظ النظرات المعبأة كأنها الغدارات، فأقل شرارة يمكن أن تفلت طلقة الشجار. من لم يدهش من اللعنات لدى جاره، وخاصة عند دخول بعض الرجال الذين اعتادوا على الهجمات المتبادلة بين الحزبين؟ لم يكن يوجد عندئذ إلا حزبان: الملكيون والليبراليون سياسياً، والرومنطيقيون والكلاسيكيون أدبياً، وبينهما الحقد ذاته بشكلين، وهو حقد يفُهم مقاصل الجمعية التأسيسية(١). ولوسيان الليبرالي والفولتيري المهووس في بدايته، غدا، بعد تحوله إلى ملكي ورومنطيقي متحمس، يعاني من ثقل الكراهيات التي تحلق فوق رأس الرجل الممقوت من الليبراليين في تلك الحقبة. وكان دي مارتنفيل الشخص الوحيد الذي يدافع عنه ويحبه. لكن هذا الدعم أضر بلوسيان، فالأحزاب عاقّة لمتنفذيها، وهي تتخلى بطيبة خاطر عن أبنائها الضالين، ففي السياسة خاصة، من الضروري لمن يريد الوصول أن يسير مع الكتلة الكبرى من الجيش، وكان خبث الصحف الصغيرة الرئيس هو الجمع بين لوسيان ومارتنڤيل، ورمت الليبرالية أحدهما في أحضان الآخر، وسواء أكانت هذه الصداقة حقيقية أو مموّهة، فإنها عرضت الإثنين

(١) - في مقال بعنوان «بلزاك» في حرب مع الصحفيين (نشر في مجلة باريس، العام ١٩١٤) يذكر ج مرلان، بهذا الخصوص، عرض الممثلين الانكليز في مسرح باب سان مارتن بتاريخ ٣١ تموز ١٨٢٢ لمسرحية عُطيل وقامت الشبيبة الليبرالية بقذفهم بالحجارة، وكان مارتنڤيل في إحدى المقصورات، فشتم، واستفز.

إلى مقالات كتبها فليسيان بحقد، وأقنطت لوسيان من النجاح في المجتمع المخملي، بعد أن كان يعتقد كما يعتقد جميع رفاقه القدامى بارتقائه القريب، فخيانة الشاعر سممت عندئذ ونمقت بالظروف الأكثر تفاقماً، ولقب لوسيان يهوذا الصغير بينما لقب مارتنڤيل يهوذا الكبير، لأن مارتنفيل كان متهماً، خطأ أو صواباً بتسليمه جسر پيك للجيوش الأجنبية(١). أجاب لوسيان ضاحكاً على لوپو، هذا الشخص الذي سلم بكل تأكيد، جسر نفسه للحمير. وكان ترف لوسيان، رغم ركوده واستناده إلى الآمال والوعود يثير غيرة أصدقائه الذين لم يغفروا له امتلاكه عربة فخمة بيعت فيما بعد لكنهم مازالوا يعتقدون أنها تجري بإمرته، ولا الروائع التي يتمتع بها في شارع فندوم، وكانوا جميعاً يشعرون غريزياً أن شاباً وسيماً، فكهاً وفاسداً في رأيهم سيصل إلى كل شيء، لذلك يجب استعمال جميع الوسائل لإسقاطه.

قبل بضعة أيام من بدء كورالي عملها في الجيمناز حضر لوسيان بصحبة هكتور مرلن إلى صالة ڤودڤيل، وكان مرلن يؤنب صديقه لأنه سهل لناتان علاقته مع فلورين ومما قاله:

«جعلت من لوستو وناتان عدوين لدودين لك، قدّمت لك نصائح جيدة لم تأخذ بها، وزعت المديح ونثرت النعم، وستعاقب بقسوة على أعمالك الطيبة، ففلورين وكورالي لن تتمكنا من التفاهم والانسجام في ذات المسرحية فإحداهما تريد التفوق على الأخرى وليس أمامك إلا صحفنا لتدافع فيها عن كورالي، بينما تتهيأ لناتان، عدا الحظوة التي يتمتع بها كمؤلف للمسرحيات، الصحف الليبرالية وقدمه في الصحافة».

---

(١) - خلال حكم المئة يوم والمعارك الأخيرة التي خاضها نابوليون، انسحب مارتنفيل إلى پيك، وشهد وصول بلوشر، لكن البرهان على خيانة مارتنفيل لم يثبت قط، ويجب دون شك وضع هذه التهمة في قائمة الافتراءات التي لم ينقطع توجيهها لذلك المجادل العنيد، وكان مارتنفيل ملكياً أكثر من الملك لويس الثامن عشر نفسه، لكنه لم يتراجع أمام أي شخص ولم يضعف في موقف، اللهم إلا أمام «كبد أوز دسمة أو ضلع خروف مطبوخ بجرة نيراك».

تجاوبت هذه العبارة مع مخاوف لوسيان السرية، ولم يجد لدى ناتان أوغايار الصراحة التي يستحقها لكنه لايتمكن من الشكوى، فهو حديث الانتساب للحزب! وقد أرهقه غايار بالقول إن على الوافدين الجدد أن يقدموا خدمات لمدة طويلة ليستطيع الحزب أن يفخر بهم. وصادف الشاعر داخل الصحف الملكية والوزارية حسداً لم يفكر به، الحسد الذي يظهر بين جميع الناس أمام قطعة حلوى يجب تقاسمها، فهي تجعلهم أشبه بكلاب يتنازعون على فريسة، تبدو منهم الزمجرات والمواقف والطباع نفسها. ويلعب هؤلاء الكتاب آلاف الأدوار السرية السيئة ليضر بعضهم ببعضهم الآخر تجاه السلطة، وهم يقرون بذنبهم ويردونه إلى فتور في العلاقات، وللتخلص من منافس يبتكرون الطرق الجهنمية الأكثر غدراً، وهذا لايحدث بين الليبرالين فليس لديهم أي موضوع للمنازعات الداخلية لبعدهم عن السلطة ونعمها. وبحدسه هذا التشابك المعقد في الطموحات، لم يمتلك لوسيان الجرأة الكافية ليمتشق الحسام بهدف قطع العقد، ولم يشعر بتحليه بالصبر والأناة على حلها، إذ لا يستطيع أن يكون آرتين أو بومارشيه أو فريرون(*) عصره، وتمسك برغبته الوحيدة: وهي الحصول على براءة تسميته كونتاً مدركاً أن إعادة لقب جده والد والدته إليه سيهيىء له زواجاً موفقاً. فالثراء لن يتعلق بعد ذلك إلا بمصادفة تساعد عليها وسامته، وكان لوستو الذي أظهر له لوسيان كثيراً من الثقة مطلعاً على سره، فالصحفي يعرف من أين يمكن أن يطعن شاعر أنغوليم طعنة مميتة، وهكذا ففي اليوم الذي صحبه فيه مرلن إلى صالة فودفيل كان إيتيين قد أعدّ له شركاً رهيباً توقع أن يقع فيه هذا الفتى وينهار.

قال فينو وهو يقود دي لوبو، متبادلا الحديث معه، إلى أمام لوستو الذي أمسك بيده والعلائم المخيبة لآمال الصداقة ظاهرة عليه: «هوذا لوسيان صديقنا

---

(١) - آرتين ARETIN: (١٤٩٢ - ١٥٥٦) كاتب ايطالي هجاء.

بومارشيه BEAUMARCHAIS (١٧٣٢ - ١٧٩٩): كاتب مغامر ومتهتك فرنسي له مسرحية حلاق اشبيلية وزواج فيغارو

* فريرون FRERON(١٧١٨ - ١٧٧٦): عدو فولتير والفلاسفة، صحفي وناقد فرنسي. (ملاحظة المترجم)

الوسيم، صاحب الحظ الذي لا أعرف مثيلا لسرعة إقباله. واستأنف منقلاً بصره بين لوسيان ومدير العرائض: يوجد في باريس نوعان من الثروة: الثروة المادية، أي المال الذي يمكن لأي كان أن يجمعه. والثروة المعنوية: العلاقات، والمكانة، والولوج إلى مجتمع لا يتيّسر لبعض الأشخاص مهما بلغت ثروتهم المادية الدخول إليه، وصديقي...

- قاطعه دي لوبو وهو يلقي على لوسيان نظرة مداهنة: صديقنا.

- تابع فينو وهو يربت على يد لوسيان بيديه الاثنتين: وصديقنا قد حظي من وجهة النظر هذه على ثروة رائعة. والحقيقة أن لوسيان يتفوق بالوسائل والموهبة والذكاء على جميع حساده، ثم إنه ذو جمال جذاب، ولن يغفر له أصدقاؤه القدامى نجاحاته، وهم يقولون إنه صاحب الحظ السعيد.

- قال دي لوبو: هذه الحظوظ السعيدة لايحظى بها الحمقى أو العاجزون. إيه! أيمكن أن نقول إن الحظ السعيد هو الذي أوصل بونابرت إلى القمة؟ وجد عشرون جنرالا قبله ممن يمكنهم قيادة الجيوش الفرنسية الغازية لايطالية. كما يوجد الآن أكثر من مئة شاب يريدون التقرب من الآنسة دي توش الذي يتوقع الجميع أن تكون زوجة لك ياعزيزي. ثم ربت على كتف لوسيان واستأنف: آه! إنك صاحب حظوة كبيرة، فالسيدة دسبار، والسيدة دي بارجتون، والسيدة دي مونكورنه من المتيمات بك، أولست أيضاً مدعواً هذا المساء لقضاء السهرة لدى السيدة دي فيرمياني، وغداً ستكون في حفلة الدوقة دي غرانليو؟.

- أجاب لوسيان: نعم.

- اسمح لي أن أقدم لك مصرفياً شاباً، هو السيد دوتيه الرجل الجدير بك إذ عرف كيف يجمع ثروة في وقت قصير.

تبادل لوسيان ودوتيه التحية ودخلا في محادثة، ودعا المصرفي لوسيان إلى عشاء. وترك فينو ودي لوبو لوسيان ومرلن ودوتيّه وناتان يتحدثون معاً، وبدا

عليهما وهما الرجلان البعيدا الشعور، المتعارفان إلى درجة المحافظة باستمرار على صداقتهما، أنهما يستأنفان حديثاً سابقاً، واتجها إلى إحدى الأرائك في ركن من صالة ڤودڤيل.

قال فينو لدي لوبو: ألا تطلعني ياصديقي العزيز على الحقيقة! أيكون لوسيان بجد مقرباً ومحمياً من أصحاب الشأن، إذ أنه غدا الشخص المكروه من قبل جميع المحررين لدي، وقبل أن نشجع التآمر عليه أريد أن استشيرك لمعرفة ما إذا كان من الأفضل إحباط المؤامرة التي تحاك ضده وتقديم هذه الخدمة له.

هنا تبادل مدير العرائض وفينو النظرات بانتباه عميق خلال برهة قصيرة، قال بعدها دي لوبو: «كيف ياعزيزي يمكن أن تتصور أن المركيزة دسبار وشاتليه والسيدة دي بارجتون التي نجحت في تسمية البارون كونتاً وتعيينه محافظ مقاطعة شارنت لتتمكن من العودة ظافرة إلى آنغوليم، كيف تتصور صفحهم عن هجمات لوسيان ضدهم؟ لقد رموا به داخل الحزب الملكي ليحطموه. والجميع يسعون الآن عن مبررات للتراجع عن الوعود التي قطعوها لهذا الفتى، ألا تساهم في إيجادها؟ إنك بذلك تقدّم خدمة كبيرة لهاتين السيدتين، وستتذكرانها في يوم أو آخر. إنني مطلع على سرّهما فهما يكرهان هذا الفتى إلى درجة أدهشتاني فيها.

كان بإمكان لوسيان أن يتخلص من ألد عدوة له، السيدة بارجتون، بعدم إيقاف هجماته إلا بشروط تتمنى جميع النساء تنفيذها، ألا توافقني؟ إنه وسيم وهو شاب، وكان عليه أن يغرق هذا الحقد في سيول من الحب، وعندئذ يستطيع أن يكون الكونت دي روبمبره، ولعملت من لقبها عظم الحبّار على أن تؤمن له مكاناً مافي قصر الملك، منصباً اسمياً بمرتب وبلا عمل! كان بإمكان لوسيان أن يغدو قارئاً جميلاً جداً للويس الثامن عشر، أو قيم مكتبة في مكان ما، أو مقدم عرائض تثير الضحك، أو مدير شيء ما لتأمين مصاريف اللهو. لكن هذا الأحمق الصغير أخطأ الهدف، ولهذا السبب، على الأرجح، لم يحظ بالصفح أبداً. وبدلاً من أن يفرض الشروط فإنها فرضت عليه. ففي اليوم الذي انساق فيه لوسيان للتعلل بوعد البراءة

الملكية، سجل البارون شاتليه خطوة كبيرة للتغلب عليه. لقد أضاعت كورالي هذا الفتى، لو لم يتخذ الممثلة خليلة له لعاد إلى عظم الحبّار، إلى السيدة دي بارجتون، ولحصل عليها.

- قال فينو: هكذا يمكننا القضاء عليه.

- سأل دي لوبو بلا مبالاة، وهو الذي يريد الاستفادة من هذه الخدمة للتقرب من المركيزة دسبار بأية وسيلة.

- بيننا عقد يلزمه بالعمل في صحيفة دي لوستو الصغيرة، وكلما كان بحاجة للمال زاد من كتابة مقالاته، فإذا شعر حامل الأختام الملكية بالاستياء من مقال مبطن بالسخرية، وبرهن له أن لوسيان كاتب المقال، نظر إليه كرجل غير جدير بالإنعام الملكي. ومن أجل إضاعة صواب رجل المقاطعة الكبير هذا، أعددنا لتفشيل كورالي: وسيجد خليلته تقابل في المسرح بالصفير، ولا تكلف بأي دور، وعندما تعلق البراءة إلى أجل غير مسمى سنسخر عندئذ من ضحيتنا، ومن ادعاءاته الارستقراطية. سنتحدث عن أمه القابلة، وعن أبيه الصيدلي، وسينهار لوسيان، فشجاعته سطحية جداً، وسنرسله إلى المكان الذي أتى منه. أمن لي ناتان شراء سدس المجلة الذي كان يمتلكه ماتيفا، من فلورين واشتريت حصة تاجر الورق، وأنا ودوريا مالكاها الوحيدان الآن، ويمكنني التفاهم وإياك لتخدم هذه المجلة مصالح البلاط الملكي[1]. أنا لم أحم فلورين وناتان إلا بشرط إعادة سدس مجلتي، وباعاني إياه، ويجب أن أخدمهما، إنما يجب أن أعلم مسبقاً حظوظ لوسيان.

قال دي لوبو ضاحكاً: إنك جدير باسمك. هيا! إنني أحب من هم على شاكلتك...

(١) - إخماد الصحيفة من قبل البلاط الملكي، وهي عملية أثرت فينو؟ تدفع بداهة إلى التفكير بشراء **اللويحات الشاملة** لكوست في بداية ١٨٢٤ (انظر الملاحظة في الصفحة ١٦٠) وقد بدأت هذه العملية الواسعة، والمكلفة، وغير المجدية للقضاء على صحف المعارضة في نهاية ١٨٢٣ وبداية ١٨٢٤، فهنا بعض المفارقة التاريخية الخفية.

قال فينو لمقدم العرائض: حسن، هل يمكنك أن تؤمن لفلورين عقداً نهائياً؟

- نعم، ولكن خلصنا من لوسيان، لأن راستينياك ودي مارسي لايريدان سماع أي كلام عنه.

- قال فينو: اطمئنوا، فسيحظى ناتان ومرلن دائماً بمقالات وعد غايار أن ينشرها. ولن يتمكن لوسيان أن ينشر سطراً واحداً، وهكذا سنقطع عنه موارد عيشه، ولن يجد أمامه إلا صحيفة مارتنفيل[1] ليدافع عن نفسه، ويدافع عن كورالي، صحيفة واحدة مقابل جميع الصحف، يستحيل عليها الصمود.

- أجاب دي لوپو محترساً التصريح بأن البراءة الملكية التي وعد بها لوسيان هي مجرد دعابة: سأدلكم على نقاط الضعف لدى الوزير حامل الأختام الملكية، لكن عليكم أن تقدموا لي نسخة عن المقال الذي ستدفعون لوسيان إلى كتابته.

غادر دي لوبو صالة ڤودڤيل، وتوجه فينو إلى لوسيان، وبأسلوب الطيبة الذي خُدع به كثير من الأشخاص، شرح له عدم إمكانه التراجع عن التحرير المتوجب عليه للصحيفة الصغيرة وأبدى فينو تحاشيه لفكرة دعوى تقضي على الآمال التي يعلقها صديقه على الحزب الملكي، فهو يحب الأشخاص الأقوياء الذين يغيرون رأيهم، ألا يتوقع أن يتلاقى مع لوسيان في مجريات الحياة، أليس أمام كل منهما آلاف الخدمات الصغيرة الواجب تقديمها؟ إن لوسيان بحاجة إلى رجل موثوق في الحزب الليبرالي للعمل على مهاجمة الموالين للوزارة والمتطرفين الملكيين الذين يرفضون مساعدته.

اختتم فينو كلامه بالقول: «ماذا سنفعل إن تبين لك أنهم يتلاعبون بك؟ وإن خيل لوزير ما أنه يقيدك برسن إرادتك، ولايقيم لك وزناً، ويهمل مطالبك، ألايجب عليك أن تطلق في إثره بعض الكلاب التي تعض ساقيه؟ ولكنك الآن في خلاف مميت مع لوستو الذي يطالب برأسك، وفيليسيان يجافيك ولا يكلمك،

---

(١) هي صحيفة **الراية البيضاء** المقاتلة.

وليس لك غيري! إن أحد قوانين إدارتي المهنية العيش في وئام مع الأشخاص الأقوياء فعلاً، وبإمكانك أن تقدم لي في المجتمع الذي ستندمج فيه ما يماثل الخدمات التي سأقدمها لك في الصحافة. لكن للأعمال المتعاقد عليها الأولوية! فأرسل لي مقالات أدبية صرفة لاتورطك وتنفذ بالتالي اتفاقياتنا.

لم يجد لوسيان إلا الصداقة الممتزجة بحسابات ماهرة في اقتراحات فينو وشكره مبتهجاً لتملقاته وتملقات دي لوبو.

في حياة الطامحين وجميع أولئك الذين لايمكنهم الوصول إلا بمساعدة الناس والأشياء، وبموجب خطة سلوك جيّدة التنسيق تقريباً، منتظمة ومصونة، تمر لحظة قاسية لا أعلم أية قدرة فيها تخضعهم لاختبارات قاسية: ينقص كل شيء دفعة واحدة، وتتقطع الخيوط من جميع الجهات أو تتشابك، وتظهر المصيبة من جميع النقاط. وعندما يفقد إنسان صوابه، وسط الفوضى المعنوية، فإنه يهلك. أما الأفراد الذين يعرفون كيف يصمدون أمام هذه الفتنة الأولى من الظروف غير الملائمة، ويتصلبون إلى أن يمرّ الإعصار، وينتقدون أنفسهم مرتقين بجهد هائل إلى المرتبة الأسمى، فهم الأشخاص الأقوياء حقاً. وكلّ إنسان، إلا من وُلد وفي فمه ملعقة من ذهب، يمرّ عليه إذن ما يجب أن يسمى أسبوع نحسه. وكان هذا الأسبوع بالنسبة لنابوليون هو الانسحاب من موسكو. وقد حلّت هذه اللحظة القاسية بالنسبة للوسيان، فبعد أن تتابع كلّ شيء بشكل ملائم جداً في المجتمع وفي دنيا الأدب، وتمتع بسعادة فائقة، وجب عليه أن يرى الناس والأشياء ينقلبون ضده. وكان الألم الأوّل الأكثر حدّة، والأكثر قسوة منها جميعاً، قد أصابه في المكان الذي يعتقد أنه الأكثر منعة، في قلبه وحبه. يمكن أن تكون كورالي غير ذكية، ولكنها وهبت روحاً حلوة، ولها القدرة على إظهار هذه الروح بتلك الحركات المفاجئة التي تقوم بها كبار الممثلات، وهذه الظاهرة الغريبة إن لم تتحول إلى عادة، نتيجة الاستخدام الطويل، فإنها تخضع لنزوات الطبع ولخَفَر رائع غالباً يسيطر على الممثلات الشابات وكورالي الساذجة الخجول في قرارة نفسها، والجريئة القوية

ظاهرياً، كما يجب أن تكون ممثلة كوميدية، تعاني، وهي العاشقة، من ردّة فعل قلبها كامرأة تحت قناع الممثلة. ففن التعبير عن العواطف، هذا التزييف السامي، مازال غير منتصر لديها على الطبيعة، فهي تخجل من أن تمنح الجمهور ما لايعود إلاللحب وحده. ثم أنها تتميز بالضعف الخاص بالنساء الحقيقيات، ورغم معرفتها بأنها مؤهلة لتهيمن سلطانة على خشبة المسرح فإنها بحاجة إلى النجاح، وهي غير قادرة على مجابهة قاعة لاتتعاطف معها، وترتعش دائماً عند ظهورها على الخشبة، ويمكن لبرود الجمهور أن يجمدها. وهذا الانفعال الرهيب يجعلها تجد في كل دور جديد بداية جديدة، والتصفيق والاستحسان والثناء تثير في نفسها نوعاً من النشوة، لاتزيد من اعتزازها بنفسها، لكنها ضرورية لتوطيد شجاعتها، ودمدمة استهجان أو صمت جمهور غافل عنها يجردها من قدراتها، أما الصالة الممتلئة، المنتبهة، والأنظار المعجبة والمرحبة فتحفزها وتخلق فيها شعور التواصل مع مزايا كلّ هذه النفوس النبيلة، وتحس بالقدرة على الارتفاع بها وتحريك مشاعرها. هذا التأثير المضاعف يبرز جيداً الطبيعة العصبية وبنية الموهبة بكشفه أيضاً عن رهافة أحاسيس تلك الفتاة المسكينة ورقتها. وقد انتهى لوسيان إلى تقدير الكنوز التي يحتويها ذلك القلب، وعرف مجدّداً مدى الخفر العذري لدى خليلته. وكورالي غير الماهرة بتزييفات الممثلة عاجزة عن أن تدافع عن نفسها ضد منافسات الدهاليز والمناورات التي أقدمت عليها فلورين الخطرة والمنحطة بقدر بساطة صديقتها وشهامتها. ورغم أن كثيراً من الأدوار كانت أكثر ملائمة لكورالي، فإنها كانت تأنف أن تلتمسها من المؤلفين أو تخضع لشروطهم المشينة، كما ترفض أن تستسلم لأول صحفي يهددها بملاحقات تغزله ويتوعدها بمقالات ريشته. ولم تكن الموهبة النادرة آنذاك في فن الكوميديا الخارج عن المألوف إلا أحد شروط النجاح، بل إنها تغدو مع الزمن ضارة إن لم تصحبها بعض البراعة في الدسّ والتآمر وهي تنقص قطعاً كورالي. وتوقع لوسيان المتاعب التي تنتظر صديقته في بداية عملها في الجيمناز وأراد مهما يكن الثمن، تأمين انتصار لها. وكانت النقود المتبقية من ثمن الأثاث المباع، وماكسبه

لوسيان قد أنفقت على الملابس، وعلى ترتيب المقصورة، وعلى جميع المصاريف التي تتطلبها البداية. وكان لوسيان قد قام قبل بضعة أيام بمسعى مذلّ دفعه إليه الحب: فأخذ سندات فندان وكاڤاليه وتوجه بها إلى شارع بوردونه ليقترح على كاموزو في متجر الشرنقة الذهبية أن يحسمها له. ولم يكن الشاعر قد وصل إلى حدّ من الفساد حتى يستطيع الذهاب ببرود إلى هذه الغارة. بل نثر كثيراً من الآلام على الطريق، ورصفه بأرهب الأفكار وهو يقول في نفسه على التناوب: نعم! - لا! لكنه وصل مع ذلك إلى المكتب الصغير البارد، الأسود، المنوّر بفناء داخلي حيث يتمركز برزانة، لا عاشق كورالي، المتساهل، الخامل، الفاسق، المتشكك كاموزو كما عرفه، وإنما ربّ العائلة الرصين، الذي تعلو وجهه أمارات الدهاء وعلائم الفضيلة، المقنع بالاحتشام القضائي لعضو محكمة التجارة، المحمي بالبرود المهني لصاحب متجر كبير والمحاط بمستخدميه، وأمناء صناديقه ورزم البضائع الخضراء، والفواتير والعينات، المصحوب بزوجته، وابنة تتجلى البساطة في هندامها، وارتعش لوسيان من رأسه حتى أخمص قدميه وهو يقترب منه، لأن التاجر الوقور ألقى عليه نظرة لا مبالاة متغطرسة، سبق له أن رآها في أعين الحاسمين.

- قال وهو يقف قريباً من التاجر المتربع على كرسيّه: «هي ذي سندات، كم أكون ممتناً لك إن تفضلت بحسمها لي ياسيدي؟!

- قال كاموزو: سبق أن أخذت شيئاً مني أيها السيد، أتذكر ذلك.

عندما اقترب لوسيان وشرح وضع كورالي بصوت منخفض، وهو يهمس في أذن تاجر الحرائر الذي كان يسمع خفقات قلب الشاعر المهيض الجناح. لم يكن في نية كاموزو أن تعاني كورالي السقوط، ونظر، وهو يصغي، إلى التواقيع على السندات، وابتسم، فهو عضو محكمة التجارة ويعرف وضع الكتبيين. وقدّم للوسيان أربعة آلاف وخمسمئة فرنك بعد أن طلب منه التوقيع على ظهر السندات:

استلمت بقيمتها بضائع حريرية[1]. ذهب لوسيان بعد التوقيع واستلام المبلغ مباشرة إلى برولار وعقد معه اتفاقاً ليؤمن التهليل المناسب لتنجيح كورالي، ووعد برولار بحضور إحدى تجارب المسرحية لتحديد المقاطع والأوقات التي يجب على رجاله التصفيق عندها، وقام فعلاً بزيارة المسرح تمهيداًلتنفيذ الاتفاق. قدّم لوسيان مابقي معه من مال لكورالي متكتماً على مسعاه لدى كاموزو، وهدّأ بذلك مخاوف الممثلة وبرنيس اللتين لم تكونا تعرفان كيف ستتدبران نفقات المنزل. وحضر مارتنفيل وهو أحد رجال ذلك الزمن الذين يعرفون جيداً شؤون المسرح، عدة مرّات يراجع مع كورالي دورها. وحصل لوسيان من عدة محررين ملكيين على وعد بكتابة مقالات مقرّظة، لذلك لم يخطر بباله أي فشل، وفي عشية بداية كورالي حصل أمر نكد للوسيان، فقد ظهر كتاب دارتز، وأعطى رئيس تحرير صحيفة هكتور مرلن المؤلف للوسيان باعتباره الرجل الأكثر قدرة على تقييمه، وهو مدين بشهرته المشؤومة لهذا النوع من المقالات التي نشرها عن ناتان. وكان المكتب غاصاً بالبشر، فجميع المحررين حاضرون. وجاء مارتنفيل للتفاهم حول نقطة من الجدل العام المتبنى من الصحف الملكية ضد الصحف الليبرالية، واشتراك ناتان ومرلن وجميع المتعاونين مع **اليقظة** في التداول حول تأثير مجلة ليون جيرو نصف الأسبوعية وهو تأثير يزداد خطراً بقدر ماتتبع المجلة لغة محترسة، متعقلة، ومعتدلة. وكان قد بدىء بالتطرق إلى ذكر منتدى شارع الرياح الأربعة، وسمي مؤتمراً وطنياً، وقرّر أن تعلن الصحف الوطنية حرباً نظامية لا هوادة فيها على هؤلاء الخصوم الخطرين الذين غدوا في الواقع، العاملين لنشر العقيدة، وهم الفئة الخطرة التي تأملت بقلب البوربونيين منذ

---

(١) - هذه الحاشية تجعل من لوسيان تاجراً وتجعله معرضاً للسجن للتخلف عن تسديد دين، واضطر بلزاك في مناسبات عدّة أن يستجيب لهذه الكذبة الخطرة، ففي أول كانون ثاني ١٨٣١ وقع لأمر الكسندر برني على ثلاثة سندات بقيمة ثلاثمئة فرنك لكل منها مذيلة بحاشية: استلمت بقيمتها لوازم، كما وقع بعد خمسة عشر يوماً على سند آخر مذيل بذات الحاشية وبقيمة ٣٥٠ ف (عن بوفيه ومايانيال: حسابات بلزاك المأساوية).

اليوم الذي قادت اليهم فيه أحد الانتقامات الأكثر خسة، ألمع كاتب ملكي ليتحالف معهم وينضم إلى صفوفهم[1]، وكان دارتز الذي لم تعرف آراؤه حول نصرة الحكم المطلق مشمولاً بالنقمة التي أعلنها الملكيون على المنتدى، وهو أول ضحاياها، ويجب أن يقصم ظهر كتابه وفقاً للكلمة الكلاسيكية السائدة. ورفض لوسيان إنشاء مقال مؤيد لهذا الرأي. وأثار هذا الرفض أعنف احتجاج بين الرجال ذوي الشأن من الحزب الملكي الذين حضروا هذا الاجتماع وأعلن للوسيان صراحة أن المهتدي الجديد ملتزم بالسير على نهج حزبه ولايملك إرادة مستقلة، وإذا لم يوافقه الانتماء إلى الملكية والدين فيمكنه العودة إلى معسكره الأول: وانتحى به مرلن ومارتنڤيل جانباً وبينا له بودّ أنه يعرض كورالي لحقد الصحف الليبرالية الذي أضمرته له، وستمتنع الصحف الملكية والوزارية، نتيجة موقفه، عن الدفاع عنها، وستثير الممثلة، دون شك، حرباً كلامية ملتهبة، تتوقف على نتائجها الشهرة التي تسعى إليها جميع نساء المسرح.

قال له مارتنڤيل: «أنت لاتعرف مايجري ستمثل كورالي خلال ثلاثة أشهر وسط نيران مقالاتنا المتبادلة، وستجد في متناول يدها ثلاثين ألف فرنك لقضاء عطلة ثلاثة أشهر في المقاطعات، ومن أجل واحد من هذه الوساوس التي تمنعك من أن تكون رجلاً سياسياً، والتي يجب أن تدوسها بقدميك، ستقتل كورالي ومستقبلك، وتقضي على مورد عيشك». وجد لوسيان نفسه مضطراً لأن يختار بين دارتز وكورالي، فخليلته ستتدمر إن لم يهاجم دارتز في الصحيفة الكبيرة وفي **اليقظة**، وعاد الشاعر المسكين إلى منزله واليأس القاتل يشدُّ على خناقه، وجلس في غرفته قرب النار يقرأ هذا الكتاب، أحد أجمل مؤلفات الأدب الحديث، وترك عبراته تنهمر بين الصفحة والأخرى، وتردّد طويلاً، لكنه كتب أخيراً مقالاً

---

(١) - انتقل شاتوبريان إلى المعارضة في حزيران ١٨٢٤، بعد أن أقيل من منصبه بتهمة سرقة ساعة الملك عن حافة المدفأة، وهو المقصود بتلميح ألمع كاتب ملكي. أما اعتبار حالمي شارع الرياح الأربعة طليعة العاملين «لنشر العقيدة» فلا يخلو من غموض لكن فيه بعض شبه مع مجموعة مؤسسي صحيفة «غلوب Globe لرو، وورلن، وبرتران، ودوبوا الذين تطرق إليهم رموزا في «مذكراته».

ساخراً، وهو الخبير بهذا النوع من الكتابة، تناول فيه الكتاب كما يتناول الأولاد العابثون عصفوراً جميلاً من قفصه لينتفوا ريشه ويعذبوه. وكانت سخريته الرهيبة من طبيعة تضر بالكتاب. وعندما أعاد لوسيان قراءة هذا المقال الممتع استيقظت جميع عواطفه الطيبة: فنزل من غرفته وعبر شوارع باريس في منتصف الليل، ووصل إلى مقابل الغرفة التي يسكنها دارتز، ورأى عبر زجاج النافذة النور الخجول الطاهر الذي كان يتأمله غالباً بعواطف الإعجاب والتقدير التي تستحقها مثابرة هذا الرجل الكبير النبيلة. لم يجد في نفسه الجرأة على الصعود، فاتكأ على أحد صوى الطريق لفترة من الوقت وأخيراً دفعه ملاكه الهاوي فقرع الباب ودخل ليجد دارتز يقرأ وليس في غرفته نار تدفئة.

قدَّر الكاتب الشاب عند رؤية لوسيان أن كارثة رهيبة قد دفعته إلى المجيء إليه في مثل هذا الوقت فسأله: «ماذا حدث لك؟».

- هتف لوسيان والدموع تملأ عينيه: كتابك في منتهى السمو والرفعة وقد أمرت بمهاجمته.

- قال دارتز: ياولدي المسكين، إنك تأكل خبزاً شديد القسوة.

- لا أطلب منك إلا معروفاً واحداً، وهو أن تبقي زيارتي طي الكتمان، وتتركني في جحيمي مع معاناتي المهلكة، فربما لايستطيع المرء أن يصل إلى شيء دون أن يسبب لنفسه يبوسات في الأماكن الأكثر حساسية من قلبه.

- قال دارتز: ماتزال كما كنت!

- أتعتقدني جباناً خسيساً؟ كلا، يادارتز، كلا، إنما أنا فتى متيم حبّاً.

وشرح له وضعه.

قال دارتز متأثراً بما رواه له لوسيان عن كورالي: «لنرَ المقال».

ناوله لوسيان المخطوط، وقرأه دارتز، ولم يستطع أن يمتنع عن الابتسام قائلاً في نفسه: «أي استخدام مشؤوم للذكاء!». لكنه صمت وهو يرى لوسيان متقلباً

على كنبته وهو يعاني ألما حقيقياً، فقال له: «أتريد أن تتركه لي لتصحيحه؟ سأرسله لك غداً، إن السخرية تعيب مؤلفاً، لكن النقد الرصين الجدي يُعدُّ أحياناً مديحاً، وبإمكاني أن أجعل مقالك جديراً بالاحترام، ومشرفاً لك ولي. زد على أنني، أنا وحدي، أعرف جيداً أخطائي.

- قال لوسيان وهو يرتمي بين ذراعي دارتز، ويبكي، ويقبل جبينه عند صعود سفح قاحل، تصادف أحياناً ثمرة تخفف من حدة الظمأ الرهيب، وهاهي هذه الثمرة. يبدو لي أنني أعهد إليك بوجداني لتردّه إليّ في أحد الأيام.

- قال دارتز بمهابة: إنني أعدّ الندامة الدورية نفاقاً كبيراً، فهي تغدو عندئذ مكافأة تمنح على السيئات، أما الندامة الحقيقية فهي عذرية تدين بها روحنا لله: الرجل الذي يندم مرتين نمام رهيب، وأنا أخشى ألا ترى في نداماتك إلاالمغفرات!».

صعقت هذه الكلمات لوسيان الذي عاد بخطا بطيئة إلى شارع القمر. وفي اليوم التالي حمل إلى الصحيفة مقاله المعاد والمنقح من دارتز، لكنه منذ ذلك اليوم اعترته كآبة لم يعرف كيف يخفيها، وعندما حلّ المساء الذي رأى فيه قاعة الجيمناز ممتلئة، أحس بانفعالات رهيبة تسببها بداية المسرح، وقد كبرت لديه بكلّ قدرة حبه. فكل تبجحاته رهن هذه الأمسية، وشمل بنظرته جميع الملامح كشمول نظرة متهم لوجوه المحلفين والقضاة: تمتمة تجعله يرتعش، حدث صغير على خشبة المسرح، دخول كورالي وخروجها، أقل تغيير في نبرات الصوت يقلقه إلى أبعد حد. وكانت المسرحية التي بدأت بها كورالي من المسرحيات المعرضة للسقوط، لكن يمكنٍ أن تبرز ثانية. وسقطت المسرحية. لم يصفق لكورالي عند ظهورها على الخشبة، وفوجئت ببرود النظارة، ولم يصفق أحدٌ في المقاصير إلا كاموزو وعمد الأشخاص الموجودون في الشرفة والأروقة إلى إسكات التاجر بكلمات صه المتكررة. كما فرضت الأروقة الصمت على المصفقين المأجورين عندما عمدوا إلى رشقات تصفيق مبالغ فيها بداية. وأبدى مارتنفيل إعجابه بجرأة، وقلدته فلورين المنافقة، وناتان

ومرلن. وما أن سقطت المسرحية حتى أقبل جمع من الحضور على مقصورة كورالي، لكن هذا الجمع زاد من ألم الممثلة بالمؤاساة المتكلفة التي أبداها، وتفاقم قنوط كورالي، لما لاحظته من شعور لوسيان بالخيبة وهو يقول بمرارة: «خاننا برولار».

أصيبت كورالي بحمى رهيبة. فالمحنة أثرت على قلبها، وتعذر عليها استئناف التمثيل، رأت نفسها وقد منيت بفشل ذريع يعطل مسيرتها المهنية. وأخفى لوسيان عنها الصحف وفضها في قاعة الطعام، ولاحظ أن جميع المعلقين المسرحيين ينسبون سقوط المسرحية إلى كورالي: لقد غالت في تقدير قواها، إنها، وهي التي كانت مبعث الإمتاع والبهجة في الجادات، تقهقرت في الجيمناز واندفعت فيه بطموح تحمد عليه، لكنها لم تقدر إمكاناتها، وأهملت دورها. وقرأ لوسيان عندئذ عن كورالي خليطاً مركباً على نسق مقاله المنافق عن ناتان؟ فتفجر لوسيان غضباً مماثلاً لغضب ميلون دي كروتون(*) عندما علقت يداه بجذع السنديانة الذي شقه بنفسه، وغدا شاحباً ممتقع الوجه، فأصدقاؤه قدموا لكورالي بعبارات طنانة متكلفة تثير الإعجاب بمظاهر الطيبة، والمحاباة والمنفعة، النصائح الأكثر خداعاً، قيل فيها: إن عليها أن تمثل أدواراً يعرف مؤلفو هذه المقالات اليومية المخزية الماكرون أنها مخالفة تماماً لموهبتها. هكذا كان موقف الصحف الملكية الموجه دون شك من قبل ناتان، أما الصحف الليبرالية، والصحف الصغيرة فقد عرضت الخُدع والسخريات التي سبق للوسيان تطبيقها وممارستها. وسمعت كورالي نحيباً تكرر مرّة أو مرتين فقفزت من سريرها نحو لوسيان، ولاحظت الصحف، وأرادت مشاهدتها وقراءتها، وبعد هذه القراءة، عادت تحاول النوم ثانية والتزمت الصمت، ففلورين مشاركة في المؤامرة وتوقعت النتيجة، وهي تعرف دور كورالي وسبق أن راجعته بمساعدة ناتان. وأرادت

(*) - ميلون دي كروتون M. de CROTONE: بطل أولومبي من القرن السادس ق.م لم يتمكن من التخلص من جذع الشجرة التي كان يقطعها بنفسه. وهاجمته الوحوش المفترسة وهو عالق بها وقضت عليه.

الإدارة المتمسكة بالمسرحية إعطاء دور كورالي لفلورين، وحضر المدير يزور الممثلة المسكينة، فوجدها باكية، مقهورة، لكنها انتصبت، عندما قال لها أمام لوسيان إن فلورين تعرف الدور، ويتعذر عليه ألا يعرض المسرحية في المساء، وقفزت إلى خارج السرير صائحة: «سأمثل» لكنها سقطت مغشياً عليها، وهكذا أعطي الدور لفلورين، ونجحت به، ونهضت بالمسرحية من كبوتها، فذاع صيتها، وهللت لها الصحف ورحبت وعُدَّت تلك الممثلة الكبيرة التي تعرفونها. وأسخط انتصار فلورين لوسيان إلى أبعد حدّ. وقال: بائسة وضعت اللقمة في فمها، إن أرادها الجيمناز يمكنه إلغاء عقدك لقاء تعويض، وسأغدو الكونت دي روبمبره، وسأجمع ثروة وأتزوجك.

- قالت كورالي وهي تلقي عليه نظرة شاحبة: ياللحماقة!.

- صاح لوسيان: حماقة! حَسَنٌ، خلال أيام ستسكنين منزلاً فخماً، وسيكون لك عربة جديدة، وسأؤمن لك دوراً في أحد المسارح!.

وضع في جيبه ألفي فرنك وهرع إلى فراسكاتي يقامر، وبقي التعيس سبع ساعات والأهواء تنهشه رغم البرود والهدوء الظاهرين على وجهه، وتناوبت عليه خلال ذلك النهار وقسماً من الليل مختلف الحظوظ، وصلت أرباحه إلى ثلاثين ألف فرنك، ثم خرج ولا فلس معه، وعندما عاد إلى بيته وجد فينو ينتظر لاستلام مقالاته الصغيرة وارتكب لوسيان عندها خطأ الشكوى.

أجاب فينو: «آه! ليس كل شيء وردياً، قمت بشكل مفاجئ بإجراء نصف دورة مولياً ظهرك لليسار حتى فقدت مساندة الصحافة الليبرالية الأكثر قوة من الصحافة الوزارية والملكية. لايجب أبداً الانتقال من معسكر إلى آخر قبل تهيئة سرير جيّد، يمكن التأسي فيه عن الخسارة المتوقعة، ولكن في جميع الحالات، على الرجل العاقل أن يرى أصدقاءه، ويشرح لهم أسبابه، ويطلب نصحهم حول جحوده العلني حتى يغدوا متواطئين معه، ليرقوا لحاله عندئذ، ومن اللائق آنذاك، وعلى شاكلة

ناتان ومرلن وتعاملهما مع رفاقهما، القيام بخدمات متبادلة. إن الذئاب لايأكل بعضها بعضها الآخر. أما أنت فقد كنت في هذه القضية ببراءة الحمل، وستكون مجبراً على أن تكشر عن أنيابك تجاه حزبك الجديد لتنال فخذاً أو جناحاً، هكذا ضحي بك عندما اقتضت الضرورة لمصلحة ناتان. ولن أخفي عليك الضجة والاستنكار، والصرخات المتكررة التي سببها مقالك ضد دارتز، فمارا يُعد قديساً بالمقارنة بك، والهجمات ضدك تحضر الآن، وسيسقط كتابك، إلى أين وصلت في روايتك؟

- قال لوسيان وهو يشير إلى رزمة من المسودات الطباعية: هي ذي الملازم الأخيرة.

- تنسب إليك مقالات غير موقعة في الصحف الوزارية والملكية المتطرفة ضد هذا الفتى الطيب دارتز، والآن تلاحظ في كل يوم، توجيه وخزات دبابيس صحيفة **اليقظة** موجهة ضد جماعة شارع الرياح الأربعة، والسخريات أشد إدماءً عند زيادة هزلها. وهناك عصبة سياسية كاملة رصينة وجدية توجه صحيفة ليون جيرو، عصبة ستصل إلى السلطة عاجلاً أو آجلاً.

- لم تطأ قدمي مكاتب صحيفة **اليقظة** منذ ثمانية أيام.

- وبعد، فكر في مقالاتي الصغيرة، اجعلها نحو خمسين في الحال، وسأسدد لك قيمتها نقداً ولكن اجعلها وفق صبغة الصحيفة.

وعرض فينو بلا مبالاة على لوسيان موضوع المقال الساخر ضد الوزير حامل الأختام الملكية، وهو يقصّ عليه طرفة مزعومة يتندر فيها عنه في الصالونات، حسب قوله.

استعاد لوسيان، للتعويض عن خسارته في المقامرة، ورغم ماتعرض له من إحباط، القريحة، وتوقد الذكاء، فأنشأ ثلاثين مقالاً ليشغل كلّ منها عمودين في الصحيفة وما أن انتهى منها حتى توجه إلى مكتب دوريا، وهو واثق من التقائه هناك

مع فينو ليسلمه سراً مقالاته، كما أنه سيراجع الكتبي بشأن التأخر الحاصل في نشر ديوان **أزهار المرغريت**، ووجد المكتب ممتلئاً بأعدائه، وساد صمت كامل عند دخوله، وانقطع الحديث، وأحسّ لوسيان برؤية نفسه مبعداً عن الصحافة بشجاعة فائقة، وتذكر موقفه في ممر اللوكسمبورغ وردّد مرة أخرى: «سأنتصر!». لم يلق من دوريا لا الرعاية ولا الرقة، بل بدا له متهكماً، محتفظاً بحقوقه: سينشر الديوان عندما يحلو له، وهو ينتظر وصول لوسيان إلى مكانة تؤمن لكتابه النجاح، وقد اشترى ملكيته كاملةً، وعندما اعترض لوسيان مبيّناً لدوريا أنه ملزم بنشر ديوانه بناءً على طبيعة العقد ذاتها، وصفة المتعاقدين، رأى الكتبي عكس ذلك وقال: لايمكن من وجهة النظر القضائية قسره على عملية يحكم بسوئها، ويعود إليه وحده تحديد الوقت المناسب للنشر. ومع ذلك يوجد حلٌّ توافق عليه جميع المحاكم: وهو ردّ لوسيان للثلاثة آلاف فرنك، واستعادة مخطوطة ديوانه والعمل على نشره لدى كتبي من الحزب الملكي.

انسحب لوسيان وهو أكثر استياءً من اللهجة المعتدلة التي اتخذها دوريا الآن، وبدت له أكثر مكراً من عجرفته الفردية خلال مقابلتهما الأولى. وهكذا فديوان **أزهار المرغريت** لن ينشر، على الأرجح، إلا في اللحظة التي يكون فيها للوسيان قوى رفقة مساعدة قادرة أو أن يغدو رهيباً بذاته، وعاد الشاعر إلى منزله ببطء، وهو فريسة يأس يقوده إلى الانتحار لو أن الفعل يتبع الفكر، ورأى كورالي في السرير شاحبة متأملة.

قالت له برنيس وهو يرتدي ثيابه ليذهب إلى شارع مون - بلان حيث دعت الآنسة دي توش إلى سهرة عامرة يحضرها دي لوبو، وفينيون، وبلونده، والسيدة دسبار والسيدة دي بارجتون: «ستموت إن لم تحصل على دور في المسرح».

كانت الأمسية على شرف كونتي المؤلف الموسيقي الكبير الذي يمتلك أحد الأصوات الأكثر شهرة خارج المسرح، وعلى شرف لاسنتي، ولاباستا، وغارسيا،

وليفاسور[1] وصوتين أو ثلاثة أصوات شهيرة من المجتمع المخملي. وانزلق لوسيان إلى المكان الذي تجلس فيه المركيزة دسبار ونسيبتها السيدة دي بارجتون، والسيدة دي مونكورنه، واتخذ الشاب التعيس مظهراً نشيطاً، ومرحاً، وسعيداً، وراح يمزح، وظهر كما في أيام أبهته، ولم يرد أبداً أن يبدو وكأنه بحاجة إلي مجتمع النخبة، بل استرسل في ذكر الخدمات التي أداها للحزب الملكي، وأعطى دليلا على ذلك صيحات الحقد التي يوجهها الليبراليون إليه.

قالت له السيدة دي بارجتون وابتسامة عذبة تبرق على محياها: «ستكافأ بسخاء ياصديقي، اذهب بعد غدٍ إلى وزارة العدل مع مالك الحزين ودي لوبو، وستجد براءتك موقعة من الملك، فوزير العدل، حامل الأختام الملكية، سيحملها غداً إلى القصر، ولكن سينعقد اجتماع ولن يعود الوزير إلا متأخراً، غير أنني إن علمت النتيجة خلال السهرة، فسأرسل من ينبئك بها.

أين تسكن؟.

أجاب لوسيان خجلاً من أن يعطي عنوانه في شارع القمر: سآتي اليك.

- استأنفت المركيزة دسبار: تكلّم الدوقان دي لينينكور ودي ناڤارين بشأنك إلى الملك، وأشادا بك كأحد هؤلاء الأشخاص ذوي الإخلاص المطلق والكامل الذين يستحقون مكافأة لامعة تهيىء لهم الانتقام من اضطهادات الحزب الليبرالي، زد على أن اسم ولقب دي روبمبره اللذين يؤولان إليك عن طريق أمك سيغدوان شهيرين بحملك إياهما. وطلب الملك من معالي وزيره، مساءً، أن يُعد براءة ملكية

(١) - لور - سنيتي مونتالان، السيدة دامورو المعروفة تحت الاسم الايطالي لاسينتي (١٨٠١ - ١٨٦٣) وتميزت في الأغنيات الايطالية. وكانت شهرة جيوديتا نيغري لاباستا (١٧٩٨ - ١٨٦٥) التي حازت بشغف على إعجاب ستندال تقارن - نسبة لذات الزمن بشهرة ماليبران. كما تمتع مانويل غارسيا (١٧٧٥ - ١٨٣٢) والد ماليبران، كموسيقي ومغني وفي زمن مبكر كمربي بشهرة اوربية. أما نيكولا - بروسبير ليفاسور (١٧٩١ - ١٨٧١) وهو فرنسي كسينتي، من أحسن الموسيقيين الإيطاليين، وكانت سكالا من المعجبين به. وساهم جميع هؤلاء الفنانين بانتصار روسيني. وذكر بلزاك على الترتيب سوبرانو، وكونترالتو، وتينور، وباص.

تجيز للسيد لوسيان شاردون حمل اسم وألقاب كونتات دي روبمبره، باعتباره حفيد آخر كونت من جهة والدته، وقال الملك، «لنشجع حساسين البيند» وذلك بعد أن قرأ السونيتة التي نظمتها عن زهرة الزنبق والتي لم يفت نسيبتي لحسن الحظ أن تعطيها للدوق. أجاب الدوق دي نافارين: «وخاصة أن الملك يمكن أن يصنع أعجوبة تحويل الحساسين(*) إلى نسور».

أبدى لوسيان فيض عاطفة قلبية كان يمكن أن يحنن امرأة أقل شعوراً بعمق جرح الإهانة من لويز دسبار دي نغربليس. فبقدر وسامة لوسيان كان تعطشها للانتقام. فدي لوبو كان على حق، أخطأ لوسيان في لباقة التصرف، ولم يعرف أن البراءة الملكية التي حُدث عنها ليست إلا دعابة من الدعابات التي تحسن السيدة دسبار صياغتها، وتشجع بهذا النجاح وبالتقدير المغري الذي كانت تبديه الآنسة دي توش نحوه، فبقي عندها حتى الساعة الثانية صباحاً ليتمكن أن يحدثها على انفراد بشأن خاص، فقد عرف لوسيان من مكاتب الصحف الملكية، أن الآنسة دي توش هي المساعدة السرية لإعداد مسرحية تمثل فيها المعجزة الكبيرة في ذلك الحين الصغيرة فاي[1]. وعندما غادر جميع المدعوين، وخلَت الصالونات، جلس قرب الآنسة دي توش على كنبة وقص عليها بطريقة مؤثرة جداً، ماتعانيه كورالي من ألم ومشاركته لها في آلامها، فرقت تلك الخنثى الشهيرة لحالها ووعدته بأن تعطي الدور الرئيس في المسرحية لكورالي.

(*) - يوجد في هذه العبارة تلاعب في الألفاظ عن طريق الجناس بين اسم شاردون CHARDON واسم CHARDONNERETS حساسين، كما أن السونيتة التي تغني بها لوسيان بزهرة الزنبق - وهي رمز الملكية في فرنسة تبدو بمثابة مديح من الشاعر لعودة الملكية (المترجم)

(١) - ليونتين فاي، المولودة في العام ١٨١٠، صعدت على خشبة المسرح وعمرها خمس سنوات وأثار ظهور هذه الطفلة في مسرح الجيمناز موجة عارمة من الإفتتان، وتزوجت فيما بعد الممثل ڤولنيس وتابعت التمثيل تحت اسم السيدة ڤولنيس لكنها كانت قدراً محطماً كما قال بلزاك «مثل جميع الخشخاشات البشرية التي تتسلى بها باريس» ويضيف: «في العمر الذي كانت فيه الآنسة مارس ألماسة لاشائبة فيها، والمسارح التي تمثل على خشبتها تغصُّ بالمشاهدين لم تكن الصغيرة فاي قادرة على تأمين ٣٠٠ف (من رسالة للسيدة هانسكا بتاريخ ١١ أيار ١٨٤٣).

في اليوم التالي لتلك الأمسية، وفي اللحظة التي عادت فيها كورالي إلى الحياة منتعشة وسعيدة بوعد الآنسة دتوش للوسيان، وبينما كانت تتناول طعام الغداء مع شاعرها وهو يقلب بين يديه صحيفة لوستو التي توجد فيها الحكاية التهكمية المتضمنة الطرفة المختلقة عن الوزير حامل الأختام الملكية وزوجته، وقد تجلى فيها الخبث الأكثر سواداً يحوكه الذكاء الأكثر حدة، فقد أظهر لويس الثامن عشر في هذه الحكاية بشكل يدعو إلى الإعجاب، واستهزىء به، دون أن تتمكّن النيابة العامة من التدخل، وإليكم الحدث الذي حاول الحزب الليبرالي أن يعطيه مظهر الحقيقة لكنه لم يزد عن تضخيم عدد النمائم الفكاهية(١).

فُسر الهوى الذي أبداه لويس الثامن عشر للمراسلة الرقيقة المعسولة الممتلئة بالأهزوجات الغزلية الشعرية والشرر الوماض كتعبير أخير عن حبّه الذي غدا مذهبياً فقد انتقل على مايقال من الفعل إلى الفكر(٢)، فالخليلة الشهيرة التي هوجمت بقسوة من قبل برانجه تحت اسم أوكتافي(٣) أحست بالمخاوف الأكثر جدية.

---

(١) - أشار آ. آدم إلى أن هذه الطرفة عمت الصالونات - إنما في العام ١٨٢٥ - وكان ناشرها الكونت دي مونغايار في الجزء الأوّل من كتابه تاريخ فرنسة (١٨٣٢ - ١٨٣٣)، وكانت خليلة الملك السيدة دو كايلا، وزوجة وزير العدل حامل الأختام الملكية السيدة دي سير. وفي ٢٦ أيلول ١٨٣٩ كانت دهشة بلزاك كبيرة لتلقيه من الكونتيسة دي سير، أرملة الوزير رسالة لطيفة، إنما هي على الأقل، غير حاذقة تقول فيها: «تسمح لي إذن، ياسيدي، لأن جميع من يعرفون حقيقة هذه الحكاية لم يغيبهم الثرى، أن أناشد عدالتك، واستقامتك وأجرؤ على أن آمل بأن تقوم في طبعة قادمة لرواية **رجل كبير من المقاطعات**، أو في تتمة هذا المؤلف التي أعلنت عنها، بتصحيح ادعاء مشكوك به، بالتصريح أن هذه الطرفة مختلقة كلياً، واستجاب بلزاك للطلب، وردت السيدة دي سير برسالة شكر (بتاريخ ٤ تشرين أول)، وبالفعل خفف الروائي من تلميحاته في طبعة لاحقة.

(١) - هذا مايقوله تماماً فولابيل في مؤلفه تاريخ عودة الملكيين (الجزء الثامن): «رفضت الطبيعة منحه القدرة الذكورية، فكانت كل لواعج حبّه في مخه، وهكذا كان يجد لذة في المحادثات المتوددّة، وكانت ذاكرته سجلاً لاينضب لطرف إباحيّة.

(٢) - برانجه، بيير جان دي (١٧٨٠ - ١٨٥٧) شاعر وقوال فرنسي Chansonnier ومعارض للحكم الملكي إحدى قصائده بعنوان (أوكتافي ١٨٢٣) وفيها: «ياأوكتافي الناعمة . . . لاتسلمي ورود شفتيك لقبلات الشبح العاجز الميتة».

فالمراسلات بدأت تفتر، وكلما زادت أوكتافي من بلاغتها، ازداد عشيقها برودة واكمداداً، وأخيراً اكتشفت أوكتافي سبب زوال حظوتها، فنفوذها قد هدّد ببواكير مراسلة جديدة وتوابلها للكاتب الملكي، مع زوجة الوزير حامل الأختام الملكية. لكن هذه المرأة الممتازة عاجزة عن كتابة بطاقة صغيرة، ممادفع إلى الظنّ بأن تكون الناشرة المسؤولة، دون قيد أو شرط، لطَموح جريء، ولكن من يكون مختبئاً تحت تنورتها؟ وبعد عدة ملاحظات، اكتشفت اوكتافي أن الملك يراسل وزيره، ووضعت خطتها بمساعدة صديق أمين فأمنت جلسة مطولة لمجلس الوزراء، وكشفت للملك خدعة وزيره، واستثارت كبرياءه وعزة نفسه، وانتابت لويس الثامن عشر غضبة بوربونية وملكية شملت أوكتافي متشككاً بصدق تصريحها، وعرضت أوكتافي الحصول على البرهان السريع لصحة كلامها بتوجيه رسالة إلى زوجة الوزير مراسلته الجديدة، طالباً الرد حالاً، وأسقط بيد المرأة المسكينة، وأرسلت تستدعي زوجها من المجلس، لكن كان كل شيء متوقعاً، والحيطة متخذة، والزوج في تلك اللحظة على المنصة، وتصببت المرأة دماً وعرقاً، وقدحت زناد فكرها وأجابت بما تيسر لها، وهتفت أوكتافي ضاحكة من خيبة أمل الملك: «سيتمم لك وزير عدلك، حامل أختامك، الجواب». عُدَّ نشر هذا المقال، رغم افترائه، طعنة نجلاء توجه لوزير العدل، وزوجته وللملك. ويقال إن دي لوبو، الذي حافظ فينو دائماً على سره هو الذي اختلق هذه الحكاية. وعمت الفرحة بسبب هذا المقال الفكاهي اللاذع أوساط الحزب الليبرالي، وحزب أكبر أخوة الملك، وفرح لوسيان بدوره، عند قراءته، دون أن يرى فيه شيئاً، إلا أنّه خبر كاذب ممتع وذهب في اليوم التالي، ليصحب البارون دو شاتليه ودي لوبو إلى وزارة العدل، فالبارون يريد أن يشكر معالي رئيس الديوان الملكي، إذ أن السيّد شاتليه سمي مستشار دولةٍ في مهمة استثنائية، وأعطي لقب كونت ووعداً بتعيينه محافظ شارنت بعد أن يتم المحافظ الحالي الأشهر القليلة المتبقية له ليتمم المدة اللازمة للحصول على كامل مرتّب التقاعد. وقام الكونت دو شاتليه - لأن «دو» مدرجة في صك البراءة - باصطحاب لوسيان في عربته، وعامله على قدم المساواة معه، فلولا مقالاته لما وصل بمثل هذه

السرعة، على الأرجح، فمضايقات الليبراليين كانت بمثابة قاعدة لارتقائه. وكان دي لوبو في مكتب السكرتير العام لوزارة العدل، وعندما رأى هذا الموظف الكبير لوسيان داخلاً، انتفض مغتاظاً ومندهشاً ونظر إلى دي لوبو وقال مخاطباً لوسيان:

«كيف تجرؤ على المجيء إلى هنا أيها السيد؟ إن صاحب المعالي مزّق براءتك المعدّة، وهاهي!» وأشار إلى أول ورقة وقعت بين يديه ممزقة إلى أربعة أقسام، وتابع: أراد الوزير أن يعرف مؤلف مقال البارحة الرهيب، وهاهي نسخة عن العدد، ومد يده إلى لوسيان يعرض له أوراق مقاله. إنك تدعي بانتمائك إلى الحزب الملكي، أيها السيد بينما تتعاون مع هذه الصحيفة المخزية التي تشيب شعر الوزراء، وتكدّر المراكز وتقود إلى لجة الهاوية. تتغدى مع صحف **القرصان والمرآة، والدستوري والبريد**، وتتعشى مع **اليومية واليقظة**، وتتناول الوجبة الليلية مع مارتنفيل أرهب مناوىء للوزارة، ومحرض الملك على الحكم المطلق مما يؤدي به إلى ثورة تهب بمثل سرعة هبوبها لو أنه انحاز إلى أقصى اليسار؟. إنك صحفي نبيه جداً، لكنك لن تكون أبداً رجل سياسة، قام الوزير بتبليغ الملك عنك باعتبارك كاتب المقال، وبلغ غضب الملك درجة دفعته إلى توبيخ الدوق دي نافارين النبيل الأول في خدمته، كوّنت لنفسك أعداءً ازداد حقدهم عليك بقدر حظوتك لديهم، إذ أن مايعد طبيعياً إن بَدَرَ من عدوٍ، يعد رهيباً إن بدر من صديق.

وقال دي لوبو: إنك طفل إذن ياعزيزي؟ لقد ورطتني. ولاشك أن السيدات دسبار، ودي بارجتون، ودي مونكورنه اللواتي دعمنك سيكّن مغتاظات الآن. فالدوق سينقل مالقيه من غضب الملك إلى المركيزة، وستؤنب المركيزة نسيبتها، فلا تذهب إليهن! وانتظر مرور العاصفة.

قال السكرتير العام: «هوذا معالي الوزير، فاخرج».

وجد لوسيان نفسه في ساحة ڤندوم مخبولاً كرجل وجهت إلى رأسه ضربة هراوة وعاد سيراً على قدميه إلى الجادات وهو يحاول أن يحكم على تصرفاته، فرأى

نفسه لعبة بين أيدي أناس حسودين وجشعين وغدارين. من هو في عالم الأطماع هذا؟ متى يسعى وراء ملذات الغرور ومسراته، مضحياً بكل شيء من أجله، شاعر دون تفكير عميق ينتقل بين نور ونور كفراشة، دون خطة ثابتة، عبد الظروف، يفكر جيداً لكنه يتصرف بشكل سيىء. كان ضميره جلاداً لايرحم. أخيراً هاهو مهدّد بالإفلاس وقد أرهقه العمل، وأنهكه الألم، ومقالاته لايأتيها الدور إلا بعد مقالات مرلن وناتان إنه مقبل على مغامرة، وهو تائه في أفكاره، ورأى أثناء سيره، في بعض قاعات المطالعة الأدبية التي بدأت تقدّم كُتباً للقراءة مع الصحف إعلانا يشير تحت عنوان غريب بدا له مجهولاً كلياً، واسمه كمؤلف يلتمع تحته: تأليف السيد لوسيان شاردون دي روبمبره. فمؤلفه قد ظهر إذن، وهو لايعلم عنه شيئاً، والصحف صمتت عنه تماماً، ووقف دون حراك وقد تدلت ذراعاه دون أن يلاحظ فريقاً من الشباب الأكثر أناقة، من بينهم راستينياك، ودي مارسي، وآخرون من معارفه، ولم ينتبه إلى ميشيل كرستيان وليون جيرو القادمين نحوه.

قال له ميشيل بصوت طن في أحشاء لوسيان كاوتار مشدودة: «أنت السيد شاردون؟

أجاب وقد شحب وجهه: ألا تعرفني؟

بصق ميشيل في وجهه وهو يقول: هي ذي أجرة مقالاتك ضد ناتان، لو أن كل فرد يتصرف مثل تصرفي الآن دفاعاً عن قضيته أو قضية أصدقائه، لبقيت الصحافة كما يجب أن تكون: جماعة إكليروس يحترمون ويستحقون الاحترام.

ترنح لوسيان واستند إلى راستينياك وهو يقول له، وكذلك للسيد دي مارسي: «أيها السيدان، لن ترفضا أن تكونا شاهديَّ، لكنني أريد أولاً التعادل في المباراة، لتكون المبارزة واقعة لا محالة.

ووجه لوسيان صفعة شديدة لميشيل لم يكن يتوقعها، وتدخل المتأنقون وأصدقاء ميشيل بين الجمهوري والملكي كي لايأخذ النزاع طابعاً سوقياً. وأمسك راستينياك بلوسيان وقاده إلى بيته في شارع تيتبوت القريب من ذلك المكان عند جادة

غان[1]، والوقت موعد العشاء، فالتجمعات قليلة آنذاك. وجاء دي مارسي لرؤية لوسيان، وألزمه الغندوران بتناول العشاء معهما في جو المقهى الانكليزي المرح حيث يمكنهما السكر.

- قال له دي مارسي: «هل تجيد المبارزة بالسيف؟».

- لم أمسك به في حياتي.

- وقال راستينياك: وبالمسدس؟

- لم يسبق أن أطلقت رصاصة.

قال دي مارسي: إنك تعتمد على المصادفة، وبالتالي فأنت خصم رهيب، ويمكنك القضاء على خصمك. وجد لوسيان كورالي لحسن الحظ نائمة، فالممثلة لعبت دوراً في مسرحية صغيرة دون توقّع وأخذت بثأرها إذ قوبلت بتصفيق عفوي غير مستأجر، ولم يكن أعداؤها يتوقعون هذه الأمسية، وهذا مادفع المدير ليعهد إليها بالدور الرئيس في مسرحية كميل موبن، إذ أنه أدرك سبب عدم نجاح كورالي في بداية تمثيلها، واغتاظ من دسائس فلورين وناتان لإسقاط ممثلة اعتمد عليها وسبق له التعاقد معها فعزم على أن يشملها بحماية الإدارة. في الساعة الخامسة صباحاً جاء راستينياك ليصحب لوسيان، وقال له مجاملاً:

« ياعزيزي، إن مسكنك على نسق شارعك، لنكن أوّل الواصلين إلى الموعد على طريق كلينيانكور، إنه مكان مناسب، وسنكون قدوة طيبة، وقال دي مارسي، عندما بدأت العربة تجري في شارع سان دنيس: ستتبارزان بالمسدسات، وستقفان على بعد خمس وعشرين خطوة أحدكما عن الآخر، ويتقدم كلّ منكما خمس خطوات لتغدو المسافة بينكما خمس عشرة خطوة، ويحق لكل منكما اطلاق ثلاثة عيارات فقط، وتتعهدان، مهما حدث، أن يبقى كل منكما في مكانه. سنقوم بحشو مسدسات خصمك، وسيقوم شاهداه بحشو مسدساتك واختيرت الأسلحة من قبل

(١) - هي جادة الإيطاليين حالياً.

الشهود الأربعة مجتمعين في متجر سلاح، وكن واثقاً أننا أردنا الاعتماد على الحظ، فاخترنا مسدسات من تلك المستعملة في سلاح الفرسان».

كانت الحياة قد غدت بالنسبة للوسيان كابوساً، ولم يعد مبالياً بالعيش أو الموت وبدا وهو المستعدُّ للانتحار بمظهر الشجاع المقدام في أعين الشهود، وبقي في مكانه. وعُدّت هذه اللامبالاة تخطيطاً مدروساً من قبله، واعتبر الشاعر قوياً جداً. وتقدم ميشيل كرستيان حتى المكان المحدّد له، وأطلق الخصمان النار في وقت واحد، إذ حكم بأن إهانتيهما متعادلتان. مرّت طلقة كرستيان قرب ذقن لوسيان الذي ارتفعت رصاصته عشرة أقدام عن رأس خصمه، واستقرت رصاصة ميشيل الثانية في ياقة معطف الشاعر التي كانت لحسن الحظ مبطنة ومحشوة بلباد ثخين، وتلقى لوسيان الرصاصة الثالثة في ثديه وسقط.

سأل ميشيل: «هل مات؟».

قال الجراح: كلا، سينجو.

أجاب ميشيل: بئس المصير.

ردّد لوسيان: أوه! نعم، بئس المصير. وانسكبت عبراته.

عند الظهر كان هذا الفتى المسكين في غرفته وسريره، ولزمت خمس ساعات من العناية والاهتمام لنقله، ورغم أن حالته لا تنذر بالخطر فإنها تتطلب أخذ الحيطة، فالحمى يمكن أن تسبب له مضاعفات مؤسفة. وكبتت كورالي قنوطها وأحزانها وقضت الليالي إلى جانب خليلها المصاب وهي تراجع مع برنيس أدوارها، ولزم لوسيان السرير شهرين وكانت المخلوقة التعيسة تقوم بأدوار تتطلب المرح أحياناً بينما نداء حسّها الداخلي يهتف بها: «قد يموت حبيبي لوسيان في هذه اللحظة!».

قام بيانشون بالعناية بلوسيان طوال تلك المدة: والشاعر مدين بحياته لذلك الصديق المخلص المتضايق من جحوده، لكن دارتز أطلعه على سر زيارة لوسيان له

مبرراً موقف الشاعر التعيس، وقد تمكن بيانشون بعناء من إنقاذه بعد إصابته بحمى عصبية ذات خطر كبير، وسأله بعد زوال الحمى لاعتقاده بأن شهامة دارتز هي الدافع لتبرير موقف لوسيان فأكد له الشاعر بأنه لم ينشر عن كتاب دارتز إلا المقال الجاد الرصيد المصحح المدرج في صحيفة هكتور مرلن.

عند نهاية الشهر الأول من إصابة لوسيان أعلنت دار نشر فندان وكاڤاليه إفلاسها، وطلب بيانشون من الممثلة أن تكتم هذه الطعنة المريعة عن لوسيان، فرواية نبال شارل التاسع الشهيرة، التي نشرت تحت عنوان غريب، لم تلق أي نجاح، وقام فندان من أجل الحصول على بعض المال قبل إعلان الإفلاس، ودون علم شريكه، ببيع هذا المؤلف بالجملة للعطارين الذين باعوه بدورهم بسعر بخس للباعة المتجولين، وكان كتاب لوسيان في ذلك الوقت يملأ متاريس الجسور وأرصفة ضفاف السين في باريس. وكانت مكتبة ضفة الأوغستينيين قد اشترت كمية من نسخ هذه الرواية فتعرضت بذلك لخسارة مبلغ معتبر عقب التدني المفاجىء لسعر الكتاب: إذ أنها اشترت الأجزاء الأربعة من قطع ١٢ بسعر أربعة فرنكات ونصف وهي مضطرة لبيعها الآن بخمسين فلساً، فالتجارة أطلقت صيحات الاستنكار، بينما لزمت الصحافة الصمت العميق، ولم يكن باربيه قد توقع هذه التصفية، وكان مؤمناً بموهبة لوسيان خلافاً لعاداته، وجازف بشراء مئتي نسخة، وأثار جنونه توقع الخسارة، وأطلق الشتائم على لوسيان، لكنه لجأ إلى مجازفة جريئة" فوضع النسخ في زاوية من مخزنه بعناد يتميز به البخلاء، وترك زملاءه يتخلصون مما لديهم بسعر بخس، وفيما بعد، وخلال العام ١٨٢٤، ولما أعادت مقدمة دارتز للكتاب قيمته الأدبية، ومقالان أعدهما ليون جيرو عنه، القيمة الحقيقية لهذا المؤلف، باع باربيه نسخه، بالمفرق واحداً بعد الآخر بسعر عشرة فرنكات للنسخة. ورغم احتياطات برنيس وكورالي، تعذر منع هكتور مرلن من الحضور لرؤية صديقه المصاب، وجرعه نقطة نقطةً كأس هذا الحساء المرّ، وهي كلمة استخدمتها المكتبة لوصف العملية المشؤومة

التي أجراها فندان وكاڤليه بنشرهما مؤلف كاتب مبتدىء[1]. ونشر مارتنفيل المخلص الوحيد للوسيان مقالاً رائعاً قرظ فيه الكتاب، لكن السخط لدى الليبراليين والملكيين على السواء ضد رئيس تحرير **أريستارخس***، **والعلم، والراية البيضاء** بلغ درجة من الحدة ضد جهود هذا الرياضي الذي كان يردّ على الشتيمة بعشرة أمثالها أضرت بلوسيان. ومامن صحيفة رفعت قفاز الحرب الكلامية، أيا كانت هجمات «المرحى» الملكية. وكانت كورالي وبرنيس وبتوجيه من بيانشون قد أغلقتا الباب ضد جميع من يدعون صداقة لوسيان، ويطلقون الصيحات العالية، ولكن تعذر عليهما إغلاقه أمام مأموري الحجز، فإفلاس فندان وكاڤاليه جعل سنداتهما واجبة الأداء بناء على أحد أحكام قانون التجارة الأكثر اعتداءً على حقوق الغير الذين يحرمون من حق الاستفادة من الصفقة المؤجلة. وهكذا وجد لوسيان في وضع يُلاحق فيه بشدة من قبل كاموزو، وعندما رأت الممثلة هذا الاسم أدركت المسعى الرهيب والمذل الذي اضطر الشاعر أن يقوم به من أجلها، فتضاعف حبها، وهي الفتاة الملائكية، للوسيان عشر مرات، ولم تشأ أن تستعطف كاموزو. وعندما جاء شرطيو التجارة ليقودوا المتهم إلى السجن وجدوه عليلاً في السرير، وتراجعوا عن فكرة سوقه، وذهبوا إلى كاموزو قبل أن يطلبوا من رئيس المحكمة تحديد مكان الرعاية الصحية الذي ينبغي وضع المدين فيه، وهرع كاموزو إلى شارع القمر. ونزلت كورالي ثم صعدت ومعها السندات التي أشر على ظهرها اعتبار لوسيان

---

(١) - في نهاية العهد الامبراطوري حصل التجار على ترخيص باستيراد المواد الغذائية التي غدت قليلة على القارة، من انكلترة، بشرط التصدير إليها منتجات دور النشر غير المباعة، وقدّر بنحو عشرين مليون فرنك كتباً عمل التجار المصدّرون على رميها من السفن وسط بحر المانش ومن هنا جاء تعبير الحساء.

(*) - أريستارخس: اسم يوناني اشتهر عالمان حملاه: أريستارخس الساموسي (٣١٠ - ٢٣٠ق.م) فلكي، وهو أول من قال بدوران الأرض حول نفسها وحول الشمس وأريستارخس الاسكندري: نحوي وناقد (٢١٥ - ١٤٣ق.م) وهو مثال الناقد الحازم. أطلق مارتنفيل هذا الاسم على مجلته.

(ملاحظة المترجم)

تاجراً. كيف أمكنها أن تحصل على هذه السندات من كاموزو؟ أي وعد قطعته على نفسها؟ حافظت على صمت مطبق لكنها صعدت شبه ميتة، وقامت كورالي بالتمثيل في مسرحية كميل موبن وساهمت كثيراً في إنجاح هذه الخنثى الأدبية المشهورة، وكان خلق هذا الدور آخر شرارة لهذه الشعلة الوهاجة الجميلة. وأثناء العرض العشرين لهذه المسرحية، وكان لوسيان قد وصل إلى دور النقاهة وبدأ ينهض من السرير ويتنزه قليلاً، ويتناول طعامه بنفسه، ويتحدث عن استئناف أعماله، أصيبت كورالي بالمرض، كآبة خفيفة أخذت تنهش بدنها، وظنت برنيس - وربما كان ظنها في محله - أن سيّدتها رغبة في إنقاذ لوسيان قد تكون وعدت كاموزو بالعودة إليه. كما أنها قُهرت لإعطاء دورها لفلورين، فناتان أعلن الحرب على الجيمناز إن لم تحل فلورين محل كورالي، وبلعب الأخيرة دورها حتى اللحظة الأخيرة خشية أن تنتزعه منافستها، ولتسديد السُّلَف التي قدمها صندوق المسرح لها خلال مرض لوسيان، فإنها تجاوزت مدى تحملها وأفرطت في استعمال قواها: ولوسيان رغم إرادته الطيبة، ورغبته في العودة إلى العمل مايزال غير قادر عليه، عدا عن انصرافه إلى الاهتمام بكورالي رغبة في طمأنة برنيس وهكذا كاد هذان الخليلان يصلان إلى حافة الشقاء المطلق لولا حسن حظهما بوجود بيانشون الطبيب الماهر الوفي الذي وفر لهما عدا معالجته المجانية، إمكان شراء الأدوية ديناً من إحدى الصيدليات. وعرف الممونون وصاحب المنزل بضائقة كورالي ولوسيان، وكذلك الخياط والخياطة، وهم لايخشون الصحفيين، فلاحقوا هذين البوهيميين إلى أبعد حدّ، وحجزوا أثاثهما، ولم يَعد يمكنهما الاستدانة إلا من الصيدلي ولحام الخنزير، واضطر لوسيان وكورالي وبرنيس خلال أسبوع تقريباً على التغذي بلحوم الخنزير بأشكالها المبتكرة والمتنوعة وبعضها ذات طبيعة تسبب الالتهابات مما زاد من علّة الممثلة. ودفعت الفاقة لوسيان للبحث عن لوستو هذا الصديق القديم، بل هذا الخائن، علّه يسدّد له الألف فرنك

التي استدانها منه. وكان هذا المسعى وسط همه وشقائه، أصعب مساعيه، فلوستولم يعد يستطيع العودة إلى غرفته في شارع القيثارة، وكان ينام عند أصدقائه، فهو ملاحق مطوّق مثل أرنب بري، ولم يستطع لوسيان العثور على مقدمه المشؤوم إلى العالم الأدبي إلا في مطعم فليكوتو، وكان لوستو يتناول عشاءه على ذات المائدة التي سبق للوسيان أن التقى به عليها لتعاسته، في اليوم الذي ابتعد فيه عن دارتز. ودعاه لوستو إلى العشاء، وقبل لوسيان دعوته ثم خرجا معاً وبصحبتهما كلود ڤينيون، والرجل الكبير المجهول الذي كان يرهن ثيابه لدى سامانون، وأراد الأربعة أن يذهبوا إلى مقهى فولتير لتناول القهوة، ولو جمعت النقود في جيوب هؤلاء الأربعة لما بلغت ثلاثين فلساً، وراحوا يتسكعون في اللوكسمبورغ على أمل أن يلتقوا فيها بأحد الكتبيين، وصادفوا في الواقع أحد أشهر طباعي ذلك الزمن فطلب منه لوستو إقراضه أربعين فرنكاً قدّمها الطباع له، وزّعها لوستر بالتساوي بينه وبين رفاقه. كان البؤس قد أطفأ كلّ عزة نفس وكلّ عاطفة لدى لوسيان، فبكى أمام الفنانين الثلاثة وهو يقص عليهم الحالة التي وصل إليها، لكن كلّ واحد منهم كان في وضع أكثر سوءاً من وضعه: وعندما شرح كلّ رفيق مأساته، وجد الشاعر نفسه أقل الأربعة تعاسة. وهكذا كان الجميع بحاجة إلى نسيان مصيبتهم وتفكيرهم الذي يضاعف المصيبة. وهرع لوستو إلى الپاليه رويال ليقامر بالتسعة فرنكات التي بقيت معه، وذهب الكبير المجهول، رغم أن له خليلة فاتنة إلى منزل حقير مشبوه ليغرق في حمأة الملذات الخطرة. وذهب كلود فينيون إلى مطعم صخرة كانكال الصغيرة[1] وهو ينوي أن يتخلى عن عقله وذاكرته أمام زجاجتين من نبيذ بوردو، وترك لوسيان كلود فينيون على باب المطعم معتذراً عن مشاركته في سكرته، وكانت يد رجل المقاطعة الكبيرة الممدودة لمصافحة الصحفي الوحيد الذي لم يُعادِه مرفقة بانقباض صدر كبير.

---

(١) – مطعم صخرة كانكال الصغيرة: هو مطعم في شارع فوسيه سان جرمن، وهو غير مطعم صخرة كانكال الفخم لشهير في شارع مونتورغوي.

سأل لوسيان: «ماذا أفعل؟»

أجاب الناقد الكبير: إذا الحرب هبت، فهبوا لها. إن كتابك قيم، لكنه كوّن لك حساداً كثيرين، وصراعك سيكون طويلاً وصعباً. إن العبقرية مرض رهيب، وكل كاتب يحمل في قلبه غولاً مماثلاً للدودة الشريطية في الأمعاء. يفترس العواطف عند تفتحها فيه. من سينتصر؟ مرض الإنسان، أم إنسان المرض؟ بالتأكيد الإنسان الكبير وحده هو القادر على إقامة التوازن بين نبوغه وطبعه. عندما تكبر الموهبة يجف القلب. ستبقى دون قلب أو دون موهبة إلا إذا كنت جباراً أو ملكت على الأقل كتفين مثل كتفي هرقل. أنت نحيف ونحيل، ستنهار.

أضاف الناقد هذه الكلمات وهو يدخل إلى المطعم.

عاد لوسيان إلى المنزل وهو يفكر بهذه الأقوال الرهيبة التي تعبّر حقيقتها العميقة عن وضع الحياة الأدبية.

سمع صوتا في أعماقه يناديه: «المال!».

هيّأ بنفسه وباسمه ثلاثة سندات، كلاً منها بألف فرنك يستحق الأوّل بعد شهر والثاني بعد شهرين والثالث بعد ثلاثة أشهر، وقلد باتقان تام توقيع دافيد سيشار، وظهرها وأخذها في اليوم التالي إلى متيقيه، تاجر الورق في شارع سربنت الذي حسمها له دون أيّة صعوبة، ووعده وفقاً لعادته، أن يسدِّد عند الاستحقاق. وقام لوسيان بتسديد ديونه وديون كورالي، وبقي معه ثلاثمئة فرنك وضعها بين يدي برنيس، طالباً منها أن ترفض إعطاءه أي فلس إن طلب منها نقوداً: فهو يخشى أن تستبد به شهوة المقامرة. واستثار غضب قاتم، وبارد سكوت لوسيان، فبدأ يكتب أمتع مقالاته على ضوء مصباح وهو ساهر قرب كورالي. كان والأفكار تجول في رأسه ينظر إلى تلك المخلوقة المعبودة، البيضاء مثل البورسلين، الجميلة جمال المحتضرات، تبسم له بافترار شفتين شاحبتين، وتتأمله بعينين لامعتين وأعين جميع

أولئك النسوة اللواتي يرزحن تحت المرض والحزن. وأرسل لوسيان مقالاته إلى الصحف، وبما أنه لم يستطع الذهاب إلى المكاتب ليرهق رؤساء التحرير فإن المقالات لم تنشر، وعندما قرّر الذهاب إلى مكتب صحيفة تيودور غايار الذي سبق له أن أعطاه سلفة، واستفاد فيما بعد من هذه الجواهر الأدبية، استقبله ببرود قائلاً:

«انتبه إلى نفسك ياعزيزي! لم تعد صافي الذهن، لاتكن فاتر الهمة ونشِّط قريحتك!».

هتف فليسيان ڤرنو ومرلن وجميع أولئك الذين أبدوا كرههم له عندما كانت تذكر سيرته لدى دوريا أو في صالة الڤودفيل: «هذا البائس لوسيان لم يكن لديه إلارواياته والمقالات الأولى في سريرته، أما الآن فهو يرسل لنا أشياء يرثى لها.

ليس لديه شيء في سريرته: عبارة مخصصة في اللغة الاصطلاحية للصحافة، وتُعَدُّ قراراً مطلقاً يصعب نقضه عندما نحكم به. هذه الكلمة التي شاعت في كل مكان عن لوسيان قتلته، دون علمه، عدا عن أنه يعاني من متاعب تفوق قواه. ففي خضم أعماله المرهقة، لوحق من أجل سندات دافيد سيشار، ولجأ إلى خبرة كاموزو، وكان صديق كورالي القديم شهماً في حمايته للوسيان، ودام هذا الوضع المريع قرابة شهرين توشّى خلالهما بالعديد من الأوراق الرسمية المدموغة التي أرسلت بناء على توصيات كاموزو إلى المحامي ديروش وهو صديق لبيكسيو وبلونده ودي لوپو.

في بداية شهر آب قال الطبيب بيانشون للشاعر إن حالة كورالي الصحية غدت ميؤساً منها ولن تبقى إلا بضعة أيام على قيد الحياة، وقضى لوسيان وبرنيس تلك الأيام المشؤومة في البكاء، دون أن يستطيعا إخفاء دموعهما عن تلك الفتاة المسكينة التي ضَحَّت بحياتها من أجل لوسيان. وفي ردة غريبة طلبت كورالي من لوسيان أن يأتيها بكاهن، فقد أرادت الممثلة أن تتصالح مع الكنيسة وأن تموت بسلام وبنهاية حياة مسيحية، وكانت ندامتها صادقة. هذا الاحتضار وذلك الموت أتما تجريد لوسيان

من قوته وشجاعته، وبقي الشاعر في يأس كامل، جالساً على كنبة قرب سرير كورالي ونظره مثبت عليها، لا يحيد عنها حتى اللحظة التي رأى فيها عيني الممثلة تدوران بين يدي ملك الموت. كانت الساعة آنذاك الخامسة صباحاً. وجاء طائر يخفق بجناحيه على أصص الأزهار الموجودة على الحافة الخارجية للنافذة وهو يشدو ببعض الألحان. وقبلت برنيس الجاثية يد كورالي التي أخذت تبرد تحت عبراتها، ولم يكن على حافة المدفأة إلا أحد عشر فلساً. وخرج لوسيان يدفعه القنوط ناصحاً بطلب الإحسان لدفن خليلته أو الذهاب ليجثو عند أقدام المركيزة دسبار، أو الكونت دي شاتليه، أو السيدة دي بارجتون، أو الآنسة دتوش، أو المتأنق الرهيب دي مارسي. لم يعد يحسُّ آنذاك بأية قوة أو كرامة. وهو مستعد أن يتطوع عسكرياً للحصول على بعض المال! كان يمشي بتلك الهيئة الخائرة والمنحلة التي يعرفها التعساء حتى وصل قصر كميل موپن، ودخل دون أن ينتبه للفوضى وعدم الترتيب في ثيابه راجياً أن تستقبله. . .

قال الوصيف: «نامت الآنسة في الساعة الثالثة صباحاً، ومامن أحد يجسر على الدخول إليها قبل أن تقرع الجرس.

- ومتى تقرع الجرس؟

- ليس قبل العاشرة.

كتب لوسيان عندئذ إحدى تلك الرسائل الفظيعة التي لايراعي فيها الأنذال المتأنقون شيئاً. كان في إحدى الأمسيات قد شكك بإمكانية هذه المهانات، عندما حدّثه لوستو عن طلبات قدمتها بعض المواهب الشابة لفينو، وجرفته ريشته، على الأرجح، عندها إلى مابعد الحدودالتي رمت المحنة فيها أسلافه. وعندما عاد محموماً معتوهاً عن طريق الجادّات دون أن يقدر التحفة الرهيبة التي أملاها القنوط عليه صادف باربيه، فقال وهو يمدّ إليه يده: «باربيه، ألا تمدُّني بخمسمئة فرنك؟»

أجاب الكتبي: كلا، بمئتين فقط.

- آه! إن لك قلباً كبيراً إذن.

- أضاف باربيه بعد أن قصّ عليه إفلاس فندان وكاڤاليه: نعم، لكن لي أعمالاً أيضاً، وقد سببت لي خسائر مالية ألا تهيئ لي إذن أرباحاً؟

ارتعش لوسيان، وتابع الكتبي:

«إنك شاعر، ويمكنك أن تنظم كل أنواع الشعر، إنني بحاجة إلى قصائد بذيئة الكلام لإدراجها مع بعض أغاني مؤلفين مختلفين كي لا ألاحق بتهمة التزييف ولأتمكن من أن أبيع في الشوارع مجموعة أغنيات جميلة بثمن النسخة عشرة فلوس. أرسل لي غداً عشرة أغنيات تلائم جلسات السكر والفخفخة والمؤانسة... وعندها... كما تعلم! سأعطيك مئتي فرنك.

عاد لوسيان إلى منزله: فوجد كورالي ممدّدة مستقيمة، متصلبة على سرير ميدان ضيق ملفوفة بغطاء رديء خاطته برنيس وهي تبكي، وقد أوقدت النورماندية البدينة أربع شمعات على زوايا السرير الأربعة، وقد التمعت على وجه كورالي تلك المسحة من الجمال التي تهيب بالأحياء عالياً معبرة عن هدوء مطلق. كانت تشبه تلك الفتيات اللواتي أصبن بمرض الاصفرار: تبدو خلال بعض اللحظات وكأن شفتيها البنفسجيتين ستتحركان ناطقتين باسم لوسيان. هذا الاسم الذي قرنته مع اسم الله قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة. وطلب لوسيان من برنيس أن تذهب إلى خدمة دفن الموتى لتكليفها بإجراء ترتيبات جنازة لاتكلف أكثر من مئتي فرنك بما فيها إقامة الصلاة الشعائرية للفقيدة في كنيسة بون - نوڤيل المتواضعة. وما أن خرجت برنيس حتى جلس الشاعر إلى طاولته قرب جثمان حبيبته المسكينة ينظم الأغنيات العشرة التي تتطلب أفكاراً منشرحة وأنغاماً شعبية، وكابد صعوبات خارقة قبل أن يتمكن من

العمل، لكنه انتهى إلى تنشيط قريحته أمام واقع الضرورة وكأنه لايعاني من أي ألم. فنظم أولاً أقوال كلود ڤينيون المأثورة عن التباعد الذي يتم بين القلب والمخ. أي ليل قضاه هذا الفتى المسكين منصرفاً إلى إجهاد الفكر في نظم أشعار تصلح لأهل المرح والنشوة[(١)]، وهو يكتب على ضوء الشموع إلى جانب الكاهن الذي يتلو الصلوات على جثمان كورالي! وفي صباح اليوم التالي، كان لوسيان قد أنهى أغنيته الأخيرة، محاولاً أن يضعها على نغم كان شائعاً في حينه، وراح يتمتم به لينسق وزن الأبيات على وقعه، وعندما سمعه الكاهن وبرنيس يغني[(٢)] خشيا أن يكون قد أصابه الجنون.

ياأصدقائي، مبادىء الأخلاق في الأغنية
تتعبني وتصيبني بالضجر
هل يجب التمسك بالعقل
عند تقديم الخدمة للجنون؟
من جهة أخرى فإن جميع اللازمات الموسيقية جيدة
عند تبادل الأنخاب مع خليّي البال
فابيقور يشهد

---

(١) - تحت اسم «المرح والنشوة» GOGUETTES: تشكلت جمعيات صغيرة شريبة مغنية في عدة أحياء من باريس وطوال عهدي الملكية الثانية وملكية تموز، وكانت المعارضة تصارع فيها مثل مصارعتها على الصفحة الأولى من الصحف الصغيرة، فتتناوب بذلك الأغنية الوطنية أو الهجائية مع ترديدات الأدوار المرحة الفاجرة.

(٢) - بتاريخ ١٤ تشرين ثاني ١٨٤٢ كتب بلزاك للسيدة هانسكا رسالة يذكر فيها أنه سيذهب بعد يومين إلى برانجه ليطلب منه إعادة صياغة هذه الأغنية. هل يعني ذلك أن برانجه هو واضع الأغنية؟ على كل حال بقيت الأغنية كما هي في الطبعة السابقة لذلك التاريخ.

فلِمَ السعي للتفتيش عن أبولون
عندما يكون باخوس ساقينا
لنضحك ! ولنشرب
ولنسخر من كل ما عدا ذلك
لكل شرَّاب عنيد، أبقراط
يعد بعمر مئة عام
فماذا يهمُّ بعد كل ذلك، ومع سوء الحظ
إن كانت الساق غير الثابتة
لاتستطيع أبداً أن تجدَّ في إثر الصبيَّة
فحسبنا أن نُفرغ القنينة
أليست اليد رشيقة دوماً؟
في اعتمادها على الدوام رضاعة حقيقية
ونحن نتبادل الأنخاب حتى سن الستين
لنضحك ! ولنشرب !
ولنسخر من كلّ ماعدا ذلك

هل تريدون معرفة من أين أتينا
الأمر بسيط جداً
ولكن معرفة إلى أين المصير

تتطلب مهارة كبرى

ودون أن نقلق، أخيراً

لنتمتع لعمري حتى النهاية

بالطيبة السماوية

فمن المؤكَّد أننا سنموت

لكن مالاريب فيه أننا نحيا

لنضحك ! لنشرب.

ولنسخر من كل ما عدا ذلك.

في اللحظة التي كان الشاعر ينشد فيها هذا المقطع الغنائي الأخير الرهيب، دخل بيانشون ودارتز فوجداه في أقصى درجات اليأس، تنهمر الدموع من عينيه سيولا، ولايملك القوة لتبييض أغانيه. وعندما شرح عبر النحيب، وضعه، و رأى الدموع تترقرق في أعين سامعيه.

- قال دارتز: «هذا يمسح كثيراً من الأخطاء».

- قال الكاهن برصانة: «سعداء أولئك الذين يلقون الجحيم على الأرض».

مشهد هذه الجميلة الميتة باسمة للخلود، ومنظر عشيقها يشتري لها قبراً بأشعار المجون وباربيه يدفع ثمن تابوتها، والشمعدانات الأربعة حول هذه الممثلة التي كانت تنورتها الباسكية وجواربها الحمراء ذات الزوايا الخضراء، تهز، بالأمس القريب، القاعة طرباً. ثم على الباب، الكاهن الذي صالحها مع الله. يتهيأ للعودة إلى الكنيسة ليقوم فيها بقداس الجناز لتلك التي أحبت بإخلاص! هذه العظائم وهذه الرذائل، وهذه الآلام المسحوقة تحت وطأة الحاجة جمدّت الكاتب الكبير، والطبيب الكبير،

اللذين جلسا دون أن يستطيعا النطق بكلمة. وظهر خادم على الباب يعلن مجيء الآنسة دي توش، أدركت هذه الفتاة السامية كل شيء، وتوجهت بسرعة إلى لوسيان تشدُّ على يده وتزلق فيها ورقتين نقديتين من ذات الألف فرنك.

قال وهو يلقي عليها نظرة محتضر: «قضي الأمر وفات الوقت».

لم يترك دارتز وبيانشون والآنسة دتوش لوسيان إلا بعد أن هدؤوا قنوطه بأعذب الكلمات، لكن جميع الحوافز كانت قد تحطمت لديه، وعند الظهر كان جميع أعضاء المنتدى عدا ميشيل كرستيان، الذي أخطأ سابقاً في إدانة لوسيان، قد حضروا إلى كنيسة بون - نوڤيل الصغيرة، وكذلك برنيس والآنسة دي توش، كما حضر ممثلان ثانويان من مسرح الجيمناز، ومساعدة كورالي في ارتداء ملابسها، وكاموزو السيئ الحظ. ومشى جميع الرجال في جنازة الممثلة حتى مقبرة الأب - لاشيز، وأقسم كاموزو، وهو يبكي بدموع حارة، للوسيان على أن يشتري أرضاً يشيد عليها قبراً دائماً ذا عُميد نقش عليه: كورالي، وتحت الاسم: ماتت في التاسعة عشرة من عمرها (آب ١٨٢٢).

بقي لوسيان حتى مغرب الشمس وحيداً على تلك الرابية، وعيناه تعانقان باريس، وهو يتساءل: هل بقي لي حبيب؟ أصدقائي الحقيقيون يزدرونني الآن، أي شيء كنت أفعله، وكلّ ما في كان يبدو نبيلاً لهذه التي في القبر الآن! لم يَعُد لي إلا أختي، وصهري دافيد، وأمي! ماراأيُهم بي الآن، هناك؟

عاد رجل المقاطعات الكبير البائس إلى شارع القمر، لكن تأثره لمرأى المنزل الفارغ بلغ درجة لم يستطع خلالها البقاء فيه، ولجأ إلى أحد الفنادق الحقيرة في الشارع ذاته وتمكن بفضل ألفي فرنك الآنسة دي توش وثمن أثاث البيت أن يسدّد

جميع ديونه وبقي معه مئة فرنك تمكن أن يتقوت فيها مع برنيس خلال شهرين قضاهما في خور مرضي: لم يستطع خلاله الكتابة أو التفكير، مستسلماً بلا مبالاة لآلامه حتى أن برنيس أشفقت عليه وهو يصيح حنيناً لأخته وأمه ودافيد سيشار، فسألته:

-إذا أردت العودة إلى مسقط رأسك، فكيف ستذهب؟

- قال: على الأقدام.

- مع ذلك يجب الأكل والمبيت في الطريق، وإذا مشيت اثني عشر فرسخاً في اليوم فيلزمك على الأقل عشرون فرنكاً.

- قال سأحصل عليها.

أخذ ثيابه وبياضاته الجميلة، ولم يحتفظ إلاّ بالأشياء الضرورية الماسة. وذهب يرهنها عند سامانون الذي لم يعطه على كل تركته إلا خمسين فرنكاً، ولم يلن المرابي رغم توسلات لوسيان لزيادة المبلغ لأنه يريد السفر في عربة أجرة. وفي غيظه، صعد محموماً إلى صالة فراسكاتي يجرب حظه، ونزل منها مفلساً. وعندما وصل إلى غرفته البائسة في شارع القمر طلب من برنيس أن تعطيه شال كورالي، وأدركت الفتاة الطيبة من نظراته، ومن اعترافه لها بخسارته في المقامرة ماينوي هذا الشاعر المسكين في قنوطه: إنه يريد الانتحار شنقاً.

قالت له: «هل أنت مجنون ياسيدي، اذهب وتنزه وعد في منتصف الليل، وسأكون قد حصلت لك على دراهمك ولكن ابق في الجادات، ولاتذهب نحو أرصفة النهر».

راح لوسيان يتسكع في الجادات، مخبولاً من الألم، ينظر إلى العربات والمارة، يجد نفسه عاجزاً، وحيداً وسط هذه الجموع المؤّارة، تلسعها سياط آلاف

المصالح الباريسية. وأحسّ وهو يتخيّل ضفتي نهر الشارنت بالظمأ إلى المسرّات العائلية، وانتابته عند إحدى هذه البوارق القوة التي تخدع جميع الطبائع نصف الأنثوية، ولم يشأ أن ينسحب من معركة الحياة قبل أن يكشف عن خفايا قلبه لقلب دافيد سيشار، ويستشير الملائكة الثلاثة الذين مازالوا على حبهم له. ورأى أثناء تسكعه برنيس في أجمل ثيابها تتحدث مع أحد الرجال في جادة بون - نوڤيل الموبؤة، حيث كانت تقف على زاوية تقاطع الجادة مع شارع القمر.

سألها لوسيان مرتاعاً من الشبهات التي دارت في رأسه من مظهر النورماندية: «ماذا تفعلين؟ قالت وهي تضع في يده أربع قطع من ذات الخمسة فرنكات: «هاهي عشرون فرنكاً، يمكن أن تكلّف غالياً، لكنها ستؤمن لك السفر».

وهربت برنيس دون أن يعلم من أين مرت، إذ يجب القول إنصافاً له إن هذه الدراهم أحرقت كفه، وكان يريد أن يعيدها لها، لكنه اضطر أن يحتفظ بها شاهداً على آخر وصمة عار من الحياة الباريسية.

◆ ◆ ◆

الفهرس

١٥٠٠ ط ١ /٨/ ٢٠٠١

هذه الرواية، التي تقارب أربعمئة صفحة، لا تتعلق بلوسيان، رجل المقاطعات الكبير، الوافد من المقاطعات بثيابه القروية المثيرة للسخرية إلى باريس عاصمة الارستقراطية والأناقة والموهبة، وحده، بل هي سجل كبير لشبيبة ذلك العصر شهداء المقاطعات، وللشرح الكبير الذي تتعرض له وسائل الإعلام وأجواء الأدب والثقافة من صحافة ومسرح ودور نشر ومكتبات ومنتديات أدبية وسياسية. ولوسيان يشكل حالة تطرح قضية. حالة رجل الموهبة الفقير الذي لا يجد ناشراً لكتابه أو ديوان شعره، ويريد أن يعيش من ريشته دون أن يتنكّر لمبادئه. مثله في ذلك مثل جميع أولئك الشباب التواقين إلى المجد الذين يعانون الشقاء ويقدم لهم الخبز على حساب زكائهم فيضطرون إلى الإذعان والرضوخ ليتلاءموا مع المصالح المالية والسياسية للصحيفة التي غدت ملاذهم الأخير نتيجة تعديل الاستثمار التجاري للأدب وتبنّي الصحافة للرواية المسلسلة وبذلك ارتبط مصير بعض الكتاب بمصير الصحافة ورؤوس الأموال المتحكمة بها وسياسة الحكومة في منح تراخيص جديدة للصحف أو حجبها والمناورات التجارية في بيعها وشرائها. كذلك ارتبط مصير المسرح والممثلين والممثلات بالصحافة الصغيرة وما يقدم لها من عمولات عينية أو نقدية وبالمصفقين المأجورين والكتّاب المرتشين وهكذا عمّ الفساد سوق الأدب والنشر ولم يسلم منه إلا نخبة من أصحاب الأفكار السامية المنضوين تحت لواء المنتدى الأدبي. أما لوسيان المتلهف إلى لقب دي روبمبره وانبعاثه النبيل فينتقل من الوسط الليبرالي إلى المعسكر الملكي ليغدو كبش فداء الحزبين ويخسر حبيبته وأصدقاءه كما يخسر شرفه بتزوير ثلاثة سندات على داڤيد صهره، ويغدو ذلك الرجل الهالك الهارب من ذلك الجحيم إلى مقاطعته.

الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشق ٢٠٠١

سعر النسخة داخل القطر

١٩٠ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل

٣٨٠ ل.س